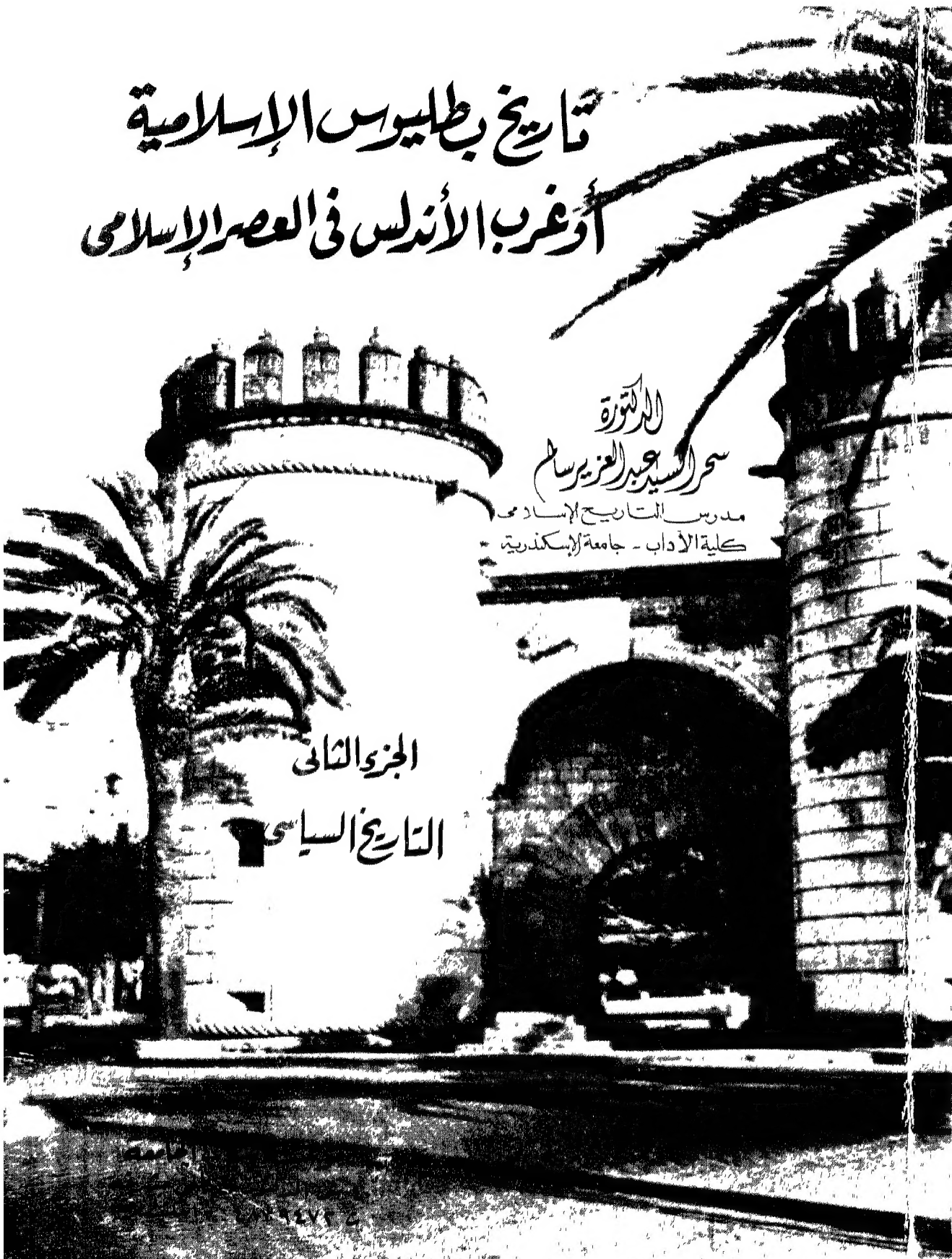


تاريخ بطليوس الإسلامية أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي

الدر الثمينة
سحر السيد عبد العزيز سالم
مدرس التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الجزء الثاني

التاريخ السياسي



تاريخ بطيوس الإسلامية أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي

الدكتور
سحر السيد العزير سالم
مدرس التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الجزء الثاني التاريخ السياسي

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش. الدكتور مصطفى مشرفة
ت ٤١٣٩٤٧٢ - الإسكندرية



وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون
صدره الله تطهير

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد : فقد توقفنا في الجزء الاول من التاريخ السياسى لبطلليوس الاسلامية عند نهاية دراستنا لعصر المظفر محمد بن الافطس ومكانته بين ملوك عصره ، وكنا نأمل أن ننم طباعة الجزء الثانى من الدراسة على أثر صدور القسم الاول منها ، ولكن ظروفنا غير موانية حالت آنذاك دون تحقيق ذلك ، ونحمد الله تعالى أن وفقنا في اكمال طباعته بدابة بما توقفنا عنده ، وهو عصر المتوكل على الله عمر بن الافطس (٤٦٠هـ - ٤٨٨هـ) حتى نهاية العصر الاسلامى لبطلليوس ، أى حتى سقوطها في أيدى اللبونيين سنة ٦٢٧ هـ ، وبهذا نكون قد استوفينا دراستنا للموضوع كله .

لقد حفل عصر المتوكل على الله ابن الافطس بكثير من الحوادث التاريخية الخطيرة ، أبرزها تعرض دويلات الطوائف في الاندلس لخطر السقوط، أمام الدفع السريع لحركة الاسترداد المسيحى La Reconquista في اعقاب سقوط مملكة طليطلة سنة ٤٧٨هـ في يد الفونسو السادس ملك قشتالة الذى تزعم هذه الحركة وفتح فاه لالتهام بقبة الدويلات الاسلامية ، وتطلع للسيطرة بعد طليطلة على كل من مملكتى بطليوس واشبيلية تمهيدا للقضاء على دويلات الطوائف الاخرى والاطاحة بالاسلام في الاندلس . وكان سقوط طليطلة نذيرا بالمصير السيئ الذى ينتظر ملوك الطوائف الامر الذى دفعهم الى الاستنصار بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين الفتية ، وتضافرت قوى المسلمين للتصدى لاسبانيا المسيحية ، التى تزعمها الفونسو السادس ، وجاء انتصار المسلمين على قوى المسيحيين في الزلاقة ٤٧٩هـ مخيبا لآمال الفونسو السادس الذى كان قد نصب نفسه بطلا لحركة الاسترداد .

وفي عصر دولتى المرابطين والموحدين تحولت بطليوس الى ثغر للجهاد ضد قوى النصرانية في شمال الاندلس ويمثلها الليونسون

والقشتاليون، وفي غرب الاندلس ويمثلها البرتغاليون ، في الوقت الذي تضافرت فيه هذه القوى للقضاء على الاسلام في الاندلس ، وشهدت بطليوس في عصر المرابطين صداما عسكريا ضاريا مع القشتاليين في موقعة الزلاقة الثانية سنة ٥٢٨ هـ حيث دارت معركة عنيفة انتهت بانتصار تاشفين بن علي بن يوسف على جيوش القشتاليين .

ان تاريخ بطليوس في الواقع هو تاريخ للاسلام في غرب الاندلس كله ، ولهذا فان سقوط بطليوس في أيدي الليونيين سنة ٦٣٠ هـ يسجل في حقيقة الامر سقوط غرب الاندلس كله .

ويعد فأرجو ان أكون قد انتهجت في دراستي لهذا التاريخ سبيل الصواب ، وأوضحت حقائق كانت مطموسة في هذا التاريخ ، وحققت الهدف الرئيسي من هذه الدراسة ، وأبرزت الدور الهام الذي اضطلعت به بطليوس الاسلامية مدينة ، وامارة ، وثغرا متقدما في الغرب الاندلسي ، وأسأل الله التوفيق .

الاسكندرية في ٦ مايو ١٩٩١م

دكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم

الفصل الرابع

بطليوس في عصر المتوكل على الله ابن الافطس

- ١ - مرحلة الانتقال من المظفر الى المتوكل
- ٢ - المرحلة الاولى من عصر المتوكل (٤٧٢هـ - ٤٧٣هـ)
- ٣ - المرحلة الثانية من عصر المتوكل (٤٧٣هـ - ٤٧٩هـ)
- ٤ - اطماع الفونسو السادس في مملكتى بطليوس واشبيلية
- ٥ - هزيمة الفونسو السادس في الزلاقة مع بطليوس
- ٦ - تحقيق موقع الزلاقة من اراضى بطليوس (ساجراخاس)
- ٧ - نهاية بنى الافطس اصحاب بطليوس

الفصل الرابع

بطليوس في عصر المتوكل بن الافطس

(١)

مرحلة الانتقال من المظفر الى المتوكل

توفى المظفر بن الافطس في سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧ م) في قول ابن
الابرار (١) ولكن بریتو ای فیفس Antonio Prieto Y Vives
يؤكد استنادا الى درهم يحمل اسم يحيى المنصور ، ابن المظفر
وخليفته ، مؤرخ في سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣ م) ان المظفر توفى في سنة
٤٥٦هـ (١٠٦٣ م) وان ولده يحيى المنصور هو الذى خلفه في هذا
التاريخ ، ولم يلبث يحيى أن توفى بدوره في سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧ م) ،
فانفرد أخوه الثانى عمر المتوكل بالحكم (٢) . ويأخذ الدكتور حسين
مؤنس بهذا الراى (٣) ، بينما يحدد الاستاذ محمد عبد الله عنان
تاريخ وفاة المظفر بسنة ٤٦١هـ (١٠٦٨ م) (٤) ، ونحن نميل الى ترجيح
التاريخ الاول سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧ م) لسنة الوفاة ونعتقد ان المظفر
اعتزل الحياة السياسية في سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٢ م) في أعقاب سقوط
مدينة قلمرية في يد فرذلند الاول ملك قشتالة وليون ، تاركا حكم مملكة
بطليوس الى ابنه يحيى الذى تلقب بالمنصور (٥) . ونستند في هذا

(١) ابن الابرار ، الحلة السيرة ج٢ ص ٩٧

(٢) Prieto y Vives (Antonio), los Reyes de Taifas, Madrid 1927, P 67.

ويستند في رايه على ثلاثة دراهم نقش على أحدها اسم الجاجب
يحيى وعلى درهم آخر اسم المنصور يحيى ، وتحمل سنوات
٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧هـ (١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ م) أما دراهم
المتوكل فتحمل سنوات ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥هـ (١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ،
١٠٧٢ م) واستنادا الى هذه التواريخ يؤكد أن سنة ٤٦٠هـ
(١٠٦٧ م) تسجل تاريخ وفاة يحيى المنصور ، ثم أصبحت تحدد
خطئا تاريخ وفاة أبيه المظفر (Prieto y Vives, op. cit. P. 137)

(٣) ابن الابرار ، المصدر السابق ، هامش ٢ .

(٤) محمد عبد الله عنان ، عصر الطوائف ص ٨٦ .

(٥) يؤكد ذلك القول ، قول ابن الابرار « وكانت وفاة المظفر سنة ستين

الراى على حقيقتين : الاولى تاريخ سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣ م) الذى يحمله نقش درهم من الفضة ضرب باسم الحاجب يحيى (١) ، وتاريخ سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٤ م) الذى يحمله نقش درهم ضرب باسم « موفق بالله المنصور يحيى (٢) » .

والثانية صمت المصادر العربية عن ذكر اسم المظفر منذ سقوط قلمرية حتى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧ م) ، ونرجح ايضا أن يكون النزاع القائم بين المنصور يحيى الذى خلف أباه المظفر على مملكة بطليوس وبين أخيه عمر والى يابرة قد بدا فى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧ م) ، ولكنه اشتد ووصل ذروته فى سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨ م) استنادا الى رواية ابن حبان التى أوردها ابن بسام فى الذخيرة وجاء فيها « وقد ذكر ابن حبان بعض ما كان شجر بين المتوكل وأخيه فى ذلك الاوان فقال : « وفى صدر سنة احدى وستين نشأ من تلقاء ثغر غربى الاندلس المتخور عارض هم ضاعف الاشفاق ، واكد التوقع بانكشاف فى خبر الاختلاف الواقع بين أميريه : يحيى وعمر ابنى المظفر بن الافطس (٣) » . ومما يعزز رأينا فى ان يحيى انفرد بالملك دون أخيه وتلقب بالمنصور ، وبالحاجب موفق بالله المنصور يحيى ، بينما تولى أخوه عمر (المتوكل) حكم يابرة ان ابن بسام يروى أنه قدح فى المتوكل ايام سلطانه بيابرة بمجلس المنصور يحيى أخيه ، فكتب عمر اليه يدفع عن نفسه ما اتهم به ، ونسندل من صوغ الرسالة واسلوبها انها موجهة من أمير الى أمير أعلى فى المكانة او ملك ، او من أخ أصغر الى أخ أكبر ، فمنها قوله « . . . غير أنه جرى فى ناديك - لازال معمورا بمعاليك - اننى ابيع الاحرار والحرائر ، واستصغر المعاصى والكبائر ، والله نزهنى عن هذا وابعدنى

واربعمائة ، فولى بعده ابنه يحيى بطليوس وتسمى بالمنصور (ابن الابار ، الحلة السيرة ، ح ٢ ، ص ٩٧)

Prieto Y Vives, op. cit. P. 223 (١)

4) Ibid, P. 223 (٢)

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ مجلد ٢ ، ص ٦٥٠ .

عنه ، فلا فدره لبشر أن ينيطه بى ، ويدنينى منه (١) « ثم اتى ببعض أبيات من الشعر فذكر منها :

فما بالهم لا انعم الله بالهم	ينيطون بى ذما وقد علموا فضلى
يسيئون فى القول جهلا وضلة	وانى لارجو أن يسؤهم فعلى
طعام لثام أو كرام بزعمهم	سواسية ما اشبه الحول بالقبل
لئن كان حقا ما اذاعوا فلاخطت	الى غاية العلياء من بعدها رجلى
ولم الت اضبافى بوجه طلاقة	ولم امنح العافين فى زمن المحل
وكيف وراحي درس كل غريبة	وورد التقى شمى وحرب العدا نقلى

الى قوله :

فيا ايها الساقى اخاء على النوى	كؤوس الفلى مهلا رويدك بالعل
لنطفىء نارا اضمرت فى نفوسنا	فمئلى لايقلى ومثللك لا يقلى
الست الذى اصفاك قدما وداده	والقى البك الامر فى الكثر والقل
وصيرك الذخر الغبيط لدهره	ومن لى ذخرا غيرك اليوم لامن لى
وقد كنت تشكينى اذا جئت شاكيا	فقل لى لمن اشكو صنيعك بى قل لى (٢)

واذا كان النزاع بين الاخوين قد اشتد فى صدر سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) حسبما اورده ابن حيان المؤرخ الثقة ، فمن الواضح اذن ان يكون يحيى المنصور حيا فى هذا التاريخ ، وعلى هذا الاساس لايمكن الاخذ برأى بريتو اى فيفس ، والارجح فى رأينا أن يكون النزاع قد بدأ بين الاخوين فى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧ م) بعد وفاة ابيهما المظفر ، وربما ظهرت بوادره فى حياة المظفر ، ثم اشتد وعظم فى سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨ م) بعد قيام المتوكل عمر بالثورة على أخيه المنصور يحيى ، وترتب على هذا النزاع اقدام المتوكل على سك عملات باسمه ، وهذا

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٤٨ ، ٦٤٩ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٤٩ .

يفسر العثور على ذراهم باسم المتوكل ضربت في سنة ٤٦٠ هـ ، ٤٦١ هـ ، ٤٦٥ هـ (١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٧٢ م) ونميل الى الظن بأن يحيى المنصور توفى في نفس عام ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) فخلا الجو لعمر المتوكل الذى انفرد بمملكة بطليوس ، وحصلت له جميع بلاد ابيه ، واحتل حاضره بطليوس ، وجعل ابنه العباس فى يابورة « (١) » .

وفى رأينا أن المظفر لم يمثل ما فعله جاره أبو الوليد محمد بن جهور صاحب قرطبة الذى قسم الرئاسة بين ولديه (٢) ، وانما آثر أن يسند أمور الدولة كلها الى ولده يحيى الذى تلقب بالمنصور ، بينما ترك ولاية يابرة لابنه عمر ، وعلى هذا الاساس لم يكن ثمة تقسيم فى الرئاسة بين الاخوين يحيى وعمر (٣) ، على نحو ما حدث فى قرطبة ، واستمر الوضع على هذه الصورة طوال حياة المظفر ، وان كانت هناك بعض السحب أخذت تظهر فى الإفق وتفسد ما بين الاخوين الى أن توفى المظفر فى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) ، وانفرد يحيى بأمر بطليوس ، وعندئذ بدأ النزاع بينهما ، والخلافات بين الاخوة من الأمور السائسة فى حوادث العصور الوسطى الإسلامية والمسيحية على السواء ، ولم يلبث هذا النزاع أن استفحل فى سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) (٤) ، بحيث أصبح لكل من الاخوين مبطلون ومزمررون فى الداخل والخارج ، وظهر الأمر فى لحظة ما ، وكأنه نزاع على مناطق نفوذ بين الاخوين او كما لو أن تقسيما فى المملكة البطليوسية قد وقع بالفعل ، وهذا ما يمكن

-
- (١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٥١
 (٢) قسم أبو الوليد رئاسة قرطبة بين ولديه عبد الرحمن وعبد الملك فأخذ كل منهما يستميل طائفة من الجند ، ويصطنع لنفسه من الرعية أنصارا ، ولم تلبث العلاقات ان توترت بين الاخوين ، وأصبح كل منهما يتربص بالآخر ، وكان ذلك من العوامل الرئيسية التى أطاحت بدولة بنى جهور (راجع د. السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الاموية بالاندلس ، ج ١ ، ص ١٣٣) .
 (٣) Manuel Albarran, el solar de los Aftasies, P. 35
 (٤) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٥٠ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٨٤ .

ان يبنوا الى الذهن اذا قرأنا العبارة الثالثة لابن حيان « واكد التوقع بان كانت سبب الاختلاف الواقع بين اميريه ، يحيى وعمر ابني المظفر ابن الاندلس »^(١) ، او عبارة ابن الخطيب : « ولما توفى المظفر رحمه الله ولى الامر بعده ولده عمر ويحيى »^(٢) .

استغل اذفونش السادس بن فرذند Alfonso VI ملك قشتالة ولبون هذه الفرصة ، وسعى الى اشعال نار الفتنة والتضريب بينهما نهاية في المسلمين ، فبدأ يطالب يحيى صاحب بطليوس وخليفة المظفر بزيادة الاتاوة السنوية التي كان يدفعها اليه المظفر بوساطة المأمون بن دى الامر ، فلما يحيى بالمأمون وطلب من اندته على نحو ما كان يحدث في عهد ابيه ، حينما مال عمر المتوكل الى المعتمد بن عباد ، ولم يابث النزاع بين الاخوين ان تدخل الى فتنة عارمة اضطلت بها اليا ، وعانت من ولايتها الرعية ، واضابت اهل المملكة البطليوسية بلذاتها .

وكان الفرندو السادس ، كما سترضح في ذيل الرسالة ، طامعا في ان يكون النحل الذي سينم على يديه تحرير كل بلاد الاندلس من المسلمين ، وهذا السبب تلقى في سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٧ م) بلقب امبراطور كل اسبانيا Imperator de toda Espana^(٣) .

وما عادت تصله الانباء بالخلاف الناشب بين ولدى المظفر حتى

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٤ .

(٣) Aguado Bleye, Manual de Historia de Espana, p 599 .

الكردوبوس في كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء ان
الاسباني انتحاء الحيايرة ، وانزل نفسه منازل القياصرة ،
« وانه الاعجاب بما احتقر به كل ماش على التراب ، وتسمى
بالامبراطور ، وهو بلغتهم امير المؤمنين ، وجعل يكتب في كتبه
الامارة عنه (بعد استيلائه على طليطلة) من الانبراطور ذى
الملنين » (تاريخ الاندلس لابن الكردوبوس ، تحقيق الدكتور احمد
مختار العامري ، ١٩٧١ ، ص ٨٨ ، ٨٩) .

عمد الى استغلاله وتوسعته للغاية ليكسب من ورائه مكاسب سياسية تسهل له مهمته في توسيع مملكته على حساب اراضي بطليوس . فبدأ يضغط على المنصور يحيى بن الافطس صاحب بطليوس كما رأينا ، ويطلب منه ان يزيد في مقدار الجزية (١) التي كان يدفعها ابوه المظفر ، فلما اعتذر يحيى بعدم قدرته على تدبير ذلك القدر من المال ، انتهر الفونسو فرصة الظروف الميئة التي تمر بها البلاد الافطسية من اضطرابات عنيفة الى جانب ما لمسه من ضعف يحيى المنصور ، واخذ يشن سلسلة من الهجمات على مملكة بطليوس (٢) ، فأصاب عددا من الحصون والمدن . وفي هذه الاثناء كان يحيى المنصور قد استعان بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة ، بينما استعان المتوكل بالمعتمد بن عباد ، وحاول الاخوان امام الوضع المتفجر في البلاد ان يعقدا فيما بينهما هدنة لمواجهة الضربات القاسية التي وجهها اليهما اذفونش (الفونسو السادس) ، ولكن الهدنة كانت رمادا على دخن ، فسرعان ما اشعلت السعيات بين الاخوين نار العداء بينهما ، فتجددت الفتنة ، واحتدمت نيران الحرب ، بعد ان خبت فترة من الوقت ، الى ان انقذ الله هذه المملكة التعسة بوفاة المنصور ، فوضعت حدا لهذه الحرب الاهلية .

واذا اردنا ان نقوم عصر يحيى المنصور بن المظفر من الوجهة السياسية يتبين لنا انه عصر الاضطرابات والفوضى وعدم الاستقرار في تاريخ مملكة بطليوس ، لعدة اعتبارات ، نذكر من اهمها الصراع الذي

(١) هي الاتاوة التي كان المظفر بن الافطس قد اضطر الى دفعها لفرذلند الاول حين عقد معه الهدنة في وادي تاجه على مقربة من شنترين ، وقد بلغ قدرها خمسة آلاف دينار (ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٣٨) وكان المأمون بن ذى النون كما هو موضح في نص ابن حيان قد تدخل عند فرذلند لصالح ابن الافطس ليقبل منه هذه الهدنة في مقابل الاتاوة المذكورة على ان يرحل بجيوشه عن شنترين ، وكان المأمون قد سبق ان قدم الهدايا والاموال لفرذلند الاول طمعا في ان يساعده في حربه ضد المستعين بالله بن هود صاحب طليطلة .

Lu's Suarez, Historia de España : Edad Med'a, P. 183.

(٢)

قام بين المنصور وبين أخيه المتوكل بعد أن نجح هذا الأخير في زعزعة سلطانه السياسى منذ اللحظة الاولى ، وبطبيعة الحال لنا أن نتصور حالة الفوضى والضياع التى عاشها الشعب البطلئوسى وقد تمزقت وحدة الدولة بين الاخوين المتصارعين فى البلاد . ومنها عيى الفونسو السادس . السادس ملك قشتالة وليون فى البلاد .

اما من حيث الحياة الثقافية فى مملكة بطليوس فنلاحظ انها بلغت فى ايام المظفر محمد حدا كبيرامن التالى والازدهار ، سيسمر فى عهد ابنه المتوكل عمر ان لم يكن سيزداد قوة وتالقا الى حد الانبهار .

وكل ذلك لايحمل سوى معنى واحدا هو ان الاضطراب السياسى الذى شمل البلاد فى عهد يحيى المنصور لم يكن له صدى عميق فى الحياة الثقافية المزدهرة ، او أنه لم يتجج فى اخمادها ولو لفترة قصيرة ، بالتاكيد لقصر فترة حكم يحيى المنصور ، بالاضافة الى الميول الادبئسة الواضحة فى شخصية المتوكل الذى تولى امارة بطليوس بعد وفاته . هذا التفكك السياسى المؤقت لم يستطع ان يؤثر فى مجرى الحياة العلمية والثقافية تأثراً ذا فعالية .

صحيح ان سنوات الاضطراب الداخلى سببت خروج عدد من الكتاب والادباء من مملكة بطليوس هروبا من شبح الحرب الاهلية ، ومنهم على سبيل المثال الشاعر الكاتب الوزير ابو محمد عبد المجيد بن عبدون اليابرى الذى خرج من بطليوس فى عهد المنصور يحيى مستوحشا منه ، ولحق باشبيلية ، ومن هناك كتب الى الوزير ابى بكر بن زيدون بهذه الابيات :

لك المخير من مثرى الئدين من العلا اذ تربت ائدى النوى والتطول
بما كان بين الماضئين من الذى اليه استنادى او عليه معولى
ولم تتمسك بالمؤئد لئى يد وهذ زهفت رجلى عن المتوكل (١)

(١) ابن بسلام ، الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٧١٠

كذلك وجه بعض الابيات الى بنى سعيد بن القبطورنة حين خرج منها مستوحشا نقرأ منها :

خلأى وفي قرب الصدور ظبا تقضى على قمم الدهور
وقد ضمت جوانحنا قلوبا ابت غير القصور أو القبور
إذا الكرماء نامت فوق ضيم فما فضل الكبير على الصغير
فقبل أبى الدنيا قيس عبس ولم يصغى الى قول المشير
ودلهنى فراق بنى سنجيد فما أدرى قبيلًا من دبير (١)

فلما ظفر المتوكل بحكم المملكة يعد وفاة أخيه المنصور ، عاد الى حضره المتوكل ببطلوريوس وانشده قائلا :

خصمت الظبا عنكم على أنها لد بقرع له فى كل بارقة رعد
بزرق بما خلف الضلوع بصيرة على أنها مما بكت حدق رمد
تركت لمن هز الاسنة رأيه وقتلت لغيري الخفض والعيشة الرغد (٢)
الا أن ذلك لم يؤثر تأثيرا عميقا على الحياة الادبية ببطلوريوس وان كنا لانستطيع ان نبرىء المنصور من مسؤولية الشلل الوقتى الذى اصاب الحياة الثقافية فى بطليوس فى تلك الفترة القصيرة ، وهذا امر طبيعى ، ولكن التأثير بالحوادث السياسية جاء طفيفا للغاية ، ربما كان من العسير التحقق منه ، فقد ذاعت قصائد أبى عبد الله محمد بن البين الشاعر البطلوريوس (٣) فى احد وزراء المنصور يحيى بن المظفر واسمه أبو الاصبع بن المنخر ، وكان قد وصله عليها بمائة مثقال (٤) .

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القدم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٧١١
(٢) المصدر السابق ، ص ٧١٠ .

(٣) هو أحد الشعراء العظام بمملكة بنى الافطس ، بحضرة بطليوس وفيه يقول ابن بسام : «أحد الشعراء المجيدين ، كان بحضرة بطليوس ، مستظرف الالفاظ والمعانى وكان بميل الى طريقة محمد بن هانىء» (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٧٩٩) ولزيد من الدراسة أرجع الى ابن سعيد الاندلسى «رايات المبرزين وغايات المميزين» تحقيق د. النعمان عبد المتعال القاضى ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٦٠ - المغرب فى حلى المغرب ، مجلد ١ ، ص ٣٧٠ .

(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، القدم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٧١١ .

(٢)

المرحلة الاولى من عصر المتوكل

لم يرد في المصادر العربية ما يشير الى تاريخ معين لوفاة المنصور يحيى ، ولكننا نرجح أن تكون وفاته قد حدثت في أواخر سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) أو صدر سنة ٤٦٢ هـ (١) ، ويوفاته خمدت نيران الحرب الأهلية ، وبادر عمر المتوكل باحتلال بطليوس حاضرة المملكة الافطسية ، وقتل ولده العباس (٢) ولاية يابرة التي كان يتولاها هو ، أي المتوكل من قبل (٣) .

ومن أشهر الجوادث السياسية التي جرت في عهد المتوكل حادثة دخول طليطلة في فلك دولة بنى الافطس ، وانتقال المتوكل اليها في سنة

-
- (١) ذكر الاستاذ محمد عبد الله عنان أن يحيى المنصور توفي فجأة في سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) ولا أدري علام استند سيادته فيما ذهب اليه ، إذ أن المصادر العربية لم تنص على تاريخ وفاته (أنظر عبد الله عنان ، عصر الطوائف ص ٨٧) . ويؤيد الاستاذ عنان في هذا التاريخ الدكتور عبد الرحمن على الحجى في كتابه التاريخ الماندلسي ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٣٩٧ .
- (٢) كان للمتوكل عمر بن الافطس من الابناء أربعة : العباس والفضل وسعد والمنصور ، أما العباس والفضل فقد قتلها المرابطون عقب دخولهم بطليوس في سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) واتبعوهما بابيهما ، وإما سعد فقد سجنه المرابطون بعد غلبتهم على أبيه المتوكل ، وقتلهم . إياه وابنيه العباس والفضل : وأما المنصور فقد فر من بطليوس وتحصن بحصن شانجش الواقع على مقربة من حدود قشتالة . وقد عرف العباس والفضل بالطيبة ، وعرف المنصور بالدهاء ، وكان كثير النصيح لابنيه ، أما سعد فلا نعرف عنه سوى أنه سجن فترة طويلة في سجن المثلثة (ابن الأبار ، الحلة السيرة ، مج ٢ ، ص ١٠٤) ، ومن الأمثلة الدالة على طيبة العباس مارواه ابن بسام في الذخيرة عن تهاونه في الاحتفاظ بطليحة بن عبيد الله في يابرة بعد أن أوصاه أبوه المتوكل بالتحفظ عليه ، الأمر الذي أثار غضب أبيه (راجع التفاصيل في ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الثاني ، المجلد الثاني ، ص ٦٥١) .
- (٣) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

٤٧٢هـ ، ومقامه بها نحو من عشرة اشهر (١) . حدث ذلك كله بعد احداث خطيرة مرت بها مملكة طليطلة ، وكان لها اكبر الاثر في مستقبل مملكة بطليوس .

كان يحكم طليطلة انذاك أميرها القادر بالله يحيى بن ذى النون حفيد المأمون يحيى (٢) . وكان المأمون قبل وفاته قد قسم أعمال الادارة في دولته بين وزيريه ابي سعيد بن الفرّج ، وابن الحديدى ، فجعل تدبير الاجناد والنظر في طبقات القواد الى سائر الشئون السلطانية والاعمال الديوانية الى ابي سعيد بن الفرّج ، اما بقية الاصدار والايراد والنظر لجماهير الناس والراى والمشورة الى الفقيه ابنى بكر بن الحديدى ، وكان قد نصّح حفيده ان يشد على ابن الحديدى كلتا يديه ، ولا يفتات بأمر من الامور عليه (٣) ، واخذ المواثيق الغليظة على ابن الحديدى (٤) ان يشد ازر حفيده ، ويعمل على تثبيت أمره .

وكان هذا الحفيد يحيى مضعفا كثير الحيلة ، خبيث الفكرة ، يتصاحبه مرض بمعدته قلما ينعش به ، واغرته طائفة سوء الغالبة على

-
- (١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ١٥١ .
 (٢) كان هشام بن المأمون بن ذى النون قد توفى في حياة أبيه ، وقيل أنه حكم بضعة اشهر ، ثم مات وهو قول لا يعتد به (انظر ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٧١) .
 (٣) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ص ١٥١ .
 (٤) هو يحيى بن سعيد بن احمد بن يحيى بن الحديدى من اهل طليطلة ، وكان متقنا فصيحاً فطنا مقدما في الشورى (انظر ابن بشكوال ، الصلة ٦٣٣) وفيه يقول ابن بسام « رجل كان له قدم واقدام ، وعنده قاضى وابرام » ، وكان قد ساند المأمون بن ذى النون ، وحفظ له ملكه من الضياع أيام كان غائبا في بلنسية ، ولهذا كان المأمون يراعى لابن الحديدى ، فوضع في حياته زمامه بيده ، واستخلفه بعد وفاته على بلده وولده « (ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٥١) . وفيه يقول ابن عذارى : « وكان اكبر اهل طليطلة رجلا يسمى ابا بكر بن الحديدى ، وكان شيخها والمنظور اليه من اهل العلم والعقل والدهاء وحسن النظر في صلاح البلد ، وكانت العامة تعضده وتقوم دونه » (ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٧٧) .

أمره بآبن الحديدي ، فعجل بتركته ، « وكان جده قد سكن ملكه ، وقرر أسبابه بسجن الطائفة من أهل طليطلة حثات الشرور ، وأسباب الفتى بأشارة ابن الحديدي ، فتنوسوا بالمطبق ، واطرد الخير بفقدهم » (١) .

ولم يلبث القادر بالله أن وقع تحت تأثير العبيد والموالى ، استغلوا فيه ضعف الشخصية وقلة الحنكة السياسية (٢) ، فأخذوا يوغرون صدره على وزيره ابن الحديدي ، « جماع أمره وفطنة تأييده ونصره » ، ويصورونه للقادر على أنه القيد الذي يحد من انطلاقه ويعوق من مد سلطانه (٣) .

كان هؤلاء الحاقدون قد قبض عليهم من قبل في أيام المأمون بن ذي النون بايعاز من ابن الحديدي خشية أن ينقلبوا على المأمون ، ويثيروا حوله الفتنة والاضطرابات ، فحققوا على ابن الحديدي كل الحق ، وكان أعظم خطأ وقع فيه القادر أنه أطلق سراحهم من سجن وبذة Ubeda ، وأدخلهم طليطلة سرا من بعض مداخله الخفية في ١٠ المحرم سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) ، واستعان بالقاضي ابن المشاط لاستدراج

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٧٩ - عبد الله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦٢ ص ٢٧٠ .

(٢) وفي ذلك يقول ابن الكردبوس : « فقام بالامر بعد اسماعيل بن ذي النون حفيده يحيى وتلقب بالقادر ، وكان ضعيف المنة ، قليل المعرفة ، ربي في أحجار النساء والدايات ، ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فملك أمره العبيد ، وحكم عليه كل خصي ومولود ، كل يدبر ملكه ، على إرادته ، وينفرد بوزارته ، فطمع في بلاده الرؤساء ، واحتقره القرناء والغرباء » . (ابن الكردبوس ، ص ٧٩) .

(٣) بعبير منندث بيدال عن ذلك بقوله : « ولم يكذ يتواري جثمان المأمون في جامع طليطلة حتى دفن معه مجد طليطلة ، وتلاشت قوتها ، تلك الدولة القوية التي طالما ظهرت في عصر الطوائف بمظهر الدولة الكبرى ، وشهدت فترات من الازدهار الحضارى لم تشهدها من قبل (انظر

Menendez - pidal, la España del Cid, t.I.P. 262).

ابن الحديدى الى القصر ، ثم اطلقهم عليه ، فقتلوه فى حضرته ، وبداخل
قصره ، ونهبوا دوره .

بعد هذه الجريمة الشنعاء توهم القادر انه تخلص من نير ابن
الحديدى ومن نفوذه ، فلم يكذب يتخلص منه حتى ادرك ان النير الحقيقى
هو وقوعه فريسة سهلة لينة فى يد هذه الجماعة الائمة الغادرة ، خصوم
جده القدامى ، الذين كانوا لا يزالوا يحقدون على الجد ، وتمثلوا
المؤمنون فى صورة حفيده القادر ، فبدأوا يعيشون فسادا فى كافة انحاء
مملكة طليطلة ليثيروا الناس على حكم بنى ذى النون ، ونجحوا فى
تحقيق هدفهم الدنىء . فبدأت اعراض الثورة تشتعل فى النواحي .

يضاف الى هذا طمع جيرانه من ملوك الطوائف فى بلده ، فكان
اول من طمع فيه المعتمد بن عباد الذى كان عدوا لجده ، وكذلك ابن
هود صاحب سرقسطة الذى لم يكن قد نسى بعد الحروب القديمة التى
شنها جده المؤمنون على اراضيه ، فعزم على ان يذيق القادر من نفس
الكأس التى اذاقه منها المؤمنون من قبل ، فاستعان ضده بقوى اسبانيا
المسيحية ، وتمكن من الاستيلاء على شنتبرية Santaver الواقعة
شمالى طليطلة . ثم واجه القادر بالله ثورة عاتية قام بها ابو بكر بن
عبد العزيز ببلنسية ، خلق فيها طاعة بنى ذى النون ، ونادى بنفسه
اميرا مستقلا ، ثم تحالف مع ابن هود بعد ان خطب ابنته ، وفى نفس
الوقت كادت كارثة ثالثة تحل بالقادر حيث ان شانجة راميرث ملك
ارغون كاد ان يستولى على قونكة Cuenca احدى مدن مملكة
طليطلة ، لولا ان افتداه اهلها بمبلغ كبير من المال (١) . وفى هذه الاثناء
سير القادر جيشه ، لمقاتلة ابن هود من جهة وراميرث من جهة اخرى ،
ولكن جنده تحت امرة الفتى البشير انصرفوا دون قتال .

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٠ ، محمد عبد الله عنان ،
دول الطوائف ، ص ٩٠ .

فلم يجد القادر بدا من التماس عون الفونسو السادس ملك قشتالة الذي انتهب هذه الفرصة فأخذ يعدد شروطه ومطالبه ، وكان ممنوعين الشروط أن يسلم له القادر بعض الحصون الطليطلية الواقعة على الحدود ، وتم تسليم هذه الحصون ، وهى حصون سرتيه Zorita وقنتورية Canturia وقناليس (١) . وهكذا . تجردت مملكة طليطلية من حصونها الامامية فى الوقت الذى كان اعداء القادر يخفرون له قبره فى الداخل ، ونجحوا فى اشعال نيران الثورة فى طليطلة عام ١٧٢٠م (١٠٧٩ م) ، وحاولوا اثناءها أن يغتالوه وينالوا منه ، ففر من المدينة ولاذ باحد حصونه الشرقية وهو حصن وبذة .

اصبحت طليطلة بعد هذه الاحداث بدون امير ، الامر الذى اشاع فيها الاضطراب والفوضى ، فتشاور اعيانها فيمن يحكمهم من بين ملوك الطوائف ، واستقر رأيهم على دعوة المتوكل عمر بن الافطس ، بعد ان رغبهم فيه ابو محمد يوسف بن القلاس البطليوسى (٢) ، وكانت له

(١) R. Menéndez Pidal, la España del cit, Vol. P. 263

ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ عنان كتب اسم مدينتين منهما محرفتين فكتب سرتيه Zorita على أنها سرتية ، وقنتورية Canturia فى صورة قنورية (انظر محمد عبد الله عنان)

عصر الطوائف ص ١٠٦) وفى ذلك يقول ابن بسام « وفغير الطاغية اذفونش ابن فرلند فمه على ثفوره المثفورة ، فجبيل لوقتة يطويها طى السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشيب فى الشباب ، وابن ذى النون يلقيه افلاذ كبده ، ويرجمه بسبده ولبده واذفونش لعنه الله لايقنع منه بصيد العنقاء ، ولابيض الانوف بل يكلفه احضار الابلق العقوق ، ويسومه درك الشمس ويطلبه برد امس ، فلما اكل الانفاق ثبح ماله ، واخذ الخناق ييكظم احتياله ، واحس العدو المشاق بذلك من حاله ، سما الى معاقلة المنية ، وذرى املاكه الرفيعة ، عدد الانام ، ودروب الاسلام ، فما راهنه منها عليه غلق ، ومارام اخذه من يديه لم يذركه نجته مرق » (ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، مجلد ١ ، ص ١٥٦) .

(٢) كان ابن القلاس البطليوسى رجلا داهية ، نهبت الفتنة القائمة بطليطلة على قدره ، فعرض عليهم بصاحبه المتوكل ، « واعرب لهم عن لين مكسره ، وضيق مسافة نظره ، واشتغاله باللذات عن اكثره » ، فرحبوا بقدمه اليهم (ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، مجلد ١ ، ص ١٥٩) .

عندهم مكانة مرموقة ، فاستجابوا لرأيه ، وأتاه سفيرهم في بطليوس بدعوة أهل طليطلة له ، فرفض المتوكل في بداية الأمر ما عرضه عليه ، ولكنه استجاب لمطلبهم في نهاية الأمر وهو كاره ، فانتقل إلى طليطلة ، وأخذ يحكمها ويدبر أمورها لمدة عشرة أشهر ، وفي هذه الأثناء كتب القادر بالله ، وقد ثاب إليه رشده ، إلى الفونسو السادس يذكره بصداقة جده المأمون له ، وإيوائه أيامه ، فلم يتردد الفونسو في سماع شكواه وأقبل معه إلى طليطلة ليعيده إلى عرشه ، وعندئذ قرر المتوكل ابن الأفتس أن يغادرها ، ، بعد أن حصل من أسلاب ابن ذى النون وذخائره على قسط وافر (١) تاركاً طليطلة بين ناب الطاغية أذفونش وظفره (٢) .

ولنا ملاحظة حول هذا الموضوع ، فالنص الذي اعتمدنا عليه في تاريخنا لهذه الأحداث هو نص ابن الخطيب الذي اختصره من رواية ابن حيان الواردة في الذخيرة ، ويدور حول انتقال عمر بن الأفتس من بطليوس حاضرتة إلى طليطلة حاضرة ابن ذى النون ، وفيه نطالع النص التالي « ولحق القادر ببعض حصونه ، وأقام أهل طليطلة بعده أياماً كالسائمة المهملية ليس عليهم أمير ، ولا فيهم بالصواب مشير ، إلى أن جنحوا إلى المظفر بن الأفتس من ملوك الطوائف على بعد داره ، وانتزاج أقطاره ، فجاءهم متثاقلاً كما قال المؤرخ : كودنا ساموه خصل سباق ، فدخل طليطلة عام ٤٧٢ هـ ١٠٠٠ » (٣) .

وفي هذا النص يشير ابن الخطيب إلى أن أهل طليطلة استنجدوا بالمظفر ابن الأفتس وهو خطأ واضح ، فالمظفر كان قد تولى منذ اثنتي عشر سنة وفقاً لما أشرنا إليه ، وقد أكد ابن الخطيب نفسه ذلك في موضع آخر من كتابه فقال « ولما توفى المظفر - رحمه الله - ولى الأمر بعده

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ص ١٨٠ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٩٠ .

(٢) ابن الكردبوس ، نصاب جديدان ، ص ٨٣ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٨٠ .

ولداه عمر ويحيى ، وفي سنة ٤٦١ هـ عظيم بينهما الخلاف (١) . وعوفي هذه العبارة ما يؤكد أن وفاة المظفر حدثت قبل عام ٤٦١ هـ (٢: ٦٨، ٦٩م) . وواضح أن ابن الخطيب كان يقصد المتوكل عمر بن المظفر في حديثه عن جنوح أهل طليطلة إلى ابن الأفطس وليس المظفر كما ورد خطأ في النص .

وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال في غاية الأهمية ، وهو لماذا فكر أهل طليطلة في الاستعانة بالمتوكل ابن الأفطس ليحكم بلادهم دون سائر ملوك الطوائف ؟ رغم بعد داره وانتزاع أقطاره (٣) ؟ لماذا وضعوا أمثلهم في انقاذ بلادهم في شخص المتوكل عمر بن الأفطس صاحب بطليلوس بالذات ؟

يرد مانويل البران Albarran على هذا التساؤل بأن دعوتهم للمتوكل لم تتم دون تدبير من أحد الموالين له في طليطلة ، وأسمه أبو محمد يوسف بن القلاس (٤) وهو ماسبق أن ذكرناه أيضاً نقلاً عن ابن بسام (٥) . ويعتقد البران أيضاً وهو في ذلك يجارى الأستاذ منندت بيدال (٥) أن من بين الأسباب التي دعت المتوكل إلى الاستجابة لدعوة أهل طليطلة أن الضربة التي وجهها إليه الفونسو ملك قشتالة باستيلائه على قوزية (٦) دفعته إلى التفكير في التحصن في طليطلة التي تشغل

(١) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٣) Albarran, El solar, op. cit. p. 272 .

(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، مجلد ٢ ، ص ٥٩ وما بعدها .

(٥) R. Menéndez - Pidal, La España del cid, Vol. I, P 264, 265 .

(٦) قوزية Coria . من أهم مدن البغر الادني في غرب الأندلس ،

تقع على مقربة من قنطرة السيف ، ولها سور منيع (الخميري ،

صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦٤) ومن المعروف أن الفونسو

السادس كان قد كتب إلى المتوكل يطالبه بتقديم الاتاق التي كان

يدفعها أبوه المظفر ثم أخوه المنصور يحيى ويتهدده بشن العواقب

إذا امتنع عن دفعها ، فرد عليه المتوكل رداً شجاعاً يتم عن أبائه

موقعا أكثر استراتيجية من بطليوس في استطاعته التصدى لهجوم واسع النطاق يمكن ان يشبه الفونسو السادس ، كما أن أسوارها أكثر حصانة

وربابة جاشه جاء فيه « وقد وصل الينا من عظيم الروم كتاب مدح في المقادير واحكام العزيز الفدير يرعد ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق ويهدد بجنوده الوافرة ، وأحواله المتضاربة. ، ولو علم أن لله جنودا أعز بهم ملة الاسلام ، وأظهر بهم دين نبينا محمدا عليه السلام. » أدلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، بالتقوى يعرفون وبالتواسة يتضرعون وينصرون ، وأما تعبيرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم ، وظهر من اختلالهم منا للذنوب المركوبة ، والفرقة المكتوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الاملاك لغضبتنا صاب أذقناك ، كما كانت أبؤءك مع أبائنا تتجرعه ، فلم تزل تذيقها من الحمام وضروب الآلام ماتراه وتسمعه ، وأداء المال تتوزعه وبالإمس كانت فطبيعة المنصور على سلفك (يقصد برمودة الثاني ملك ليون) اهداء أبنته اليه مع الذخائر التي كانت تغد في كل عام عليه .

أما نحن ، وأن قلت اعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب فروضه ، ألا سيوفاتشهد بحدتها رقاب قومك ، وجلادا تبصره في ليالك ولديك » (كتاب الحل الموشية ، ص ٣٦ - ٣٧) كان ذلك الرد القوي دافعا للهجوم الذي شنه الفونسو على أراضى المتوكل . وانتهى باستيلائه على قورية في سبتمبر ١٠٧٩م (٤٧٢ هـ) تركا في ذلك أول فتح قام به المسيحيون لضاف تاجه

Menendez - Pidal, la España del Cid, t. I, P. 264 - Luis Suarez historia de España, p. 188.

ويذكر الاستاذ عنان انها سقطت عام ٤٧٣ هـ (١٠٨٠م) وقد أشار المتوكل في رسالته التي وجهها مع القاضي ابن الوليد الباجي الى يوسف بن تاشفين الى النازلة في مدينة قورية « وانها مؤذلة للجزيرة بالخلاء ومن فيها من المسلمين بالجلاء » (راجع كتاب الحل الموشية ، ص ٣٥) . كذلك عهد المتوكل الى ابن الوليد الباجي قاضي بطليوس بالتطوف على ملوك الطوائف . يدعونهم الى التوحيد ، وفي ذلك يقول ابن الأبار : « ولما عظم عيث الطاغية أذفونش بن فردند وتناول الى الثغور ولم يقنع بضرائب المال ، انتدب للتطوف على أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباجي يندبهم الى لم الشعث ومدافعة العدو ، ويطوف عليهم واحدا واحدا ، وكلهم يصغي الى وعظه » (ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ح ٢ ، ص ٩٨) .

من أشوار بطيئوس التي كانت تغمرها مياه وادي آنة ، وأيا ما كان الأمر فإنه من المؤكد فيه كما يرى البران أن الامين الافطس قد دخل ظليظة في يونيو عام ١٤٧٣هـ (١٠٨٠م) ، وعلى هذا النحو أصبح المتوكل يحكم أكبر دولتين من دويلات الطوائف من حيث عظم المساحة والاتساع وان كانتا مهددتين في أكثر مناطقهما حيوية .

ولعل هذا الرأي الذي أدلى به البران صحيح فيما يختص برغبة المتوكل في الاستيلاء على طليطلة لأسباب استراتيجية لها علاقة بالدفاع عن مملكته ضد هجوم الفونسو السادس ، وربما لم يتبين البران أن هذه الرغبة كانت مستقرة في نفوس بنى الأفطس منذ زمن أسبق من زمن المتوكل ، فهذه الأمنية ترجع إلى أيام المظفر ابن الأفطس الذي وافق على زواج ابنته من القائد بالله حفيد المأمون يحيى بن ذى النون (١) ، رغم الخلافات السابقة القائمة بينهما ، ولعل هذه الزيجة كانت ترمي إلى تحقيق ذلك الهدف السياسى الذى تحقق للمتوكل عمر فيما بعد .

ولكن تمسك البران بالرجوع الى المصادر القشتالية فيما يختص بتلك المرحلة الهامة من حكم عمر المتوكل دون الرجوع الى المصادر العربية اوقعه في خطأ تاريخي ، فالبران يؤكد ان دخول عمر المتوكل الى طليطلة تم في يونيو عام ١٠٨٠م . (اواخر ٤٧٣هـ) اي بعد سقوط قورية الافطسية في يد الفونسو السادس بعام ، بحيث استطاع خلال هذا العام التفكير في الجبل الذي يستطيع به ان يحمي بقية اجزاء مملكته الشاسعة التي اصبحت يتهدها الفونسو السادس بعد استيلائه على قورية ، ولهذا السبب لم يجد امامه حلا سوى ان يدعى له في طليطلة عن طريق

(١) ابن الخطيب ، أعماله الاعلام ، ج ١٨٠ وفي ذلك يقول « الى ان ثار بحفيد ابن دنون تلك الطائفة التي اخرجها من الاعتقال ، وصاحوا به ، وسعوا في هلاكه ، فافلت من بعض الابواب المعدة للضرائر لا يملك شيئا الا نفسه ، وزعموا ان زوجة بنت المظفر وابنته منها تبعته يومئذ راجلتين ازيد من فرسخين الى ان ركبنا ، ولحق ببعض حصونه ٨٠٠ »

ابن القلاس ، ونجح في خطته على نحو تجاوز كل تقدير ، وأرسل إليه أهل طليطلة يدعونه للامارة عليهم ، غير أن هذا التاريخ الذي أورده الأستاذ البران ليؤرخ به دخول المتوكل طليطلة غير صحيح ، ولا يتفق مع ما أورده المصادر العربية ، فابن بسام يذكر نقلا عن ابن حبان أن المتوكل دخلها عقب سنة ٤٧٢هـ ، ويتابعه في ذلك ابن الخطيب ، وهذا التاريخ في الواقع أكثر اتفاقا مع سياق الأحداث ، فقد اندلعت الثورة في طليطلة في عام ٤٧٢هـ ، فبادر أهلها بالاستنجاد سريعا بصاحب بطليوس ليصل اليهم قبل أن يقدم أعداء الاسلام على الاستيلاء عليها . وبذلك يكون دخول المتوكل الى طليطلة قد حدث بعد سقوط قورية بفترة قصيرة لا تزيد على شهر ، وربما يفسر لنا ذلك تناقل المتوكل بن الافطس في الاستجابة لدعوة أهل طليطلة لتولى امارة بلدهم ، فقد كان كارها لهذا الامر » الى ان جنحوا الى المظفر بن الافطس من ملوك الطوائف على بعد داره ، وانتزاح أقطاره ، فجاءهم متناقلا « (١) .

قبل المتوكل أن يتولى امر دولة بنى ذى النون بطليطلة مكرها ، ولكنه قبله على أى حال ، ومضى الى طليطلة متناقلا ، فقد كانت النازلة بسقوط قورية في يد الفونسو السادس من العنف بحيث دفعت به التي تبني فكرة توحيد الاندلس ، ولم شعثها بالاضافة الى الاستنصار بيوسف ابن تاشفين امير المرابطين في المغرب ، فانتقاله الى طليطلة ربما كان مناورة سياسية بارعة لتحويل نظر الفونسو السادس عن الغرب المهدد بالسقوط بعد انهيار قورية التي كانت تعد خط الدفاع الرئيسى عن مملكة بطليوس ، ومفتاح الغرب كله الى طليطلة التي كانت منتهى أمل الفونسو السادس ، وفي نفس الوقت لم يكن المتوكل يزهد في ربط دولته بدولة بنى ذى النون في وحدة سياسية أمام خطر الاسترداد الجاثم ، وخلال ذلك يمكنه أن يخاطب ملوك الطوائف الآخرين عن طريق القاضى ابى الوليد الباجى .

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٠ .

ولم يكن المتوكل بن الافطس غافلا عن حقيقة اهداف الفونسو السادس الذى كان يحلم بالسيطرة على طليطلة حاضرة دولة القوط ، والمدينة الملكية التى يمكن ان تنطلق منها فكرة التسلط الاستعمارى الذى ينبض بين يديه ، بالاضافة الى امله الاعظم فى تحرير الاندلس من الحكم الاسلامى ، وقد اثار ذلك مخاوف المتوكل ، فلو ان الفونسو تمكن من السيطرة على طليطلة ، وهو امر أصبح ميسورا بعد فرار القادر بالله ، وما سببه ذلك من شيوع الفوضى والاضطراب فى سائر انحاءها ، لاستطاع بكل سهولة ان يسيطر على مملكته البطليوسية ، وهذا فيما ارى كان عاملا ثالثا دفعه الى ركوب الصعاب وترك حاضرتة بطليوس لحماية طليطلة ، ولو ظاهريا من خطر السيطرة القشتالية .

وفى تلك الاثناء كاتب القادر بن ذى النون الفونسو السادس ملك قشتالة من مدينة قونكة ^(١) التى كان قد انتقل اليها بعد رحيله من حصن وبذة ، وفى هذه المكاتبات اخذ القادر يذكر الفونسو بالود القديم الذى كان قائما بينه وبين جده المأمون ، واخذ يطالبه بحق هذا الود ان يمد يد المعونة له ، ولاقت هذه الاستغاثة قبولا حسنا من الفونسو السادس ، فلم يتردد فى مساندته لاسترجاع ملكه ، ويعبر ابن الخطيب عن ذلك بقوله : « ولما استقر حفيد ابن دنون بمأمنه بعد الخروج من طليطلة راسل اذفونش ملك قشتالة ، يذكره سالف عهده ، اذ كان قد اضطر الى اللحاق بابن دنون جده ولجأ اليه لما غلبه اخواه على الملك ، فأجاره الى ان عاد اليه أمره ، فلبى دعواه ، وسمع شكواه ، واقبل معه الى طليطلة ^(٢) . . . » .

ويذهب ابن بسام الى التقييح من سلوك المتوكل اثناء اقامته بطليطلة ، فيذكر انه عكف على حياة الحفلات والشعر فى قصر المأمون بن

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨١ .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨١ .

ذى النون (١) ، وانه كان بها « طليح جفان ، طريح أكواب ودنان ، مكبا على قمش ما نحتة المحنة ، وتجاقت عن انتهابه الفتنة ، من فرش فخم ، وسرادق ضخمة ، وآنية وكتب ، وصعد من آلة الملك وصحب » (٢)

فلما بلغ المتوكل قرب وصول القادر بالله الى طليطلة ملاه يديه من كل ما استطاعت الوصول اليه من ذخائر واموال أرسلها تباعا الى بطليوس ، ثم فر من طليطلة مبادرا الى حاضرتة ، ويقال أن الفونسو

(١) يصف ابن حبان مجلسه المكرم (نقلا عن ابن جابر) بقوله «وكننت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ، وأغرب ما قيد لحظي من بهي زخرفه الذي كاد يحبس عيني عن الترقى عنه الى ما فوقه ، أزاره الرائع الدائر بأسه حيث دار ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون ، الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة ونصاعة التلوين ، قد خرمت في جثمانه صور البهائم وأطيار وأشجار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من أفنان أشجار وأشكال الثمر ، ما بين جاد وعابث ، وتعلق بعضها بعضها بين ملاعب ومثاقف ، ترنو الى من تأملها بالناظر عاذف ، كأنها مقبلة عليه ، أو مشيرة اليه ، وكل صورة منها منفردة عن صاحبها ، متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر عن التعلل الى ما فوقها ، قد فصل هذا الأزار عما فوقه كتاب نقش عريض التقدير ، مخرم محفور ، دائر بالمجلس الجليل من داخله ، قد خطه المنقار أبين من خط التزوير ، قائم الحروف ، بديع الشكل ، مستبين على البعد ، مرقوم كله بأشعار حسان قد تخيرت من أماديع مخترعه المأمون ، وفوق هذا الكتاب الفاصل في هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الأبريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار ، وصور أنعام وأشجار ، تذهل الأبصار ، وتقيد الأبصار (ابن بسام ، الذخيرة المجلد الأول ، القسم الثاني ، ص ١٣٣ ، وما يليها) . وحكى ابن بدرون في شرح العبدونية أن المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة بنى بها قصرا تائق في بنائه وانفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وسبق الماء الى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حولاتها محيطا بها متحلا بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتقر ، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمس من الماء شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل » (المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٨٥) .

(٢) ابن بسام الذخيرة قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٦٠ .

حاصر طليطلة والمتوكل مقيم بها بعد ، فلما أدرك عجزه عن مواجهة قوات الفونسو عمد الى الخروج منها فارا (١) ، وذلك فى نهاية عام ٤٧٣هـ (ابريل من عام ١٠٨٠م) بعد عشرة أشهر من وصوله اليها .

وهكذا عاد عمر المتوكل الى بطليوس تاركا طليطلة وراءه تحت رحمة الفونسو السادس وعسكره الذين نكلوا بأهالى طليطلة اشد التنكيل فقد ظل يحاصر طليطلة الى ان كان يوم عيد الاضحى عام ٤٧٤هـ (١٠٨١م) ، وفى هذا اليوم خرج أهل طليطلة لمقاتلة القائد بالله قى عددهم وعديدهم ، وزحفوا اليه بكل أسلحتهم ، ولكنهم لم يتوصلوا الى أى نتيجة ، فتراموا الى الفونسو يشكون اليه ابن ذى النون ويستصرخونه عليه ، فتصدى لهم وظهر أنه يؤيده ويناصره ، فتفرقوا بكل سبيل . وتمكن الفونسو من اعادة القائد بالله الى ملكه . ثم انتهج الفونسو سياسة تهدف الى الاستيلاء على طليطلة وانتزاعها من ايدى أهلها ، فهاجم نواحيها ينتسف مرافقها ويحرق مزارعها (٢) ، ولما اشتد البلاء على أهل طليطلة ، وفدحت فيهم البأساء واتى على أكثرهم القتل والجلاء ، نزل الفونسو بالمنية التى كان يعتز بها ، فاتخذ عروشها مرابطا لافراسه ، وايراناتها ملاعب لاراذله ، اما أهل طليطلة فقد أخذوا يستصرخون من حولهم وكأنهم يضربون فى حديد بارد ، فلما يئسوا مكنوا الفونسو من بلدهم .

ويذكر الاستاذ عنان ان القائد بن ذى النون استنجد بجيرانه من ملوك الطوائف المسلمين ، فلم يساعده منهم سوى المتوكل عمر بن الافطس (٣) الذى خرج بجموع عسكره لمداغة جند قشتالة ، ولكن

-
- (١) ابن الخطيب اعمال الاعلام ، ص ١٨١ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ص ١٠٩ .
 (٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٦٠ .
 (٣) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٩٠ ، يوسف اشباح ، تاريخ الاندلس ص ٥٧ ، وقد أورد اشباح بخصوص هذا الخبر العبارة التالية « ومن ثم فانه لم يستطيع أنجاد طليطلة من بين =

الفونسو السادس لم يشأ أن يقحم نفسه في معارك خاسرة ، فأثر الانسحاب حتى يوفر جنده وطاقته للخطة الحاسمة . ولا أدري من أين أتى الاستاذ عنان بهذا الخبر ، فالمصادر العربية لاتشير الى محاولة قام بها المتوكل للدفاع عن طليطلة ، ولهذا فالخبر الذي أورده الاستاذ عنان لا أساس له ، إذا أخذنا في الاعتبار أن المتوكل فر من طليطلة عندما بلغه وصول القادر بالله في حماية الفونسو السادس وقواته ، ولا يعقل أن يعود إليها من جديد لمواجهة الفونسو ثم يشتبك ويعود من حيث أتى .

الامراء المسلمين سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور ، فجمع قواته وسار الى لقاء الفونسو ، وكان الفونسو قد اتخذ عندئذ في ولاية طليطلة حتى صيرها قفرا بلقعا ، ولم يكن يبغي بهذا العيث والتخريب سوى تجريد القلاع من كل وسيلة للحصول على القوات ، ومن ثم فإنه لما شعر باقتراب المنصور ارتد أدراجة ، فعاد المنصور بجيشه من حيث أتى ، ولم يمض سوى قليل حتى توفي مبكيا عليه من شعبه (٤٧٤ هـ / ١٠٨٢ م) فخلفه أخوه أبو محمد عمر بن محمد المتوكل . « وواضح من هذه العبارة أن أشباخ قد التبس عليه الأمر فخلط بين المتوكل عمر بن الأفطس وبين يحيى المنصور الذي كان قد توفي منذ عام ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) . »

(٣)

المرحلة الثانية من عصر المتوكل

في منتصف الحِجْرَم سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) دخل الفونسو السادس مدينية طليطلة (١) واستولى عليها ، وبذلك تحقق أول أهدافه في ضم أراضيها الى مملكته ، وقد ترتب على سقوط طليطلة نتائج خطيرة للغاية ، فقد احدث سقوط طليطلة في ايدي القشتاليين دويا هائلا في الاندلس ، وقرعت نواقيس الخطر تنذر ملوك الطوائف بسوء المصير ، فاحسوا بضعفهم ، وايقنوا بنهايتهم الوشيكة ، والمحتومة ، وعبر شعراء الاندلس عن هذه الحقيقة المرة بأشعارهم ، من ذلك قول الشاعر عبيد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن الغسال :

يا اهل اندلس جثوا مطيكم فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من اطرافه وارى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سقَط

وقال آخر :

يا اهل اندلس ردوا المعار فما في العرف عارية الا مردات
الم تروا بيدق الكفار فرزته وشاهنا آخر الابيات شهبات (٣)

(١) النويري (شهاب الدين) نهاية العرب ، ج٢ ، ص ٢٢ ، نسيخة خطية مصورة محفوظة بمكتبة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، لوحة ٤٧ . وذكر النويري أنه استولى عليها بعد أن حاصرها سبع سنين (انظر المقرئ ، نفح الطيب ، ج٦ ، ص ٨٤ ، وراجع أيضا الحميري ص ١٣٥ - ابن خلدون ، ج٤ ، ص ٣٤٨) ، ويحدد ابن علقمة تاريخ استيلاء الفونسو على طليطلة في يوم الاربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) بينما يحدد ابن خلكان بيوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) المقرئ ، نفح الطيب ، ج٦ ، ص ٨٥ .

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج٦ ، ص ٨٤ ، وراجع أيضا ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٤ ، ص ١١٨ .

كانت طليطلة تعنى الكثير بالنسبة لالفونسو ، فقد اعتبرها قرارة الملك وسويداء الاندلس ونقطة الانطلاق نحو المسترشد كل اراضى شبه جزيرة ايبيريا ، كذلك كانت تعنى الكثير بالنسبة للمسلمين ، فقد كانت رمز بقائهم فى تراب الاندلس ، وسقوطها غير المتوقع الثرى هلعهم (١) ، وأدركوا انها البداية للنهاية ، وقد تحققت بالفعل مخطوهم لفاستغل خطر الفونسو السادس بعد ان ذاق حلاوة الانتصار على المسلمين وعزم على فتح الاندلس كلها ، وعرض عليه رعيته ان يلبث التاج ، ويصعد عادة اسلافه القوط ، فأرجأ ذلك حتى يستولى على دار المسلمين بقرطبة (٢) . ولم يلبث ان شمع بانفه : « ورائى ان زمام الاندلس قنم حصل فى كفه ، فشن غاراته على جميع اعمالها حتى فاز باستقلال جميع اقطار ابن ذى النون واستئصالها ، وذلك ثمانون مئذرا سوى البنيات (اى المدن الصغرى) والقرى المعمورات ، وجاز من وادى الحجارة الى طليطلة Talavera La Reina وفحص اللج واعمال شتمرية كلها Albarracin . فلم يكن بالجزيرة من يلقى اقل كلب من كلابه ... وانتفى الفنى انتحاء الجبابرة ، وانزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما احتقر به كل ما شىء على التراب ، وتسمى بالانبراطور وهو بلغتهم امير المؤمنين وجعل يكتب فى كتبه الصادرة عنه : من الانبراطور ذى الملتين ، واقسم لارسال (اى لوفود) الرؤساء » انه لا يترك فى الجزيرة من الثوار اخدا ، ولا يبقى لهم ملتخدا سوى من اكتنفته رعايتى وشملت عنايتى » (٣) .

(١) يقول صاحب المحلل الموشية « كان الطاغية اذفنشن فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة قد غلب على طليطلة واستولى على اعمالها ، وحازها لنفسه ، وكثر الروع على الاندلس واشتد الخوف ، وتطرق لبلاد المعتمد على الله بن عباد ، ولما ملك اذفنشن اعمال طليطلة طمع فى الاستيلاء على الجزيرة كلها ، وهابت الملوك امره لكون طليطلة نقطة دائرتها (المحلل الموشية ، ص ٣٨) .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٤٤ .

(٣) تاريخ الاندلس لابن المكدبوس ، تحقيق د. احمد مختار البهاوى ، مدريد ، ١٩٧١ ، ص ٨٧ - ٨٩ .

كان لتلك الاحداث المفجعة اثرها العميق على المتوكل عمر بن
الافطس فقد ادرك هول الكارثة التي حلت بالاسلام في الاندلس ، وعز
عليه أن يقف مكتوف اليدين الى أن يحل دوره ، ورأى ضرورة التجرك
السريع لانقاذ الموقف الاسلامي المتدهور .

وقد اثار الدكتور عبد الرحمن الحجى قضية للمناقشة حول دعوة
القاضي العلامة الفقيه أبى الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن ايوب
المعروف بالباجي (١) بلاد الاندلس الى توحيد الصف وجمع الكلمة ، فقد
تسأل الدكتور الحجى هل قام الباجي بدعوته هذه لوحدة الاندلس
من تلقاء نفسه ام بتكليف رسمي من المتوكل ابن الافطس ؟ ومتى بدأت
هذه الدعوة ، وكما من الزمن استغرقت ؟

ويذهب الدكتور الحجى بعد قراءته لعدد من النصوص الى أن
الباجي قد قام بهذه الدعوة في بادئ الامر من تلقاء نفسه ، وكان ذلك
عقب عودته من رحلته الى المشرق الاسلامي التي استغرقت ثلاثة عشر
عاما (٤٢٦هـ - ٤٤٠هـ) (٢) (١٠٣٤ - ١٠٤٨ م) ، واعتمد في ذلك
الرأى على نصوص استمدتها من المقرئ (نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٧٢

(١) أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) (١٠٨١ م) فقيه كبير ، شهير ولد
ببطلويس في النصف من ذى القعدة ٤٠٣هـ (١٠١٢ م) ونشأ بها
وتولى التدريس والقضاء في كثير من بلاد المشرق الاسلامي ، وله
العديد من المصنفات والاشعار التي جمعها ابنه أبو القاسم . وقد
قام أبو الوليد الباجي بمناقشة ابن حزم في جزيرة ميورقة ، واقام
في سرفسطة عدة سنوات أثناء حكم المقتدر أحمد بن هود ، هذا
الى جانب توليه الرد على رسالة راهب فرنسي ، فند فيها مزاعم
هذا الراهب ودعاه الى اعتناق الاسلام (انظر ابن بسام ، الذخيرة ،
قسم ٢ ، ج ١ ، ص ٩٤ ، وابن خاقان الفتح ، ص ١٩٦ ، ابن
الابان التكملة ج ١ ص ٣٩١ ، ج ١ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ،
ص ٢٧٢) .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، طبعة احسان عباس ، ترجمة
٢٧٥ ، ص ٤٠٨ - النباهي الملقى ، تاريخ قضاة الاندلس ص ٩٥ ،
المقرئ نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٢٧٣) - وعلى نصوص لابن بسام ، (الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ١) تشير الى ان الباجى كان كثير التنقل والطواف بين ملوك الطوائف يصحبهم ويرسل بينهم (١) وكان ذلك من الاسباب التى دعت المتوكل ابن الافطس الى ان يعهد اليه رسميا بالقيام بهذه الدعوة ، وانتهى الدكتور الحجى الى ان الباجى كان قد بدأ دعوته هذه من تلقاء نفسه عقب رجوعه من المشرق بعد أحداث سرقسطة ، وعلى الاخص بعد حادثة بريشتير عام ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) . وعندما أدرك ابن الافطس الجهود الموفقة التى بذلها الباجى لتوحيد الصف الاسلامى فى الاندلس وتصديده لجمع شمل المسلمين امام الموجة الاسبانية الشرسة التى كانت تهدد وجود المسلمين فى الاندلس ، لم يتردد فى الافادة من تلك الجهود ، وعزم على دعمه وتأييده ، ولم يكن ابو الوليد الباجى وتحمده الذى تطوع من بين علماء الاندلس لهذا الهدف ، فقد شاركه فى الدعوة الى جمع كلمة المسلمين عدد من العلماء منهم ابو عمر بن عبد البر الذى كان يتولى قضاء الاشبونة وشنترين فى عهد المظفر ابن الافطس ، فقد انتقل من قرطبة متجولا فى بلاد غرب الاندلس ، ثم انتقل الى شرق الاندلس ، وتردد ما بين بلنسية ودانية وشاطبة ، يدعو الى التوحيد ونبذ

(١) يقول ابن بسام فى ذلك انه نازعه وهو بالشرق الى مسقط رأسه ومنبت غرسه من ارض الاندلس ، فورد وعشب بلادها ثياب وظفر ، وصوب عهادها دم هدر ، ومالها لا عين ولا اثر ، وملوكها اضعاد ، واهواء اهلها ضغائن واحقاد ، وعزائمهم فى الارض فساد وافساد ، فأسف على ما ضيعه ، وندم لو أجدى عليه ذلك او نفعه ، على انه لاول قدومه رفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك اهل الجزيرة بصلة ما أنبت من تلك الاسباب ، فقام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف اسماعا واعية ، بل نفخ فى عظام ناخرة ، وعكف على اطلال دائرة ، بيد انه كلما وفد على ملك منهم فى ظاهر امره لقيه بالترحيب واجزل حظه بالتأنس والتقريب ، وهو فى الباطن يستجمل نزعته ، ويستقل طلعتة ، وما كان افطس اتفقيه رحمه الله بأمورهم ، وأعلمه بتدبيرهم ، لكنه كان يرجو حالا تنوب ، ومذنباً يتوب . . . » (ابن بسام ، قسم ٢ ، مجلد ١ ، ص ٩٥ - ٩٦) .

٤٥٠ هـ) (١٠٥٨ م) الذى قام بمحاولة لازالة الخلافات بين ملوك
الخلاف (١) .

ومنهم ابو حفص عمر بن حسن الهوزنى (٣٩٢ هـ - ٤٦٠ هـ)
(١٠٠١ - ١٠٦٧ م) ، وهو من اهل اشبيلية ، كتب الى المعتضد بن عباد
عقب نكبة بريشتر ٤٥٦ هـ (٢) (١٠٦٣ م) رسالة يحثه فيها على
الجهاد (٣) .

ومنهم ابو المعالى ادريس بن يحيى بن يوسف الواعظ الاشبيلي ،
وكان يجول هو الآخر في البلاد يعظه الناس ويذكرهم (٤) ، وابو بكر
محمد بن احمد بن محمد بن حسن بن اسحاق القرطبي (ت. نحو عام

(١) الحجى ، التاريخ الاندلسى ، ص ٣٤٧ . وله رسالة في ذكر الجهاد
واستنفار كواف البلاد بعد سقوط بريشتر في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م)
اوردها ابن بسام (الذخيرة ، قسم ٣ ، مجلد ١ ، ص ١٧٣) .
(٢) لمزيد من المعلومات عن سقوط بريشتر ، ارجع الى ابن بسام ،
الذخيرة ، قسم ٣ ، ج ١ ، ص ١٧٩ - ١٨٩ ، ابن عذارى ، البيان ،
ج ٣ ، ط . ليفى بروفنسال ، ص ٢٢٥ - ٢٢٨ ، الحميرى ، صفة
جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار ، ص ٤٠ ، المقري
نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ١٩١ - ١٩٨ ، محمد عبد الله عنان ،
دول الطوائف ص ٢٦٤ ، وما يليها - عبد الرحمن الحجى ،
التاريخ الاندلسى ، ص ٣٥٩ - ٣٦١ .

(٣) استفتح رسالته الى المعتضد يستحثه على التصدى للعدو فيقول :
عباد جل الرزم والقوم هجع . . . على حالة من مثلها يتوقع
فلق كتابى من فراغك ساعة . . . وان طال فالموصوف للمطول موضع
اذا لم ابث الداعرب دوائه . . . اضعنت واهل للمسلم المضيع
وفي فصل منها « وكتابى على حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد ،
كما تغبر لورود وجه الصعيد ، بدؤها ينسف الطريف والتالد ،
ويستاهل الوليد والوالد ، تذر النساء ايامى ، والاطفال يتامى ،
فلا ايمة اذا لم تبق أنثى ولا يتييم ، والاطفال في قيد الاسرى . . .
كان الجميع (يقصد جميع المسلمين في الاندلس) في رقدة اهل
الكهف ، او على وهدها دق من الصرف والكشف ، من اين لنا
دفعهم بالكفاية وكيف ، ولم يخطط اليهم الخوف ونساجلهم السيف »
(ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ مجلد ١ ، ص ٨٤) .

(٤) ابن البار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج ١ ، ترجمة رقم ٥١٩ ،
وراجع الحجى ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

الطوائف (١) .

وفي نفس الوقت الذي كان المتوكل عمر بن الافطس يعالى فيه من تقديم حركة الاسترداد داخل مملكته كان المعتمد على الله بن عباد يتعرض لنفس الموقف ، الا أن وضعه كان أقل خطورة بكثير من وضع ابن الافطس الذي كان الضحية التالية للافونسو السادس منذ أن استولى على مملكة بنى ذى النون بطليطلة (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) .

ومن المعروف أن الفونسو السادس كتب الى المعتمد بن عباد على نحو ماكتب لابن الافطس «يطلب منه تسليم اعماله الى رسله وعماله ، واشتد عليه في الطلب ، وظهر له السرور بالغلب ، فما خاطبه به :

« من الكنبيطور ذى الملتين ، الملك المفضل ، الاذفثن بن شانجة الى المعتمد بالله سدد الله آرائه وبصره مقاصد الرشاد ، سلام عليك ، من مشيد ملك شرفته القنا ، ونبتت في ريعه المنى ، فاعتز اعتراز الرمح بحامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد ابصرتم ما نزل بطليطلة واقطارها ، وما صار بأهلها حين حصارها ، فاسلمتم اخوانكم ، وعطلتم بالدعة زمانكم ، والحذر من ايقظ باله ، قبل الوقوع في الحباله ، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو ووارده ، لكن الانذار ، يقطع الاعذار ، ولايجل الا من يخاف القوات فيما يرومه ، او يخشى الغلبة على مايسومه ، وقد حملنا الرسالة اليكم القومط البرهانس وعنده من التسديد الذي يلقي به امثالك ، والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك (٢) . . . » .

وقد رد عليه المعتمد بن عباد ردا يماثل رد المتوكل بن الافطس على الفونسو ان لم يكن انكى واشد (٣) .

(١) راجع التفصيل في عبد الرحمن الحجي ، المرجع السابق ، ص

٣٤٩ .

(٢) الحلل الموشية ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٤)

اطمئاع الفونسو السادس في مملكتي بطليوس واشبيلية

كان الفونسو السادس قد استولى على قورية من الاطراف الشمالية لمملكة بطليوس كما سبق أن ذكرنا في عام ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م) ، وانفتح الطريق أمامه ممهدا للسيطرة على أهم قواعدها ، وتبين للمتوكل بن الافطس بخطورة الوضع ، وكان عليه أن يبادر بالتحرك ، فدعوة أبي الوليد الناجي لراب الصدع ، ولم شعث ملوك الطوائف لم تثمر ، ريل ساءت الاوضاع عندما تفككت عرى الروابط بين هؤلاء الملوك أمام الخطير المسيحي الجاثم ، وساءت الصلات بينهم جو من التحاسد والتغاير ، وادرك المتوكل أن الركون إلى أمل المصالحة لن يجده شيئا ، وأثر أن يخاطب أمير دولة المرابطين الفتية في المغرب .

ويؤكد صاحب الحل الموشية أن عمر المتوكل كان أول ملوك الطوائف ، في الاستتجاد بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، فقد كتب إليه حين كلب العدو على بلاده يستصرخه ، ويوضح له سوء المصير الذي ينتظر ملوك الطوائف بالاندلس ، ويوضح لنا صاحب الحل أن هذه الرسالة الاولى التي أرسلها ابن الافطس وجهت في ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) أي قبل سقوط طليطلة بأربع سنوات (١) ، أثر رجوع وفد أندلسي من عند أمير المرابطين بالمغرب كانوا قد وفدوا إليه يشكون إليه حالهم ، وما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بامدادهم وأعانتهم ، ثم صرفهم .

وكانت هذه الرسالة وهي من انشاء الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن أيمن (٢) ، تحمل معاني الالم والحسرة على أثر سقوط

(١) الحل الموشية ، ص ٣٣ - ٣٤ .

(٢) ابن بسم ، الذخيرة ، القسم الثاني ، المجلد الثاني ، ص ٦٥٣ ، وفي ذلك يقول ابن بسم : « ولما اشتد يومئذ كلب الروم بهذا الاقليم على ما تقضيه شهادة المنثور والمنظوم بلسان =

قورية ٤٧٢هـ في يد الاعداء ، وجاء من فقراتها ما يلى : « لما كان نور الهدى ايدك الله دليلك ، وسبيل الخير سبيلك ، ووضحت في الصلاح معامك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح العلم بأنك لدولة الاسلام اعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعى ، لما اعضل الداء ، وتستغاث فيما أحاط بالجزيرة من البلاء .

فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها ، وشدة ظلمها واستشرائها ، تلاطف بالاحتيال ، وتستنزل بالاموال ، ويخرج لها من كل ذخيرة ، وتسترضى بكل خطيرة ، ولم يزل دابها التشطط والعناد ، ودأبنا الازعان والانقياد ، حتى نفذ الطارف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ ، وإيقنوا الآن بضعف المن ، وقويت اطماعهم في افتتاح المدن ، واضرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أستنهم وشغارهم ، ومن أخطاه القتل منهم ، فانما هم أيديهم أسارى وسبايا ، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا

الا ناصر لهذا الدين المهتم ، الا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ؟ وأنا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزة من ذل ، فانها الرزية التى ليس فيها عزاء ، والبلية التى ليس مثلها بلاء .

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك ، أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله للاسلام ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ولن فيها من المسلمين بالجلء ، ثم مازال ذلك النخاذل والتدابير يتزايد حتى تخلطت القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت بيد العدو مدينة سريّة (١)

= من اندرج ذكره في هذا الديوان من كل زعيم استصرخ ملوك الطوائف بأفئنا أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، وقد القوا بأيديهم ، فكتب أبو عبد الله بهذه الرسالة عن صاحبه وأراها كانت ثالثة المفاتحة أو ثانيّة المداخلة ... » .

(١) سريه ، من مدن قشتالة القديمة وكانت من بين مدائن الثغر الاعلى ولهذا فقد مثل سقوطها ضربة خطيرة في قلب الاندلس .

وعليها قلاع ، تجاوزت حد القلاع في التحصن والامتناع ، وهى من المدينة كنقطة الدائرة ، تدركها من جميع الجهات دائرة بنواحيها ، ويستوى فى فء الارض بها قاصيها ودانيها ، وما هو الا نفس خافق ، ورمق زاهق ، استولى عليه عدو مشرك وطاغية منافق ، ان لم تدركوها بجماعتكم عجالا ، وتبادروا ركبانا ورجالا (١) . . . » .

ولما بلغ هذا الكتاب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين كتب اليه يعده بالجواز والانجاد ، وارسال المدد والعتاد .

كذلك يؤكد صاحب الحلل الموشية أن المتوكل عمر بن الاقطس كان قد وصلته قبل ذلك رسالة من الفونسو السادس يهدمه فيها ويطالبه تسليم بلاده قبل سقوط طليطلة ٤٧٨هـ (١٠٨٥ م) ، وقد رد عليه المتوكل ردا عنيفا ، وفند كل ما أثبتته الفونسو فى رسالته من طعن للمسلمين ، وعلى اثر ذلك بادر المتوكل بمكاتبة أمير المرابطين ، يوسف بن تاشفين (٣) ، بعكس ما يراه الأستاذ محمد عبد الله عنان الذى يذكر أن « الفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة فى صفر ٤٧٨هـ (١٠٨٥ م) تصور أنه صار قادرا على تحدى دول الطوائف جميعا والقضاء عليها واحدة . بعد الاخرى ، وكان من اثر ذلك أن أرسل الى المتوكل يطلب اليه تسليم بعض قلاعه وحصونه ، وأن يؤدي له الجزية ويتوعده بشر العواقب اذا رفض ، ولم يك ثمة شك فى خطورة هذا الوعيد بعد أن سقطت طليطلة حصن الاندلس على نهر التاجة ، وعبر النصارى على هذا النهر لأول مرة ، ومع ذلك أبى المتوكل أن يستجيب الى الوعيد ، ورد على ملك

(١) ابن بسام الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٦٥٣ - ٦٥٥ ، الحلل الموشية لمؤلف مجهول ، ص ٣٥ .
 (٢) الحلل الموشية ، ص ٣٦ . ويقول صاحب الحلل الموشية « وانه لما بلغ هذا الخطاب لامير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، كتب اليه يعده بالجواز والامداد على العدو . وقد كان المتوكل على الله بن الاقطس وصله كتاب من عند عدو الاسلام المواجه الى بلاده ومن الجواب يفهم مقصده والجواب عليه » .

قشتالة برسالة قوية حازمة تفيض شجاعة وأباء ونبلاء (١) « . »

ثم أورد الأستاذ عنان نص رسالة المتوكل كما أوردها صاحب الحل ، ومما يسترعى الانتباه أن المصدر الرئيسى الذى اعتمد عليه الأستاذ عنان هو نفسه المصدر الذى اعتمدنا عليه فى اثبات أن رسالة الفونسو السادس الى عمر المتوكل أرسلت اليه قبل سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥ م) وهو كتاب الخلل الموشية ، فقد أكد صاحبه بوضوح تام وصول الوفد الاندلسى الى يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٧٤هـ (١٠٨١ م) يدعوه الى مساعدة المسلمين فى الاندلس ، ويحثه على انقاذ الاسلام فى هذا البلد ، ثم ذكر المصدر فى نهاية هذا الخبر « وكان ممن كتب اليه بذلك المتوكل على الله بن الافطس » بمعنى أن رسالة المتوكل بن الافطس وصلت الى يوسف بن تاشفين قبل مجيء هذا الوفد الاندلسى عام ٤٧٤هـ (١٠٨١ م) وبالتالي قبل سقوط طليطلة فى سنة ٤٧٨هـ ، ويضيف صاحب الحل الموشية فى نهاية حديثه عن خطاب المتوكل هذا « وقد كان المتوكل على الله ابن الافطس وصله كتاب من عند عدو الاسلام مواجهه الى بلاده » أى أن المتوكل كتب الى أمير المراتبين أثر وصول رسالة الفونسو اليه ، ووضح أن كل هذه الحوادث وقعت قبل سقوط مدينة طليطلة فى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥ م) بدليل أن سطور الرسالة التى رد فيها ابن الافطس على الفونسو السادس لاتتضمن أية إشارة عن سقوط طليطلة ، وعلى هذا الاساس يتضح لنا أن الفونسو السادس كان يطمع فى مملكة بطليوس فى نفس الوقت الذى كان يفكر فيه فى الاستيلاء على طليطلة ، ولعله بادر بالاستيلاء على طليطلة بسبب الظروف السيئة والاحوال المضطربة التى كانت تعانيها مملكة بنى ذى النون فى تلك الآونة ، فقد كان القادر بالله قد فر الى وبذة ، ومنها الى قونكة أثر ثورة اهل طليطلة عليه فى عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩ م) مما أتاح الفرصة للفونسو السادس للوثوب عليها ، ثم جاءت استعانة القادر

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٩٠ .

بالله بن ذى النون به مبررا وذريعة لتحقيق أطماعه فى استعادة عاصمة
عرش أجداده القدامى ، وكان الفادر بالله قد كتب اليه من وبذة «يذكره
سالف عهده اذ كان قد اضطر الى اللحاق بابن ذنون جده ولجأ اليه لما
غلبه اخواه على الملك، فأجاره الى أن عاد اليه أمره ، فلبى دعواه ،
وسمع شكواه ، واقبل معه الى طليطلة ، وقد عاقده على أن يخلى بينه
وبين المدينة اذا بلغه لُمله من دخولها ، فانزلها وشد حصارها الى أن
بلغ الجهد من أهلها مبلغه ، وعجزوا عن الصبر ، وتبراوا من المسكة ،
وأعذروا فى الدفاع ، الى أن أعيد حفيد ابن ذنون الى طليطلة على
شروط. للنصارى لا يطاق حملها ، فدخلها والطاغية بين يديه يتبجح
بيده عنده ، واستقر بها شر استقرار ، واقتضاه الطاغية الوعد ، وسلبه
الله النصر والسعد ، وهلكت الذمم ، واستؤصلت الرحم ، ونفذ عقاب
الله فى أهلها جاحدى الحقوق ، ومتعودى العقوق ، ومقيمى أسواق
الشقاق والنفاق ، والمثل السائر فى الآفاق ، ولم تطل مدته شطر السنة
حتى ملك الطاغية طليطلة » (١) .

ونستنتج من هذا النص التاريخى أن الفونسو السادس عندما شرع
فى مساعدة القادر بالله صاحب طليطلة كانت قد اختمرت فى ذهنه فكرة
استيلائه عليها قبل بطليوس ، اذ كانت مملكة طليطلة اكبر دويلات
الطوائف مساحة ، واكثرها ثراء ، فكأنما أراد بمساعدته للقادر أن يتحكم
فيه بعد ذلك ، ليتمكن عن طريقه من احتلال المملكة ، ويورد لنا
الاستاذ عنان بعض الروايات القشتالية التى تشير صراحة الى أن القادر
حينما استعان بالفونسو لاسترجاع طليطلة كان قد تعهد له بأن يحكمها
باسمه ، وإن يسلمها له متى شاء ، فى مقابل أن يعاونه الفونسو فى
الاستيلاء على بلنسية ليستقر بها (٢) .

وقد أغفل الاستاذ عنان نص ابن بسام الذى وضح فيه كل الوضوح

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨١ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ١٠٩ .

الاتفاق الذى تم بين القادر بالله وبين اذفونش بن فرزند الذى «فغرفمه على ثغوره، فجعل لوقته يطويها طى السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشيب فى الشباب ، وابن ذى النون يلقيه افلاذ كبده ويرجمه بسبده ولبده ، واذفونش لعنه الله لايقنع منه بصيد العنقاء ولا بيض الانوق ، بل يكلفه بأحضار الابلق العقوق ، ويسومه درك الشمس ويطلبه برد امس . فلما اكل الاتفاق شبح ماله ، واخذ الخناق بكظم احتياله ، واحس العدو المشاق بذلك من حاله ، سما الى معاقله المنيعه ، وذرى املاكه الرفيعه ، عدد الانام ، ودروب الاسلام ، فما راهنه عنها عليه غلق ، وما رام اخذه من يديه لم يدركه حتى فرق» . ويضيف ابن بسام « واخذ ابن ذى النون اهل طليطلة لحين استقراره فيها بفك تلك المعاكل ، واداء ما كان ضمن لاذفونش من الاموال الجلائل ، فضرب مدبرهم بمقبلهم ، وولى آخرهم كبر اولهم ، حتى طمع فقيرهم فى غنيهم ، واجترا ضعيفهم على قويهم ، وانكدر اذفونش على طليطلة ينتسف مرافقها ، ويقعد لجالية اهلها ثناباها ومصايقها ، يأسر ويقتل ، ويحرق ويمثل ، وسما السعر ، وتفاقم الامر ، وانكرت الموارد والمصادر ، وبلغت القلوب الحناجر » .

كانت خطة الفونسو مضايقة اهل طليطلة وارهابهم ، بهدف ارغامهم على تسليم بلدهم ، وكان قد اتفق مع القادر بالله ان ينخلى له القادر عنها فى الباطن بينما يوهم الناس فى الظاهر انه يؤدي له من الاموال ما يفي بما قدمه له من عون ليرغمهم فى النهاية على الاستسلام له . يقول ابن بسام « وكان عاقده ابن ذى النون انه اذا ضرح قذاها ، واماط اذاها ، واقتضى دينها ، خلى بينه وبينها ، هذا ما اضر ، فاما الذى اظهر فانه وعده اداء جملة من المال لاتفى به مدة الاقبال ولا ارخاء الحال (١) . . . » .

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ١٦٢ ، ومايليها .

وهكذا وطن الفونسو العزم على البدء بطليطلة اذ لم يكن يهدف من وراء مساعدته لابن ذى النون سوى « عرصة الدار وأم الاوطار » . وعلى هذا النحو اضطر أهل طليطلة الى أن يخلو بينه وبين بلدهم ، كل هذا يؤكد أن الفونسو كان يفكر بطوال سنوات لاتقل عن أربع في الاستيلاء على مملكة بنى ذى النون ، ومع ذلك فإن هذا لاينفى وجود رغبة عارمة لديه للاستيلاء على مملكة بطليوس فى بداية أمره بدليل اغاراته المتواصلة على بعض ثغورها (١) ، واستيلائه على قورية فى عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) وعلى بعض المدن الهامة الاخرى فى مملكة بنى الافطس مثل شنتره (٢) .

ونستدل على رأينا بدليل آخر ، هو احساس المتوكل عمر بن الافطس بالخطر المحدق به وبمملكته ، وعجزه عن رد هذا الخطر ، واستنجاهه بأمر المرابطين ، وذلك كله قبل سقوط مملكة طليطلة فى يد الفونسو السادس (٣) بنحو خمس سنوات ، ولذلك فقد كان المتوكل كما تؤكد الكثير من المصادر أول من استغاث بأمر المرابطين (٤) ، ورسالته هذه التى أوردناها فى الصفحات السابقة ، كانت أول رسالة كتبها واحد من ملوك الطوائف فى الاندلس الى ابن تاشفين يستنجد به ، ويدعوه

(١) Albarran, El solar de los Aftasiés p. 272.

(٢) ابن الابار ، الحلة السيرة ، ج٢ ، حاشية رقم ١ ، ص ١٩٠ وقد علق د . حسين مؤنس بهذه المناسبة بقوله أن الفونسو السادس قد استولى على قلمرية وشنتره وغيرها من البلاد حتى أصبح هدفه بطليوس نفسها ، والحقيقة أن الفونسو السادس لم يكن هو الذى استولى على قلمرية وإنما استولى عليها فرناندو الاول فى عام ٤٥٦هـ (١٠٦٤م) كما سبق أن أوضحنا ، وكان ذلك فى عهد المظفر ابن الافطس وليس فى عهد ولده المتوكل عمر بن الافطس (فى سقوط قلمرية انظر ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٨٤ ، ابن عذارى ، البيان ، ج٢ ، ص ٢٥٣ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٨٦) .

«Abbaran, Op. Cit., P. 201.

(٣) الحلل الموشية ، ص ٣٣ .

(٤) ابن الابار ، الحلة السيرة ، ج٢ ، ص ٩٩ - الحلل الموشية ، ص ٣٣ .

الى الجواز انى الاندلس . ولو ان الفونسو كان يركز اطماعه فى تلك
الآونة تجاه طليطلة وحدها لكان أولى بأمرها القادر ان يبادر
بالاستصراخ بابن تاشفين ، وان كان من الصعب عليه ان يفعل لانه كان
متواطئاً مع الفونسو السادس طمعاً فى الاستقرار ببلنسية ، ولو ان
الفونسو كان يركز أنظاره على طليطلة وحدها ، لكان اهل طليطلة قد
بعثوا وفداً منهم الى امير المرابطين يستنجدون به (١) ، ولكن حتى
لحظة رجوع القادر بالله الى مملكته طليطلة (٤٧٣ هـ) (١٠٨٠ م)
كان الفونسو لا يزال يضرب ذات اليمين وذات اليسار فى مملكة بنى
الافطس ، وقد نجح فى انتزاع قورية فى سنة ٤٧٢ هـ واستمر يهاجم
أراضيها طوال ذلك العام وما يليه ، وأرسل الى أميرها يهدده عسى ان
يضعفه نفسياً ويبرهه ، ولكنه لم يجد من المتوكل الا كل اعتداد بنفسه ،
وثقة فى دينه ، واستهانة بتهديده له ، فلما يئس من محاولته معه لم
يشأ ان يضيع فرصة الاستيلاء على مملكة طليطلة التى أصبح أميرها

(١) اكتفى اهل طليطلة باستصراخ ملوك الطوائف ، ولكن هؤلاء
تقاعسوا عن انجادهم ، بل تراموا الى الفونسو ، ولأذوا له
بالجزيات والهدايا والمال ، وتجرعوا من أهانت الفونسو لرسلم
الملح الاجاج ، ويعبر ابن بسام عن ذلك بقوله « وطفق أهل
طليطلة يستصرخون من حولهم ، ويعملون فى ذلك فعلهم وقولهم ،
فيعدون على طلل بائد ، ويضربون فى حديد بارد ... » .
ولما مثل وفد اهل طليطلة أمام الفونسو يطلبون منه ان يرحل
عن بلادهم ، قال لهم : « اليس متى تتخادعون ، وبأى شيء
نطمعون ؟ قالوا : بنا بغية ولنا فى فلان وفلان أمنية ، وسموا له
بعض ملوك الطوائف ، فصفق بيديه وتهافت حتى فحص برجليه ،
ثم قال : أين رسل ابن عباد ؟ فجاء بهم يرفلون فى ثياب
الخناعة ، رينسون بالسنة السمع والطاعة ، فقال لهم : منذ كم
تحومون على ؟ وترومون الولد الى ؟ ومتى عهدكم بفلان ،
وابن ما جئتم به لا كنتم ولا كان ؟ فجاءوا بجملة ميرة ، وأحضروا
بين يديه كل ذخيرة خطيرة . ثم مازاد على أن ركل ذلك برجله ،
وأمر بانتهابه كله ، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا أحضر
يوهذ رسله ، وكانت حاله حال من كان قبله ، وجعل أعلاجه
يدفعون فى ظهورهم ، وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم
ومصيرهم » ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ،
ص ١٦٦ .

مطية له ، ودمية يحركها بين يديه ، لذلك حول أنظاره شطر المملكة الطليطلية . وإذا طالعنا تفاصيل سقوط مملكة طليطلة في أيدي القشتاليين نحس لأول وهلة بتخاذل سائر ملوك الطوائف عن نجدة أهلها باستثناء المتوكل على الله بن الأفطس ملك بطليوس فهو الملك الوحيد الذي حاول مساندة طليطلة في محنتها . فالى جانب تسجيعة لقاضيه الجليل أبى الوليد الباجى قبيل سقوط طليطلة مباشرة ليطوف بمختلف ذويلات الطوائف مستهدفا استنهاض الهمم ، وإثارة حماس هؤلاء الملوك الذرعاف للجهاد ، والوقوف صفا واحدا أمام هذا الملك الطاغية العاتى (١) ، فإنه تقدم بكل شجاعة أثناء حصار الفونسو السادس لطليطلة لانجاد هذه المملكة المتهالكة ، وسير ابنه الفضل بن الأفطس والى ماردة فى قوة كبيرة من حيرة قواته فى محاولة مستميتة لرد هذا العدو الغاشم عن طليطلة ، ورغم فشله فى ردهم لكثرتهم وبفوقهم عددا وعدة ، ورغم الخسائر الجسيمة التى لحقت به ، ورغم الاعداد الهائلة من جنده الذين استشهدوا فى ميدان القتال أثناء التحامهم بالعدو القشتالى فى معارك دامية ، رغم كل ذلك سجل التاريخ هذا الموقف البطولى لذلك الملك الأفطسى الشجاع خادما وان هذه المعونة العسكرية بطليطلة لم تكن المعونة الاولى ، وإنما سبقتها مثلها عام ٤٧٠هـ (٢) . (١٠٧٨ م) .

وإذا قارنا هذا الموقف البطولى لعمر المتوكل ملك بطليوس بالموقف المخزى الذى وقفه غيره من ملوك الطوائف فسنجد أن معظم ملوك الطوائف كانوا قد فقدوا الحمية والغيرة والحماس ، واضمبيوا بحالة من الذعر واليأس ، الامر الذى جعلهم يبادرون بالخضوع لتهديدات الفونسو السادس ، ويوادعونه بالجزيات درعا لشره وحماية لعروشهم ، فالعتمد

(١) ابن الأبار ، الحلة السرياء ، ج٢ ، ص ٩٨ .

(٢) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٤٤ ، محمد عبد الله عنان دول الطوائف ، ص ١١٠ (ولا أدرى على أى مصدر اعتمد كل من ليفى والاستاذ عنان فى سوق هذا الخبر .

بن عباد ملك اشبيلية أهم واقوى دويلات الطوائف ، هذا الملك الشهير ، تقاعس عن نجدة أهل طليطلة بل انه لم يتورع عن محالفة الفونسو السادس ضد طليطلة ، وهذا التحالف له جذور عميقة ترجع الى أيام والده المعتضد بالله بن عباد الذى لم يكن يتردد فى تقديم الجزية لفرناندو ملك قشتالة منذ سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) (١) . وبعد وفاته قام ابنه المعتمد بتأدية نفس الجزية ، وكان يمثل الفونسو السادس الى المعتمد بن عباد لتسلم هذه الجزية الفارس الشهير رودريجو ديث دى بيفار الملقب بالسبد الكمبيادور او الكنبيطور كما تسميه المصادر العربية (٢) ، هذا

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٧٢ ، وراجع الملحق الاول .

(٢) السيد كنبيطور : اقترن اسم السيد الكنبيطور بمغامراته فى بلنسية وفتحها لها ، وحكمه لها أعواما قبل وفاته وهو يدافع عنها ضد المرابطين ويرجع السيد الى أصل قشتالى ، واسمه الحقيقى رودريجو ديث دى بيفار ولقبه El Cid ، شهرته الكنبيطور أى المحارب . وقد ولد السيد فى برغش Burgos فيما يقرب من عام ٤٣٦هـ (١٠٤٣م) ، وما نعرفه عن حياته يختلط بين الحقيقة والروايات الاسطورية ، ويرتبط بدء ظهوره بالخلافات التى نشبت عقب وفاه فرناندو الاول ملك قشتالة وليون فى أواخر سنة ١٠٦٥م بين ابنائه ، ولم يتردد السيد آنذاك فى الانضمام الى شائجة ، واشترك مع قوات حليفة أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة فى محاربة ردميره ملك أرغون ٤٦١هـ (١٠٦٨م) . وقد نال السيد مكانة كبيرة فى التاريخ القشتالى ، فهو بطل اسبانيا القومى ، وكان وقوف السيد فى بداية حياته الى جانب شائجة ضد الفونسو قد اثار حنق الفونسو السادس عليه ، فلم ينس له قط هذا الموقف ، وهذا الذى أدى الى ابعاده عن بلاطه وعن سائر اراضيه فى عام ٤٧٤هـ (١٠٨١م) . وهنا بدأت الاساطير تحكى عن هذا الكنبيطور الذى خرج يجرى وراء رزقه دون وضع أى اعتبار للدين أو القومية ، فكان يساند المسلمين تارة ، ونارة أخرى يساند الامراء النصارى . وقد وجد السيد مجالا له فى هذه الفترة من عصر الطوائف لانها كانت تمتلئ بالثورات والحروب التى وجد فيها الكنبيطور مجاله وحياته (لمزيد من التفاصيل عن السيد وعن علاقته بالمستعين صاحب سرقسطة وعن استيلائه على بلنسية انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٣١ - ٤١ ابن بسم ، الذخيرة ، قسم ٣ ، جلد ١ ، ص ٩٥ .

الى جانب أن صداقة شخصية كبيرة كانت تجمع بين المعتمد والفونسو بعد أن دافع هذا الملك عنه ضد اعتداءات ملك غرناطة على أراضي اشبيلية .

ويورد الاستاذ محمد عبد الله عنان بعض الروايات القشتالية التي تشير الى رحلة ابن عمار (١) وزير المعتمد ابن عباد الى ليون حيث تفاوض على مقدار الجزية وما سوف يتم انفاقه ، وانتهى الاتفاق

Menendez - Pidal, la España del Cid, 2 vols. Madrid, 1947 - Huici =
Miranda, Historia musulmana de Valencia y su region, t. II,
Valencia, 1970.

ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٨ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص (٢٣١ - ٢٥٣) .

(١) ابن عمار : هو أبو بكر محمد بن عمار الحسين بن عمار المهري أصله من قرية شنبوش من أرباض شلب ، ولد عام ٤٢٢هـ (١٠٣١م) من أسرة بسيطة متواضعة ، ودرس في قرطبة على يد اعظم شيوخها ونبغ في الشعر والادب ، ثم انتقل الى اشبيلية أيام المعتضد بن عبد ، ثم مدح المعتضد ، فجعله من بين شعرائه وأمنائه ثم اتصل ابن عمار بالمعتمد بن عباد ، وكان أيامها حاكما لشلب ، وتوثقت أواصر المحبة بينهما ، وحين ادبج المعتمد ملكا على اشبيلية أصبح وزيره وأثيرة بل وسفيره في سفاراته الهامة للملك النصارى . ثم تزوج المعتمد بن عباد من السيدة اعتماد الرميكية التي أخذت تدس له الدسائس ، وقد غدرت به هذه السيدة حين أثارت عليه زوجها المعتمد خاصة وأنه نسبت اليه مجموعة من الابيات هجا فيها المعتمد وزوجته الرميكية ومن الابيات التي هجا فيها الرميكية :
تخيرتها من بنات الهجرين رميكية ما تـ ساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار ليتم النجادين عما وخالا
قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قرونا طوالا
وكان ابن عمار قد حاول أن يستقل بمرسية بعد أن استردها بحساب سيده مما أغضب المعتمد عليه ، وزادت هذه الابيات من غضبه ، وكانت كل من اعتماد الرميكية والشاعر ابن زيدون يحكيان له المؤامرات التي انتهت بمقتل ابن عمار بيد سيده المعتمد بن عباد لتكون مأساة ذلك العصر وتلك المملكة (أنظر ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٩٨ ، ابن عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٦٧ - ٦٨ ، ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص ١٨١ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٦٤ - ٦٩)

على أن يساعد الفونسو السادس ملك قشتالة المعتمد بن عباد في كافة حروبه ضد أى عدو له من ملوك الطوائف المسلمين في مقابل الجزية السنوية التى يؤديها له ابن عباد ، هذا الى جانب تسليم جبل الشارات (سيرامورينا) لالفونسو وزواجه من زائدة (١) كنة المعتمد بن عباد، ولكن الامور لم تتم وفقا لما كان يشتهي المعتمد بن عباد ، ففي عام ٤٧٥هـ (١٠٨٢م) ارسل الفونسو السادس سفارته المعتادة الى المعتمد لتلقى الجزية السنوية ، فوصل اليه رسول الفونسو ومعه اليهودى ابن شالب ، فقد كان الفونسو قد أقصى السيد الكنبيطور ونفاه من بلاديه ونزل الوفد القشتالى خارج اشبيلية ، فسير اليهم المعتمد المال المعلوم مع بعض اشياخ اشبيلية وأعيانها من بينهم الوزير ابو بكر ابن زيدون ، فلما قدموا له المال العين والسباك ، رفض اليهودى أن يتسلمها ربما لانه ظن انها من عيار اقل من المتفق عليه ، وأصر الا يتلقى من الذهب الا ماكن منجرا أى خالصا ، ويبدو أنه تلفظ بالفاظ مهينة للمسلمين ، فبلغ ذلك المعتمد فغضب غضبا شديدا ، وأرسل نفرا من عبيده وبعض جنده وأمرهم أن يقتلوا اليهودى ابن شالب ويأسروا من كان برفقته

(١) زائدة المسلمة : تشير جميع الروايات الاسبانية النصرانية الى أن زائدة المسلمة هذه هى ابنة المعتمد بن عباد التى قدمها لالفونسو السادس مع الجزية لتكون حظية له وأن هذه الابنة كانت بارعة الجمال ، ولذلك فقد كانت من مغريات تحالف ابن عباد مع الفونسو ، وقد قام الاستاذ محمد عبد الله عنان بمناقشة هذه القضية وأثبت اعتمادا على نصين أحدهما لابن عذارى والآخر للمؤرخى أن زائدة كانت زوجة للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون الذى كان حاكما لقرطبة ، مؤيدا بذلك رأى ليفى بروفنسال الذى نشره فى سنة ١٩٣٤ وحين هاجم المرابطون المدينة هربت زائدة وتولدها بعد أن رأت زوجها يقتل أمام عينيها ، فكرهت المرابطين ولجأت حينئذ الى بلاط الملك الفونسو السادس حيث تنصرت وتسمت بايزابيل فتزوجها الملك ، وماتت أثناء ولادتها لسانجة ابنها وولى عهد قشتالة الذى سيقتل فى واقعة اقليش (٥٠١هـ / ١١٠٨م) (ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٥١ - ١٦٤ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٤٥ - ٣٤٩) .

من النصارى^(١) ، فكان ذلك الحادث سببا في فساد الصلح بين المعتمد وبين الفونسو^(٢) ، فقد أقسم إيماننا مغلظة على الانتقام من ابن عباد ، فحشد لذلك جيشا كثيفا من الجلالقة والقشتاليين ، والبكشنس اجتاحت مملكة ابن عباد ، وعاث فسادا في أحواز باجة ولبلبة ، أما هو فقد هاجم شرف اشبيلية واخذ يدمر ويحرق ويخرب كل ما كان في طريقه ، ولم يتردد في حصار اشبيلية ذاتها لمدة ثلاثة أيام ، مخربا ما حولها والمدن التي تقع في نواحيها ، وهنا تبين لابن عباد مدى الخطأ الذي وقع فيه بتحالفه مع الفونسو على رفاقه ملوك الطوائف ، وأدرك المصير السيئ الذي ينتظره وينتظر الاسلام في الاندلس ، وربما كلن ذلك سببا في مبادرته بالاتصال ببيوسف بن تاشفين والاستنصار به عليه . وجاء سقوط طليطلة في يد الفونسو السادس نذيرا للملوك الطوائف ، فتوالت رسلهم على ابن تاشفين بلمسونه منه العون والانجاد ، فوعدهم بالنصرة وأرجأ تسيير قواته حتى ينتهي تماما من برغواطة .

أما الفونسو فقد أسكره استيلاؤه على طليطلة ، فعربد في أراضى الاسلام ، وراح يهدد ملوك المسلمين الواحد بعد الآخر ، فكتب الى المعتمد ابن عباد رسالة يطالبه فيها بتسليم أعماله ، ويحذره من مخالفته له .

-
- (١) الحل الموسية ، ص ٤٢ .
 (٢) يعلل الحميرى سبب توتر العلاقات بين المعتمد والفونسو بأن المعتمد اشتغل عن أداء الاتاوة التي اعتاد أدائها في فترة معينة من السنة الى الفونسو بغزو ابن صمادح صاحب المزية ، فتأخر عن أدائها في وقتها ، فاستشاط الفونسو غضبا وتشطط ، فطلب بعض الحصون زيادة على الاتاوة « وأمعن في التجنى فسأل في دخول امراته القمطيجة الى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها حيث أشار اليه بذلك القسيسون ، والاساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربى منه معظمه عندهم ، عمل المسلمون عليها الجامع الاعظم وسفر بذلك بينهما يهودى وكان وزيرا لابن فرذلند . فاعلظ له اليهودى في القول وشافهه بما لم يحتمله ، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه ، فأنزله على رأس اليهودى فالقى دماغه في حلقه ، وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة » .
 (الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٤) .

ويضرب له المثل بما حدث في طليطلة ، ورد عليه المعتمد ردا قويا فند فيه اقوال الفونسو ، وسخر فيه من تهديداته ، والظاهر أن المعتمد لم يكن ليستطيع الرد على الفونسو بمثل هذه القوة لو لم يكن واثقا كل الثقة في العون الخارجي الممثل في دولة المرابطين في المغرب ، وكان قد كتب الى يوسف بن تاشفين رسالة في غرة جمادى الاولى سنة ٤٧٨هـ يستصرخه فيها على الفونسو ويدعوه الى الجواز الى الاندلس للجهاد واحياء شريعة الاسلام ، ثم أعقب ذلك بزيارة سريعة الى المغرب بعد أن استوثق من صدق نوايا ابن تاشفين في مساعدته (١) ، ولهذا فأننى أعتقد أنه وجه رسالته الى الفونسو بعد زيارته لابن تاشفين ووثوقه من نصرته له .

ولما بلغ الفونسو اعتزام يوسف بن تاشفين الجواز الى الاندلس لنصرة ملوك الطوائف ، وتبين له تجرؤ المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس عليه بعث من بلدة طريف رسالة الى يوسف بن تاشفين يتحداه فيها ، وجاء فيها « فلا خفاء على ذى عينين أنك أمير المسلمين ، بل الملة المسلمة كما أنا أمير الملة النصرانية ، ولم يخف عليك ما عليه رؤساكم بالاندلس من التخاذل والتواكل ، والاهمال للرعية ، والاخلاد الى الراحة وأنا أسومهم الخسف فأخرب الديار ، وأهتك الاستار ، وأقتل الشبان ، وأسر الولدان (٢) » .

وطلب من يوسف بن تاشفين اما أن يجوز الى الاندلس ليقاتله ، واما أن يرسل اليه المراكب ليجوز هو اليه ، فان غلبه ابن تاشفين كان له ملك المغرب والاندلس ، وان انتصر الفونسو عليه ، فان ذلك يكفل لالفونسو الانفراد بحكم الاندلس ، فلما وصل كتاب الفونسو الى ابن تاشفين اكتفى بأن كتب على ظهر الرسالة « من أمير المسلمين يوسف

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٤٥ ، المغرب الكبير ، ص ٧٢١ .

(٢) الحلل المشوية ، لمؤلف مجهول ، ص ٤١ - ٤٤ .

ابن تاشفين الى اذفونش ، أما بعد ، فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك والسلام على من اتبع الهدى» . ثم سجل بيت أبى الطيب المتنبي :

ولا الكتب الا المشرفية والقنا ولا رسل الا الخميس العرمم (١)

وعلى الرغم من أن نص الرسالة يوحى بالتلفيق ، الا أن ليفى بروفنسال وغرسية غومث وأوليفر أسين نشروا رسالة كتبها يوسف بن تاشفين الى الناصر تميم بن المعز بن باديس يذكر فيها هزيمته لالفونسو السادس بالزلاقة تتضمن هذه الحقيقة (٢) .

وعلى أية حال لقد سبق ابن الأقطس المعتمد في مكاتبة يوسف ابن تاشفين سنة ٤٧٤هـ أى قبل سقوط طليطلة بثمان سنوات ، ويتمثل ذلك في الرسالة التى نسخها له ابن أيمن (٣) . بل أن المتوكل عمر بن الأقطس لم يكتف برسالة واحدة فقد سبقت تلك الرسالة التى جئنا بنصها رسالتين أخريين من نسخ ابن أيمن ، كذلك يقول عنها ابن بسلام «لما اشتد كلب الروم بهذا الاقليم على ما تقتضيه شهادة المنثور والمنظوم بلسان من اندرج ذكره فى هذا الديوان من كل زعيم استصرخ ملوك الطوائف بافقتنا أمير المسلمين ، وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمة الله ، وقد القوا بأيديهم ، فكتب أبو عبد الله بهذه الرسالة عن صاحبه ، وأراها كانت ثالثة المفاتحة أو ثمانية المداخل» (٤) .

وما كاد ابن عباد يعود الى حاضرتة عقب زيارته لابن تاشفين (٥)

-
- (١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٤٠ ، الحل ، ص ٤٣ .
 (٢) Lévi - Provençal, Garcia Gomez, Oliver Asin, Novedades sobre la batalla llamada al - Zallaa, al - Andalus, Vol. XV, 1950, P. 112.
 وراجع السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٣
 (٣) ابن بسلام ، الذخيرة ، ج٢ ، المجلد الثانى ، ص ٦٥٣
 (٤) المصدر السابق ، ص ٦٥٣
 (٥) النويرى ، نهاية الارب ، ج٢٢ ، لوحة ٥٤ .

حتى أخذ يتأهب للمعركة المقبلة . ، ويعلق ابن الكردبوس على تلك الأحداث بقوله: « ولما تيقن كل من ثار وراس ، ولاسيما رؤسائه ، غرب الاندلس كابن عباد وابن الافطس مذهب الفتنس فيهم ، وأنه لا يقنع منهم بجزية ولاهدية ، راوا أن الرجوع الى الحق أحق ، فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين على أن ينخرطوا في سلكه. ويدخلوا تحت ملكه ، وفتحوا له بابا. الى الجهاد كانوا قد سدوه. ، فأجابهم الى ما رغبوه. ، ولم يخالفهم فيما طلبوه ، اذ كان راغبا. في جهاد المشركين ، والذب عن حريم المسلمين . فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وتطلع بدر التأييد من خلال غمامه. » (١٠) .

وأول من فكر جديا في الاستعانة. بقوى المرابطين الامير تميم بن بلقين ، امير مالقة ضد اخيه الامير. عبد الله صاحب غرناطة (١١) . ولكن هذا الهدف الذي من أجله أراد تميم الاستنجاد بالمرابطين لم يكن بقصد الجهاد. والذب عن الاسلام في حين يعتبر المتوكل بن الافطس أول من فكر من ملوك الطوائف في الاستعانة بالمرابطين ضد قوى المسيحية في الشبانيا ، وتبعه في ذلك المعتمد بن عباد. ، ومما لاشك فيه ان المعتمد ابن عباد باعتباره اعظم ملوك الطوائف قدرا واشدهم بأسا وأكثرهم هيبة، تحمس تحمسا شديدا لفكرة الاستعانة بالمرابطين ، ولم يلبث أن تزعمها بعد أن وجد تجاوبا من جاريه. المتوكل على الله صاحب مملكة بطليوس. والامير عبد الله بن بلقين صاحب مملكة غرناطة ، وعمد بالاتفاق مع صاحبيه الى تحريك كل من القليعي قاضي غرناطة وأبى اسحق بن مقانا قاضي بطليوس الى الاجتماع بأبى بكر عبيد الله بن أدهم قاضي قرطبة في مقره باشبيلية (١٢) . وتم الاجتماع بحضور الوزير ابن زيدون . ، وفيه تقرير ارسال سفارة مشتركة منهم الى يوسف بن

(١) ابن الكردبوس ، نصاب جديدان ، ص ٨٩ - ٩٠

(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٢ - ١٠٦

(٣) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩ - الحميري ،

الروض المعطار ، ص ٨٣

تاشفين ، وكان ذلك أول احتكاك على المستوى الرسمى بين ملوك الطوائف وبين أمير المرابطين ، ثم أعقبت ذلك زيارة المعتمد بن عباد ليوسف بن تاشفين فى المغرب (١) ، وتنازله له عن الجزيرة الخضراء للمجاز الى الاندلس ، وقد رسخت هذه الزيارة الصلات بين ملوك الطوائف يمثلهم ابن عباد وبين يوسف بن تاشفين .

(١) ذكر ابن الأبار أن المعتمد بن عباد عبر البحر بنفسه مع جماعة من الزعماء للالتقاء بيوسف بن تاشفين ، وتلييدا ، لهذا ، الخبر يذكر ابن الأبار أن أبا عبيد الله البكرى الجغرافى الشاعر قال فى المعتمد بعض الأشعار عند إجازته البحر ، مستجيرا بابن تاشفين . (ابن الأبار ، الحلة السرياء ، ج ٢ ، ص ١٨٦) .

(٥)

هزيمة الفونسو السادس في الزلاقة من أرض

بطليوس

١ - مقدمات المعركة :

اشرنا فيما سبق الى ان ابن عباد تبين له بعد طول محالفته لالفونسو السادس ان هذا الملك المسيحي كان يتخذ من تحالفه معه قناعا زائفا يخفى حقيقة نواياه في انتزاع اراضي المسلمين ، وتوحيد اسبانيا تحت لوائه ، فقد أخذ يحقق اهدافه بعيدة المدى ، الهدف بعد الآخر ، فبعد ان جرد مملكة ابن ذى النون من حصونها المانعة ، انفرد بطليطة نفسها واستولى عليها ، وبدأ ينفذ نفس السياسة مع المعتمد ابن عباد ، الذى تنبه بعد غفلته الى حقيقة ما يسعى اليه الفونسو السادس ، وأثر ان يكون تابعا لامير مسلم ، وان كان بدويا جلفا على ملك مسيحي (١) .

وكان ذلك بداية لاتصالاته المكثفة بابن تاشفين على النحو الذى اشرنا اليه (٢) ، وهى اتصالات انتهت بعزم ابن تاشفين على الجواز

(١) يذكر الامير عبد الله الزيرى ان « الفونس » سأل المعتمد وكان قد عقد معه محادثات كثيرة أن يتخلى له عن معقل « كان الموت عنده أولى من اعطائها ، فوجست نفسه منه بالجملنة ورام كسره بطوائف المرابطين » (ص ١٠٢)

(٢) بدأت هذه الاتصالات بمكاتبات وانتهت فى اواخر عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) بزيارة قام بها المعتمد الى ابن تاشفين قيل فى موضع من طنجة يعرف ببليطة على بعد ثلاثة مراحل من سبتة (ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٣) . ويذكر ابن الخطيب أن المعتمد جاز اليه فى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) بأسطول الاندلس جوازا فخما ، واختار لمصاحبه فى سفره الخواص والاعيان بعد أن استخلف على اشبيلية ولده الرشيد (ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٤٦) ويجعل المراكشى تاريخ هذه الزيارة فى سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) (عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٣) .

الى الاندلس بعد أن خصص المعتمد لقواته مدينة الجزيرة الخضراء ^(١) لتكون قاعدة لهم ، فنزلتها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة .

ولما أطمئن ابن تاشفين الى صدق نوايا المعتمد تجاهه ، اذ كان يخشى أن يكون متفقا مع حليفه الفونسو السادس على كسره ^(٢) ، أمر قواته بالعبور الى الاندلس ، فعبرت أعداد لاتعدولاتحصى الى الجزيرة الخضراء . ويسوق ابن أبى زرع رواية عن عبور ابن تاشفين الى الاندلس جاء فيها: « فلما كمل جواز الجيوش واستوفت عساكر المجاهدين بساحل الخضراء جاز هو في اثرهم في جيش عظيم من قواد المرابطين ، وانجادهم وصلحائهم ، فلما ركب السفينة واستقر على ظهرها رفع يديه ودعا الله تعالى وفال في دعائه « اللهم ان كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرا وصالحا للمسلمين فسهل على جواز هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعبه على حتى لا أجوزه ، فسهل الله عليه الجواز في أسرع ما يكون ، فكان يوم الخميس عند الزوال بنصف ربيع الاول المبارك سنة تسع وسبعين وأربعمائة ^(٣) ، ونزل بالخضراء فصلى بها صلاة الظهر من يومه ذلك ، فالتقاه بها المعتمد في جميع أمراء الاندلس ^(٤) . . . » .

ثم بدأ في تحصين الجزيرة الخضراء واصلاح أسوارها وابراجها قبل أن يمضى في حشوده الى اشبيلية ^(٥) .

وفي تلك الاثناء كان الفونسو السادس يحاصر سرقسطة ، فلما علم بجواز امير المرابطين الى الاندلس « أسقط في يده وانحلت عزائمه ^(٦) . . » .

-
- (١) عبد الله الزيرى ، التبيان ، ص ١٠٢ ، وما يليها .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣ .
 - (٣) الموافق ٣٠ يونيو ١٠٨٦ م .
 - (٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٣ .
 - (٥) الحلل الموشية ، ص ٥١ .
 - (٦) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ .

وكان الفونسو قد عزم عزمًا صادقًا على الاستيلاء على سرقسطة بعد أن سقطت طليطلة في قبضته ، فبادر بأحكام الحصار حولها في صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م) ، وأقسم ألا يرفع حصاره عنها حتى تسقط في يده أو يهلك دونها (١) . وكان صاحب سرقسطة آنذاك هو أحمد المستعين (٢) بن هود ، الذي سرعان ما أدرك مدى خطورة

(١) ابن الكردبوس ، تاريخ الاندلس ، تحقيق د. مختار العبادي ، ص ٩١ .

R. Menendez - Pidal, La España del Cid, t. I, P. 300 - A. Huici Miranda, la invasion de los Almorávides y la batalla de zallaca, Hespéris, t. XL, Paris, 1953, P. 32.

(٢) أحمد المستعين بالله بن هود ، هو ولد يوسف المؤمن بن هود ويعرف بالمستعين الأصغر ، وشهد في بداية عهده (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) هجوم الفونسو السادس على سرقسطة وحصارها لها ، وما كاد يتخلص من مشكلة الحصار الفستالي عند نزول المرابطين الاندلس حتى زج نفسه في سلسلة من المغامرات للظفر ببلنسية ، كلفته التحالف تارة مع « السيد الكمبيطور » وتارة مع برنجير كونت برشلونة ، ولم تسفر هذه المغامرات إلا عن فشل ذريع لخطته ، إذ تمكن السيد الكمبيطور من السيطرة على بلنسية . ثم تعرضت سرقسطة في عهده أيضا لاطماع شانجة راميرث ملك أرغون الذي استولى على منتشون في ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) وأقام أمام وشقة ثانية قواعد مملكة بنى هود حصنا منيعا تمهيدا للاستيلاء عليها ، ثم حاصرها شانجة راميرث ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، وتابع بطره الاول ولده حصار وشقة التي سقطت بعد معركة طويلة عرفت بالكراسة ، دارت بين جيوش المستعين تؤيده قوات الفونسو السادس وبين بطره الاول في أواخر ذي القعدة سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م) وانتهت بهزيمة المسلمين ومقتل قائد قوات الفونسو السادس وسقوط وشقة في أيدي نصارى أرغون ، وأصبحت عاصمة لهم .

وكان المستعين بالله أثناء الحصار قد أرسل الى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين يستنجد به ، فاستقبل ابن تاشفين رسوله استقبالا حسنا ، ورد على المستعين ردا طيبا . واستشهد المستعين في رجب سنة ٥٠٣ هـ (يناير سنة ١١١٠ م) في معركة دارت بينه وبين الفونسو المحارب (ابن ردمير) ملك أرغون بالقرب من حصن أرنيط (انظر ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٧٣ ، الحل الموشية ، ص ٦٩ - ٧٠ ، ابن خلدون ، العبر ، المجلد الرابع ، ص ٣٥٢)

Menendez - Pidal, la España del Cid, t. I, P. 301.

محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٨٩) .

الموقف، فبذل قضارى جهده للتصدى لهجوم الفونسو ورد عدوانه ، كما عرض عليه اموالا طائلة عسى أن يقبلها لقاء فك حصاره عن سرقسطة ورجيه عنها ، ولكن الفونسو ، وكان مصمما على انتزاع المدينة عنوة من يد بنى هود ، رفض أن يرفع الحصار ، وأصر على أن يستولى عليها مع الاموال المقدمة (١) ، وبدأ يشيع أنه فى حالة سقوط سرقسطة فى يده فسوف يحكم بالعدل بين ابنائها ، ووعد أهلها بأنه لن يفرض عليهم من الضرائب الا ما جاءت به شريعة المسلمين (٢) .

وظل الفونسو يحكم الحصار على سرقسطة الى أن وصلته،الاتباء بقدم المرابطين ، فحاول حينئذ خداع المستعين ظنا منه أن المستعين لم يكن على علم بجواز ابن تاسفين ، فبعث اليه من يبلغه باستعداده لقبول الجزية التى سبق أن عرضها امير سرقسطة ، ولكن المستعين بن هود ، وكان قد اطمأن جانبه بقرب مجيء اللمتونيين ، أبى أن يدفع اليه درهما خشية أن يتقوى به ويستعين (٣) ، وعندئذ اضطر الفونسو الى رفع الحصار عن سرقسطة،وقفل عائدا الى بلاده لمواجهة خطر المرابطين الداهم ، فبعث الى ابن ردمير (الفونسو المحارب) Sancho Ramirez والى البرهانس Alvar Hafez ، وكان ابن ردمير يحاصر مدينة طرطوشة ، أما البرهاس فكان يحاصر بلنسية ، فبادرا بموافاته بجيوشهما، ولحقا به ، وكذلك بعث الى بلد قشتالة Castilla وجليقية Galicia وبيونة Bayona ، فأتته من قوات الروم حشود لاتحصى ، فلما

Huici Miranda, op. cit. P. 33.

(١)

(٢) ذكر ابن الكردبوس ان الفنش « جعل لكل من دان له من الاسلام البر والرعاية وأخذ نفسه بالعدل فيهم والامان ، والرفق فى اليسر والاعلان ، ووعدهم ألا يلزمهم غير ما توجبه السنة الاسلامية ، وأنه يحملهم فى سائر ذلك على الحرية . وقد كان قد تحقق أنه فرق على ضعفاء أهل طليطلة مائة ألف دينار ليستعينوا بها على الزراعة والاعتماد ، فاستدل أهل طليطلة على صدق مقاله ، وتحقق فعاله » (أنظر ابن الكردبوس ، تاريخ الاندلس ، ص ٩١) .

(٣) ابن الكردبوس ، نفس المصدر ، ص ٩٢ . وأنظر Menendez - Pidal, op. cit. P. 331.

تجمعت لديه هذه القوى شرع في التحرك للقاء يوسف بن تاشفين وجيوش المسلمين (١) .

وذكر الحميري انه استنفر جميع اهل بلاده وما يليها وما وراءها، فاجتمع له من الجلالقة والافرنجة وما يليهم مالا يحصى عدده (٢) .

ولا نشك في أن المعركة التي كان يقودها الفونسو السادس ومن تابش اليه من الجلالقة والافرنجة والرومية ، كانت حربا صليبية واضحة المعالم فقد كان الفونسو قد دعا قومه وجيرانه من الافرنجة الى هذه المعركة ، ويذكر الحميري أن القسيسيين والرهبان والاساقفة شاركوا في المعركة، «ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم» (٣) ، فالمعركة كانت معركة مصير بين بقاء الاسلام في الاندلس او انتصار كفة المسيحية .

ويذكر الحميري ان المعتمد بن عباد اوفد ولده عبد الله لاستقبال يوسف بن تاشفين عند جوازه الى الجزيرة الخضراء ، واستقبل اهل الجزيرة المرابطين استقبالا حافلا ، فأقاموا لهم الاسمطة ، وزودوهم

(١) ابن الكردبوس ، ص ٩٢ ، ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ ، عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٣٢ ،

Huici Miranda, op. cit. P. 35.

وتبالغ مدونة لوزيتانو المسيحية في ذكر من توافد من الممالك المسيحية الى الفونسو السادس، فتذكر أنه تقاطرت عليه سيول من الفرنجة ومن بلاد الالب

«Ubi unanimites convenerunt cum rege nostro christiani a partibus Alpes, multique Francorum in adjutorium ei affuerunt»
انظر
Franc. Henrique Florez, España sagrada, t. XIV, chronicon lusitanum, P. 405, AEra 1125.

Menendez - pidal, la España del Cid, t. I, P. 331.

وراجع
وعن وفود القوات الافرنجية (الفرنسيين) يذكر الفونسو العاشر انه انضم الى قوات الفونسو قوة كبيرة من الفرنسيين

Primera Crónica general de España, P. 577

(٢) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨

(٣) الحميري ، المصدر السابق ، ص ٨٨

• بالاقوات والضيافات (١) •

وفي تلك الاثناء ، كان يوسف بن تاشفين قد انتهى من تحصين الجزيرة الخضراء (٢) ، وبدأت حشوده تتجه نحو اشبيلية قوة بعد قوة . ويذكر المؤرخون أن ابن عباد تلقاه على مقربة من اشبيلية على بعد مرحلة من الجزيرة في مائة فارس (٣) ووجوه أهل رجاله ، فالتقيا منفردين ، وتصافحا وتعانقا . في محبة وإخاء . ويصف صاحب الحل الموشية مادار بينهما في هذا اللقاء بقوله « فسلم عليه ، وهم ابن عباد بتقبيل يديه » ، فبادر لمعانقته وسأله عن حاله وانبط معه في الحديث ، وهناه ابن عباد بالسلامة ، ولحقت ضيافات ابن عباد ، فعمت جميع المحلة على حال كبرها (٤) « ثم ركب ابن عباد واستعرض العساكر الممتونية وأخذ يدور بمحلتها ، فالفى أمامه جندا أقوياء ، تتفجر في وجوههم الحمية والحماسة ، فاطمأن قلبه ، وهذات نفسه ، وأيقن بنصر من الله قريب ، وحمد الله وسجد له » ، وعفرو وجهه في التراب تواضعا لله سبحانه وتعالى (٥) .

وبعد هذا اللقاء العاطفى عاد يوسف الى محلته ، وعاد ابن عباد الى معسكره ، فبات الجميع تلك الليلة ، وفي اليوم التالى ارتحلوا جميعا الى اشبيلية ، وهناك أقاموا ثلاثة أيام أنتقلوا بعدها الى بطليوس (٦) .

(١) الحميرى ، نفس المصدر ، ص ٨٧ .
 (٢) الحل الموشية ، ص ٥١ ، يقول صاحب الحل الموشية بهذا الصدد « ولما احتل يوسف بن تاشفين بالجزيرة شرع فى بناء أسوارها ، ورم ماتشعث من أبراجها ، وحفر الحفير عليها ، وشحنها بالاطعمة والاسلحة ، ورتب فيها عسكرا انتقاه من نخبة رجاله » .
 (٣) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧ ، الحل الموشية ، ص ٥١ .

(٤) الحل الموشية ، ص ٥١ وما يليها .
 (٥) المصدر السابق ، ص ٥٢ .
 (٦) نفس المرجع ، ص ٥١ .

وكان ابن تاشفين أثناء اقامته في اشبيلية ، قد ارسل الى جميع ملوك الطوائف بالاندلس (١) ، يستنفرهم للجهاد ويدعوهم لقتال العدو ، فبادر جميعهم بالاستجابة لدعوته ، واخرجوا مالدبيهم ، واقبلوا من كل صقع من اصقاع الاندلس صابرين ومجاهدين (٢) ، باستثناء المعتصم بالله ابو يحيى محمد بن معن بن صمادح ، صاحب المرية الذي اعتذر بضعفه وكبر سنه وانشغاله بحصار العدو لحصن لبيط (٣) ، ولكنه كان في حقيقة الامر متخوفا من نوايا المرابطين ، وكان يشك في انتصارهم على الفونسو السادس « فبقى متربصا ليرى كيفية الامر » ، ومخبره مع الروم (٤) ، واكتفى بارسال ابنه معز الدولة ليعتذر عن غياب أبيه .

ويتفق صاحب الحلل الموشية ، والامير عبد الله الزيري على موقف ابن صمادح المتخاذل تجاه يوسف بن تاشفين ، وان كان ابن ابي زرع وهو مشكوك في روايته قد اورد في روض القرطاس نصا يفهم منه ان ابن صمادح صاحب المرية قد خرج بنفسه للقتال مع المرابطين ، فيذكر أسماء من شارك في موقعة الزلاقة من ملوك الطوائف مع ابن تاشفين فيقول : « وتقدم ايضا المعتمد بن عباد امام ابن عائشة مع امراء الاندلس وجيوشهم ، منهم ابن صمادح صاحب المرية ، وابن حبوس (٥) صاحب

(١) عبد الله الزيري ، التبيان ، ص ١٠٤ ، الحلل الموشية ، ص ٥٢ ، وقد أدركه الامير عبد الله الزيري بقواته عند جريشه Jerez de los Caballeros وهو في طريقه الى بطليوس (Huiot Miranda, op. cit, p. 40). كذلك أدركه المتوكل ابن الافطس في عسكره ببطلليوس (مذكرات الامير عبد الله الزيري ، ص ١٠٤ ، (كما لحقه تميم صاحب مالقة . (الحلل الموشية ، ص ٥٢) .

(٢) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨ .

(٣) الحلل الموشية ، ص ٥٢ .

(٤) عبد الله الزيري ، التبيان ، ص ١٠٤ .

(٥) المقصود به الامير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري الصنهاجي .

غرناطة وان مسلمة صاحب الثغر الاعلى (١) ، وابن ذى النون (٢) ، وابن الافطس ، وبنوعزون (٣) « . »

ولكن يبدو أن ابن ابي زرع كان يقصد معز الدولة بن صمادح الابن وليس الاب محمد بن معن بن صمادح الذى كان موقفه واضحاً كل الوضوح فى الحلل الموسية الى جانب مذكرات أحد أمراء الطوائف وهو الامير عبد الله الزيرى الذى شارك مشاركة فعلية فى المعركة .

وتجمع المصادر العربية على أن المتوكل عمير بن الافطس كان من بين المشتركين فى معركة المصير فى الاندلس ، فقد تأهب للجهاد ، وأسرع للقاء يوسف بن تاشفين ، ووطن العزم على الموت فى هذه المعركة الفاصلة (٤) ، وقد خرج ليلقى ابن تاشفين على ثلاثة مراحل من بطليوس « احتفل لهم بالتضييف والغف والقرى الواسع » (٥) . وكان المتوكل خلال الفترة التى شغل فيها المعتمد بدعوة المرابطين الى الاندلس يحضن ثغوره ، ويسد عورات مدنه ، ويرمم ما هوى من أسوارها ، ومع ذلك فلم يكن بمنأى عن الاحداث ، فقد ظل متابعا لكل ما يطرأ على الموقف ، وتحول عداؤه القديم لبنى عباد الى تحالف من أجل انقاذ الاسلام فى

(١) يذكر صاحب الروض القرطاس هذا الاسم خطأ ، فبنو مسلمة هم بنو الافطس أصحاب بطليوس ، والافطس اسم الشهرة ، أما أصحاب الثغر الاعلى فهم بنو هود الجذاميون .
(٢) لم يكن ابن ذى النون ، ويقصد به القادر بالله ، مشاركا للملك الطوائف فى هذه المعركة ، فقد كانت طليطلة قاعدته قد سقطت قبل ذلك بعام فى حين رحل هو الى بلنسية ، فى رفقة البرهانس القائد القشتالى فدخلها بدون قتال ، وكان مكروها من رعاياه ، ثم اضطر البرهانس الى ترك بلنسية للاشتراك مع ملكه الفونسو السادس فى معركة الزلاقة ، وانتهاز المنذر صاحب لاردة ، هذه الفرصة فهاجم القادر الذى استنجد فى نفس الوقت بملك قشتالة وملك سرقسطة .

(٣) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ .

(٤) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٤ .

(٥) الحلل الموسية ، ص ٥٣ .

الاندلس ، وكان هو والامير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة والمعتمد ابن عباد يؤلفون حلفا ثلاثيا يمثل دول الطوائف ضد الفونسو السادس ، وقد رأيناه اول من بدأ بمخاطبة يوسف بن تاشفين يستحثه لانقاذ اهل الاندلس ، ويؤكد ابن بسام أنه كتب اليه رسالتين أخريين نسخهما وزيره الكاتب ابن ايمن (١) .

واقام ابن تاشفين في جيوشه ببطليوس عدة أيام حتى بلغتهم الانباء بوصول الفونسو السادس ملك قشتالة ، بعد أن رفع حصاره عن سرقسطة واتجه بحشوده الكثيفة التي تقاطرت اليه من سائر اسبانيا وجنوبى فرنسا وايطاليا (٢) نحو بطليوس ، يروم الملاقاة ويحدوه الامل في قهر المرابطين .

ويبدو أن حشود المسلمين نجملت بازاء مدينة بطليوس ، لم تبعد عنها كثيرا ، ويعبر الامير عبد الله الزيرى عن ذلك في مذكراته بقوله « ونحن بازاء المدينة متربصون أن كانت لنا ، فيها ونعمت ، وإن اسم تكن : كانت وراونا حرزا ومعقلا نأوى اليها ، وأمير المسلمين يدبر هذا الامر بحسن رأيه ويلتوى ، عسى أن تقع الملاقاة بتلك الناحية دون أن يحوج الى التوغل في بلادهم » (٣) .

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، المجلد الثانى ، القسم الثانى ، ص ٦٥٤ وما يليها .

(٢) Menendez - Pidal, op. cit. P 334 . وذكر ابن الكردبوس أن الفونسو كتب الى جميع النصارى « معلما بجواز المرابطين ، فوافاه اهل قشتالة في عدد لا يحصى ، وأقلع قائده البرهانس عن بلنسية فلحق به ، وأقبلت عليه العساكر من أقصى الرومية حتى ملأوا البطاح والافضية فأعجب بنفسه ، وقد وثق بكثرة من اجتمع اليه من أبناء جنسه وأقسم أنه لا يقوم له طالب لا يغلبه مغالب وانفصل عن طليطلة بجيوشه التي ضاقت بها البطاح ، ولم يصحبها نصر ولانجاج ، كانها الليل الدامس ، والبحر الطامس ، قد لبسوا الدروع الضافية ، وتقلدوا السيوف الماضية ، وتقلسوا بالحديد ، وتقدموا ببأس شديد ، طبولهم القرون ، والويتهم كأنها السحاب الجون » (ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص ٩٢) .

(٣) مذكرات عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥ .

وما ان اقتربت حشود الفونسو من تجمعات المسلمين حتى بادر
بارسال رسالة الى يوسف بن تاشفين عن طريق المتوكل بن الافطس (١)
يقول له فيها : « هانا قد اقبلت اريد ملاقاتك وانت تتريص وتختبىء
لاهل المدينة (٢) » . فاما وصلت رسالته هذه الى يوسف بن تاشفين عن
طريق عمر المتوكل لم يكن امام امير المرابطين سوى ان ينتقل اليه
ليقترب بجيشه من جيش العدو ، وانتهى الامر بان تواعد معه على
اليوم الذى يبدأ فيه القتال (٣) .

ويورد صاحب الحلل الموشية رواية تفسر السبب فى الكتاب الذى
ارسله الفونسو الى المتوكل ليبلغه بدوره الى ابن تاشفين وفيه يطلب
منه تحديد يوم اللقاء للمعركة الفاصلة ، جاء فيها ان يوسف بن تاشفين
حين اقترب من بطليوس ، ارسل وهو قريب من فحص الزلاقة « كتابا
على مقتضى السنة » خير فيه الفونسو السادس بين ثلاثة : الدخول فى
الاسلام أو الجزية أو القتال ، وختم خطابه بقوله « وقد بلغنا يا اذفونش
انك دعوت الى الاجتماع بك ، وتمنيت ان تكون لك فلك تعبر البحر

-
- (١) بينما يذكر الحميرى ان الفونسو كتب الى يوسف بن تاشفين عن
طريق ابن عباد ، يقول الحميرى « وبعث ابن فردلند الى ابن عباد
ان صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده ، وخاض البحور وانا اكفيه
العناء فيما بقى ، ولا اكلفكم تعباً ، امضى اليكم والقاكم فى بلادكم
رفقا بكم وتوفيرا عليكم » يقصد ان يدعو الى المضى الى المرابطين
لمحاربتهم فى بلادهم (الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨)
(٢) عبد الله الزيرى ، التبيان ، ص ١٠٥ .
(٣) ذكر صاحب الحلل الموشية انه لما احتلت عساكر المسلمين بظاهر
بطليوس واحتل اذفونش بفحص الزلاقة على أربعة فراسخ من
بطليوس كتب الى امير المسلمين مكررا منه يقول « ان غدا يوم
الجمعة ولانحب مقاتلتكم فيه لانه عيدكم ، وبعد السبت يوم عيد
اليهود ، وهم كثيرون فى محلتنا ونحن نفتقر اليهم ، وبعد الاحد
عيدنا ، فنحترم هذه الاعياد ويكون اللقاء يوم الاثنين ، فقال امير
المسلمين « اتركوا اللعين وما احب » (ص ٥٧) .
ولا نستبعد من الفونسو هذا التصرف المخادع ، ولا من ابن
تاشفين موافقته على اليوم الذى حدده الفونسو للقاء ، فقد كان
يوسف متلهفا على الجهاد واثقا بنصر الله .

عليها.لينا، فقد اجتزنه اليك وجمع الله في هذه العرصة بيننا. وبينك
وسترى عاقبة دعائك « وما دعاء الكافرين الا في ضلال » (١) .

فلما وصلت هذه الرسالة الى الفونسو السادس ، اشتد غضبه ،
وقرر الايبرح مكانه ، واصطنع الحيلة في استدراج ابن تاشفين اليه ويفأجاه
بالحجوم بدلا من أن يمضى هو اليه ، وقد احتتمى بمدينة بطليوس ، فاذا
ما انتصر النصرى تمكن الفونسو من قتله بسهولة. ، ويختم كلامه بأن
بينهما هذا البسيط المتسع وكان يقصد به فحص الزلاقة (٢) .

ونفهم من رواية صاحب الحل أن الرسالة التى أرسلها يوسف بن
تاشفين الى الفونسو السادس عند اقترابه من بطليوس يخيره فيها بين
الاسلام أو الجزية أو الحرب انما كتبها وهو في طريقه من اشبيلية الى
بطليوس أى قبل أن يمضى الى فحص الزلاقة ، وهو أمر نستبعده ،
فلا يعقل أن يوجه ابن تاشفين هذه الرسالة قبل أن يعبىء قواته للقتال
في أرض المعركة ، ثم أن الفونسو لم يكن قد وصل بعد الى موقعه
من الزلاقة . ويسوق صاحب روض القرطاس رواية أقرب الى رواية صاحب
الحل ، فيذكر أن قوات المسلمين نزلت بمدينة طرطوشة فأقاموا بها
ثلاثة أيام وكتب منها يوسف بن تاشفين كتابا الى الفتنش يدعوه فيه الى
الجزية أو الحرب أو الاسلام . ، فلما وصل كتابه الى الفتنش أدركته
الانفة وداخله الكبر ، وقال للرسول : قل للامير لا تتعب نفسك انا أصل
اليك . فارتحل يوسف وارتحل الفتنش حتى نزل بالقرب من بطليوس ،
ونزل يوسف بموضع يعرف بالزلاقة من احواز بطليوس (٣) » .

ونستنتج من ذلك أن ابن تاشفين وجه رسالته الى الفونسو بعد
رحيله من بطليوس في طريقة الى أرض المعركة بعد اقامته في بطليوس

(١) الحل الموشية ، ص ٥٣

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ .

واثناء خروجه منها لتحديد موقع المعركة . ومع ذلك فنحن نشك في انه كتب اليه من طرطوشة الوارد ذكرها في روض القرطاس لوقوعها في اقصى الشمال الشرقى من بلاد الاندلس ، والارجح انه كتب اليه عندما كان معسكرا بقواته بازاء بطليوس اى قبل ان يتفق مع الفونسو على موعد القتال وهو ما يؤكدده الحميرى اذ يقول «فاناخوا بظاھرھا، وخرج اليھم المتوكل عمر بن محمد فلقیھم بما يجب من الاقوات والضيافات ، وبذل مجهوده ٠٠٠ ثم كتب يوسف الى ابن فرذلند يدعوه الى الاسلام او الجزية او ياذن بحربه ، فامتلا غيطا وعتا وطغا (١) ٠٠٠٠

ويمكننا من خلال مذكرات الامير عبد الله الزيرى ان نربط سلسلة الاحداث ببعضها البعض ، فالامير عبد الله الزيرى يؤكد ان الفونسو ارسل الى ابن تاشفين اثناء اقامته في بطليوس ذاتها رسالة عن طريق ابن الافطس سبق ان اوردناها يقول « ما انا قد اقبلت اريد ملاقاتك ، وانت تتربص وتختبىء لاصل المدينة » (٢) .

ويؤكد الامير الزيرى انه عقب رسالة الفونسو هذه لم يكن امام ابن تاشفين سوى ان ينتقل خارج بطليوس ليكون على مقربة منه . وفى ذلك يقول الامير عبد الله الزيرى « فلم يكن بد ان ينتقل اليه ليكون الجيش على مقربة منه ، وتواعدا للقاء في يوم سمياه (٣) ٠٠٠٠ » .

ومن سياق الكلام يتبين لنا انه على اثر رسالة الفونسو للمرابطين وهم في بطليوس امر ابن تاشفين بالانتقال خارج المدينة في مكان المعركة الذى حدده كل من الحميرى (٤) وابن الكردبوس (٥) وصاحب الحل

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٠

(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٥

(٤) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧ - ٩٣

(٥) ابن الكردبوس ، نصاب جديان ، تحقيق د. مختار العبادى ، ص ٩٣ .

الموشية^(١) بفحص الزلافة الذى دارت فيه المعركة ، ونستنتج من هذه النصوص المختلفة الحقائق التالية :

١ - أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون ابن تاشفين قد انتقل من بطليوس الى طرطوشة كما ذكر ابن أبى زرع وأقام بها مدة ثلاثة أيام أرسل خلالها رسالته الى الفونسو السادس، ثم عاد ابن تاشفين مرة ثانية الى فحص الزلافة ليكون قريبا من الفنش الذى كان قريبا من بطليوس ، فطرطوشة تبعد عن بلنسية بنحو مائة ميل وعشرين ميلا^(٢) ، وهى فى أقصى الشمال الشرقى من الاندلس ومن المحال أن ينتقل جيش بأكمله من غرب الاندلس الى شرقه مرتين ذهابا واثباتا فى فترة وجيزة قدرها بضعة أيام ، هذا الى جانب أنه لم يكن هناك أى مبرر لذهابه الى مدينة طرطوشة . وحتى لو افترضنا أن ابن أبى زرع قد اختلط عليه الامر وأن ذهاب ابن تاشفين الى طرطوشة واقامته بها مدة ثلاثة أيام كان عقب جوازه للاندلس واقامته بالجزيرة الخضراء مباشرة فإن هذا الافتراض لا يتمشى مع المنطق ولا مع تسلسل الاحداث ولا مع ما ذكرته المصادر العربية فى هذا الصدد ، فجميع المصادر اجمعت على أن ابن عباد قد أرسل ابنه عبد الله لاستقبال أمير المرابطين فى الجزيرة الخضراء بعد أن اخلاها له ابنه الراضى، ثم توجه ابن تاشفين بعد أن انتهى من تحصينه للجزيرة الخضراء الى اشبيلية حيث استقبله المعتمد بن عباد فى منتصف الطريق ، يضاف الى هذا أن طرطوشة تبعد كثيرا عن الجزيرة الخضراء وعن بطليوس .

وبهذا لم يتبق أمامنا الا أن نرفض ذهاب ابن تاشفين بقواته الى طرطوشة اللهم الا اذا كان قد توجه على رأس جزء من قواته اليها فى الفترة ما بين انتقاله من الجزيرة الخضراء ، وبين تحديده لتاريخ وموقع

(١) الحلل الموشية ، ص ٥٣

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٢٤

المعركة مع الفونسو السادس لفك حصار ابن ردمير (شانجة راميرث) ملك ارغون عنها وكان يحاصرها في ذلك الوقت ، ولكن لم يحدد أى مصدر من المصادر المعاصرة هذا بوضوح أو حتى بإشارة بسيطة ، هذا الى جانب ان الفونسو السادس كان كما سبق أن أوضحنا قد طلب من ابن ردمير (شانجة راميرث) أن يهرع لنجدة ، وحشد كل قوات المسيحية ضد المرابطين (١) ، وبهذا يتضح لنا أن حصار شانجة راميرث لطرطوشة قد انتهى بمجرد جواز أمير المرابطين الى الاندلس . ونعتقد ان صاحب روض القرطاس انما كان يقصد بطرطوشة مدينة جريشة أو شريشة Jerez de Los Caballeros ، فاسمها اقرب في رسمه الى طرطوشة ، ومع ذلك فاننا نستبعد ذلك لان جريشة تقع الى الجنوب الشرقى من بطليوس على مسافة تبعد عنها بما لا يقل عن ٧٠ كيلومترا ولاعجب في هذه الخطاء التى يقع فيها صاحب روض القرطاس .

٢ - فيما يتعلق برواية صاحب الحلل الموسية ، فقد سبق أن استبعدنا قوله بأن رسالة ابن تاشفين لالفونسو وجهت أثناء سيره من اشبيلية الى بطليوس ، وان كنا نعتقد أن هذه الرسالة أرسلت من فحصى الزلافة بعد خروج جيوش المسلمين من بطليوس في طريقهم الى ارض المعركة استعدادا للقتال وليس قبل وصولهم الى بطليوس كما ذكر صاحب الحلل .

٣ - وفقا لرواية الحميرى ، فسر الفونسو السادس لاصحابه السبب فى اصراره على التحرك للقاء المرابطين ، ورفض مجيئهم اليه لى بحاربوه بأنه كان سخطى فى حالة اذا ما حاربه المرابطون فى عقر داره وعلى ابواب مملكته ، ثم دارت عليه الدوائر ، وهزم فى هذه الواقعة ان يكتسح المرابطون بلادهم وتولوا على عرشه . وكما أوضح لهم كيف

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٢

انه يخطط للاستيلاء على كافة اراضى المسلمين عند انتصاره هو عليهم وهو يقاتلهم فى اراضيهم وفى قلب ممالكهم (١) .

ب - القوات المسيحية والقوات الاسلامية امام بطليوس

ولقد تعددت الروايات بشأن تقدير عدد قوات المسلمين والنصارى غير ان جميع المصادر تجمع على ان عدد المسلمين كان اقل من عدد النصارى (٢) ، فصاحب الحلل الموشية يذكر أن عدة جيش النصارى بلغت ثمانين الف فارس يلبسون الدروع ، بينما كان عسكر المسلمين يناهز خمسين ألف فارس : ٢٤ ألفا من فرسان الاندلس ما بين مدرع ولايس ومثلها أو اكثر منها مرابطون واهل العدو (٣) .

ويذكر الحميرى أن المختارين من أجناده بلغوا على أقل تقدير أربعين ألف دارع (٤) ، كما يذكر أن عدة المسلمين كانت أقل من عدة المسيحيين (٥) ، وذكر ابن الكردبوس فى تاريخه أنه كان قد خرج للقاء المسلمين فى ستين ألف فارس (٦) ، أما صاحب روض القرطاس فقد بالغ فى ذكر عدد قوات الفونسو ، فذكر أن عدد الروم فيما نقل ثمانين ألف فارس ومائتى ألف راجل وأنهم قتلوا جميعا ولم ينج منهم الا الفئش فى مائة فارس (٧) ويجعل عبد الواحد المراكشى عدد قوات المسلمين عشرين ألفا من المتطوعة والمرتزقة (٨) .

-
- (١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨
 (٢) الحلل الموشية ، ص ٥٦ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٢ .
 (٣) الحلل الموشية ، ص ٥٦
 (٤) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨
 (٥) المصدر السابق ، ص ٨٨
 (٦) ابن الكردبوس ، ص ٩٤ Huici Miranda, op. cit, P. 47
 (٧) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٦
 (٨) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٣

انتقل يوسف بن تاشفين بعد ذلك الى موقع الزلاقة « من أحوار بطليوس (١) »، ويقول صاحب الحلل الموشية في ذلك انه « لما احتلت عساكر المسلمين بظاهر بطليوس واحتل اذفنش بفحص الزلاقة على اربعة فراسخ من بطليوس (٢) »، انقسم جيش المسلمين الى قسمين، القوات الاندلسية، والقوات المرابطية، فقد تقدم المعتمد بن عباد وامراء الاندلس فنزلوا بجهة غير الجهة التي نزل بها ابن تاشفين والمرابطون، ويغلب على الظن أن جيوش أهل الاندلس، وكان يتولى قيادتها من ملوك الطوائف المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس، وعبد الله وتميم ولدى بلقين (٣)، اختبأت خلف ربوة حاجزة ربما للاحتماء وراء هذا المانع أو لتعمية رجال الفونسو عن تقدير عددها الحقيقي، وليس كما يزعم صاحب روض القرطاس (٤). وهذا يعنى بصراحة وجود تموجات في أرض المعركة كانت تحمى قوات المسلمين، وهو ما أشار اليه يوسف بن تاشفين في خطابه الذى أرسله الى تميم بن المعز ابن باديس بالمهدية يصف فيه انتصاره الساحق على جيوش النصارى، وفيه يقول « واستشهد الكل بحمد الله، وصاروا الى رضوان الله، ونحن في ذلك كله غافلون، حتى ورد علينا وارد، وقصد الينا قاصد، فخرجنا من وراء الشعب كقطع اللهب بجميع من معنا (٥) »، وتصف مدونة الفونسو العاشر المعروفة بتاريخ اسبانيا العام، معسكر

-
- (١) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٩٤
 (٢) الحلل الموشية، ص ٥٧، ويجعل ابن الكردبوس المسافة ثلاثة اميال (ابن الكردبوس، ص ٩٣)
 (٣) ذكر صاحب الحلل أن ملوك الطوائف بالاندلس اتفقوا على أن يكون المعتمد ابن عباد في قلب المقدمة والمتوكل بن الافطس في ميمنتها وأهل شرق الاندلس في ميسرتها وسائر أهل الاندلس في الساقة، والمرابطون وأهل العدو كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء (ص ٥٩)
 (٤) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٩٤
 (٥) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ملحق ١، ص ٤٤٩

يوسف بن تاشفين الذى تحصن وراء خندق اقامه حوله
 Quo estaban bien cercadas de carcauu (١)
 وربما كان الفونسو العاشر يعنى بهذا الخندق ما ذكره ابن الكردبوس
 بقوله « نزل بين جبليين » (٢) ، وكان يفصل بين المسلمين والمسيحيين
 رافد لواديانه يسمى اليوم جبريرو Guerrero (٣) . ويعزوكل من
 مانويل البران Manuel Albarran (٤) ومنندت بيدال
 Menendez - Pidal (٥) توفيق المسلمين فى المعركة الى ذكاء يوسف
 ابن تاشفين الحاد الذى جعله يحسن استغلال طبوغرافية الموقع لتنفيذ
 مخططة ، وان كان أويشى ميراندا Huici Miranda (٦) يرى
 ان ما اوردته المصادر العربية عن اختباء جيوش المسلمين خلف وهدة
 لايعدو قصة مختلقة تماما لانه حين زار ساحة الزلاقة لم يجد شيئا من
 هذه التموجمات الارضية ، هذا الى جانب اعتماده على الحميرى فى تعريفه
 للزلاقة بأنها « بطحاء » (٨) اى انها منطقة مسطحة ، وكذلك يعتمد على
 مذكرات الامير عبد الله الزيرى الذى لا يذكر شيئا بخصوص هذا
 الموضوع .

وقد اتاحت لنا الفرصة لزيارة موقع المعركة اى ساحة الزلاقة ،
 فراينا سهلا ممتدا لا اثر فيه لاية مرتفعات ، ولكن هذا لا يمنع من وجود
 بعض الوهاد أو المرتفعات على أيام المرابطين ، وقد تكون هذه الوهدة قد
 تعرضت لبعض العوامل الطبيعية التى ازلتها اليوم أو سوتها مع سائر
 المنطقة المسطحة .

(١) Primera Cronica general de España, ed, R. Menendez Pidal, t. II, P. 558,

(٢) ابن الكردبوس ، ص ٩٣

Menendez pidal, la España del Cid, p. 333.

Albarran, el solar de los Alfisios, P. 237-238. (٤)

Menendez - pidal, la España del Cid, t. P. 333. (٥)

Huici Miranda, op. cit., p. 48.

(٦) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٣

ورغم أن أويثى لم ير هذه المرتفعات على سهل الزلاقة ، فإنه لا يوجد شاهد أو دليل أفضل من المصادر التي ذكرت وجوده وأكدته، وربما يكون الشيء الوحيد الذى لانستطيع أن نثبتته معرفة عدد المرتفعات الصغيرة التي كانت ترتفع على سطح الفحص ، وأى من هذه المرتفعات استخدمه يوسف لاختفاء كمينه ؟

وهنا أتساءل إذا كان Huici يتشكك فيما ذكر من لجوء ابن تاشفين الى هذه الحيلة بحجة أن يوسف لم يسبق له أن زار هذه المنطقة من قبل ، فكيف له أن يتكهن بوجود هذه المرتفعات لو كانت حقاً موجودة ؟ ويرى البران Albarran أن الإجابة على ذلك أمر فى غاية السهولة ولا يحتاج الى معرفة سابقة بالموضع ، فبمجرد ملاحظة وجود التموجات الطبيعية أوحى اليه بضرورة استغلالها للاستتارة خلفها (١) .

أقام المسلمون فى مواقعهم مدة ثلاثة أيام والرسل تجيء وتذهب بينهم وبين العدو الذى لم يكن يفصله عنهم سوى «نهر بطليوس» وهو نهر حاجز يشرب منه هؤلاء وهؤلاء (٢) ، وكان الفونسو كما ذكرنا قد اتفق مع ابن تاشفين على أن يبدأ القتال يوم الاثنين .

ولكن المعتمد بن عباد وكان على دراية كبرى بكل حيل الفونسو السادس داخله الشك فى نوايا الفونسو ، فنصح يوسف بن تاشفين بالاعتناء فى أقواله فهذه خديعة منه يريد بها الإيقاع بالمسلمين ، كما أمر عساكره بأن يظلوا على أهبة الاستعداد طوال يوم الجمعة (٣) . وتختلف الآراء حول هذا الموضوع وهو أمر طبيعى بالنسبة لجميع الأحداث

Albarran, op. cit, P. 239.

(١)

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٤ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٩١ .

الهامة، فقد أورد الحميرى رواية تبدو مختلفة وإن كنا سنوردها هنا لتوضيح مدى اهتمام المسلمين بهذه الواقعة وأثر هذه المعركة في تغيير مسار التاريخ الاسلامى فى الاندلس الى حد أن المصادر العربية لم تكف عن احاطتها بجو اسطورى غامض . يقول الحميرى « وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس ، بجميع المحلات ، خائفين من كيد العدو ، وبعد مضى جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبى ، وكان فى محلة ابن عباد ، فرحا ، مسرورا ، يقول انه رأى النبى ﷺ فبشره بالفتح والشهادة فى صبيحة غد وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب ، وانتهى ذلك الى ابن عباد ، فبعث الى يوسف فخبره بها تحقيقا لما توقعه من غدر ابن فرذلند ، فحذروا أجمعين ، ولم ينفع ابن فرذلند ما حاوله من غدر (١) » .

وذكر عبد الله بن بلقين فى مذكراته أن عسكر الفونسو فاجأ المسلمين « وهم على غير اعداد ، وكان مختلسا ، انما له ما ألفى فى تلك الساعة ، والقى سمه فى الرجل ، ومات منهم خلائق ممن لم يكن يقدر على نفسه (٢) » .

وفى رواية صاحب الحلل الموشية أن الفونسو استعد للغدر بالمسلمين يوم الجمعة بدلا من الاثنين ، وهو اليوم الذى اتفق عليه مع ابن تاشفين على القتال ، « لياخذهم على حين غفلة ، غدرا منه ، وارتقى فى ربوة مع جماعة زعماء قومه ليبصر اعداد جيوشه ، فأعجبه ما رأى من كثرتهم ولعان دروعهم ... فلما أعلم ابن عباد بقدوم الطاغية عليه ، بادر الركوب على غير تعبئة ولا أهبة ، وغشيتهم خيل العدو كالسيل ، وعمتهم كقطع الليل (٣) ... » .

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٠ - ٩١

(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥

(٣) الحلل الموشية ، ص ٥٩

وفي رواية عبد الواحد المراكشي أن الفونسو السادس وابن تاشفين اتفقا على أن يبدأ الاشتباك يوم الاثنين ، « وقصد - لعنه الله - مخادعة المسلمين وأغتيالهم ، فلم يتم له ما قصد ، فلما كان يوم الجمعة تآهب المسلمون لصلاة الجمعة ، ولا أمانة عندهم للقتال ، وبني يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملوك لاتعذر ، فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة ، فأما المعتمد فانه أخذ بالحزم ، فركب هو وأصحابه شاكى السلاح ، وقال لأمير المسلمين : صل في أصحابك ، فهذا يوم ماتطيب نفسى فيه وها أنا من ورائكم ، وما أظن هذا الخنزير الا وقد أضمر الفتك بالمسلمين ، فأنفذ يوسف وأصحابه في الصلاة ، فلما عقدوا الركعة الاوى ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى وحمل الاذفنى - لعنه الله - في أصحابه يظن انه قد أنتهز الفرصة ، وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس ، فأغنى ذلك اليوم ، غناء لم يشهد لاحد من قبله (١) .»

وأورد صاحب روض القرطاس نص رسالة موجهة من يوسف بن تاشفين الى بلاد العدو جاء في فقرة منها « فان العدو لعنه الله لما قربنا من حماه ، وتواقفنا بأزائه ، بلغناه الدعوة وخبرناه بين الاسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الخامس عشر لرجب . . . فافترقنا على ذلك ، واضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلناه أنهم أهل خدع ونقض عهود ، فأخذنا أمية الحرب لهم وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا الينا أحوالهم ، فأتتنا الانباء في سحر يوم الجمعة من رجب المذكور أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين (٢) . . . »

من كل ما تقدم يتضح لنا أن الفونسو اصطنع الحيلة والدهاء في حمل المسلمين على التواعد على القتال يوم الاثنين ، ولكن المعتمد تشكك

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٣٤

(٢) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٧

في الامر لما كان يعهده في الفونسو من مكر وغدر ، وتاهب من يوم الخميس لخوض المعركة . فلما اقبل الليل من يوم الخميس العاشر من رجب عام ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) اخذ المعتمد بن عباد يعبىء جيئته ويصف صفوفه استعدادا للمعركة ، وجعل عيونه يسهرون لمراقبة جيش العدو ويوافوه بأخبارهم في حالة تحركهم تجاه معسكر المسلمين ، واستمر على استنفاره حتى فجر يوم الجمعة ، وبينما كان المعتمد بن عباد يؤدي الركعة الأخيرة من صلاة الصبح ، دخل عليه رجاله المراقبون للعدو في عجلة من أمرهم وابلغوه بغدر العدو بالمسلمين وزحفهم نحوهم « بأمر كالجراد المنتشر » (١) .

فقد سمعوا ضوضاء الجيوش ، وصليل الاسلحة ، وبعد لحظات بسيطة لحق بهذه المجموعة من طلائع ابن عباد ، مجموعة أخرى من عيونه ، وكانوا قد استرقوا السمع بداخل معسكرات الفونسو السادس ، فسمعوه يأمر قواته بالهجوم على الجناح الذي يقوده ابن عباد لانه هو الوحيد في اعتقاد النصارى الذى يفهم في أصول الجهاد والحرب ، وانه وحده ادرى بالطبيعة الجغرافية للبلاد ، فاذا تمكن النصارى من هزيمته يسهل عليهم بعد ذلك التغلب على ابن تاشفين ، وكان الفونسو السادس يستهين بابن عباد ويظن ان بإمكانه القضاء عليه بكل بساطة ويسر ، فأرسل ابن عباد كاتبه ابا بكر بن القصيرة الى يوسف بن تاشفين يبلغه بهجوم العدو ويستحثه على الجهاد فجاءه ابن تاشفين يطمئنه بأنه وراءه يحميه ويدافع عنه (٢) .

وكان جيش المرابطين ينقسم الى قسمين :

القسم الاول : كان يضم فرسان البربر على مختلف قبائلهم ويتولى

(١) ابن ابي زرع ، نفس المصدر ، ص ٩٤ .

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩١ .

قيادته داوود بن عائشة وكان « لا نظير له في الحزم والعزم والنجدة »^(١) .

القسم الثانى : وينسك الجيش الاحتياطى كان يقوده يوسف بن تاشفين بنفسه وقد استبقى ابن تاشفين معه أفضل جنده من لمتونه وصنهاجه^(٢) ومصمودة وزناتة وغمارة مع الحرس الزنجى الاسود الخاص بالامير المرباطى شخصيا^(٣) .

أما قوات الفونسو فكان يقود مقدمتها القائد القشتالى البرهانس وكان معظمها من جنود أرغون والمتطوعة^(٤) . أما معظم جيشه فقد كان بقيادته شخصيا . وقبل أن يبدأ فى سرد تفاصيل واقعة الزلاقة يجدر بنا أن نذكر الطريق الذى سلكه كل من جيش المرباطين وجيش النصارى للوصول الى ساحة القتال فى فحوص الزلاقة ، وهو سهل يمتد فى الاراضى الواقعة الى الشمال الشرقى من حاضرة بنى الافطس .

فمن المعروف أن امير المرباطين كان قد اتجه مع جيوش اشبيلية نحو بطليوس لان ذلك كان الموقع الاستراتيجى الذى يجب على الفريقين المتنازعين من حيث المنهج التكتيكى البحث عنه ، مع الاخذ بعين الاعتبار اولية تقديم العون للمتوكل لعمر بن الافطس على غيره من ملوك الطوائف باعتباره أكثر هؤلاء الملوك تعرضا للخطر القشتالى ، لاسيما بعد أن قضى الفونسو على مملكة طليطلة . أما القول بأن يوسف لم تكن لديه النية فى ضياع وقت طويل للوصول الى بطليوس ، وأن هذه المدينة كانت الهدف الرئيسى لحملته التالية كما يذكر البران^(٥) فقول

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ - ٩٥

(٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٢

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٤٩٦ . Albarrran, op. cit., p. 135.

(٤) صاحب الحلل الموشية ، ص ٧٢

Albarrran, op. cit., P. 210.

(٥)

نرفضه تماما لان يوسف بن تاشفين في جوازه الثانى قد جاز الى الاندلس لفك الحصار عن حصن لييط ، وفي جوازه الثالث الذى حدث فى اوائل سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) استهدف منه الاطاحة بملوك الطوائف بدءا بالامير عبد الله بن بلقين ولو أنه كان يريد بطليوس كما يعتقد البران بحجة انه قد اختار أن يذهب الى بطليوس قبل حربه مع الفونسو وأن يستقر بظاهرها لاطماعه الشخصية فيها ، لكان قد سارع بالاستيلاء عليها فى جوازه الثانى أو حتى بعد جوازه الثالث الى الاندلس بدلا من توجهه الى غرناطة فى الجواز الثانى وخلعه لملكها ثم نفه الى ارض المغرب ، واصداره الامر لقائده الاكبر سير بن أبى بكر بمحاصرة ابن عباد فى اشبيلية ونفيه باغمات بينما ترك أمر ابن الافطس لسنوات أربعة مضت من وقعة الزلاقة (١) .

ولقد سلك المرابطون اقصر الطرق الى بطليوس وهو الطريق الذى يمر عبر سيرا مورينا بدءا بفريجينال ومرورا بشريشة وهى التى اطلق عليها العرب اسم جريشة (٢) Jerez de los caballeros وباركاروتا Barcarrota ثم لابويره la Albuera وأخيرا وصل الى بطليوس ، هذا الطريق هو نفس الطريق الذى يسلكه المسافر اليوم من اشبيلية الى بطليوس (٣) .

وقبل أن نبدأ فى سرد تفاصيل معركة الزلاقة ينبغى أن أوضح أمرا هاما وهو أن اختيار أمير المرابطين يوسف بن تاشفين لبطلليوس على وجه الخصوص دون غيرها من المناطق الثغرية الاخرى ، لتكون ميدان قتاله ضد العدو ، تم نتيجة ادراكه التام من خلال الرسائل العديدة التى سبق لابن الافطس أن أرسلها له ، بأن هذه المملكة الغنية بخيراتها ، أصبحت عرضة للخطر المسيحى عقب استيلاء الفونسو على مملكة

(١) صاحب الحل الموشية ، ص ٧٢

(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٤

(٣) تقع باركاروتا على بعد ٢٧ كم . الى الشمال من جريشه و ٤٧ كم الى الجنوب من بطليوس . أما لابويره وهى مشتقة من العربية « البحيرة » فتقع فى منتصف الطريق بين باركاروتا (٢٣ كم) وبطلليوس (٢٤م) .

طليطلة مما يؤكد وجهة نظرنا التي سبق أن أوضحناها وهى أن الفونسو السادس كان يطمح فى بطليوس بنفس قدر طعمه فى مملكة طليطلة ، وأنه لو كانت لمملكة بطليوس نفس الظروف السياسية المضطربة التى اقترنت بمملكة طليطلة لكان قد استفتح بها حروبه ضد المسلمين . ونستدل على رأينا بما ورد فى رسالة يوسف بن تاشفين الى الناصر تميم بن المعز بن باديس فى المهدية ، وفيها يشير الى خروجه من بطليوس فى طريقه للقاء الفونسو وجاء فيها : « فجمعنا عساكرنا وسرنا اليه (أى الى الفونسو) وصرنا قفل قورية عن بلاد المسلمين ، صرف الله فسمع بنا ، وقصدنا قصدنا ، وورد وردنا واحتل بفنائها منتظرا لنا » .

ونستنتج من ذلك النص أن ابن تاشفين عزم على الخروج من بطليوس نحو قورية ولكن الفونسو عجل بالمجيء الى بطليوس للقاءه ، ووضح من النص أن اهتمام يوسف ابن تاشفين كان موجها الى مملكة بنى الافطس .

ولقد انتظر يوسف بن تاشفين فى بطليوس عدة أيام لراحة قواته من جهة ، ولكى يترك للملك المسيحى فرصة التوغل فى اراضى المسلمين من جهة أخرى ، أى أن انتظاره هذا كان ضربا من الايقاع به فى شباك المسلمين ، واستمر فى ذلك الى أن تأكد له أن الفونسو قد اقترب أكثر فأكثر من معسكر المسلمين . هذه الخطة تؤكد أن اللقاء قد جرى فى اراضى قريبة للغاية من العاصمة بطليوس ، وهذا سيساعدنا على تحديد موقع الزلاقة فى يومنا هذا كما سنوضحه فى الصفحات التالية ، ومما لاشك فيه أن نزول ابن تاشفين بظاهر بطليوس يعبر عن ذكاء واضح اذ أنه باتخاذ ارض المعركة فى ظاهر بطليوس سيضمن لنفسه ولجيشه ملجأ آمينا لهم فى حالة الهزيمة أمام العدو والشئ الغريب الذى اورده الامير عبد الله الزيرى أن يوسف بن تاشفين أصابه التياث ويعتقد البران أن هذا الخوف يصيب عادة كبار السن من الخوف أو

القلق (١) لاسيما في المواقف الحاسمة وقد أشار عبد الواحد المراكشي الى ذلك بقوله « ولما تراعى الجمعان من المسلمين والنصارى ، رأى يوسف امرا عظيما هالهم من كثرة عدد وجوده سلاح وخيل وظهور قوة قتال للمعتمد : ماكنت أنظن هذا الخنزير لعنه الله يبلغ هذا الحد » (٢) ٠٠٠ اما الطريق الذى سلكه الفونسو السادس ليصل بقواته الضخمة الى ساحة القتال ، فقد قام أوليفر أسين Asin بدراسته وان كان البران يرفض نتائج دراسة أسين Asin ويرى أن الجغرافية الطبيعية هى التى تتحكم فى مسيرة الجيوش ، لذا فقد وضع خطأ آخر لسير الفونسو غير الذى اقترحه أسين (٣) ٠ ومن يتبع الخريطة الجغرافية يتبين له من المنطقى أن يكون الفونسو السادس قد هبط من قورية التى كان قد استولى عليها فى عام ٤٧٢هـ (سبتمبر ١٠٧٩م) نحو الجنوب سالكا الطريق المؤدى الى العمق الاسلامى حيث قوات المسلمين ٠ وكان على الفونسو لى ينحدر من قورية أن يسلك الطريق الى القنطرة المؤدى الى الجنوب ، وكان طريقا معروفا ومسلوكا ٠

ولكننا لانستطيع ان نحدد على وجه اليقين هل سلكه الملك الليونى مع قواته ام لا ، حيث أن القنطرة فى ذلك الوقت كانت تابعة للمسلمين ، وليس لدينا من المصادر العربية أو النصرانية ما يشير الى انها سقطت فى يد الملك المسيحي الفونسو السادس أو من قبل فى يد أبيه فردلند (فرناندو الاول) ٠

ولذلك نرجح أن يكون الفونسو ورجاله قد سلكوا قطاعا من الجادة الرومانية التى كانت تربط بين بودوا القديمة وهى القرية التى كانت تقوم فى موضع مدينة بطليوس أو قريبا منها Budua وسبتم آراس

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥ ٠

(٢) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٣٣

(٣) Albarran, op. cit, p. 213

Septum Aras التى تقع بالقرب من حصن كركر Albuquerque وهذا القطاع من الجادة يحف بمجرى خيفورا Gevora وينتهى ببطليوس والسهول ، وكانت هذه الجادة تربط بطليوس بالشمال وكان المسلمون يستخدمونها فى أسفارهم الى قورية ، بمعنى أن الفونسو سلك الطرق القديمة لكى يصل الى سهول بطليوس من الشمال ، وكان عليه أن يعبر سلاسل جبال سان بدرو التى تعترض طريقه ، ويهبط منها فيتجه المرابطون نحوها للقاءه ، وفى هذه الحالة يكون الفونسو السادس قد أصبح قريباً للغاية من بطليوس .

وإذا دققنا فى تاريخ المعركة فسنجد أن الاشتباك قد تم فى فصل الخريف ، وهو فصل معتدل بالنسبة لاقليم استراما دورا ، أيامه طويله ، أما النهر الذى كان يفصل بين المتحاربين وهو نهر جاريرو ، فقد كان ما يزال آنذاك شحيح المياه فهو لا يمتلئ بالماء إلا فى مواسم السيول ، وظاهرة وجود شريعة أو نهر كحاجز طبيعى كانت تؤخذ فى الاعتبار دائما فى التكتيك العسكرى فى العصور الوسطى خاصة فى المعارك التى كانت تدور بين المسلمين والمسيحيين ، ويؤيد هذا الاتجاه أبيات من الشعر نظمها الشاعر أبو بكر الصيرفى من شعراء القرن السادس الهجرى يدعو فيها المرابطين أن يفصل بينهم وبين النصارى نهر عند الشروع فى القتال ، لايتخطونه (١) .

ونطالع فى هذه القصيدة الابيات التى تعبر عن سياسة المسلمين فى الحروب :

خندق عليك اذا ضربت محلة
سيان تتبع ظاهرا أو تتبع
وتوق من كذب الطلائع أنه لا رأى للكذاب فيما يصنع
فاذا احترست بذاك لم يك للعدى فى فرصة أو فى انتهاز مطمع

لا تبقين النهر خلفك عندما تلقى العدو فأمره متوقع
أجعل مناجزة العدو عشية ووراءك الصدف الذى هو امنع (١)

ويعتقد البران اعتقادا راسخا أن يوسف بن تاشفين استعرض قواته
امام الفونسو السادس لتخويله وبث الذعر فى نفوس قواته ، واعتمد
البران فى رأيه هذا على نص الحميرى ، الذى قال فيه « فلما صلوا
الصبح ، ركب الجميع ، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم الى اشبيلية
ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم ، ولم يبق من ملوك
الطوائف بالاندلس الا من بادر وأعان وخرج (٢) ... » .

ولكننا لانرى ما يراه البران ، فاذا أمعنا النظر فى هذا النص
يتبين أولا أن هذا الاستعراض الذى ذكره البران (٣) لم يكن فى ظاهر
مدينة بطليوس أو فى فحوص الزلاقة ميدان القتال كما ذكر البران ،
وانما حدث اثناء خروج الجيش من الجزيرة الخضراء الى اشبيلية ونص
الحميرى صريح لايحتاج الى تفسير فى تحديد ذلك ، وثانيا أن هذا
العرض لم يكن يهدف تخويل العدو أو بث الذعر فى نفسه فالعدو كان
مايزال بعيدا عن عيون المسلمين ، وانما كان بهدف بث روح الطمأنينة
فى نفوس مسلمى الاندلس واعادة ثقتهم فى احراز النصر ليوواجهوا العدو
بأقدام ثابتة ونفوس مجبورة ، واذا كان هناك ثمة عرض عسكري أمر
به يوسف بن تاشفين فهو العرض الذى أجراه عند موضع يعرف بالركة .

فقد أورد عبد الواحد المراكشى نصا يثبت أن امير المرابطين قام
بعرض عسكري قبل الوصول الى بطليوس وليس بعد وصوله اليها وامام
العدو كما يرى البران ، يقول المراكشى « ثم أن يوسف المذكور استعرض
جنده على حصن الرقة ، فرأى منهم ما يسره ، فقال للمعتمد على

(٢) الحلل الموشية ، ص ١٢٦ ، وما يليها

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧

(٣) Albarran, el solar, op. cit, p. 226.

الله : هلم ماجئنا له من الجهاد ، وقصد العدو (١) « . » ولانعرف على وجه التحديد اين يقع حصن الرقة هذا ، فلم يأت ذكره في الروض المعطار للحميرى ، ولا في نزهة المشتاق للادريسي ، ولكن كل مانستطيع ان نؤكدده هو ان هذا الحصن يقع في الطريق الى بطليوس على مسافة بعيدة منها بدليل ان ابن تاشفين بعد استعراضه لجنده في هذا الحصن ، طلب من المعتمد الاسراع في لقاء العدو وتحقيق الهدف الرئيسى الذى من اجله جاز الى الاندلس .

واورد صاحب روض القرطاس ما يشير الى قيام ابن عباد بتعبئة كتائبه يوم الخميس العاشر من رجب استعدادا للقتال، والنص كما يلى « فلما جاء الليل من يوم الخميس العاشر لرجب المذكور عبأ ابن عباد كتائبه وصف جيوشه واستعد للقتال » (٢) .

ولستنتج من رسالة الفونسو السادس الى ابن تاشفين التى طلب منه فيها ان يكون يوم الاشتباك بينهما هو الاثنين لان الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود والاحد عيد النصارى ، ان جماعة كبيرة من اليهود شاركوا في الحرب الى جانب الفونسو . ويشير اما دور دى لوس ريوس (٣) في بحثه عن التاريخ الاجتماعى والاقتصادى لليهود الى ايثار الفونسو السادس لاصحابه اليهود الذين حاربوا معه بشجاعة في الزلاقة وانه كان يميزهم بعمائمهم السوداء والصفراء ، وكان من نتيجة ذلك المعاملة الكريمة التى عومل بها اليهود في « كتاب قوانين المدن في دولة ليون » .

واستخدم المرابطون الجمال ، وقد اربعب وجودها خيول المسيحيين

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٢

(٢) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤

(٣) Amador de los Rios, Historia social y económica de los Judios, (٣)

فنشرت عند رؤيتها وعند سماع رغائها (١) . وبينما يؤيد منندب بيدال (٢) ذلك نجد البران يعارض بحجة أن الجمل لا يصلح للقتال وإنما لنقل المتاع ، والمسلمون كانوا يحاربون على الخيل ، ويستطرد البران عرض رايه قائلا « ثم أن هذه الجمال حتى لو افترض أنها شاركت في القتال ، فإنها لم تكن لترهب قوات الفونسو أو تنفر منها الخيول لأنها كانت معروفة في اسبانيا ، ففي عصر الامارة الاموية حمل جسد المنذر من ببشتر الى قرطبة على جمل ، وفي القرن العاشر وصلت الى مدينة الزهراء قافلة من ١٣٠ جملا أرسلت من لمغرب (٣) ، واستخدم المنصور بن أبي عامر في حملته الاخيرة (٣٩٣ هـ) (١٠٠٢ م) جيشا من الجمال لحل أدوات القتال ، كما وصف ابن جياخ الشاعر البطليوسي جملا في قصيدته الوداع (٤) .

ونضيف الى هذه الامثلة التي ساقها الاستاذ البران مثلا آخر لنقش يمثل جملا نحتت صورته نحتا بسيطا في أحد الجوانب الخارجية لحوض صغير من الرخام مزين بالزخارف البارزة من جوانبه الداخلية وتمثل صور بط يصيد سمكا (٥) .

ومع ذلك فإننا نميل الى الاعتقاد بأن يوسف بن تاشفين استخدم

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ٧ ص ١١٦ ، يقول ابن خلكان « وأمر (يوسف بن تاشفين) بعبور الجمال ، فعبر منها ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة راواقط جملا ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها ، وكانت تذعر منها وتقلق ، وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأى مصيب كان يحدق بها معسكره وكان يحضرها الحرب ، فكانت خيل الفرنج تحجم عنها » .

Menendez - pidal, Espana del cid, op. cit, p. 335

Levi - Provençal, op. cit., v IV, P 201.

Albarran, el solar, op. cit., p. 231.

(٢) جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة د . لطفى

عبد البديع ، ود . السيد عبد العزيز سالم ، ص ٢٢٤ .

الجمال بكثرة في موقعة الزلاقة وأن وجود الجمال في حد ذاته لخدمة
أجناده في القتال واجابة نجابته في مهاجمة الاعداء ، كان ثورة في
الفن التكتيكي الحربى عند المرابطين في أرض الاندلس .

ومن حيث الاسلحة استخدم المرابطون درق اللمط وسيوف الهند
ومزاريق الزان (١) .

ج - تفاصيل المعركة :

حدث ما توقعه ابن عباد ، فقد هاجم الفونسو قوات المسلمين يوم
الجمعة الثاى عشر من شهر رجب من سنة ٤٧٩ هـ الموافق ٢٣ أكتوبر
سنة ١٠٨٦م على حين غفلة (٢) ، وبدأ القتال بهجوم مقدمة القشتاليين

-
- (١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٧ ، ص ١١٨
(٢) تختلف الروايات الاسلامية بشأن تحديد تاريخ معركة الزلاقة ،
فابن الاثير يذكر أن الزلاقة وقعت في أوائل شهر رمضان ٤٧٩ هـ
(١٠٨٦ م) (ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٣) وعبد
الواحد المراكشى يذكر أنها كانت يوم الجمعة الثالث عشر من شهر
رمضان الكائن في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) (أنظر المعجب ، ص
١٣٥) أما ابن أبى زرع وصاحب الحلل الموشية فقد أجمعا على
أنها دارت يوم الجمعة ١٢ رجب من سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م)
(أنظر الحلل الموشية ، ص ٥٩ ، ابن أبى زرع ، روض
القرطاس ، ص ٩٦) وهذا التاريخ هو الذى أخذ به الاستاذ
محمد عبد الله عنان (دول الطوائف ، ص ٣٢٣) - ونأخذ به
نحن حيث أن يوسف بن تاشفين قد حددده وذكره صراحة في رسالته
الرسمية التى أرسلها الى الناصر لدين الله تميم بن المعز بن باديس
بالمهدية ، فهو يقول له « وبيننا على لقاية يوم الخميس لاحدى
عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، فلما كان يوم
الجمعة ثمانية ورد علينا بكتايب قد ملأت الآفاق ... » (أنظر
محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٤٤٨) وهذا التاريخ
١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ يوافق الثالث والعشرين من شهر أكتوبر
العجمى كما يذكر ابن أبى زرع في روض القرطاس ، ص ٩٨ =

والارغونيين على مقدمة القوات الاندلسية بقيادة القائد البرهانس .
 اما جانب الدفاع الاسلامي / الاندلسي ، فكان يقوده ابن عباد ، وكان
 هذا الهجوم من العنف والقوة بحيث ارتدت القوات الاندلسية جميعها
 الى بطليوس ماعدا قوات المعتمد ، وذلك يعنى ان عمر المتوكل بن
 الافطس تراجع مع قواته (١) التي كانت تشكل الميمنة في المقدمة
 الاسلامية الى حاضرتة محتميا بها من ضربات العدو ، كذلك تراجعت
 معه قوات الميسرة ، ويمثلها عسكر شرق الاندلس (٢) .

اما ابن عباد فقد كان له دور بطولى في هذه المرحلة الاولى من
 واقعة الزلاقة ، فقد استمات في القتال ، وتلقى الطعنات الى حد انه
 اثن بالجرّاح العديدة (٣) اما جنده فقد استشهد منهم اعداد كبيرة ،

= سنة ١٠٨٦م ، وذلك هو نفس التاريخ الذى تضعه الرواية الاسبانية
 Huici Miranda, op. cit, p. 65. باستثناء مدونة الفونسو
 العاشر فقد حدد الفونسو العاشر في مدونته عن تاريخ اسبانيا العام
 التاريخ الذى دارت فيه المعركة بيوم الجمعة الموافق أول نوفمبر
 Esta batalla fue fecha, assi como cuenta la estoria, viernes primero
 día de noviembre (Cronica general de España p. 558).

(٢) نستدل على ذلك من قول ابن الابار في الحلة السيرة « وكنل
 المتوكل يومئذ وغيره من الرؤساء وكان فيه للمعتمد ظهور مشهور »
 (الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٠١) .

(٢) الحلل الموشية ، ص ٥٩ .

(٣) ابن الكردبوس ، ص ٩٤ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص
 ٩٢ ، ويقول الحميرى في ذلك « وصبر ابن عباد صبرا لم يعهد
 مثله لاحد ، واستبطا يوسف وهو يلاحظ طريقة وغضبة الحرب ،
 واشتد البلاء وابطأ البصراويون ، وساعت ظنون أصحابه ، وانكشف
 بعضهم وفيهم ابنه عبد الله ، واثن ابن عباد جراحات وضرب
 على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغيه ، وجرححت
 يمينه يديه ، وطعن في أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس ،
 كلما هلك واحد ، قدم له آخر ، وهو يقاسى حياض المسوت ،
 ويضرب يمينا وشمالا ، وتذكر في تلك الحالة ابنا له صغيرا كان
 مغرما به ، تركه باشبيلية عليلا ، اسمه العلاء وكنيته أبو هاشم » =

ولم يكتفِ العدو الغادر بهذا، الهجوم العنيف الذى تراجع له المسلمون وانما تتبع الكثير منهم قلول المسلمين فى المناطق المجاورة لأرض المعركة وتلفت ابن عباد حوله فألفى معظم جيوش الاندلس قد فر من ساحة القتال الى بطليوس ، وثبت وحده وسط عسكره وأجناده وأبلى بلاء حسنا ولكنه صبر رغم الخسائر الفادحة التى تعرض لها جيشه ، وكان أول من وافاه من قادة المرابطين داود ابن عائشة ، فخفف عنه عبء القتال وانتظم به شمل ابن عباد . وفى نفس الوقت انحطت قوات يوسف ابن تاشفين بقيادة سير بن أبى بكر على مؤخرة جيوش الفونسو ، واقتحمت محلته واضرمتها نارا ، واهتزت ساحة المعركة بطبولهم ، فارتفعت لها قلوب عسكر المسيحيين وسقط فى أيديهم ، فالتوا اعنتهم وتراجعوا ، فانحصروا بين قوات المرابطين فى المؤخرة وقوات ابن عباد واستمر القتال ، ولم تلبث صفوف العدو أن انهارت وأذرع المسلمون فيهم بالسيوف ثم دارت الدائرة على جيش الفونسو فمزقه المرابطون شر ممزق ، وسحقوه سحقا ، وتداعى الاجناد والحشم والعبيد للنزال ، كما عادت قلول الاندلسيين بعد سماعهم بأخبار النصر فكانت الهزيمة النكراء التى منى بها الفونسو السادس وحلفاؤه وتمكن أحد الغلمان السود من طعن الفونسو بخنجره ففر أمامه مع فئة قليلة من رجاله ، فاقنقى المسلمون أثرهم وركبوهم بالسيف ، وتمكن الفونسو من التسلل أثناء الليل فى ثلاث مائة فارس من رجاله (١) ، ولحق بطليطلة مهزوما (٢) .

= (١) وانظر مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٥ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٤ ، الحلل الموشية ، ص ٥٦ .
 (١) ابن الكردبوس ، ص ٩٤ ، ويجعل صاحب روض القرطاس عدد الناجين معه خمسمائة فارس (ص ٩٦) ويعطى الحميرى نفس الرقم ، وذكر صاحب الحلل الموشية أنه لم يفلت معه من أصحاب سوى اربعمائة (الحلل ، ص ٦٢) .
 أما عبد الواحد المراكشى فيبالغ فى تقدير عدد الناجين ، فيقلل من عددهم تعظيما للنصر ويجعلهم تسعة (المعجب ، ص ١٣٤) =

ومما لاشك فيه أن يوسف بن تاشفين كان يستهدف إيهام الفونسو بأن الهجرم الذى شنه على قوات ابن عباد الاندلسيين كان موجها أيضا الى جيوش المرابطين ، فاذا ما ركز الفونسو هجومه على ابن عباد تحركت جيوش ابن تاشفين المتوارية وراء الرية لتضرب مؤخرة جيوش الفونسو وبذلك يجعل قوات الفونسو بين شقى رحى وبطوقها تطويقا شاملا فيبيدها اباداة تامة وهو ما تحقق له فى النهاية .

وخطة يوسف على هذا النحو تعبر عن مدى الذكاء والمهارة الحربية التى كانت تتوفر لدى هذا القائد الصحراوى ، فقد تقدم وسط قواته الاحتياطية من لتونة وصنهاجة قاصدا المعسكر المسيحي نفسه فهاجمه بكل عنف وشدة ، وكان من حسن طالع الامير المرابطى ان كانت القوة المسيحية التى تتولى حراسة هذا المعسكر محدودة العدد، فالتخفى فيهم من الخلف وسحقها تماما . ثم اطلق يوسف بن تاشفين مفاجاته الاخيرة حين دفع بحرسه الاسود ، وكان عددهم يصل الى اربعة آلاف مقاتل الى قلب المعركة ، وقد تمكن احد هؤلاء الفرسان السود من طعن الملك الفونسو فى فخذه طعنة انهارت لها البقية الباقية من قواته فلاذت بالفرار .

= والارجح أن عدد الذين افلتوا مع الفونسو السادس من سيوف المسلمين بلغ ١٥٠٠ استنادا الى الرسالة التى بعث بها يوسف بن تاشفين الى بلاد العدو (أنظر نص الرسالة فى روض القرطاس ، ص ٩٧) .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن معركة الزلاقة أرجع الى ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج٢ ص ١٠٠ ، ١٠١ ، مذكرات الأمير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٤ - ١٠٦ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١١٣ - ١٢١ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ص ١٣٢ - ١٣٥ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ - ٩٧ ، الحلل الموشية ص ٥٩ - ٦٦ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس فى كتاب الروض المعطار ، ص ٨٣ - ٩٥ وراجع أيضا .

A. Huici Miranda, La invasión de Los Almorávides y La batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI, P. 17 - 76 & P. R. Menéndez Pidal La España del Cid, Vol, pp. 328 - 339.

ورغم اجماع كافة المصادر العربية على الدور البطولى الذى قام به المرابطون فى واقعة الزلاقة الا ان ابن الكردبوس قد اورد ما يتعارض مع ماجاء فى تلك المصادر ، فابن الكردبوس يبرز مدى الشجاعة والفروسية التى ابداهها المعتمد بن عباد دون سائر ملوك الطوائف فى بدء المعركة « ووقف لهم المعتمد كالاسد الورد ، وناطحهم مناطحة الاقران وثبت ثبوت راسخات الرعان حتى ائخن بالجراح ، وتبع الروم فل المسلمين ، ثمانية عشر ميلا فى تلك البطاح يقتلون ويأسرون وينتهبون (١) » ثم يصور ابن تاشفين على انه لم يكن بالبسالة والوفاء الذى اوضحته المصادر الاخرى فيذكر انه عندما علم بالهزيمة النكراء التى منى بها مسلمو الاندلس فى بادىء الامر قال « اتركوهم قليلا للفناء فكلما الفريقين من الاعداء ، فلما تحقق ان اكثرهم قد أسر وقتل رأى انه قد آن ان يفترس العدو اذ قد تباعد عن محلته وتحمل ، وقصد بجيشه محلة العدو فتغلبها واستأصلها وأنتهبها وقتل فيها نحو عشرة آلاف راجل وفارس وما منهم الا بطل مداعى ، ومضى على وجهه فى أثر الفئس وقد تفرق له فى اتباع الاسلام اكثر الجيش ، فوضعوا السيوف فى ظهورهم ، والارسل فى نحورهم ، فانهزموا وولوا مدبرين (٢) » .

وهذه الرواية التى اوردتها ابن الكردبوس تتناقض تناقضا تاما مع غيرها من الروايات الموثوق بها والتى ساقها مؤرخون معاصرون للمعركة امثال الامير عبد الله الزيرى ، ويبدو ان ابن الكردبوس قد اختلط عليه الامر ، فهناك خلاف من نوع آخر ، وقع بين ابن تاشفين وبين المعتمد ابن عباد بعد انتصار المسلمين فى الزلاقة ، فالمعتمد كان يرى الاستمرار فى مطاردة العدو اثناء انسحابه مقلولا ، اما يوسف بن تاشفين فكان يرى الكف عن مطاردته حتى تعود فلول المسلمين التى ولت الادبار بعد

(١) ابن الكردبوس ، نصان جديدان ، تحقيق د. مختار العبادى ،

ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

الهجوم الذى شنه الفونسو السادس على جيوش الاندلسيين ، وقال انتصار ابن عباد «لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الصواب والرأى فى معالجته ، ولكنه خاف أن يهلك العدو الذى من أجله استدعاه فيقع الاستعناء عنه وقالت شيع يوسف : إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من الجود الى جزيرة الاندلس . وقال آخرون : كلا الرجلين أهر حسوا فى ارتغاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب (١) »

ويرى أويثى ميراندا Huici Miranda أن الانتصار الذى أحرزه المسلمون فى واقعة الزلاقة إنما يدينون به للفرسان المغاربة (٢) وعلى تقيض ذلك نجد مندد بيدال يشير الى أن الامر يتعلق بتخطيط عسكري جديد يكفى لأرباك الروح القتالية عند عسكريين ، فقد عمد المرابطون الى القتال فى صفوف متراسة متناسقة ، ولم يكن الفرسان المسفحيون على علم بهذا الاسلوب القتالى ، اذ كانوا قد اعتادوا على القتال الفردى ، ويعزو أسباب الهزيمة الى دور الطبول للمتونية التى سمعت لأول مرة فى اسبانيا فى هذه الموقعة مما أدى الى إرباك جيوش الفونسو السادس (٣) .

وإذا حاولنا تقدير الخسائر التى لحقت بكل من الفريقين يتبين لنا أن خسائر الجانب المسيحى فاقت الى حد كبير خسائر المسلمين ، فكما سبق أن رأينا من نص ابن أبى زرع أنه لم ينج من الجيش النصرانى سوى خمسمائة فارس أو أقل ، هم الذين تراجعوا متقهقرين مع ملكهم الفونسو السادس عقب أصابته فى الواقعة ، وقد تابعوا فرارهم مع فلوله

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٣ ، الحلل الموشية ، ص ٦١ .

(٢) Huici Miranda, La invasión de los almoravides y la batalla de Zalaca, p. 70 - Albarran, el solar, op cit., p. 133.

(٣) R. Menendez - Pidal, la España del Cid, pp. 335 - 339.

ولم يتوقفوا الا عند قورية ، ولما كان معظمهم مثخنين بالجراح فقد مات معظمهم فى الطريق ولم يصل الى طليطلة مع ملكهم سوى مائة (١) .

وهذا نفس ما ذكره ابن تاشفين فى خطابه الرسمى الذى ارسله الى بلاد المغرب عقب واقعة الزلاقة ، فهو يقول « وتسلس الفئس تحت الظلام فارا لايهدى ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق اربعمائة فلم يدخل طليطلة الا فى مائة فارس (٢) » .

ويرى صاحب الحلل الموشية ان خسائر النصرانى من القتلى بلغت نحو ثلاثمائة الف ، اما من نجا من هؤلاء الاعداء ، « لم يفلت منهم اكثر من اصحاب غرسية الذى اعتزل عن القتال ، وهو نحو اربعمائة افلتوا مع الطاغية (٣) » .

ويذكر ابن ابي زرع ان عدد من استشهد من المسلمين قد بلغ فى هذه الموقعة نحو الثلاثة آلاف رجل وان امير المرابطين قد امر بقطع رموس القتلى من الروم فتقطعت وجمعت بين يديه « كأمثال الجبل وبعث منها الى اشبيلية عشرة آلاف رأس ، والى قرطبة كذلك والى بلنسية مثلها والى سرقسطة ومرسية مثلها وبعث الى بلاد المغرب اربعين الف رأس فقسمت على مدن العدو ليراها الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والخير العظيم (٤) » .

ويقدر ابن ابي زرع عدد النصرانى الذين اشتركوا فى المعركة بنحو ثمانين الف فارس ومائتى الف راجل قتلوا جميعا ولم ينج منهم سوى

(١) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٦ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ،

ملحق ٢ ، ص ٤٥١ .

(٣) الحلل الموشية ، ص ٦٢ .

(٤) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٦ .

المائة الذين وصلوا مع ملكهم الى طليطلة (١) . اما صاحب الحلل
الموشية فيرى أن عدد الرؤوس التي اجتمعت لابن عباد بلغت أربعة
وعشرين الف فارس (٢) .

ويرى الاستاذ محمد عبد الله عنان (٣) انه لابد وأن تكون خسائر
المسلمين أعلى بكثير مما ذكرته المصادر العربية فليس من المنطقى أن
تقتصر على ثلاثة آلاف خاصة وأن أهل الاندلس فوجئوا بهجوم قوات
الفونسو عليهم فخرجوا للقتال من غير تعبئة فانهزموا وولى معظمهم
الادبار الى بطليوس وثبت المعتمد بن عباد في أصحابه الى أن وافتهم
قوات ابن عائشة . وواضح أن الارقام التي أوردها ابن أبى زرع مغالى
فيها للغاية من حيث تقدير القوة المسيحية ومن حيث عدد القتلى منهم .

وإذا أردنا بعد سردنا لأهم أحداث تلك المعركة أن نقيم أهم المصادر
التي تناولت هذه المعركة فسوف نجد أن النصوص المتأخرة وفيرة في هذا
الصدد لاسيما من الجانب الاسلامى ، أما النصوص المعاصرة للموقعة
فشحيجة وتقتصر على النصوص العربية وأهم هذه النصوص المعاصرة
بلا شك ما احتوته مذكرات ملك غرناطة عبد الله بن بلقين ابن باديس
الزيرى ، ولقد شهد هذا الملك الزيرى موقعة الزلاقة ، ولهذا فان
رواياته لها أهمية خاصة ، وقيمة كبرى كما أن تحليله للأحداث وما
وراءها عميق ورائع يعبر عن حقيقة الأوضاع ، ويتميز بالصدق في
التفاصيل الواردة .

وهناك نص آخر معاصر اذا ما استبعدنا الشكوك في صحته ، ذلك
هو الرسالة التى كتبها يوسف بن تاشفين الى أمير بنى زيرى بأفريقية
يبلغه فيها بهزيمة الفونسو السادس ، هذه الرسالة وثيقة رسمية صحيحة ،

(١) المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٢) الحلل الموشية ، ص ٦٣ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٨ .

عثر عليها بين المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الاسكوريال
اكتشفها الدكتور العراقى صلاح الدين عبد الرحمن خالص ، وقد نشر
ليفى بروفنسال وغرسية جومت النص العربى لهذه الوثيقة بالاضافة
الى الترجمة والتعليق (١) .

ولكن اويثى ميراندا Huici Miranda تشكك ووضع تحفظات
على صحة هذه الوثيقة ، فذكر أن الرسالة لاتسجل الرواية الرسمية عن
المعركة (٢) ، ويرى البران Albarran ان هذه الرسالة لاتتضمن حقا
اسم الكاتب الذى كتبها فى ديوان يوسف بن تاشفين ، ولا تاريخ الرسالة
ولا حتى موضع المعركة وهى ظروف لاحظها المترجمان والمعلقان عليها
فى النص سالف الذكر ، ولكن رغم ذلك فان اغفال أى من هذه الامور
لاينهض دليلا على التشكك فى صدقها تماما ، فان صياغتها تتفق وتخضع
للاسلوب الشائع عند كتاب الاندلس فى تلك الفترة (٣) . كذلك تشكك
كارلوس كيروس فيما بعد فى هذه الرسالة اذ اعتبرها غير رسمية وغير
موثوق فى أنها صدرت من ديوان يوسف (٤) . ونحن لانميل الى الاخذ
بهذه الآراء التى تشكك فى صحة الوثيقة فمهما كان مؤلف هذه الوثيقة
فلا ينبغى أن نشك فى أنه كان مطلعاً على جلية الامر ، فهو يؤكد حقائق
معروفة ويزودنا بأخرى ليس مشكوكا فيها ، وسواء أكانت الوثيقة
قد صدرت من ديوان يوسف أم لم تصدر منه ذاته فإنه يتعين علينا أن نقبل

(١) راجع : E. Lévi - Provençal, Garcia Gomez, Oliver, Novedades sobre la batalla llamada de la zallaca, '1086 en

«al Andulus t, XV, 1950, pp. 114 - 124. Huci miranda, op. cit., p. 71.

(٢) ويعلل طعنه فى صحتها بأنها لاتتضمن اسم الكاتب الذى نسجها ولا التاريخ الذى كتبت فيه ، ولا الموضع الذى وقع فيه الاشتباك .

Albarran, el solar de los Affasies, p 139. (٣)

Carlos quiros, los almoravides, en archivo del instituto de estudios (٤)

Africanso, Madrid, no 32, 1955 p. 21 - 22.

النص. نستخرج منه مادة علمية وتفاصيل تضعنا على الاثر الصحيح لدراسة كاملة وحكم صادق على المعركة ، ولا ينبغي أن نغفل مثل هذه الرسالة اذ لا بد من اعتبارها مستندا معاصرا له قيمته ووزنه التاريخي .

ومن المصادر التاريخية المتأخرة :

١ - أبو مروان عبد الملك. بن الكردبوس التوزري صاحب كتاب الاكتفاء الذي عاش في اواخر القرن السادس الهجري. وكتبه في حدود عام ٥٧٠ هـ (١١٧٠ م) والكتاب مخصص للتاريخ العالمى وفيه يظهر جانب كبير من ادب الاساطير يتجلى بصورة واضحة في مجال وقعة الزلاقة ولما كان المؤلف مغربيا فقد طغى في الكتاب تحيزه للمرابطين وتحامله الشديد على اهل الاندلس ، ويصور ملوك الطوائف بالوان قاتمة فيتهمهم بالجبن ، والخور ويوصمهم بالفساد (١) .

٢ - الحلل الموشية ، يرجع بعض الباحثين المحدثين أن مصنف هذا الكتاب - وكان يظن حتى عهد قريب أنه مجهول الاسم وان كان بعض مؤرخى المغرب ينسبونه الى أديب مالقى يدعى أبا عبد الله محمد بن أبى المعالى بن السماك العاملى (٢) . هو محمد بن أبى العلاء محمد بن سماك العاملى المتوفى فى النصف الثانى

(١) A: Huici Miranda, La invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, pp. 46 et sq.

(٢) أرجع الى : أحمد مختار العبادى ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، العدد ٥ ، لسنة ١٩٦٠ ، ص ١٣٩ - ١٥٨ ، محمود على مكى مقدمة كتاب الزهرات المنثورة فى نكت الاخبار الماثورة ، لابن سماك العاملى ، تحقيق د. محمود مكى ص ٤١ ، هامش ٢ .

من القرن الثامن الهجرى (١) . والكتاب تاريخ مفصل يتضمن تاريخ دولة المرابطين وصدر من دولة الموحدين حتى نهاية عبد المؤمن بن على ، ثم عرض سريع لهذه الدولة حتى نهايتها ثم سرد لاسماء سلاطين بنى مرين حتى سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) والكتاب صنف فى عام ٨٧٢ هـ (١٣٨١ م) ، ويهمننا من مادته الخطابين اللذين وجههما المتوكل ابن الافطس صاحب بطليوس الى الفونسو السادس والى يوسف ابن تاشفين ، الاول يرفض فيه دفع الاتاوة ، والثانى يلتمس عون الامير المرابطى ويبلغه بسقوط قورية (انظر ملحق ٢) هذا بالاضافة الى التفاصيل الدقيقة لمعركة الزلاقة .

٣ - عبد الواحد المراكشى ، صاحب كتاب « المعجب فى تلخيص اخبار المغرب » الفه فى سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) ، اما وصفه للمعركة فهو يتسم بالبساطة اذ سجله فى الشرق الاسلامى بعيدا عن ضغوط الموحدين ، ويخلو هذا الوصف من الاسلوب الدعائى الخيالى ، ونظرا لقلّة ما كان لديه من مصادر ، فقد التبس عليه الامر فى تواريخ الزلاقة وحصار اليط (٢) .

٤ - ابن عبد المنعم الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، كتبه فى اواخر القرن التاسع الهجرى، ووصف تحت مادة الزلاقة كل تفاصيل المعركة ، وقد نقده اويشى ميراندا Huici Miranda نقدا علميا مطولا وفيه سجل كثيرا مما تواتر من قبل من اخبار وهمية مختلفة عن المعركة (٣) ولكن نصن الحميرى

(١) من هؤلاء الباحثين الدكتورة ماريّا خيسوس روبيرا فى بحثها القيم عن « حول مؤلف محتمل لكتاب الحل الموشية » .

Maria Jesus Rubiera, sur un possible auteur de la chronique intitulée Al-hulal al Mnuwsiyya fi - Dikr al Ajbar al Mārrakusiyya. on el II coloquio hispano tunecino madrid, p. 143 - 146.

Huici, Miranda, op. cit, p. 48.

(٢)

Huici, Miranda, op. cit, p. 49 - 52.

(٣)

على الرغم من ذلك موضوعى الى حد كبير وفيه حقائق على جانب كبير من الهمية .

٥ - ابن عذارى المراكشى ، كتب فى أواخر القرن السابع ، ولم يصل لنا ما كتبه ابن عذارى عن موقعة الزلاقة ، ولكن تعليقه عليها عند حديثه عن موقعة الارك فيه شىء من التفصيل ، فقد ذكر كيف تعمد يوسف بن تاشفين ترك المعتمد بن عباد هو وأهل الاندلس يحاربون وحدهم طوال الليل حتى ضحى النهار الى أن اتى القتل على المسلمين ولم يتحرك لنجدتهم الا بعد أن أرسل اليه المعتمد كاتبه أبا بكر بن القصيرة ، كما قدر عدد قوات الفونسو السادس تقديرا أقرب الى الحقيقة فجعل عدته ستين الفا بين فارس وراجل ، وحدد عدد الناجين مع الفونسو بثلاثة عشر فارسا (١) ، ولكن الناسخ للمخطوط يخطئ فى ذكر سنة المعركة فيذكر سنة ٤٧٧هـ (١٠٨٤م) بدلا من ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) وقد صحح المحققون للبيان هذا الرقم .

٦ - ابن أبى زرع من الثلث الاول من القرن الثامن ، أورد وصفا مطولا عن الموقعة ، وقد أنتقد أوبى ميراندا روايته نقدا شديدا ، ويذكر أن كتاب روض القرطاس يعتبر من بين جميع المصادر التاريخية الاسلامية ، أقلها قبولا للثقة ، ويتفق كل من أويشى ميراندا ودوزى (٢) على أن روايته لاتوحى اطلاقا بالثقة ، فأرقام عدد المقاتلين ، وعدد القتلى من الجانبين غير معقولة كما أن وصفه للمعركة لا يمت بصلة الى الحقيقة .

اما المصادر القشتالية فعلى نقيض الوثائق التاريخية العربية ،

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، تحقيق أويشى ميراندا ، ومحمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتانى ، تطوان ١٩٦٣ ، ص ١٩٦ .

(٢) Huici Miranda, op. cit., p. 54.

تبدو فقيرة ولا يوجد مصدر منها معاصر للموقعة فكل المدونات التاريخية التي تعرضت لها متأخرة عن تاريخ الموقعة وكلها باستثناء مدونة لوزيتانو زهيدة لاقيمة لها ، وبعض هذه الوثائق كتب في القرن ١٣م ، وتنزامن في ذلك مع نخلاتها العربية المتأخرة التي أشرنا إليها . ولقد زودتنا الحوليات الطليطلية Annales Toledanos بما يلي « وتقاتل الملك دون الفونسو مع المسلمين في الزجالة Zagalla »^(١) بينما أشارت مدونة برغش Cronicon Burgense فقط الى الذهاب الى بطليوس في حين تشير مدونة دون بلايو الى اشتباك الفريقين في الزلاقة حيث تقاتل الفونسو في Sacralias مع الملك يوسف^(٢) .

اما مدونة لوزيتانو فقد اطنبت في وصف المعركة ، ويذكر اويثي ان الوصف الذي ورد فيها يشابه كثيرا الوصف الخيالي الذي شاركهم فيه مؤرخو العرب لاسيما صاحب الحلل الموشية . وقد جاء في هذه المدونة « واشتبك الملك دون الفونسو في معركة عنيفة مع ملك العرب يوسف امام مدينة بطليوس في الموضع المسمى ساكرالياس Sacralias حيث اشترك مع ملكنا جميع المسيحيين من مناطق الالب وكثير من الافرنجة جاءوا لنصرته ، ولكن بسبب معارضة الشبطان ، سرى رعب شديد في نفوس كثير من رجالنا وولى الادبار الوف كثيرة منهم دون أن يطاردتهم احد . ودخل الملك وهو يجهل فرارهم بكل ثقة في المعركة التي حضرها جميع المسلمين من كل اسبانيا مدججين بالسلاح ، وكان يوسف بن تاشفين قد أمر بأن يعبر معه الوف كثيرة من البربر من الجانب الاخر من الزقاق ، وقاتل الملك دون الفونسو ، ومعه من بقى منهم حتى الليل ولم يستطع احدهم أن يقاوم هجومه ، ولكن المسلمين وقد احكموا صفوفهم ، قتلوا عددا كبيرا من النصارى ، واثناء ذلك غزا

(١) Ibid, p. 59 - Albarran, el solar de Los Aftasies, op. cit., p. 185.

(٢) Florez, Chronicon de don Pelayo, p. 473 «Fecit litem in campo in Sacralias cum rege juceph.»

الملك الحصن وخطوط المسلمين ، وهو يقتلهم ويشتتهم ويدفعهم من جانب الى آخر حتى وصل الى المحلة التى نصبت فيها خيمة الملك يوسف وقد طوقت بسيج ضخم ، وعندما هاجمها الملك بحماس ، والح عليها بالقتال جاءه واحد من عسكره ، وأفضى اليه قائلا « اعلم يامولاي الملك انه اثناء قيامك بالقتال هنا ، فان كمائن من المسلمين غزت مخيمك » ، وعندما سمع الملك ذلك ، وأخذ بنصائح أتباعه ترك ملك المسلمين ، ورحل عن محله ، ثم أتى متعجلا مع ذلك مع من كان برفقته ضد المسلمين الذين كانوا قد أغاروا على معسكره ، وقتلوا كثيرا منهم ، وحملهم على الفرار عن هذا المعسكر ، ولكن قتل من المسيحيين هناك عدد كبير ، ومن بقى ناجيا ، انضم الى الملك . ولما كان الفونسو قد طعن برمح فقد أحس بالعطش بسبب نزيف الدم الذى تسبب فيه الجرح ، فسقوه نبيذا بذل الماء لعدم توافره في معسكرهم واذا أصيب بأغماءه عاد مع رفاقه الى قورية ، وعاد المسلمون أيضا ، كل الى موقعه « (١) ...

وتذكر المدونة العامة الاولى رواية مشابهة لرواية مدونة لوزيتانو ، فتشير باختصار الى مبادرة الفونسو بترك حصاره لسرقسطة ، وارساله في طلب البرهانس ببلنسية وسيره الى أمير المرابطين ، والاشتباك مع المسلمين في موضع قريب من بطليوس يسمونه بالعربية زلاقة Zallaqua وباللغة القشتالية يسمونه ساكر الياس ، ويؤكد أن الفونسو قد أصيب بطعنة رمح ، وحمل أتباع الملك ملكهم الى قورية (٢) .

(١) Florez, España sagrada, Chronicon Lusitano, p. 405 - 406 Huici
Miranda, la invasión de los Almorávides y la batalla de Zalaca,
p. 59.

(٢) Primera Cronica General

(٦)

تحقيق موقع الزلاقة من اراضى بطليوس (ساجرا اخاس) Sagrajas

هناك خلاف كبير لدى بعض المؤرخين حول تحديد موضع الزلاقة الامر الذى يدعو الى التساؤل ، هل الزلاقة هى موضع الرجال الخالى Azagala ام المسمى حاليا 'Sagrajas'

ولقد وردت اشارة فى مدونة برغش Cronicon Burgense

وهى Fuit la de Badajoz « اى ان الموقعة دارت عند بطليوس ان من درس طبوغرافية بطليوس ، وعلى الاخص القسم الشمالى منها يمكن ان يدرك ان واديانه يصل طاميا فياضا متبعا مجراه حتى يصل الى بطليوس ، وعندما يصل الى هذه المرحلة ينتنى برفق نحو الغرب ليوصل مجراه حيث يلتقى برافد الكايا Caya (على الحدود البرتغالية الحالية) ثم يمضى الى الجنوب ، ويلتقى برافده نهر خيفورا Gevora عموديا عليه عند انحداره من الشمال مع بعض الانحراف نحو الشرق ويتحدد نهر خيفورا Gevora مع نهري ثاباتون Zapaton والبراجنة Albarragena اللذين يرتبطان ارتباطا وثيقا بارض المعركة . ويوازي نهر خيفورا وعلى مسافة تبعد نحو ٢ كم من نهر جيريرو Guerrero الذى يلتحم مع احد فرعى واديانه (١) على مسافة قدرها ٧ كم من نقطة التقائه بنهر خيفورا ، الى الشمال الشرقى من بطليوس ، وتبدو المنطقة الفسيحة التى تخترقها هذه الروافد على شكل فحم رائغ ، يمتد فيه سهل من جهة نهر الخيفورا يسمى ساجرا خاس يبعد عن بطليوس بنحو ٧ كم ، ويبلغ ارتفاع هذا السهل عن سائر الاراضى المحيطة به بما يقل بعض الشيء عن مائتى

(١) يؤلف واديانه فيما بين نقطة التقائه بنهر خيفورا ونهر جيريرو، جزيرة بين فرعيه تسمى جزيرة رومو Romo

متر (١) فوق سطح البحر ، ويبرز في هذا السهل ، على بعد أربعة عشرة كم من بطليوس ، تل يسمى كاربونيراس Carboneras ، يفوق ارتفاعه ارتفاع سهل ساجراخاس Sagrajas بنحو ٥٠ مترا ، ولكنه ينشطر الى شقوق واضحة ويمكن تمييز تل كاربونيراس هذا تماما عن المسطح الافقى للمنطقة ، واذا تتبعنا هذا الخط الى اليسار حيث تبدأ الحدود الحالية مع البرتغال نجد تلا آخر يأخذ في الارتفاع يسمى ليفيانا Liviana ، يقع على بعد ١٢ كم من بطليوس ويمكننا تمييزه بوضوح على مقربة من الضفة اليمنى من خيفورا ويبلغ ارتفاع هذا التل نفس ارتفاع تل كاربونيراس .

وما زال الموضوع يحتفظ اجمالا بكل مظاهره الطبيعية ، وان كان قد تحول الى اراضى مزروعة تعتبر جزءا مما يسمى بالفحوص السفلى «Vegas bajas» (٢) .

اما غابة البلوط القديمة التى كانت تكسو الموقع فقد تناقصت اليوم ، وما زالت اشجارها الكثيفة التى كانت تصل منذ عهد قريب الى ضفاف واديانه هى العالية على الصورة العامة للمنطقة ، وهى صورة يمكن ان نتأملها من اعلى بقايا اسوار مدينة بطليوس الاسلامية (٣) .

اما السهل فقد أصبح يتخذ شكل مثلث رأسه يمكن ان تشغله مدينة بطليوس نفسها وتنفرج زاوية الرأس من المدينة ، وتنبسط نحو الشمال الغربى فى اتجاه معاكس فى حين تحف بواديانه من الشرق ، حيث ما تزال ترى فى الجهة الشرقية المتجهة نحو ماردة تحصينات قديمة .

ويتألف فحوص واديانه من سهول فيضية ، وكذلك فحوص نهر

Huici Miranda, op. cit. p. 61.

(١)

Albarran, el Selar, op. cit., p. 189.

(٢)

Huici Miranda, op. cit., p. 62.

(٣)

خيفورا ، وان كانت نسبها أقل . أما بقية الاراضى فطينية باستثناء مناطق
كلسية بجوار بطليوس تتيح وجود جرفين مرتفعين تقوم على أحدهما
القصبة ، وتواجه المرتفع الآخر المسمى بقمة سان كريستوبال حيث ينفتح
باب فسيح يسمى باب النخل يمر منه واديانه .

وإذا ارتقينا ببصرنا الى خط الافق نجد ان السهول تتوقف عند خط
ازرق يمثل سلاسل الجبال . وبحذاء نهر آنة يخترق الفحص اجزاء
قديمة من الجادة الرومانية القادمة من ماردة ، والى الشمال الشرقى
من هذا الموضع تتفرع الجادة الى فرعين نحو الغرب حيث تقوم قرية
بودوا Budua التى تعرف اليوم باسم Botoa ، وكانت فيما
مضى تابعة لبطليوس .

وبهذا الوصف تكون قد اوضحنا اهم النقاط عن المواضع التى
سنعالجها فيما يتعلق بواقعة الزلاقة المشهورة .

وهناك ثلاثة مناطق خالية أو مناطق قضاء محددة تماما دارت
حولها المناقشات ، واحدى هذه المناطق كانت تعرف عند المسلمين
بالزلاقة ، وأول هذه المناطق التى تحدثت عنها المصادر العربية ، بطحاء
بطليوس الفسيحة الممتدة بحذاء واديانه وتتسع لمجرى نهر خيفورا ،
وهى التى تعرف اليوم باسم Sagrajas ، والثانية أرض خزان اخيلا
حتى حصن الزجالة وهو حصن قائم على قمم مرتفعة يبعد عن بطليوس
بنحو ٦٠ كم (١) وتجتمع أدناه روافد ثلاثة هى البراجنة ، وسان
فوسترى وثاباتون ، ولعل تشابه الزجالة مع الزلاقة فى النطق كان من
الاسباب التى دعت الى القول بأن المعركة دارت فى ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)

J. Oliver Asin, el lugar de la batalla de Zalaca - Sacralias, (١)
al - Andalus, vol XV, 1950, p. 135 - Huici Miranda, op. cit.
p. 62.

بين المرابطين والنصارى ، فى الفحص الممتد حول الحصن ، والثالثة هى المروج الفسيحة الممتدة الى الشمال .

والزلاقة اسم يطلقه جميع مؤرخى العرب على الموقعة الشهيرة التى دارت بين مسلمى الاندلس والمرابطين وبين قوات الفونسو السادس ، ويعناه فيما يبدو المناطق التى يفيض فيها النهر ويغضى ، وتغضى مياهه اراضى هذا الفحص فى زمن السيول ، وهو معنى مجازى باعتبار ان الزلاقة الموضع الذى لا يمكن الثبوت عليه من شدة زلجه .^(١) وربما كان للاسم علاقة ما بكلمة « زلاق » كما يعتقد أوليفر آسين^(٢) وهى الاسوار المائلة التى تتخذ فى التحصينات الدفاعية لاسيما على الانهار مثل سور اشبيلية القبلية من جهة الوادى ما بين باب مقارنة وباب قرطبة الذى اقيمت له زلالق فى عهد أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بعد أن تآثر هذا السور قبل ذلك بسيل جارف ، وفى ذلك يقول ابن صاحب الصلاة : « وابتنى الزلالق لاجواب اشبيلية من جهة الوادى احتياطاً من السيل الخارج عليها »^(٣) .

ويرى الاستاذ البران أن الاسم ربما اشتق من كلمة « سهلة » بمعنى الارض السهلة المنبسطة استناداً الى أن خيمينث دى رادا اورددها فى حولياته فى صورة مقطعين Zalla - Quao ، الاول ينطق زلا ، وهو نطق اقرب الى سهلة ، والمقطع الثانى ويعنى « التى » زائد ، وهذا التفسير فى رأينا غير مقبول لان معنى زلاقة فى هذه الحالة يصبح

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة زلاقة .

(٢) Jaime Oliver Asin, el lugar de la batalla de Zalaca - Sacralias, al - Andalus, vol XV, Fasc. I, 1950, p 147.

(٣) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ، تحقيق د. عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٣٥ ، وراجع السيد عبد العزيز سالم ، اضواء على مشكلة تاريخ بناء اسوار اشبيلية ، مجلة المعهد المصرى بمدريد ، مجلد ١٨ ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٨ .

• « السهلة التي » (١) •

أما المصادر المسيحية فتتحدث عن ساكرا لياس Sacralias بصورة متعددة، ولكن بعضها يشير إلى الاسم العربي زلاقة كما ورد في مدونة خيمينث دي رادا (٢) •

ومن المعتقد أن الاسم العربي « زلاقة » كان معروفاً في القرن الثالث عشر الميلادي أي في نفس الوقت الذي كتب فيه المؤرخون المسيحيون أخبار هذه الموقعة ، ولكنهم فضلوا عليه بدافع من الشعور القومي استعمال الاسم المستعرب ثم عمموه من خلال التقريب اللاتيني ، ولما مجال للمناقشة في أن الزلاقة تعادل ساكر الياس ، ويؤيد ذلك ما روته المدونة العامة الأولى التي كتبت في القرن الثالث عشر الميلادي بقولها « التي يقال عنها بالعربية زلاقة ، وباللغة القشتالية ساكر الياس ... »

«Un lugar corca de Badajoz a que dizien en arauigo zallaque»
et en el language de castiolla dizenle sacralia»

وبقى علينا أن نتعرف على موقع الزلاقة من الوجهة الجغرافية ، وللايجدو هذا الموضع أن يكون سهلاً يمتد بالقرب من بطليوس ، ويمكننا أن نشاهده من الشرفة الكبرى بقصبة بطليوس التي يرى الناظر منها كل المناطق الشمالية ، وعلينا أن نطرح من تفكيرنا من البداية كل الأفكار المقاتلة باتجاهات أخرى غير الجهة الشمالية التي قدمت منها جيوش الفونسو السادس •

ولكن علينا أيضاً أن نقرر أولاً بأن الوثائق المعاصرة لم تتحدث عن

(١) Albarran, op. cit. p. 195 - Oliver Asin, la invasión de los Almorávides y la batalla de Zálaca, p. 140.
Albarran, op. cit., p. 194.
Primera Crónica General de España, ed. por Menéndez - Pidal (٢), p. 557.

هذا الاسم ولكنه ورد في المصادر المتأخرة التي توسعت فيها المعرفة الجغرافية ، فالحميري في الروض المعطار ، الذي اعتمد فيه على الادريسي والبكري يعرف الزلاقة بقوله « بطحاء الزلاقة من اقليم بطليوس من غرب الاندلس فيها كانت الوقعة الشهيرة للمسلمين على الطاغية عظيم الجلالة اذفونش ابن فرذلند » (١) .

اما الادريسي فقد اغفل الاشارة اطلاقا الى الزلاقة ، واما الحل الموسية فقد اشار اليه بقوله : « ولما احتله عساكر المسلمين بظاهر بطليوس ، واحتل اذفونش بفحص الزلاقة على اربعة فراسخ من بطليوس ، كتب الى امير المسلمين مكرما منه (٢) . . . » .

ويفسر اوليفر آسين فقرة الحل بالمفهوم الجغرافي الواسع الذي يشير اليه المؤلف مجهول الاسم ، وفيه يتحدث عن فحص الزلاقة على انه منطقة او اقليم فسيح يمكن ان يضم مساحة كبيرة في الجزء الذي يشغله اليوم المرج المذكور شأنه في ذلك شأن فحص البلوط .

ولابد قبل البحث في تحديد الموضع توضيح اسم الزلاقة (٣) ، على نحو أكثر تحديدا ، فليس هناك جغرافي عربي واحد تحدث عن تقسيم اقليمى بهذا الاسم ، لالرازي قبل القرن الحادى عشر الميلادى ، ولا واحد من الجغرافيين المتأخرين ، امثال الادريسي ، ولا حتى ياقوت الذى يعرف الزلاقة بأنها « ارض بالاندلس بقرب قرطبة كانت عندها وقعة في ابام امير المسلمين يوسف ابن تاشفين مع الاذفونش » (٤) . ومن المعروف ان ياقوت في اوصاف اخرى للمواضع بحرص دائما على توضيح اذا ما كان الموضع المذكور منطقة ام اقليم ام حصن .

(١) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٣

(٢) الحل الموسية ، ص ٥٧

(٣) Oliver Asin, el lugar de la batalla de Zalaca, p. 144.

(٤) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مادة زلاقة

والمشكلة القائمة اليوم هي التحديد الجغرافى لمنطقة الزلاقة ، وهل الزلاقة هي نفس الزجالة التى ورد ذكرها فى بعض المصادر المسيحية ، وما زالت تطلق على حصن يقع على بعد ستين كم شمالى بطليوس ؟

ولقد تعرفت منذ عامين على حصن الزجالة ، وقمت بزيارته خلال رحلتى الى بطليوس ونواحيها ، ولاشك فى أن موقعه ومناطقه المجاورة اثرية ، فقد تم العثور بأعلى السلاسل الجبلية التى لاتبعد عنه سوى عدة كيلومترات على مذبح روماني ، ويحتاج الامر الى اجراء حفريات فى نفس مستوى الارض التى يرتفع عليها الحصن . ومن الجدير بالذكر ان بالامكان تمييز اجزاء أثرية فى الجانب الشمالى من أسوار الحصن تثبت أن الموضع كان مأهولا فى عصور سابقة ، ومعنى ذلك أن الموقع استراتيجى منذ القدم ، ولم يلبث هذا الموقع أن أصبح فى القرن الثالث عشر الميلادى قرية تابعة لمدينة بطليوس .

ومن انصار الراى القائل بأن اسم الزجالة هو مجرد تحريف طرأ فى القرن الثالث عشر على اسم الزلاقة بمعنى أن الاسم الاصلى وهو الزلاقة تم تعرضه لتحريف لغوى فتحول بذلك الى الزجالة ، كل من مارتينث اى مارتينث وأوليفر آسين^(١) ، وهما يعتقدان أن حصن الزجالة الحالى هو نفسه الزلاقة التى ذكرها المؤرخون المسلمون ، وتفسير

(١) وانضم اليهما امبروسيو أويشى ميراندا فى مقاله عن الزلاقة (Huici, op. cit. p. 75.) ، ولكنه يتحفظ فى قبوله لراى أوليفر آسين فى نهاية مقاله فيقول « وعلى أى حال فلفظ الزجالة على الرغم من بنائه العربى وتشابهه الواضح مع الزلاقة ، لايمكن قبوله مرادفا للزلاقة ما دمنا لانملك مادة جديدة نعتمد عليها فى حسم الموضوع ، وعلينا اعتبار أن الزلاقة هي موضع مفقود ، لم يرد ذكره سوى فى المصادر القديمة ، ولم يترك اثرا فى اللغة الشعبية عند أهل غرب الاندلس » (Huici Miranda, op. cit. p.76)

هذا التحريف على حد زعمهما يرجع إلى سهولة نطق المقاف العربية بالعجم الأسبانية ، والاقتصار على اللام بدون تشديد يرجع إلى قرب المنطقة من البرتغال حيث ينطق كذلك .

هذا التفسير أخذ به أوليفر آسين وأويثى ميراندا وإن كان أويثى ميراندا Huici Miranda قد انتهى بأن الزلاقة هي اسم موضع مفقود لا يوجد له أثر في اللغة الشعبية عند أهل غرب الاندلس .

أما البران ونحن نميل إلى الأخذ برأيه فهو ممن يرفضون الرأي القائل بأن الزلاقة هي الزجالة ، فهو يرفض تفسير أوليفر آسين الذي يحل اللفظة القشتالية الزجالة محل الكلمة العربية الزلاقة . فالبران يعتقد أن رأى أوليفر آسين غير صحيح على أساس أن أقرب لفظ إلى الزجالة هو لفظ زغل وهذا اللفظ لم يشتق من زلاقة (١) . ولقد حاول آسين أن يتجنب وجود أية صلة بين اللفظة زجالة ولفظة زغل العربية بمعنى شاب حدث قوى ونشط حتى يدعم رأيه السابق (٢) .

ويرى البران إن المرة الأولى التي ورد فيها اسم الزجالة Azagala حدث في وثيقة تاريخية من القرن الثالث عشر وهي الفترة التي كتبت فيها المدونات المسيحية ، ولما كانت هذه الوثيقة تشير صراحة إلى الزجالة فإننا نستنتج نفس الرأي الذي استنتجته البران وهو أن الموضع وقتئذ في القرن الثالث عشر الميلادي كان يعرف في تلك الحقبة بهذا الاسم الحالي ، وعلى هذا الأساس لا تكون الزجالة تحريفا للزلاقة حدث فيما بعد القرن ١٣ .

وأول وثيقة جاء فيها ذكر الزجالة كحصن ومنطقة صريحا وواضحا

Albarran, op. cit. p. 200

(١) .

J. Oliver Asin, el lugar de la batalla de Zalaca - Sacralias; p: 141 (٢)

يرجع تاريخها الى عام ٦٢٧ هـ (١٢٣٩ م) ، وهناك وثيقة أخرى يرجع تاريخها الى ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) ورد فيها اسم الزجالة .

ثم بدأ الاسم يتردد وروده في وثائق عديدة (١) . والزجالة في هذه الوثائق هي اسم موضع أو قرية كانت تابعة لبطلبيوس ثم ضمت فيما بعد الى بلدة كركر Albuquerque ، وحول مسجدتها بعد الاسترداد الى كنيسة ، وكان هذا المسجد مابزال قائما حتى القرن الخامس عشر الميلادي .

لهذا كله لانوافق الرأي القائل بأن ذلك السهل الذي دارت فيه واقعة الزلاقة الشهيرة هو سهل الزجالة حيث يقوم حصن الزجالة .

فالزلاقة العربية هي ذاتها ساكر الياس Sacralias التي وردت في المدونات المسيحية وهي ذاتها سجراخاس Sagrajas التي تردد ذكرها في المراجع الاسبانية الحديثة . أما عن تحويل سكرالياس الى سجراخاس الحالية ، فلا يشكل مشكلة على الاطلاق في اعتقاد الاستاذ أوليفر آسين والاستاذ البران ، فاسم Sacralias لفظ مستعرب يدل على موضع خاص بالمستعربين ، . كان يكون أرضا مجاورة لكنيسة أو موضع مقدس من اللفظة اللاتينية sacraria وتحولت بمرور الزمن الى Sagrajas (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن نفس الاستاذ البران Albarran كان قد أدلى قبل ذلك بسنوات برأى أكد فيه أن موقعة الزلاقة دارت بجوار حصن الزجالة (٣) ، وعلى وجه التحديد الى الشمال من هذا الحصن وفي السهول المتموجة التي تشغل اليوم مروج وادي La Jarron

Albarran, op. cit. p. 201. (١)

J. Oliver Arin, op. cit, p. 148 - Albarran, op. cit., p. 201. (٢)

Manuel Torron Albarrán, la sierra de tornada, Badajoz, 1955, (٣)

pp. 57- 65.

ولكن هذا المؤلف سرعان ما عدل عن رأيه حين وجد أن المسافة ما بين هذا الموقع وبطليوس تصل الى ٦٠ كم ، وهذا يتعارض مع ما ذكرته المصادر الاسلامية التي حددت موقع المعركة بصراحة ، ثم أن هذا البعد لساحة المعركة يتعارض مع امكانية وصول امدادات من بطليوس في نفس اليوم ، ومن المنطقي أن تكون الموقعة قد دارت في موقع أكثر قربا من بطليوس ، كذلك رفض البران رأيا آخر كان قد سبق أن ساقه وهو أن المنطقة الجنوبية من حصن الزجالة هي المنطقة التي دارت فيها المعركة ، ولكن سرعان ما غير رأيه حيث أن هذه المنطقة الجنوبية من الزجالة لاتصلح سوى لكمين ، بينما اكدت المصادر العربية والاسبانية أن موقعة الزلاقة دارت في منطقة مفتوحة .

اما الرأي الثالث القائل بأن الزلاقة قد تكون السهول الفسيحة الممتدة نحو الشمال فنرفضه لان جميع المصادر الاسلامية حددت على وجه التقريب المسافة بين أرض المعركة ومدينة بطليوس ، وهذا في حد ذاته يكفي لاعلان رفضنا لهذا الرأي لبعد هذه السهول عن بطليوس .

وعلى أية حال فقد انتهت مهمة المرابطين عند انتصارهم في الزلاقة فلم يشأ يوسف بن تاشفين أن يتتبع فلول النصاري ، وسرعان ما تفرق الجيش الاسلامي ، فعاد كل ملك من ملوك الطوائف الى مملكته ، فعاد ابن الافطس الى بطليوس ، وعاد ابن عباد الى اشبيلية ، وعبد الله الزيري الى غرناطة بعد أن اطمأنت نفوسهم بهذا الانتصار الذي كسر به المرابطون شوكة الفونسو السادس ولو الى حين . اما يوسف بن تاشفين فقد عجل بالقفول الى المغرب بعد أن تكدر لوفاة ابنه أبي بكر ولى عهده ، وكان قد تركه مريضا بسببة (١) ، وان كان الامير عبد الله الزيري لا يشير الى شيء من ذلك ، ويعلل عودته السريعة الى المغرب ، بضيقه من اختلاف كلمة ملوك الطوائف ، وتظاهرة بعدم رغبته التدخل

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨

في شؤونهم ، يعبر عن ذلك في مذكراته بقوله « واخذ أمير المسلمين في الانصراف الى بلاده وهو قد اطلع عيانا وسمعا من اختلاف كلمتنا ، مالم يروها لبقائنا في الجزيرة . وأنس الجميع ، ولم يتربص في البلاد الا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيته اليه ، فكل من شكا اليه ذلك الوقت من رعية يقول له « لم نأت لهذا والسلاطين أعلم بما يصنعون في بلادهم » (١) .

وهكذا لم يتمخض تدخل المرابطين في الاندلس وانتصارهم في الزلاقة على قوى المسيحية عن شيء ذي قيمة ، فلم يستفد المسلمون من هذا الانتصار في استرجاع طليطلة او قورية ، بل لم يحاولوا مجرد محاصرة احدى المدينتين (٢) .

عاد يوسف الى المغرب بعد أن اكتفى بترك قوة من ثلاثة آلاف من المرابطين في خدمة المعتمد .

ويرى الاستاذ محمد عبد الله عنان « ان لقاء الاسلام والمسيحية في سهول الزلاقة انما هو صفحة من سيرة الحروب الصليبية التي كانت اسبانيا اول مهاد لها والتي اضطرت بعد ذلك بقليل في المشرق ، في الوقت الذي كانت تضطرم فيه في اسبانية » (٣) فانتصار الزلاقة كان يعنى أكثر من هزيمة ملك مسلم لملك مسيحي ، فهذا الانتصار قد جعل الغرب المسيحي يتوجس خيفة (٤) من غلبة الروح الدينية عند المرابطين ، فها هو الاسلام ، يهدد من جديد الغرب المسيحي ، وتتقدم موجاته ما كان قد انحسر من ملك المسلمين بعد وفاة المنصور بن ابي عامر وابنه المظفر عبد الملك ، وليس أدل على صدق ما ذكرناه من تتبع تصرف الفونسو السادس عقب الموقعة ، فتصرفه يؤكد هذا المعنى

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٧

(٢) R. Menendez - pidal, la España del Cid, p. 339.

(٣) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٩

(٤) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٨

الصليبي ، فكما تضامن المرابطون في المغرب مع مسلمي الاندلس ، بدأ الفونسو يبعث رسله وكتبه الى ملوك المسيحية في اسبانيا وفيما وراء البرانس ، يدعوهم الى تجذته وقد استجابت ملكيات وامارات فرنسا الفرنجية لصيحات الفونسو السادس ، وبادر Eudes Borel أوديوس دوق بورجونيا ، صهر الفونسو السادس في بداية سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) بارسال جيشه بقيادته ، وقيادة اخيه انريكي Enrique . كما لبى ندائه عدد من أمراء فرنسا الجنوبية ، وعلى رأسهم ريمون دي سان جيل (الصنجلي) Rimond de saint Gilles كونت طولوشه وفي رفقته عدد كبير من محاربي لانجدوك وبروفانس وعدد من فرسان ليموسين Limosin وبواتو Poitou ونورماندى Normandie . ولما رأى الفونسو السادس انه لم يعد لوجود هذه الامدادات التي وصلت متأخرة ، ضرورة فقد شكر الموافدين وأمرهم بالقفل . ولكن الفرنسيين رفضوا العودة الى بلادهم ، فوضعوا أنفسهم في مخدنة ابن ردمير (شانجة راميرث) (١) .

أما يوسف بن تاشفين ، فقد عاد الى المغرب . ويعلق المستشرق الاسباني كوديره في كتابه عن (ظهور دولة المرابطين وسقوطها في الاندلس) على موقف يوسف بن تاشفين بقوله « كان من حسن الطالع بالنسبة للنصارى ان يوسف الذي حاز النصر في الزلاقة ، تلقى عقب انتصاره نبأ وفاة ولده ، الامير ابي بكر سير ، فاضطر الى العودة الى مراكش تاركا فكرة مطاردة الجيش المنهزم وبنى الثمرة التي يمكن ان تجنى من مثل هذا النصر العظيم ، وهى الاستيلاء على طليطلة ، وهى فكرة كانت تبدو طبيعية ، ولكنها لم تكن قد استقرت بعد في ذهنه بصورة عملية وذلك على الرغم مما يزعمه مؤرخو العرب من انه لمولا موت ابنه لما غادر الاندلس بهذه السرعة » (٢) .

R/ Menendez - Pidal, op. cit. p.340.

F. Codera, Decadencia y desaparición de los Almorávides en España, Zaragoza, 1899, p. 243.

(٧١)

نهاية بنى الافطس اصحاب بطليوس

١- الجفوة: بين ابن تاشفين وملوك الطوائف :

بعد أن عاد ابن تاشفين الى مراکش ، اضطربت احوال ملوك الطوائف بالاندلس اضطرابا شديدا ، وقبل أن نبدأ في سرد تلك الظروف السيئة التى أدت في نهاية الامر الى سيطرة المرابطين الكاملة على الاندلس تجدر الإشارة الى أن مصير هؤلاء الملوك أصبح بعد واقعة الزلافة مشتركا ، فالخطر المربطى لم يعد يتهدد مملكة واحدة ، وإنما يتهدد الاندلس كلها ، تماما كما كان الخطر المسيحى يتهددهم جميعا ، وكان سقوط أية مملكة في يد أحد العدوين يعنى سقوط جميع ممالك الطوائف ، الواحدة تلو الاخرى .

ويعتقد أن هؤلاء الملوك اخذوا بعد عودتهم الى بلادهم يشعرون بالخطر ، "يحيط بهم ، وان كانوا لا يدركون تمام الادراك مصدر هذا الخطر فهل هو خطر المرابطين ؟ أم هو الخطر المسيحى ؟ وحتى لو أنهم ايقنوا بحقيقة هذا الخطر لما استطاعوا أن يفعلوا ازاءه شيئا ، فقد كانوا جميعا في مرحلة من الاضطراب والشعور بالضيق ، ففي الوقت الذى كان يخشى فيه ملوك الطوائف العدو المسيحى ، ويتوجسون منه ويستترخون أهل العدو لنصرتهم ، والتصدى له ، كان عدد منهم ، بل كبارهم أمثال ابن الافطس ، وعبد الله الزيرى ، يلتجأون الى الملك المسيحى الفونسو السادس ، ويسعون الى خطبه وده وموادعته .

وفي نفس الوقت أسرع كل من ابن عباد وابن الافطس لاستقبال ابن تاشفين عندما جاز الى الاندلس جوازه الثانى مرجين به ، مقدمين له انفس الهدايا .

لقد بلغ ملوك الطوائف في تلك الفترة درجة كبيرة من التخبط والاضطراب ظهر أثرها في سياساتهم المرتبكة وكل ما نود أن نوضحه أنه

ربما كانت سياسة واحد من هؤلاء الملوك السبب الرئيسى فيما حل بباقي دويلات الطوائف الاخرى من مصائب .

فبعد ان عاد ابن تاشفين الى بلاده ، عاد اهل الاندلس يستصرخونه وعادت الوفود الاندلسية الى التردد على المغرب ، وفي هذه المرة تنوعت الوفود القادمة من الاندلس ، فقد « وفدت على امير المسلمين ، يوسف ابن تاشفين بحضرة مراكش جملة من وجوه الاندلس من اهل بلنسية (١) ، ومرسية (٢) » .

(١) بلنسية Valencia ، من مدن شرق الاندلس ، كانت في تلك الاونة من قواعد الاندلس ، واهم ثغوره ، عرفت بانها مدينة التراب لخصوبة ارضها ، وكان لها سور منيع يحكمه المنصور واشتهرت برخائها الاقتصادية ورواج تجارتها ، فعنها يقول الحميرى « والسفن تدخل نهرها ، وسورها مبنى بالحجر والطوايى ، ولها اربعة ابواب (وعند العذرى خمسة) وهى من امصار الاندلس ، الموصوفة ، وحواضرها المقدمة ، ولاهلها احسن زى ٠٠٠) وقد ظهر العنصر الصقلبى واضحا في زمن الطوائف في مملكة بلنسية ، هذا الى جانب الدور الكبير الذى لعبه السيد الكمبيادور في تاريخ هذه المملكة (الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٤٧ ، الحل الموشية هامش ٣٣ ، ص ٦٧ ، العذرى ، ص ١٧ ، ١٨ . R. Menendez Pidal, la España del Cid, op. cit. P. 593 - 604.

محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢١٦ - ٢٥٢ - راجع رسالة الماجستير المقدمة من السيد كمال ابو مصطفى عن بلنسية ، تحت عنوان : تاريخ مدينة بلنسية الاسلامية من الفتح العربى حتى نهاية عصر المرابطين ، ونوقشت بكلية آداب الاسكندرية في ١٩٨١ مرسية Murcia ، مدينة على نهر شقورة ، كانت قاعدة كورة تدمير ، بنيت على عهد الامير عبد الرحمن الاوسط سنة ٢١٠ هـ (٨٧٥ م) وقد ازدهرت مرسية ازدهارا كبيرا في عهده ، واشتهرت مرسية بمسجدها الجامع ، وكان لها من الحمامات والاسواق العامرة الكثير ، وقد عرفت مرسية بثروتها واثرائها الاقتصادي فهى « رخيصة الفواكة كثيرة الشجر والاعناب واصناف الثمار بها معادن فضة عزيزة متصلة المادة ، وكانت تصنع بها البسط الرفيعة الشريف =

ولورقة (١) ، وبسطة (٢) ، فشكوا اليه ما عاناه اهل بلنسية من الكنبيطور ، وكان من ملوك الروم قد لازم حصارها سبع سنين حتى دخلها ، وشكوا له ما حل باهل مرسية وأعمال لورقة وبسطة من شأن ليبط ، وهو حصن حصين على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم ، يملكه العدو ، وكانت سراياه تغير شرقا وغربا ، اذ كان في موسطة بلاد المسلمين ، فلم يزل وجوه الاندلس من تلك البلاد ،

= أرجع الى العذرى المعروف بابن الدلائى ، نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الاثار ، تحقيق د. عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ٦ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٦٧ - الحلل الموشية ، ص ٦٧ هامش ٣٤ ، وراجع كذلك السيد عبد العزيز سالم ، مدينة مرسية موطن أبى العباس المرسى ، مجلة جمعية الاثار بالاسكندرية
Salem, Historia de Murcia musulmana, artículo publicado por la Univ. del Cairo en memoria del defunto profesor Abdel Aziz al Ahwani.

وراجع كذلك رسالة الماجستير المقدمة من السيد عزت قاسم ونوقشت فى مايو ١٩٨٤ بقسم التاريخ بعنوان « تاريخ مدينة مرسية الاسلامية منذ تأسيسها حتى استيلاء المرابطين عليها » .

(١) لورقة Lorca ، من بلاد تدمير فهى احدى المعاقل السبعة التى عاهد عليها تدمير ، تبعد عن مرسية نحو اربعين ميلا ، مقامة على ظهر جبل ، واشتهرت بتوافر المعادن (انظر الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٧٠ ، الحلل الموشية ص ٣٥) ولورقة باللاتينية تعنى « الزرع الخصيب » . وهذا الاسم يناسب هذه المدينة تماما لانها من المدن الخصيبة التى لها نهر يجرى الى الشرق منها مما تسبب فى رواجها وازدهارها فى المجال الاقتصادى . ويفسر بعض العلماء اسمها بالدرع الحصين .

(٢) بسطة Baza ، مدينة بالاندلس ، تقع بالقرب من وادى آش ، امتازت بحسن موضعها ، وحصانتها وبرواجها الاقتصادى ، فهى « عامرة ، آهلة ، حصينة ، ذات أسواق ، وبها تجارات وفلعة بضروب الصناعات ... وشجر التوت فيها كثير وعلى قدر ذلك غلة الحرير والزيتون ، وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة وأرضها ، غداة كثيرة الريح ... » .

يترددون اليه بالشكوى حتى وعد بالجواز اليهم ، اذا تمكن ، الفصل (١) « ٠٠

ومن هذا النص يتبين لنا ان شرق الاندلس ، كان مصدر الصريح في هذه المرة ، فشئون هذا الاقليم كان قد سادها الاضطراب من جراء تدخل قشتالة في شئون مملكة بلنسية عن طريق صنيعهم القادر بن ذى النون من جهة وعن طريق السيد الكنبيطور من جهة أخرى . هذا الى جانب الاعتداءات المستمرة التي كان يشنها النصارى على بلاد المسلمين من حصن لبيط Aledo (٢) خاصة على اراضى المعتمد بن عباد

= واشتهرت بسطة بانتاج الكحل الاسود من جبل يعرف بالجبل الاسود . وتبعد بسطة عن غرناطة بنحو ١٢٥ كم ، وعن مدينة وادى آش بنحو ٤٨ كم .

(انظر الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٤٥ ، الحلل الموشية ، ص ٦٧)

(١) الحلل الموشية ، ص ٦٧ .

(٢) حصن لبيط Aledo أو الليط : بعد سقوط طليطلة في يد الفونسو

السادس بادر هذا الملك بارسال قائده الشهير غرسية خيمينث الى اراضى شرق الاندلس للاغارة عليها ، فاجتاحت قواته هذه المنطقة وعلى وجه التحديد المنطقة الواقعة بين لورقة ومرسية ، ونكاية في المسلمين وامعانا في مضايقتهم قاموا ببناء حصن في هذه المنطقة الواقعة بين لورقة ومرسية في مكان يسمى لبيط يقع على مقربة من لورقة وبهذا أصبح هذا الحصن المنيع ، قاعدة للنصارى يهاجمون منها الاراضى الاسلامية في مرسية والمرية ، مما دفع الاهالى الى مراسلة امير المرابطين ، يوسف بن تاشفين طلبا في التجدة والغوث وقد كان المعتمد ابن عباد وصاحب السيادة الشرعية على مرسية ولورقة ، فكان بطبيعة الحال اكثر ملوك الطوائف انزعاجا من هذه الضربات المتتالية التي كان يوجهها اليه النصارى مما دفعه الى العبور بنفسه الى المغرب لينلقى يوسف بن تاشفين بوادى سيوليشرح له الظروف القاسية التي يعانى منها ، فوعده يوسف ابن تاشفين بان يجيبه على مطلبه بالعبور الى الاندلس ، وكان ابن تاشفين في ذلك الوقت قد تلقى العديد من الرسائل والمكاتبات من اهل الاندلس كما سبق أن اوضحت وجميعها تلح عليه راجية الغوث ، لوضع حد لهجمات النصارى وضرباتهم ، وللاستيلاء على =

في مرسية ولورقة (١) انتقاما منه لاستدعائه المرابطين الذين الحقوا بالنصارى الهزيمة المروعة في واقعة الزلاقة .

« ولما رتب اشغاله ومهد احواله وكمل من ذلك مراده ، اتصل به قدوم امير المسلمين ، وجوازه البحر ، واستقراره بالجزيرة الخضراء ، فتلقيه ابن عباد على عادته بما يقدر عليه من الكرامات والمبرة ، وانفذ امير المسلمين كتبه للملك الاندلس يستدعيهم للجهاد معه ، والموعود حصن

= هذا الحصن المنيح لبيط ، ولهذا فقد كان جواز ابن تاشفين الثاني عام ٤٨١هـ (١٠٨٨م) بهدف النظر في امر حصن لبيط وقد زرت حصن الليط أو لبيط المذكور Aledo ويقع قريبا من مرسية على هضبة شديدة الارتفاع تشرف على الطرق المؤدية الى مرسية والمرية ولورقة ويتحكم في هذه الطرق . والحصن لا يعدو برجا مربع الشكل شديد الضخامة قيل انه كان يتسع لالف فارس واثنى عشر الف راجل (الحلل الموشية ، ص ٦٩) وعلى الرغم من اجتماع المسلمين على حصار الحصن المذكور فقد ظهر لهم من حصانته ومنعته ما يأسهم عنه . (انظر ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨ ، الحلل الموشية ، ص ٦٧ ، محمد عبد الله عنان ، ص ٣٣٤ .

(M. pidal, op. cit, p. 361

(١) كان المعتمد يستهدف من وراء استدعائه لامير المرابطين يوسف بن تاشفين اغتنام فرصة وجوده لتحقيق اكبر قدر ممكن من الاهداف ، فهو يريد ضرب اكثر من هدف بحجر واحد ، فلو ان المرابطين تمكنوا من الاستيلاء على حصن لبيط فانه يتخلص أولا من عيث النصارى ويسترد سلطانه الحقيقي على مرسية ثانية ، فقد كانت يومئذ تحت حكم ابن رشيق ، وكان ابن عباد قد توجه مع عسكر المرابطين الذين تركهم ابن تاشفين رهن اشارته فصار الى لورقة وحاصرها ولكنها امتنعت عليه ، فتركها الى مرسية وحاصرها ، ولكن ابن رشيق تمكن من ان يكسب ود قوات المرابطين وان يقنعهم بان يتركوه في سلام ، فعاد ابن عباد وهو يعاني من خيبة الامل الى اشبيلية .

لبيط (١) .

كان يوسف يتمنى لو أنه تمكن من الاستيلاء على حصن لبيط ، ورغم آلات الحصار الضخمة التي استخدمها المرابطون لاستنزال حامية الحصن إلا أنه امتنع على ابن تاشفين « وشن يوسف الغارات على بلاد الروم ، كل يوم فدام الحصار على لبيط أربعة أشهر لايفتر عنه القتال ليلا ولا نهارا ... » (٢) .

وجاء استنجد ابن عباد بأمير المرابطين نذير شؤم على ملوك الطوائف ، فأثناء حصاره للبيط أدرك مدى الضعف الذي انتهى إليه أمر هؤلاء الملوك ، واتضحت له الخلافات العميقة التي كانت قائمة بين هؤلاء جميعا : فالخلاف والوقعية كانا سائدين بين الأخوين الزيريين ، الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وأخيه الأمير تميم صاحب مالقة بحيث أخذ كل منهما يشكو الآخر لابن تاشفين ويوقع به ويتهمه باغتصاب حقوقه ، هذا إلى جانب الخلاف الذي كان قائما بين ابن عباد والمعتصم ابن صمادح كل منهما يتهم الآخر بمختلف التهم أمام ابن تاشفين ، وبالغ ابن عباد في شكائاته ، فقد أبدى ضيقه بآبن رشيق وسخطه عليه ، واتهمه بانتزاع ولاية مرسية منه ، أثار كل ذلك أشمزاز ابن تاشفين من هؤلاء الملوك الذين تهافتوا لتحكيمه فيما شجر بينهم من خلافات ، واستغرقوا في منازعاتهم الشخصية ، ناسين القضية الرئيسية وهي الدفاع عن الاسلام في الاندلس واستاء ابن تاشفين من استغراقهم في مشاحناتهم الامر الذي

(١) الحلل الموشية ، ص ٦٨ .

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩ ، ولكن صاحب الحلل الموشية يرى أن الحصار دام شهرا واحدا ، وفي ذلك يقول «وجاءهم من مرسية النجارون والبنائون والحدادون ، واضطربت المحلة محدقة بحصن لبيط ، وكان بداخله من الروم ألف فارس واثنا عشر ألف راجل ، واتصلت الحروب ، وكثر الوارد ، وتمسأى القتال على الحصن ليلا ونهارا مدة شهر ، وكل أمير من أمراء الاندلس يقاتل في يوم بخيله ورجله ... » (أنظر الحلل الموشية ، ص ٦٩)

دعاه الى التفكير جديا فى اسقاطهم عن عروشهم الواحد تلو الآخر ، فقد سعى ابن عباد للاطاحة بابن رشيق بأن اتهمه لدى امير المرابطين بأنه يتعاون مع الحامية المسيحية فى الخفاء ضد المسلمين ، واقنعه بأن ابن رشيق هو السبب الذى اخر سقوط حصن لبيط فى ايديهم حتى ذلك الحين واحتار ابن تاشفين فى امر ابن رشيق ، ولكنه انحاز فى النهاية الى ابن عباد . ويروى عبد الله الزيرى ذلك فى مذكراته فيقول « اعمل فى ذلك عقله ودبره براهيه وقال ماتنبغى لنا مفاسدة ابن عباد من أجل ابن رشيق لاحتياجنا اليه فيما نحن بسبيله ، ونحن لم نأمن أمر الرومى والاوكسد علينا فى هذا الوقت مداراة ابن عباد حتى ترينا الامور وجوهها ، فتعسف على ابن رشيق فى الذى اظهر من المخلاف على صاحبه » (١) .

ثم انه استفتى فى امر ابن عباد وابن رشيق الفقهاء ، فحكموا على ابن رشيق « فأمر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه ، واسلامه فى يد ابن عباد ، ونهاه عن قتله ، فثقفه ابن عباد ، فهرب للحين أصحاب ابن رشيق وقرباته وجميع محلته الى مرسية وانتزوا بها » (٢) .

ومن النص السابق يمكننا ان نتبين الاثر السئ الذى ترتب على هذا الحادث ، وصداه على ما تلى ذلك من أحداث ، فان قادة مرسية ، وكان معظمهم من اقارب ابن رشيق ورجاله ، انسحبوا من الميدان ، فاختل التوازن فى المعسكر ، وانتهى الامر بانسحاب امير المرابطين حين علم بقدوم الفونسو السادس الى الحصن لعدم كفاية قواته (٣) .

وكان لهذا الاخفاق فى افتتاح الحصن اكبر الاثر فى نفس ابن

-
- (١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١١١
 (٢) الحلل الموشية ، ص ٧٠ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٣٦ .
 (٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩ ، الحلل الموشية ، ص ٧٠ ، ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص ٢٤٧ .

تاشفين ، فقد عاد يوسف الى المغرب ^(١) وهو ناظم على مواقف ملوك الطوائف المخزية ، عاد الى المغرب بعد ان ترك جيشا قوامه اربعة آلاف جندي تحت امره داود بن عائشة في مرسية وبلنسية ، وعزم في قرارة نفسه عزمًا قاطعًا على وضع حد لهذه الاوضاع المؤسفة والاطاحة بعروش ملوك الطوائف لو هبهم الشديداً أمام العدو في معركة قد تصبح حاسمة بالنسبة لمصير الاسلام في الاندلس وانشغالهم عن الجهاد بأطماعهم الشخصية وخلافاتهم المتواصلة ، واستهتارهم بما تتعرض له البلاد من أخطار حرب صليبية لا مجال للشك فيها . ومن هذا المنطلق : الغيرة على الاسلام ، والرغبة في توحيد الصف الاسلامي ، أعد يوسف ابن تاشفين للجوار الثالث الى أرض الاندلس عدته في أوائل عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) ، ولم يكن جوازه هذه المرة الا لاسقاط ملوك الطوائف اللادين عن الجهاد بما اختلقوه من خلافات ، المستغرقين في متع الحياة الرخيصة داخل قصورهم الاسطورية ، الغافلين عن مسؤوليات شعوبهم بشهوات النفس والترف ومتاع الدنيا .

وأيا كانت الدوافع التي حركت ابن تاشفين ^(٢) على الجواز الى

(١) بعد أن رجع يوسف بن تاشفين الى المغرب جاء الفونسو السادس الى حصن ليبط فأخلاه بعد أن وجد بداخله مائة فارس نصراني مع ألف راجل مما جعله يتأكد من عدم جدوى الدفاع عنه . فقرر تقويض أسواره وأبراجه ، وتم ذلك في عام ٤٨٢هـ (١٠٨٩م) واحتل ابن حباد أطلال هذا الحصن بعد أن غادره الفونسو السادس بمن فيه من النصاري (انظر ابن زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩ ، الحلل الموشية ص ٧٠ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٣٦) .

(٢) هناك العديد من الدوافع التي دفعت يوسف بن تاشفين الى العبور لاندلس فمنها العامل الدفاعي والاستراتيجي الذي ساقه الاستاذ عنان ، ففي اعتقاده أن يوسف بن تاشفين أدرك منذ أن جاز الى الاندلس في المرة الاولى أن مثل هؤلاء الملوك الاندلسيين المترفين المنعمين لا يمكن لهم أن يتحدوا لحركة الركنكستا التي نشطت في =

الاندلس فقد قدم هذه المرة وهو يتلمس الاعذار لتبرير ما سيقدم عليه ،

= عهدهم نشاطاً لم تشهده الاندلس من قبل ، فاثارت غيخته على الاسلام ، حماسة الديني ، فان سقوط الاندلس في أيدي المسيحيين يعني سقوط جناح المغرب الدفاعي في الشمال ، ولذلك بادر بالدفاع عن الاندلس ، لانهم في حمايته له حماية للمغرب الاسلامي ، (انظر محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٣٩) .

ويأتى عبد الواحد المراكشي بدافع هام هو طمعه في الاستيلاء على الاندلس لما تنعم به من ثراء ، فحين رجع الى مراكش قال لاصحابه « كنت اظن اننى ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ » وبالتالي فان هذه الرواية توضح لنا بصراحة تامة ووضوح مدى اطماع ابن تاشفين في الاندلس ورغبته الشخصية في الاستيلاء على تلك الاراضى الغنية (انظر عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٣٨) وقد ذكر ابن الخطيب رواية تشابه رواية عبد الواحد المراكشي وفيها ما يؤكد طمعه في السيطرة على الاندلس ، جاء فيها « ولما استوثق ليوسف بن تاشفين بسعيه امر الجهاد ، وراقه حسن ما بالاندلس من البلاد ، واغرى بملوك الطوائف ، وقررت لديه مساومتهم ازمع على خلعهم ٠٠٠) (انظر ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص ١٦٣ وكذلك المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٢٣) . ومن الدوافع ايضا دافع نفسى هو كراهته للحياة التى كان يحياها ملوك الطوائف كما سبق ان عبر عنه الامير عبد الله الزيرى ، فيوسف ابن تاشفين حين شهد الخلافات الشديدة بين امراء الطوائف وملوكها ، طمع في الاستيلاء على بلادهم وممتلكاتهم «واخذ امير المسلمين في الانصراف الى بلاده ، وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ، ما لم يروجها لبقائنا في الجزيرة ٠٠٠ » (انظر مذكرات الامير عبد الله الزيرى ص ١٠٧) ولم يتخذ امير المسلمين هذا القرار الخطير فجأة ، وانما لجأ الى مشاورة الفقهاء في المغرب والاندلس في ذلك الامر ، وقد افتى له العديد من الفقهاء امثال الامام الغزالي وأبى بكر الطرطوشي بجواز خلع ملوك الطوائف ، وأيدوه فيما اتخذه من اجراءات بعد ان بدأ امراء الطوائف في الاندلس في الاتصال بالفونسو السادس وممالأته وامداده بالاموال والهدايا ، وقد كان هذا التصرف باعثا جديدا لدى ابن تاشفين لغزو الاندلس والاستيلاء عليه (انظر ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ١٨٨) .

فتظاهروا بأنه ما قدم الا للجهاد وكان هدفه مدينة طليطلة ، مقر الفونسو ، وكانت غاية امانيه ان يعيدها الى الاسلام ولكن ملوك الطوائف لم يقدموا له هذه المرة العون اللازم ، فاثار ذلك عليهم ابن تاشفين ، فقد استاء من موقفهم حياله ، فكان ذلك مبررا مباشرا لموقفه العدائى منهم « فنوى الشر لهم » ^(١) ، ولم يعقه هذا التقاعس عن قيامه بحصار طليطلة « والفنش بها ، وهتكها ، وقطع اثمارها » وخرب احوازها ، وقتل وسبا ، ولم يأت أحد من امراء الاندلس ولم يعرج عليه فعاظه ذلك » ^(٢) .

ويورد عبد الواحد المراكشى خبرا هاما وهو ان ابن تاشفين عندما كان بالعدوة اشار عليه أصحابه ان يرسل الطوائف يستأذنهم في ارسال مجموعة من رجاله يرغبون بالرياط بالاندلس « ومجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاغبة للروم الى ان يموتوا : ففعلوا ، وكتبوا الى المعتمد بذلك ، فاذن لهم بعد ان وافقه على ذلك ابن الافطس المتوكل صاحب الثغور ، وانما اراد يوسف وأصحابه بذلك ان يكرن قوم من شيعتهم مبعوثين بالجزيرة في بلادها ، فاذا كان أمر من فيام بدعوتهم او اظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعوانا ... » ^(٣) .

وبالاضافة الى ان هذا النص قد اثبت بما لايدع مجالا للشك في ان رصد العيون للتجسس كان أمرا شائعا ومألوفا في العصر الاسلامى ، فانه سلط الاضواء كذلك على الدور الهام الذى لعبه عمر المتوكل بن الافطس في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الاندلس . ويوضح لنا هذا النص كذلك ان المعتمد بن عباد لم يوافق على رسالة ابن تاشفين وعلى طلبه الا بعد ان استشار ابن الافطس ، فوافقه على ذلك ، ويحمل هذا

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٩

(٣) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٩

السلوك من جانب المعتمد على الاعتقاد بأن ابن الافطس ، وابن عباد كانا يشكلان في تلك الفترة محورا أندلسيا هاما ، وسنرى فيما بعد انهما سيتوجهان معا الى ابن تاشفين في غرناطة بعد استيلائه عليها ، وانهما سيتصلان سرا بالفونسو السادس ملك قشتالة بهدف أن يتعاون معهما ضد المرابطين ، فسياستهما كانت موحدة ومشتركة مما يدل على خطورة هذا الحلف الذي افه هذان الملكان ، ضد أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين ، واذا كان ابن عباد قد اتهم في فترة ما بممالأة الفونسو السادس ، وتخليه له عن قلاعه وحصونه ، وادعائه لمشيئته في دفع الجزية ، وموافقته له على تزويج ابنته زائدة المسلمة (١) منه ، فإن هذا الاتهام كان له ما يبرره وهو موقفه العدائي المخزى من المرابطين وتحالفه مع الفونسو السادس ضدهم ، وقد ظهرت آثار هذا التحالف عندما أرسل ابن عباد الى الفونسو السادس يستغيث به عندما علم بحصار المرابطين له في اشبيلية « فبعث اليه الفئس قائده القومس في جيش من عشرين الف فارس وأربعين ألف راجل ٠٠٠٠ » (٢) .

ونعتقد أن هذا القول مبالغ فيه للغاية ، ولو أن الفونسو امدده حقا بهذه الاعداد الضخمة من الرجال لما كان المرابطون قد أفلحوا في اقتحام اشبيلية وأسقاط المعتمد بن عباد ، واعتقد أن هذا الخبر مختلف مدسوس على المعتمد ، شأنه شأن كثير من الاخبار التي يسوقها صاحب روض القرطاس .

أما بالنسبة لابن الافطس فقد كان جزء اتصاله بالفونسو السادس وتحالفه معه ، وتنازله له عن شنترية وشنترين وأشبونة ، لقاء مساعدته

(١) وكنا قد أوضحنا كذب هذا الافتراء على ابن عباد وأن زائدة انما كانت زوجة ابنه الفتح بن عباد صاحب قرطبة وكنة المعتمد بن عباد .

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠

له ضد المرابطين ان قتل هو وولدان له بعد فتح المرابطين لبطلبيوس كما
 ستوضح في الصفحات التالية ، وانما اردنا ان نؤكد تلك الحقيقة الهامة ،
 وهى ان المتوكل بن - الافطس أصبح في تلك المرحلة التاريخية الاخيرة
 من عصر الطوائف ، هو والمعتمد ابن عباد نجمين ساطعين في سماء
 السياسة الاندلسية يمثلان في ذلك ملوك الطوائف المناهضين في الاندلس
 للوجود المرابطى ، وأيا ما كان الامر ، فقد اقام يوسف بن تاشفين بعض
 الوقت محاصرا لطليطلة ، ولكنه ادرك استحالة افتتاحها وحده لقوة
 دفاع الفونسو السادس وابن ردمير عنها ، اذ كانا يتوليان مسؤولية
 الدفاع عنها آنذاك ، ولذلك فقد غادرها ابن تاشفين الى غرناطة (١)

(١) - كان عبد الله الزيرى قد جهر بالاعراض والتغير على ابن تاشفين ،
 وفي ذلك يقول صاحب الحل الموشية « ولما تبين لهم تغيره عليهم
 واعراضه عنهم ، نظر كل منهم لنفسه ، بغاية عزمه ، فأول من
 جهر بذلك وتظاهره ، وجد فيه ، المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس ،
 واتصلت أنباؤه بيوسف بن تاشفين ، فاشتد غضبه وزاد حرجه
 عليه . . . » (الحل الموشية ، ص ٧١) هذا وكان عبد الله
 الزيرى قد عقد معاهدة مع الفونسو السادس تعهد فيها بدفع
 الجزية في مقابل ألا يعترض الفونسو له بلدا ، ولا يغدر به بعد
 هذه المعاهدة (انظر مذكرات عبد الله الزيرى ، ص ١٢٥)
 وشرع عبد الله الزيرى في تحصين بلاده لمواجهة يوسف بن تاشفين ،
 كما بدأ بالفعل في نقل أمواله ومتاعه الى قصبة المنكب لمناعتها
 وحصانتها .

وكان الفونسو السادس قد أكد لعبد الله الزيرى وقوفه الى جانبه
 ومساعدته له ، وفي تلك الاثناء كان مؤمل أحد موالى باديس جد
 الامير عبد الله الزيرى قد وشى به لدى ابن تاشفين بالاضافة الى
 اقدام فقهاء غرناطة على اصدار فتوى بخلع عبد الله الزيرى من
 غرناطة ، وأخيه تميم من مالقة بسبب الخروج عن احكام الدين
 والشرع ، فحاصر ابن تاشفين غرناطة ، وعرض على عبد الله
 الايمان في النفس والاهل دون المال ، فاستمهل عبد الله فترة من
 الوقت بخجة تقلاب الامر ، واتخاذ قرار حاسم في ذلك رغم الحاج
 اصحابه وامه عليه بقبول امان أمير المرابطين ، اذ كان ينتظر قدوم
 الفونسو السادس لانجاده ، فلما اقترب ابن تاشفين من المدينة ، =

لمواجهة صاحبها عبد الله الزيرى الذى قرر البدء بإسقاطه ، فقد استقر فى ذهن يوسف أن ملوك الطوائف عقدوا مع ملك قشتالة اتفاقات سرية يتعهدون فيها بالامتناع عن بذل العون للمرابطين ، ومن المعتقد أن ابن تاشفين بدأ بتنفيذ سياسته تجاه ملوك الطوائف بدويلة غرناطة أصغر دويلات الطوائف شأنا وأقلها قوة ، ولم تلبث غرناطة أن سقطت فى يده (١) .

= واشتد الهياج بها ، وافق الامير عبد الله على أمان ابن تاشفين الذى بادر بضبط أمواله المقدسة التى ورثها عن جده باديس ، ولم يلبث أن أصدر ابن تاشفين أمره بنفيه وأهله إلى أغمات حيث عاشوا موضع تكريم ورعاية حتى وفاته (انظر فى ذلك ، مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، من ص ١٦٢ الى ص ١٧٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٣٥ ، خاصة فى وصفه لكيفية استسلام الامير عبد الله لابن تاشفين ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، الحلل الموشية ص ٧١ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢) .

(١) بلغ يوسف بن تاشفين وهو بمراكش بعد عودته من حصاره الفاشل لحصن لبيط أن الامير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة اتفق مع البرهانس وكيل الفونسو السادس فى جهات غرناطة والمرية وتعاقد معه على نصرته نظير ثلاثين ألف دينار ، كما ثبت أن ابن رشيق تعاون مع النصارى أثناء حصار المسلمين لحصن لبيط ، اذ كان يقويهم ويعينهم ، خوفا مما قد يحل عليه بفقدهم ، (مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٥) لذلك عزم ابن تاشفين على استئصال شأفة ملوك الطوائف وذلّعتهم عن عروشهم مبررا لذلك بأنه لا ينبغي لهم أى للمرابطين « قتال الروم ، ويتركوا وراءهم الاعداء ممن يؤس عليهم معهم » (مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٥) .

فلما جاز الى الاندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) ، وكان قد عزم على الاطاحة بعروش ملوك الطوائف ، بدأ بنكبة عبد الله الزيرى ، فعزله عن عرشه ونفاه الى مكناسة (الحلل الموشية ، ص ٧١) ثم أردفه بأخيه تميم .

ب - خلع المعتمد بن عباد عن مملكته اشبيلية ونفيه

وكان يوسف بن تاشفين قد وعد المعتمد بن عباد بغرناطة قبل قدومه اليها بأن يسلمها اليه لانه ادرى اكثر من غيره من ملوك الطوائف ، بمصالح المسلمين ، ويذكرون في ذلك انه قال له « انا رجل مغربى ، وليس قدمنى اخذ مال ولا بلاد ، وقد ترى ما رفع على صاحب غرناطة ، ونتوقع عليها من الرومى ، وليس غرضى اكثر من تخليصها ، فاذا صارت فى يدى ولا يمكننى امساكها لبين بلاد الاندلس من العدو وضعتها عند ذلك فى يدك فتكون أعلم بما تصنع بها ، واقعد لما يصلح للمسلمين . » (١)

وكان على ابن عباد وصاحبه ابن الافطس أن يبادرا من قبيل التظاهر والمجاملة بتهنئة ابن تاشفين بعد دخوله غرناطة ، فلما التقيا به « لم يقبل عليهما ، وأعرض عنهما وانصرفا عنه الى بلادهما ، وأدرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين الى الاندلس ، وقال لحليفه المتوكل ابن الافطس : والله لابد له ان يسقينا من الكأس التى سقى بها عبد الله بن بلقين . . . » (٢) .

هذا ويسوق الامير عبد الله الزيرى فى مذكراته رواية أخرى يوضح فيها كيف أن الحليفين ابن عباد وابن الافطس ، استشعرا الخطر المرابطى عند مقابلتهم لابن تاشفين فيقول « وان المعتمد بن عباد ، لما أبصر بدخول الامير غرناطة راستنجز وعده ، فلم يلتفت ، ورأى ثقافها بالمرابطين واخراج من فيها من الحشم ، وكل من طمع بالبقاء على حاله ، جزع جزعا شديدا ، وخاف ان يثنى به ، اذ رأى الامير مذهبه

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٦٤ - ٦٥ .

(٢) الحلل الموشية ، ص ٧٢ ، ومرة أخرى يؤكد صاحب الحلل الموشية قيام حلف اندلسى يجمع بين ابن الافطس وابن عباد ، فاستخدام صاحب الحلل الموشية لكلمة « حليفه ابن الافطس » يؤكد الراى الذى ذكرناه .

في البلاد واستصرأه ، ولم يمكن للامير أن يأخذه بغير ذنب فيقبح ذكره ، وأشار اليه المرابطون بثقافه ، فأبى حتى يلوح قبله ذنب يؤخذ به . ثم أنه بعد أن نهض وأتبعه قرور ، يقول له « الامير يحتاج الى تذكارك بعض الامراء » ، فأبى ، ومضى لوجهته فاراً بنفسه ، وأطوى المراحل حتى وصل قرطبة ، وقال له في طريقه الى ابن الافطس « انج بنفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة ، وغدا بنا » (١) .

ومن هنا أدرك الحليفان الحقيقة المروعة ، وعلما بأن نهايتهما أصبحت محتومة ، فعاد كل منهما الى بلده يحصنها ، ويعتزم الدفاع عنها حتى الرمح الاخير . اما عن ابن الافطس فقد عاد لبلاده مضطرباً حائراً ، واختلط عليه الامر اذ كان لايعرف كيف يتصرف امام هذا الخطر المربطى المائل ، وتصمت المصادر العربية عن ذكر أى تفاصيل عن هذه الفترة الدقيقة من عهده ، وكل ما يمكننا أن نتصوره أنه استمر على اتصال بحليفه ابن عباد، وفي الوقت الذى رأى كل منهما ضرورة معاودة الاتصال بالفونسو السادس عدو الامس للاحتماء به والاستعانة بقواته ضد المرابطين ، رأى ابن الافطس أن يمسك بالعصا من وسطها ، فبدأ سلسلة من الاتصالات الودية بالامير سير بن أبى بكر ، كان لها اثر كبير

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٦٩ ، وتؤكد هذه الرواية أن ابن الافطس وابن عباد قد ربطتهما روابط الخوف والتوجس من نوايا امير المرابطين مما قريهما وزادهما تعلقاً وصداقة ، وتؤكد هذه الرواية أيضاً أن تلك الزيارة التى قاما بها لابن تاشفين فى غرناطة كانت نذيراً لهما بنوايا ابن تاشفين حيالهما .
ومن الجدير بالذكر أن اسم قرور ، ورد فى نص الامير عبد الله ، وقرور هذا هو فى حقيقة الامر جرور الحشمى الذى ورد اسمه فى الحلل الموشية ص ٧٣ ، باسم « جؤذر الحشمى » وتصويبها « جرور » « الحشمى » وهو كما سنشير اليه فيما بعد القائد الذى ولاه يوسف بن تاشفين على أحد جيوشه ليحاصر يزيد الراضى فى رنده ، ورغم أن يزيد سوف يسلم له رنده فى مقابل حصوله على الامان الا أن جرور يقدم على قتله .

في الابقاء على عرشه الى حين ، فبعد سقوط مملكة اشبيلية في ايدي المرابطين كان للعلاقة الطيبة التي ربطت بينه وبين سير بن ابي بكر الفضل الاعظم في حماية دولته. طوال ثلاث سنوات من السقوط الى ان تأكد للمرابطين خيانة المتوكل لهم واتصاله بالفونسو السادس (١) .

وكان ابن الافطس شديد الاهتمام بتطور العلاقات بين ابن عباد ، الضحية التالية لابن تاشفين ، والمرابطين ، وقد تبين له هذا الامر منذ أن دعا يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد للحضور اليه ، فامتنع ، ثم عاد فطلب منه اتباع احكام الشرع ، وألغاء المكوس الجائرة ، ولكنه لم يستجب الى طلبه (٢) . ولاشك ان ابن عباد كان على يقين من أن ابن تاشفين يبغى استغلاله والتقليل من شأنه ، وربما أراد أن يتخذ أى مبرر للانقضاض على بلاده واسقاطه عن عرشه .

ولم يلبث ابن تاشفين أن قفل عائدا الى المغرب في شهر رمضان ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) بعد أن اطمأن الى احتلاله لغرناطة تاركا على الاندلس قائده سير بن ابي بكر ويرى ابن ابي زرع أن ابن تاشفين اكتفى بترك قائده سير في الاندلس مطمئنا بذلك الى حسن ادارته وكفايته ، فانه لم يأمره بفتح أى حاضرة أخرى من حواضر دويلات الطوائف ، ويعبر عن ذلك بقوله « وقدم على الاندلس قائده سير بن ابي بكر نحو اشبيلية ، وهو يظن أن ابن عباد اذا سمع به يخرج اليه ويتلقاه على بعد بالضيافات ، فلم يفعل ، وتحصن منه ، ولم يضيفه ، ولم يلتفت اليه ، فراسله سير بن ابي بكر أن يسلم اليه ويدخل في طاعته ، فامتنع المعتمد عن ذلك ، فأخذ سير في احصاره وقتاله ، وبعث قائده يطى الى جيان فحاصرها حتى دخلها صلحا ... » (٣) .

-
- (١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٦٨ .
 (٢) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠ - مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٦٩ .
 (٣) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠

أما صاحب الحلل الموشية فيؤكد أن ابن تاشفين كان قد قدم « ابن عمه الامير سير بن ابي بكر على عسكر وأمره بمحاصرة ابن عباد باشبيلية وأوعز اليه أنه اذا فرغ من شأنه يتقدم لبلاد المتوكل ابن الافطس ، لشبونة ، وشنترين ، وغير ذلك مما كان بيده » (١) . كما أرسل ابن تاشفين قائده ابن الحاج لفتح قرطبة حيث كان بها الفتح بن عباد الملقب بالمأمون زوج زائدة المشهورة كنة المعتمد بن عباد وأم ولد الفونسو السادس فيما بعد (٢) .

كذلك سير قائده أبا زكريا بن واسينو على رأس جيش ثالث لمحاصرة المعتصم بن محمد بن معن بن صمادج بالمرية ، وجيشا رابعا بقيادة جوذر الحشمى على عسكر رابع ، وأمره بمنازلة يزيد الراضى بن المعتمد بن عباد والى رندة (٣) .

-
- (١) الحلل الموشية ، ص ٧٢ ، وانظر أيضا ابن الكردبوس ، تحقيق د. مختار العبادى ص ١٠٦ .
- (٢) عندهما افتتح المرابطون قرطبة ، واستشهد المأمون ولد المعتمد ووزيره ابن زيدون وأبو بكر بمدخله من أهل قرطبة (مذكرات الامير محمد الله الزيرى ، ص ١٧٠) امتلا قلب زائدة زوجة المأمون بالحدق على قتله زوجها وسجاني أبيه فيما بعد ، والظاهر أن حقدتها على المرابطين دفعها الى الاقدام على ارتكاب خطأ فاحش فقد فرت من الاندلس وأولادها ، والتجأت الى طليطلة ، وأصبحت زوجة غير شرعية للفونسو السادس ملك قشتالة بعد أن ارتدت عن الاسلام ، واعتنقت المسيحية حتى تستحبه على محاربة المرابطين ، وقد أنجبت منه ولدها الامير شانجة الذى قتل فى موقعة الاقماط السبعة المعروفة بأقلش (٥٠١ هـ) (١١٠٧ م) (الونشريشى ، اسنى النتائج فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصرارى ولم يهاجر ، تحقيق د. حسين مؤنس ، صحيفة العهد المصرى للدراسات الاسلاميه بمديرية سنة ١٩٥٧ ، ص ١٨٩ ، وانظر أيضا التفاصيل فى الاسلام فى المغرب والاندلس تاليفاً ليفى بروفنسال وترجمة السيد عبد العزيز سالم ، ص ١٦٢) .
- (٣) الحلل الموشية ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٤٣ .

وأياما كان الامر (١) ، فان سير بن أبى بكر وباقي القادة الذين ارسلوا لفتح مملكة اشبيلية والمناطق التابعة لها ، قد نجحوا في تنفيذ ما كلفهم به أميرهم ، وتمكن سير بن أبى بكر بعد طول مقاومة من فتح اشبيلية والاستيلاء عليها (٢) ، وتمكن المرابطون من اقتحام اشبيلية من جهة باب الفرج ، واستولوا على القصر ، وقبضوا على المعتمد بن عباد ، وساقوه أسيرا الى أغمات في صحبة زوجته الرميكية وبناته ، وهناك انتابه شعور بالحزن والاسى عبر عنهما بقصائد تقطر الما الى أن توفي في أغمات سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥ م) وتم العثور على قبره الذي دفن فيه (٣) .

(١) نحن أميل الى الاخذ برأى صاحب الحل الموشية فلا يمكن لقائد مهما كانت مكانته أن يتحرك لفتح مملكة كبيرة مثل مملكة اشبيلية دون أن يتلقى تعليمات سيده ، الامر الذي يدعونا الى أن نرجح أن ابن تاشفين هو الذي أمر سير بن أبى بكر بفتح تلك الممالك قبل عبوره الى المغرب .

(٢) سقطت مملكة اشبيلية في أيدي المرابطين بعد مقاومة عنيفة من جانب المعتمد ، وقد بدأ سير بن أبى بكر هجومه على هذه المملكة باستيلائه على طريف أقصى ثغور اشبيلية الجنوبية (انظر عبد الواحد المراكشى المعجب ، ص ١٣٩) ثم توجه الى اشبيلية نفسها ، بينما كانت سائر الجيوش الاخرى التي أرسلها ابن تاشفين تتخذ طريقها الى جهاتها المختلفة : قرطبة ورندة والمرية (انظر ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠) . وقد دافع ابن عباد عن بلاده دفاع الابطال ، وظل محاصرا داخل مدينته عدة أشهر ، وفي إحدى المعارك مع المرابطين خرج يدافع فيها عن مدينته وليس عليه سوى غلالة رقيقة تشف عن بدنه ، وقد أصيب في هذه المعركة بطعنات قاتلة ، وذكروا أنه استنجد بالفونسو السادس فبادر بارسال جيش لنجده ، ولكنه انهزم أمام المرابطين (انظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب د ، ١٤٠ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٦٣) .

(٣) راجع مفال :

Emilio García Gómez, un supuesto sepulcro de Mu'tamid :
do Sevilla en Agmat, al-Andalus, vol. XVIII, Fasc. 2, 1953, pp.
402 - 411.

ج - نهاية المتوكل على الله وسقوط دولة بنى الافطس

ذكرنا من قبل ان ابن الافطس ادرك حين رأى الخطر المرباطى باشبيلية أن دوره هو الآخر أصبح وشيكا ، ولذلك بدأ يتودد الى الامير القائد سير بن أبى بكر ، ومن الغريب أن هذه السياسة تكللت بالنجاح واثمرت بدليل أنه وفق فعلا فى حماية دولته من السقوط فى أيدي المرباطين مدة ثلاث سنوات . ويبدو أن سير بن أبى بكر ارسل أحد أعوانه من المرباطين الى بطليوس ، وهو ابن الاحسن السجلماسى الذى كان قد ارسل من قبل يوسف بن تاشفين الى المعتمد بن عباد قبل جوازه الاول مع عبد الملك القاضى لتمهيد الامور لاميير المسلمين ليقوم مع المتوكل ابن الافطس فيكون بمثابة رقيب عليه ، ويطلع على أحوال البلاد ، ويحصى عليه كل تحركاته . ويؤكد الامير عبد الله الزيرى ذلك فى مذكراته فهو يقول « وبقي ابن الافطس يتخدم أمره ، وكان يدارى ابن الاحسن فينفع له فى كل ما اراد طمعا منه فى البقاء لحينه ... » (١) .

وقد بدأ ابن الاحسن فى الايام الاخيرة لابن الافطس يتدخل فى امور المملكة البطلويسية ويتشدد مع المتوكل مما جعل الأخير يتوجس خيفة من المرباطين لاسيما بعد توتر العلاقات بينه وبين الامير سير بن أبى بكر (٢) ، الامر الذى دعاه الى أن يلجأ فى نهاية الامر الى الفونسو السادس . ويورد اشباخ فى كتابه « تاريخ الاندلس فى عهد المرباطين والموحدين » خبرا غاية فى الاهمية ، فهو يذكر أنه بعد أن ترك يوسف بن تاشفين قائده سير بن أبى بكر فى الاندلس ورجع الى المغرب ، توجه سير بن أبى بكر مع امير بطليوس الى وسط البرتغال الحالية مما يلى نهر تاجة

= وعن ابن عباد ومصيره التعس أنظر ، ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢١ - ٣١ ص ١٣٨ - ١٤٦ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ١٠ ، ١٣ ، ٥٥ ، ص ٣٧٩ .

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٢

(٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٧٢ .

وأنخنا في هذه الانجاد تخريبا ونهباً وأسرا في سكانها (١) . ونحن نميل الى الاخذ بهذا الخبر ، فابن الافطس قد لجأ في فترة ما بعد سقوط اشبيلية في أيدي المرابطين الى التودد الى الامير سير بن أبى بكر كما أسلفنا القول ، وربما كانت مشاركة ابن الافطس لسير بن أبى بكر في بعض المعارك جزءاً من سياسته لكسب قلوب المرابطين وصرف أنظارهم عن بلاده . وقدم المتوكل عمر للافونسو نظير مساعدته له ، ثلاثة مدن من أهم مدن مملكة بطليوس هي شنترة واشبونة وشنترين (٢) ، وفي ذات الوقت كان المتوكل « يخاطب الامير باظهار الطاعة والمشاركة في امر الرومى ، ويخاطب الفونسو ليستعين به على ملمة دهته من المرابطين . . . » (٣) .

فلما رأى اهل بطليوس ما فعله بهم عمر بن الافطس ، بدأت بوادر الثورة في الاشتعال داخل المدينة ، ولعل هذا الوضع يذكرنا بما حل بابن عباد حليف عمر المتوكل ، فقد اشتعلت الثورة في مملكة اشبيلية ضد ابن عباد اثناء حصار المرابطين لها بتحريض بعض الخونة ، وهكذا كانت الاحداث في هاتين المملكتين متشابهة الى حد كبير فيما يخص هذه الفترة الحرجة على وجه التحديد ، فقد انزعج الناس في بطليوس حين سلم عمر المتوكل شنترين وشنترة واشبونة للافونسو السادس ثمنا لمساعدته له ، فأرسلوا الى المرابطين في اوائل عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) يستدعونهم ، فقدموا بجيش يتقدمه سير بن أبى بكر ، وفي تلك الاثناء استصرخ المتوكل ابن الافطس حليفه الفونسو السادس وأقام منتظرا وصول امداداته ، ولكن انتظاره طال بلا نتيجة (٤) . وحين علم اهل بطليوس بوصول

-
- (١) يوسف اشباح ، تاريخ الاندلس ، في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عبد الله عنان ، ص ٨٩ .
 (٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٦ .
 (٣) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٢ .
 (٤)

جيش المرابطين الى مدينتهم فتحوا ابواب بطليوس للمرابطين، فدخلوها، واقتحموا قلب المدينة متجهين الى قصبة بطليوس حيث امتنع المتوكل عمر ، ومن المعروف أن قصر المتوكل عمر كان قريبا من القصبة وكانت تحيط بقصره وبالقصبة أسوار المدينة بأبراجها البرانية (١) .

ويمكن تفسير عدم تمكن ابن الافطس من الفرار من باب الغدر قبل وصول جيش المرابطين بأن وصولهم كان مفاجئا وسريعا بحيث فوجيء ابن الافطس بهم فأسقط في يده . ومن المحتمل أن يكون الفونسو السادس قد وعد ابن الافطس بالقدوم لمساعدته ، ولهذا فقد ظل ابن الافطس منتظرا في قلعته على أمل وصول هذا الحليف ، ولكن بدون جدوى ، حتى فات الاوان ، فتم القبض عليه حيث كان مختبئا .

ويرى اشباح أن المتوكل ابن الافطس دافع عن بلاده دفاع الابطال شأنه في ذلك شأن ابن عباد ، ويأخذ بذلك الرأي الكثير من المؤرخين الاسبان امثال فرناندو فالدث الذي يؤكد انه لولا قتال عمر بن الافطس واولاده بشجاعة فائقة ضد المرابطين ، ولولا استنجادهم بقوى المسيحية، لما تعرضوا لغضب سير بن ابي بكر وجنده المرابطين بحيث انتهى مصيره بالقتل ، فابن الافطس يعد الملك الوحيد من بين ملوك الطوائف الذي

(١) قمنا مرتين بزيارة بطليوس ودراسة تخطيطها العمراني ونظامها الدفاعي الممثل في أسوار المدينة والقصبة ، ومن بينها برج اسبنابروس الذي يشبه برج الذهب باشبيلية ، كما اشتركت مع بعثة جامعة مدريد ، قسم الآثار في الحفريات الاثرية التي أجروها برئاسة الدكتور فرناندو فالدث داخل القصبة وفي الربض ، واطلعنا على أحدث الاكتشافات التي توصل اليها سيادته ، وتتمثل في باب صغير لا يعدو نقبة أو خوخة في السور القبلي لبطليوس كانت تصل بين قصر المتوكل ، والقصبة ، وقد سماه الدكتور فالدث « باب الغدر » وفي نقطة انفتاح هذا الباب اقيم برج براني ، ربما تم بناؤه زمن المتوكل تقية لباب الغدر وتمويهها للنظرين ، وكان المتوكل يستخدمه في اوقات الخطر .

قتل على أيدي المرابطين ، ولم يكن هذا بسبب تحالفه سرا مع الفونسو السادس ، فيكون قتله عقابا له على خيانتته ، فمن الثابت في جميع المصادر العربية ان ابن عباد قد اتصل هو الآخر بالفونسو السادس كما اتصل ابن رشيق من قبل وكذلك عبد الله الزيرى .

اذن فلم يكن تعاون ابن الافطس مع الفونسو هو المبرر الوحيد لقتله ، واعتقد ان هناك اسبابا أخرى تضافرت مع ذلك العامل لتبرير قتله ، لعل من أهمها المقاومة الشديدة التي أبدتها المتوكل بن الافطس ، وان كان ابن عباد قد تصدى قبله للمرابطين ولم يقتل . ويرى اشباخ انه بينما كان داوود بن عائشة يفتتح شرقى الاندلس ، كان سير بن ابي بكر يقتحم منطقة الغرب Algarve ، وقد بدأ باستيلائه على شلب ويابرة بعد مقاومة تكاد لا تذكر ، ثم ظهر بعد ذلك في مروج بطليوس التي كانت ماتزال تحتفظ بعظام النصارى الذين قتلوا على أيدي المسلمين في واقعة الزلاقة ، وقد خرج اليه عندئذ ملك بطليوس عمر بن الافطس واولاده يقاتلون ببسالة نادرة على رأس جيشهم ، ولكنهم انهزموا امام المرابطين . ويؤكد اشباخ ان السبب الرئيسى في هزيمة ابن الافطس وغضب المرابطين عليه غضبا شديدا هو الشعور العدائى الشديد الذى كان يحمله جمهور بطليوس لبنى الافطس بسبب تسليمهم المدن الثلاثة للعدو المسيحى ، يضاف الى ذلك ان أهالى بطليوس ، كانوا يؤثرون اسقاط الحكم الافطسى لان نفقات البلاط البطليوسى ، وان كانت تساعد في نمو التجارة الا انها كانت تزيد في المكوس زيادة كبيرة ، هذا الى جانب انتشار نبوءة في تلك الآونة بين أهل الاندلس خاصة في هذا الجزء الغربى كما يذكر اشباخ خلاصتها ان الامراء الاندلسيين سوف يقهرون على يد فاتح من المغرب ، ومن ثم فقد انحاز أهل بطليوس الى المرابطين مؤثرين الا يناهضوا القدر بمعركة خاسرة (١) . ولعل اتفاق ابن الافطس مع

(١) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، في عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

سير بن أبى بكر وتعاونوه معه ثم خيانتهم له واتصاله بالفونسو السادس بعد أن كان سير قد تركه يحكم مع ابن الاحسن لمدة ثلاث سنوات ، اغضب سير وجعله يصمم على نكته .

وقد أدت هذه الاسباب مجتمعة الى تحامل المرابطين عليه الى حد أنهم قتلوه هو وولديه صبرا ، أما العامل الرئيسى والمباشر فيتمثل فى تسليمه ثلاث من أهم مدن مملكته الى الفونسو السادس . وبعد أن تغلب المرابطون على قوة المتوكل ، تراجع الى بطليوس وتحصن بقصبتها المنيعه ، ولكن الاحداث تتابعت سريعا ، بحيث أنه لم يتمكن من الهروب عبر باب الغدر ، ويبدو أنه انخدع بأمان منحة المرابطون له ووعد قطعه على أنفسهم بأنهم سينقلونه هو وولديه الى اشبيلية ليعيشوا هناك (١) . ولكن بدخول المرابطين القصبة أسرعوا بالقبض على المتوكل « وعلى بنيه وعبيده واستخراج ما كان له من مال وذخيرة (٢) » بعد أن عذبه لكشف مخابئها ، فقد كانت كل أموال بنى الافطس مدفونة فى القصبة بعد ذلك أمر سير بنقل عمر المتوكل ابن الافطس مع ولديه الفضل وعباس الى اشبيلية ، وبالفعل سار الامراء الثلاثة مع حراسهم فى طريق اشبيلية ، ولكن ما كاد المتوكل يغادر المدينة مع ولديه ليحتلها سير بن أبى بكر وقواته حتى أرسل سير سرية من فرسان المرابطين وراءهم « وفى أثناء الطريق لما بعد من بطليوس ، أنزل وأمر بالتأهب للموت ، فسأل ان يقدم ابنه قبله ليحتسبهما فكان ذلك ، وقتل الجميع صبرا وذلك فى اخريات سنة ٤٨٨هـ » ويؤكد ابن خاقان فى قلائد العقيان أن المتوكل « رغب فى تقديم ولده بين يديه ليحتسبهما عند ربه ، ويكتسبهما حسنة تمحو بعض ذنبه (٣) » . ويشهد قاتل الفضل ابن الافطس والعباس اخيه بأنهما كانا فى غاية الجلد مما حير قاتليهما من المرابطين ، وان

(١) اشباخ ، تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٠١ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٨٦ .

(٣) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٣٨ .

المتوكل عمر بن الافطس كان مثالا للاب الحنون ، الذى تجيش نفسه بالعاطفة الابوية الخالصة فما أن رأى ولديه يقتلان أمامه حتى قام « عند صرعتها مختبلا من لوعتهما ليصلى ، وقد أفرط فى ملامه وتشطط فى كلامه وأختلط أفتتاحه بسلامه » (١) .

ولكن المرابطين لم يمهلوه حتى ينتهى من صلاته فبادروه بأسنتهم فى الصلاة « وناهشوه متاهشة الطير لقتيل الفلاة ، حتى خرلا لسجود ، واستقلى لغير هجود » (٢) ثم ترك المرابطون هؤلاء القتلى الثلاثة فى الفلاة دون أن يدفنوهم ، فصارت أجسادهم غداء للسباع ، ودمائهم طعاما للثسور . وقد رثاهم ابن خاقان بقوله « فرويت الارض من دمائهم ، وتعطلت المتابر من أسمائهم ، وعاد صبح ملكهم عاتما ، وأقامت النجوم عليهم ماتما ، فخروا على الثرى بدورا ، وسعروا بالجوى صدورا ، وغدوا صرعى تسفى عليهم الشمال ، وتنتفى منهم الآمال ، مجدلين على وجه الارض ، معفرين الى يوم النشور والعرض ، قد توسدوا التراب بدل الارائك ، وتضرجوا بالدماء بعد التضمخ بالمسك الصائك » (٣)

وكان للمتوكل بن الافطس ولد آخر هو المنصور ، كان قد أرسله بكثير من الذخائر الى حصن شانجش بالقرب من حدود قشتالة ، فلما علم ما حل بوالده ، وأخويه « وجه الى أذفونش بأهله وماله ، ودخل - زعموا - فى دينه ، وصدر معه الى بلاده بعد أن ثقف الحصن برجاله ، وافتتهى أمر بنى الافطس » (٤) .

وكان المنصور ذاهية بالامور وغاية فى الذكاء ، وقد حذر والده من ابن الاحسن ، فقد استطاع أن يتبين أهداف ابن الاحسن منذ مجيئه الى

(١) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٣٨

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨

(٣) نفسه ، ص ٣٧ .

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٨٦

بطليوس » وقد رأى طريقة ابن الاحسن وسعيه على ابيه وهو رجل
سجلماسى فقيه ، متصرف فى أمور الامير ، استوطن بطليوس ، واكتسب
فيها مالا ، يرى أن كونه فى الثغر ، لما ينفع المسلمين ، وهو يعمل فى
خلق صاحبها « ٠٠٠٠ » (١) كما كان دائما التصح لوالده عمر المتوكل لاسيما
ما يتعلق بسياسته مع ابن الاحسن هذا ، فقد كان المتوكل متبعا لهوى
هذا الرجل السجلماسى « لو سألته روحه مالا يحل عليه ، عمل به متوقعا
لشره ، وكل شئ يحذر الانسان ويكرهه بقلبه ، ولا يكون عليه بالخيار ،
فهو متورط لا محالة فيه ، فان المدارة فيه مما لاتنفع « ٠٠٠٠ » (٢) .
» فنصح الابن اباه ألا يحاول استمالة هذا الرجل الذى يمثل سلطان
المرابطين ، وقال له « فلن تبلغ مرضاته الا بالانخلاع له ووضع البلد
فى يديه وتقنع بأن تكون متحريا ، متخليا عن الرياسة ، فعاجل ذلك
تجد عنده الامان » (٣) فان قبل ذلك فسوف يجد الراحة من الخطر
المرابطى ، وكان الولد يعرف اباه فان المتوكل كان يرفض تسليم أموره
الى ابن الاحسن والى المرابطين ، لذا فقد استطرد المنصور فى النصح
بأن طلب منه أن يفر الى الفونسو السادس يلتجأ اليه تاركا بطليوس ؛
ولكن المتوكل اباه ، رفض نصيحة ولده المنصور وسفه رأيه ، فلما رأى
الابن ذلك نجا بماله وأهله ، وأخذ لنفسه بالرأى الذى أشار به على
أبيه ، وبقي الشيخ لحينه حتى نفذ أمر الله فيه « ٠٠٠٠ » (٤) .

وهكذا نرى أن الروايات الواردة فى المصادر العربية اختلفت فى شأن
المنصور الثانى بن عمر المتوكل بن الافطس ، فمنها ما يؤكد أن والده
هو الذى قام بارساله الى حصن شانجش بماله وذخيرته (٥) ، ومنها

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٢

(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٢

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٢

(٤) نفسه ، ص ١٧٢

(٥) ابن الخطيب ، « أعمال الاعلام » ، ص ١٨٦

ما يذكر أن المنصور هو الذى فر من تلقاء نفسه الى الفونسو السادس تاركا بطليوس خلفه لادراكه وتيقنه بخطورة ابن الاحسن والمرابطين (١) .

وايا ما كان الامر فقد انضم المنصور مع جيوش النصارى ، وشاركهم فى حرب المرابطين ، وفى ذلك يقول الامير عبد الله الزيرى « ثم صار ابنه المنصور فى جملة الروم حنقا لما جرى على ابيه ، يطلب الثار ويتطرق معهم بلاد المسلمين » (٢) .

ويرى الامير عبد الله الزيرى أن الذى دل الامير سير بن أبى بكر على طريقة الهجوم على مملكة بطليوس هو ابن رشيق الذى كان له عليه من الايادى الكثير من قبل فى ليبيا ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لانه اندلسى عالم ببواطن وخفايا الامور والفتن ، وقد كان ابن رشيق فى أسر جرور الهاشمى ، فاطلق سراحه على أن يقوم بارشاد المرابطين على الكيفية التى يفتحون بها بطليوس وقد كان لابن رشيق دور كبير فى تأليب الناس فى بطليوس وثورتهم على بنى الافطس « فلما وصل . تخدم أمر بطليوس بكل وجه من المداخلة لاهل البلد ومن معه فى القصة من الحرس وغيرهم حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلا ويفتحون له الباب فكان من ذلك ما حاولوه » (٣) .

وقد اذكت محنة بنى الافطس كما اذكت محنة بنى عباد من قبل

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٣
 (٢) المصدر السابق ، ص ١٧٤ ، هذا وقد ذكر ابن عذارى أن المنصور فارق أرض النصرانية فى صفر عام ٥٠٥ هـ (١١١١ م) ونزل بأشبيلية ومن هناك نقل الى المغرب ليمثل فى حضرة أمير المسلمين على بن يوسف حيث قرب به اليه وأدناه منه ورفع منزلته ، وأصبحت له مكانة رفيعة فى دولة المرابطين (راجع ابن عذارى البيان ، ج٢ ، ص ٥٦) .

(٣) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٤

فجميعة الشعر الاندلسى ، فقام شاعر يابرة العظيم أبو محمد عبد المجيد
ابن عبدون الذى كان وزيرا للمتوكل بن الافطس بكتابة مرثيته الشهيرة
التي مطلعها :

الدهر بفجع بعد العير بالاثـر فما البكاء على الاشباح والصور
انهاك انهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر (١)

(١) انظر باقى القصيدة فى ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٩ - ٤٠ ، ومن
الغريب ان يسفه الدكتور حسين مؤنس صاحب القصيدة ويزعم انها
مع شهرة هذه المرثية واجماع المصادر العربية على اعتبارها من أروع
ما قيل فى الرثاء أبـرد مع الثلج . (راجع ردى على د. مؤنس
فى مجلة أكتوبر ١٩٨٤) .

الباب الثالث

بطلبيوس منذ دخولها في فلك دولة المرابطين
عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) حتى سقوطها في أيدي
الليونيين عام ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) «

الفصل الخامس

بطلبيوس في عصر دولتي المرابطين والموحدين

- (١) بطلبيوس في عهد على بن يوسف
- (٢) الثورة في غرب الاندلس وانهيار سلطان المرابطين
- (٣) بطلبيوس في عهد عبد المؤمن بن على وابنه يوسف
- (٤) بطلبيوس في عهد الخليفة ابي يوسف يعقوب المنصور
- (٥) بطلبيوس في عهد خلفاء المنصور
- (٦) سقوط بطلبيوس في ايدى الليونيين سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م)

الفصل الخامس

بطلوريوس في عصر دولتي المرابطين والموحدين

(١)

بطلوريوس في عهد علي بن يوسف

١ - نشاط عسكر المرابطين في الغرب :

بعد سقوط بطلوريوس في أيدي المرابطين ، تصمت المصادر العربية عن ذكرها في الفترة الباقية من عهد يوسف بن تاشفين ، وكل ما استطعنا ان نستنتجه من خلال دراستنا لعصر يوسف أن بطلوريوس أصبحت إحدى القواعد المرابطية الرئيسية في غرب الاندلس : ففي ذى الحجة من سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) جمع يوسف بن تاشفين في قرطبة أمراء المرابطين وأشياخهم وفقهاءهم لعقد البيعة لابنه علي ، فقد كان يوسف قد جاز إلى الاندلس للمرة الرابعة في أواخر هذا العام ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) لاستئناف الجهاد ضد القشتاليين ، وقد تم لابن تاشفين ما أراد ، ووفق في أخذ بيعة أهل الاندلس بولاية العهد لابنه علي ، وكان من شروطهم أن ينشئ ابن تاشفين في الاندلس جيشاً مرابطياً عدته سبعة عشر ألف فارس ، يخصص منهم سبعة آلاف في أشبيلية ، وأربعة آلاف في شرق الاندلس وألف بقرطبة ، وألف بغرناطة ، والياقون يتم توزيعهم على الثغور (١) . ولما كانت بطلوريوس ثغراً من أهم ثغور الاسلام في الاندلس بحكم مجاورته لدولتين مسيحيتين تزعمتا حركة الاسترداد ، ونعنى بهما مملكتي قشتالة وليون ، ثم ان بطلوريوس كانت مسرحاً لاهم مواقع المرابطين ، ففي أحوازها دارت موقعة الزلاقة المشهورة ، وفي فحوصها أيضاً دارت موقعة أخرى في عهد علي بن يوسف انتصر فيها المسلمون ، ونعتقد أنها اتخذت في عصر المرابطين قاعدة حربية لقواتهم في الغرب ، بحكم موقعها

(١) الحلل الموشية ، ص ٨٠ .

الاستراتيجى الهام ، كانوا يحرصون على شحنها بقواتهم المحاربة فى مواجهة العدو (١) .

ثم توفى يوسف بن تاشفين فى يوم الاثنين مستهل شهر المحرم سنة خمسائة ٥٠٠ هـ (٢) (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) فى مراكش ، وخلفه على امارة المرابطين ابنه أبو الحسن على الذى كان يوسف قد اختاره لولاية العهد من دون ابنائه جميعا ، وبالأذات ابنه أبى طاهر تميم الذى يكبر ولى العهد فى العمر (٣) . وكان قد عقد البيعة له فى الاندلس سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) وحضرها بقرطبة عبد الملك بن المستعين بن هود ، وكتب العقد الكاتب أبو بكر بن القصيرة (٤) .

وقد تعرض على بن يوسف فى بداية امارته لثورة محلية تزعمها يحيى بن أبى بكر ، وهو ابن أخى على بن يوسف فى فاس ، فبادر على بالتوجه اليها على رأس قواته ، فلما رأى يحيى قدوم عمه اليه فى فاس ، فر منها الى تلمسان حيث احتفى بحاكمها الامير مزدلى الذى شفع له

-
- (١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٧٢ .
 (٢) يخطئ عبد الواحد المراكشى فى تاريخ وفاته فيجعله سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) بدلا من ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) (راجع عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٠) .
 (٣) الحلل الموشية ، ص ٧٧ . والظاهر أن يوسف كان يفضل على سائر بنيهِ ، لما كان يفضلهم باتزان تفكيره وحسن تدبيره ، رغم كونه أصغر من أخيه تميم سنا ، وفى ذلك يقول أحد شعراء الاندلس معبرا عن فضائله :
 وان كان فى الانسان يحسب ثانيا * على ففى العليا يحسب أولا
 كذلكم الايدى سواء بنانها * وتختص فيهن الخناصر بالاجلا
 (الحلل الموشية ، ص ٧٨) .
 (٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٤٣ ، وورد فى الحلل أن الذى كتب نص البيعة الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور ، وقد سجل صاحب الحلل نص العهد كاملا (راجع الحلل الموشية ، ص ٧٨ ، ٧٩) .

عند على بن يوسف ، وانتهى الامر بان عفا الامير على عنه ، فجاء الى مراكش ليعيش بها ثم عاد من جديد يسعى لثورة جديدة ، فأمر عمه الامير على بن يوسف بالقبض عليه ونفيه الى الجزيرة الخضراء حيث اعتقل الى أن توفي (١) .

ثم جاز جوازه الاول الى الاندلس في منتصف عام ٥٠٠هـ (١١٠٧م) (٢) ليبياعه زعماء الاندلس وفقهاؤها وقضاتها وشعراؤها ، وادباؤها ، وفي ذات الوقت كان على بن يوسف يرغب في تعديل بعض النظم الادارية في الاندلس ، فقام بعزل اخيه ابي طاهر تميم عن ولاية المغرب ، وولاه على غرناطة بالاندلس ، ونصبه قائدا اعلى للجيش المرابطية فيما وراء البحر . ووضع على ولاية المغرب ابا عبد الله محمد بن الحاج ، ولم يلبث ان عزله عن منصبه هذا بعد ستة اشهر ، وولاه على بلنسية وشرقي الاندلس . اما قرطبة فقد جعل على ولايتها ابا عبد الله محمد بن ابي بكر اللمتوني (٣) . ثم قفل عائدا الى المغرب ، ومن هناك ارسل الى اخيه تميم قائد الجيوش المرابطية في الاندلس يأمره ببدا الجهاد ضد النصاري في الاندلس ، بينما تخلف على بن يوسف في المغرب ، ولم ينتقل الى الاندلس للمرة الثانية الا في عام ٥٠٣هـ (١١١٠م) (٤) . ويرجع السبب في صدور الامر من مراكش الى قادة المرابطين بالاندلس بالجهاد الى اقدام الفونسو السادس على مهاجمة احواز اشبيلية وعيئه فسادا فيها بمجرد سماعه نبأ وفاة يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) ، فخرج سير بن ابي بكر ، حاكم اشبيلية ، ومعه قوات غرناطة بقيادة ابي عبد الله بن الحاج لمطاردة القشتاليين ، ثم اتجهت قوات المسلمين لمهاجمة وغزو النصاري في عقردارهم ، وانضمت

(١) ابن ابي زرع ، روى القرطاس ، ص ١٠٣ .

(٢) الحلل الموشية ، ص ٨٥ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج٤ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٤) الحلل الموشية ، ص ٨٥ .

اليهم في تلك الاثناء حشود من مرسية بقيادة ابي عبد الله محمد بن عائشة ، وقوات من بلنسية بقيادة محمد بن فاطمة ، واتجهوا جميعا الى اقليش لحصن معاقل كورة شنتبرية. (١) ، التي سرعان ما سقطت في ايدي المرابطين في اليوم التالي وهو يوم الخميس ١٥ شوال (٢٨ مايو) والتجأ النصارى الى قصبة اقليش العليا ، فامتنعوا بها في انتظار مساعدة مواطنيهم بينما حاصرتهم قوات المرابطين مجتمعة ، وكان الفونسو السادس في تلك الآونة ، قد هدمه المرض ، وأعياء الضعف والوهن ، فأرسل حملة قوية بقيادة ولى هذه شأنجة ومؤدبه غرسية اردونيث Garcia Ordoñez ، ويعرف بالقم المعوج ، والبار هانسن ، ولا يهمننا في هذا المجال الحديث عن تفاصيل موقعة اقليش ، وكل ما يهمننا ان نعرفه

(١) اقليش Uclés ، لقد قام اويثى ميراندا بكتابة بحث مفصل عن هذه الموقعة في كتابه سالف الذكر ، ثم ترجم ذلك البحث الى العربية ونشر تحت عنوان « وقعة اقليش ومصرع الامير شانجة » ، صدر في مجلة تطوان سنة ١٩٥٧ (العدد الثاني ، ص ١١٥ - ١٣٠) وقد اعتمد اويثى ميراندا في هذا البحث على نص ابن القطان (نظم الجمان ، ص ٥ - ١٠) وعلى رسالة تميم التلي وجهها الى اخيه على يبشره بهذا الفتح ، وعلى نص مخطوط من كتاب البيان المغرب (مخطوط تامجروت) ، وقد عرف الحميري اقليش بقوله « مدينة لها حصن في ثغر الاندلس وهي قاعدة كورة شنتبرية ، وهي محدنة بناها الفتح بن موسى بن ذى النون ، وفيها كانت ثورته وظهره في سنة ١٦٠ هـ ، ثم اختار اقليش دارا وقرارا فبناها ومدنها ، وهي على نهر منبعث من عين عالية على رأس المدينة فيعم جميعها ، ومنه ماء حمامها ، ومن العجائب ، البلاط الاوسط من مسجد جامع اقليش ، فان طول كل جائزة من جوائزه مائة شبر » (انظر الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٨) . ويرفض الاستاذ محمد عبد الله عنان رأى الحميري القائل بأن من بناها كان الفتح بن موسى بن ذى النون لان ثورة الفتح حدثت في مستهل عهد الناصر بعد سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) (انظر محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٦١) . ويرفض الدكتور محمود مكى رأى عنان ويؤكد استنادا الى المقتبس أن الفتح هو الذى ابتنى حصن اقليش (ابن حيان ، المقتبس ، ص ١٧) .

أن انتصار المرابطين على أعدائهم النصراني في تلك الموقعة كان عظيما ، وهو انتصار يذكرنا بيوم الزلاقة ، وتعرف هذه الواقعة في الروايات النصرانية باسم « موقعة القوامس السبعة » نسبة إلى سبعة قوامس ، كانوا في خاشية ولي عهد قشتالة شانجة (١) ، ابن الفونسو السادس من زوجته زائدة المسلمة ، وعندما سقط شانجة الصغير صريعا ومعه مؤدبه غرسية اردونيث ، حاول هؤلاء القوامس السبعة الفرار الى حصن بلشون Belinchon القريب ، ولكن جماعة من فرسان المرابطين تمكنوا من اللحاق بهم وابتادتهم عن آخرهم (٢) .

ثم جاز على بن يوسف للمرة الثانية ، وكان ذلك عام ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) « برسم الجهاد ، ونصر الملة ، واعزاز الكلمة » (٣) . وبدأ سلسلة حروبه للجهاد بطليطلة حيث نزلوا على بابها . وأخذت

(١) شانجة Sancho ، كان يبلغ من العمر في تلك المعركة نحو خمسة عشر عاما ويذكر ابن أبي زرع في (روض القرطاس ، ص ١٠٤) أن زوجة الفونسو هي التي أشارت عليه أن يرسل ولده شانجة على رأس الجيوش حين علمت بأن تميم بن يوسف بن تاشفين هو قائد الجيوش الاسلامية « فيكون مقابلا لتميم لأن تميم ابن ملك المسلمين ، و شانجة ابن ملك الروم » . وكان شانجة هو ابن الفونسو السادس من زوجته المسلمة زائدة . وواضح أن رواية روض القرطاس خيالية ، فلم يكن تميم ابنا لعلى بن يوسف وإنما أخاه ، ثم أن الفونسو كان يجتاز السنة الاخيرة من عمره وقد أصابه المرض والوهن .

(٢) أنظر الروايات المختلفة في : ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٤ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، تحقيق د. محمود على مكى ، تطوان ، ص ٥ - ٦ .
Huici Mirandà, Las Grandes batallas de la reconquista, p. 118-119 - Primera Cronica General de España, (Ed. M. Pidal) parte II, p. 554 - 556.

(٣) الحلل الموشية ، ص ٨٥

جيش المرابطين تعيث فسادا في نواحي طليطلة ، ثم استولوا على طلبيرة (١) Talavera وقنالش Canales ومجريط Madrid ووادي الحجارة Guadalajara ، وبعدها عادوا الى طليطلة فحاصروها . ولكن على بن يوسف لم يتمكن من افتتاحها بعد أن طال حصار المرابطين لها ، وثفش بينهم الوباء ، فعاد الى مراكش . وعلى الرغم من رحيله الى المغرب ، فقد واصل المرابطون غزوهم لبلاد النصارى ، واشتد عيهم في اراضيهم ، وفي نفس الوقت الذي كانت فيه جيوش المرابطين تحت اسوار طليطلة ، كان سير بن ابي بكر يتجه بقواته صوب البرتغال في الغرب (٢) ، وكانت مملكة مسيحية ناشئة ، امبرها هنرى البرجونى زوج تيريسا بنت ألفونسو السادس غير الشرعية . وكانت قاعدة هذه المملكة البرتغالية الصغيرة مدينة قلمربة Coimbra التى كانت قد سقطت في ايدى الليونيين ايام المظفر ابن الافطس في سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣ م) وكانت تضم بعض ولايات الغرب التى كانت تابعة لمملكة بنى الافطس من قبل ، وكنا قد ذكرنا ان المتوكل عمر بن الافطس كان قد تنازل لالْفونسو السادس عن اشبونة Lisboa وشنترين Santarem وشنترية Cintra

وفي خروج سير بن ابي بكر نحو الغرب يقول ابن ابي زرع : « وفي سنة اربع وخمسين مائة فتح الامير سير بن ابي بكر سنترين (شنترين) ، وبطليوس ، وبرتقال وبافورة (يقصد يابرة Evora) والاشبونة وجميع بلاد الغرب ، وذلك في شهر ذى القعدة منها » (٣) .

(١) عن غزوة طلبيرة ، انظر : ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، ص ١٤ .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٦ .

(٣) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥ . ويؤكد هذا النص الوارد بالمتن أن سقوط يابرة تم على يدى سير

ويتشكك الاستاذ محمد عبد الله عنان في صحة هذا النص ، لان بطليوس كانت ماتزال في حوزة المرابطين منذ أن دخلوها عنوة في سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥ م) .

ولو ان شكوك الاستاذ عنان كانت في موضعها ، فان ظهور اسم بطليوس في هذا النص ينهض دليلا على أن بطليوس كانت منطلقا لغزوات المرابطين في غرب الاندلس وقاعدة عسكرية لهم : منها كانوا يخرجون لقتال العدو ، واليها يعودون بعد تحقيق أهدافهم . ونخلص من ذلك بأن الاستاذ عنان يرى أن وجود اسم بطليوس بين أسماء المدن التي استولى عليها سير بن أبي بكر في هذه السنة (٥٠٤هـ) (١١١٠ م) رغم بقائها في أيدي المرابطين منذ سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥ م) هو مجرد تحريف في نص ابن أبي زرع ، ونعتقد أن ما أراد أن يعنيه من هذا النص أن سير بن أبي بكر أمير اشبيلية خرج الى بطليوس قاعدة المرابطين في الغرب والثغر الجوفى للاندلس ، ومنها زحف الى يابرة التي كانت قد سقطت بالفعل في أيدي القشتاليين منذ فترة طويلة ، ثم اتجه بعد سقوط يابرة في أيدي قواته الى الاشبونة وضاحتها شنترة ، ونجح في استردادها : فهما المدينتان اللتان كان عمر المتوكل ابن الافطس قد سلمهما مع شنترين الى الفونسو السادس لقاء مساعداته له ضد المرابطين .

وبالرجوع الى كتاب تاريخ بطليوس الاسلامية للمؤرخ الاسباني مارتينث اى مارتينث Martinez y Martinez نجد تحليلا آخر - يستند فيه على الرواية المسيحية - يلقي مزيدا من الضوء على نص ابن أبي زرع سالف الذكر الذي تشكك الاستاذ عنان في صحته ؛ ورجح أن

بن أبي بكر في عام ٥٠٤هـ (١١١٠ م) اثناء حملته القوية التي قادها ضد بلاد النصارى ، وليس في عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥ م) كما يزعم اشباخ .

يكون هذا المؤرخ قد وقع في خطأ التحريف . وقد بدأ مارتينيث بعرض الخلفية السياسية لهذه الفترة الدفينة، في تاريخ الغرب الاندلسي ، فبعد مصرع الأمير شانجة ابن الفونسو السادس من زائدة المسلمة ، في موقعه اقليش Uclés ، انهار والده - الفونسو السادس - الذي كان قد شاح وهرم ، ولم يعد بقوى حتى على الخروج ، ولم يلبث ان نوفي في عام ٥٠٢ (١١٠٩٠٠ م) - وخلفته على العرش ابنه الكبرى دونيا اراكة Urraca . وكانت زوجة - لريمون البورجونى لفترة زمنية محدودة ، بينما تزوجت ابنته الاخرى تيريسا Teresa من هنرى البورجونى الذى قدم مع ريمون من فرنسا (١) . كل هذا تم في نفس العام الذى جاز فيه على بن يوسف جوازه الثانى الى الاندلس برسم الجهاد ، والذى تمكن خلاله من الاستيلاء على طليطلة ، وحصار حصون افليم طليطلة (٢) . وكان الفونسو السادس قد سلم الاشبونة وشتربين وشتنرة الى صهره ريمون البورجونى بعد ان انزعها من عمر المنوكل ابن الافطس (٣) ، ثم آلت بعد وفاته ريمون هذا الى هنرى البورجونى الذى ما كاد يبلعه نيا وفاة حميه الملك الفونسو السادس حتى اعتبر نفسه مستفلا بالبرتغال ، وانتهز فرصة الاضطرابات العنيفة التى وقعت في مملكة قشتالة وليون عقب اعتلاء دونيا اراكة العرش من جهة ، واغفال المرابطين الدفاع عن المنطقة البرتغالية نتيجة تركيزهم الحربى على طليطلة ونواحيها ، وبادر بتوجيه بعض الحملات على بلاد المسلمين في الغرب ، وتمكن في تلك الحملات من الاستيلاء على نابرة وبطلبوس بقوة السلاح (٤) . وعندئذ الفى سر من

-
- (١) Martinez y Martinez, Historia de Badajoz, pp. 183, 184.
 (٢) Coderia, Decadencia y desaparición de los Almorávides en España, p. 11 233.
 (٣) Martinez y Martinez, op. cit., p. 184.
 (٤) Ibid. p. 184.

أبى بكر نفسه مضطرا إلى توجيه حملة مرابطية إلى الغرب لوضع حد لتطورات هنري البورجونى واندفاعاته الحطيرة ، وقاد مير هذه الحملة بنفسه ، ويمكن فى هذه السنة من استرجاع بطليوس ويابرة والانسيوية وشننرة وشنترين ، وبهذا يكون ما ورد فى نص ابن أبى زرع ضحيا ، وبممكننا أن نقبله بعد أن اضح لنا أن هنرى هذا - صاحب قلمرية - استطاع فيما بين أواخر عام ٥٠٢هـ (١١٠٨م) وبدابة عام ٥٠٣هـ (١١٠٩م) - انزاع بطليوس ويابرة من أيدي المرابطين .

ويرجح مارتيث سغوط قلعة قورية Coria - البلدة Albelda فى بدسير بن أبى بكر فى حملته لاسنرداد بطليوس ويابرة الوارد خيرها فى نص ابن زرع . وكانت قورية قد سقطت فى يد الفونسو السادس فى عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) . كما سبق أن ذكرنا ، ومن الجدير بالذكر أن المدونة المسيحية التى اعتمد عليها مارتيث فى ذلك ، وورد فيها هذا الخبر عن سقوط القلعين المشار إليهما ، وهى مدونة الامبراطور الفونسو (Cronicon Adefonsi Imper.) لم تذكر سوى أن عددا من النصارى سلموا قورية للمسلمين وأن المرابطين استولوا على البلدة ثم شحنوا المدبنتين بعسكر من الرجالة والفرسان الذين كانوا بغيرون يوما على كل اسنرا مادورا حتى نهر دويره . وقد عمل مارتيث على توضيح ما ورد فى هذه المدونة من وجهة نظره ، فذكر أن تسليم قورية للمسلمين إنما تم بسبب خيانة ، ولهذا لا يمكن أن نعتبره فتحا عسكريا بمعنى الكلمة . ولهذا السبب فإنه يذكر فى كتابه « أنها سلمت بفضل سفلة من القوم يسمونهم مسيحيين ولبسوا كذلك » (١) . وبطبيعة الحال فإن هذا الأسلوب الذى يتحدث به مارتيث أن دل على شيء فإنما يدل على تعصب

بعض مؤرخى الغرب الاوروبى عند تعرضهم لانتصارات المسلمين ،
وهدفهم هو تجريد الاسلام من امجاده وبطولات ابنائه .

اتجه سير بن أبى بكر بعد ذلك الى شننرين ، وقد وصلنا نفاصيل
استيلائه على هذه المدينة فى الرسالة (١) التى كتبها له وزبره الاجل
أبو محمد عبد المجيد بن عبدون - وكان يكتب للمرابطين بعد سقوط
دولة بنى الافطس - الى على بن يوسف امير المرابطين ، وقد أبرز سير
فى هذه الرسالة أهمية مدينة شننرين ومدى حصانة قلعتها ، وفى ذلك
يقول : « وكانت قلعة شننرين - أدام الله أمر أمير المسلمين - من أحصن
المعاقل للمشركيين ، وأثبت المعاقل على المسلمين ، فلم نزل بسعيك الذى
اقتفيناه ، وهديك الذى اكتفينا به ، نخضد شوكتها ، وننحت أثلتها ،
ونتناولها علا بعد نهل ... وهذه القلعة التى انتهبنا الى قرارها ،
واستولينا على أقطارها ، أرحب المدن أمدا للعبون ، وأخصبها بلدا فى
السنين ، لايربمها الخصب ولا بتخطاها ، ولا برومها الجذب ولا يتعاطاها ،
فروعها فوق الثرى شامخة ، وعروقها تحت الثرى راسخة ... فأمكننا
الله تعالى من ذروتها ، وانزل ركابها لنا عن صهونها (٢) » . ويوضح
سير فى هذه الرسالة مدى أهمية شننرين من الوجهة الاقتصادية ، ويشيد
بخصوبة تربتها . ويبدو أن سير لم يتمكن من افتتاح مدينة قلمرة فى
حملته السابقة على الغرب فى سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩ م) بل ان الاستاذ عنان
يرفض الاخذ برواية ابن أبى زرع التى تؤكد أن سير بن أبى بكر افتتح
بطليوس وبرتقال (٣) ، وقد أوضحنا سبب رفضه لهذه الرواية لاسيما

(١) انظر نص الرسالة فى : عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص
اخبار المغرب ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٣) ابن اسى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥ .

ما يتعلق بفتح بطليوس . أما برتقال ، فيستبعد قيام المرابطين بافتتاحها ويعبر عن ذلك بقوله : « وبرتقال وهى معنى فى الجغرافية الاندلسية ثغر بورتو Porto فهى تقع فى أقصى شمال البرتغال ، وفى شمال قلمرية ، ومن ثم فإن المرابطين لم يصلوا فى زحفهم إليها ولم يفتتحوها » (١) . وأيا ما كان الامر فقد جاز على بن يوسف الى الاندلس للمرة الثالثة لهذا السبب فى عام ٥١١هـ (١١٧م) وتقدم على رأس قواته بهدف فتح مدينة قلمرية قاعدة مملكة البرتغال الناشئة ، « ودوخ بلاد الشرك بجيوش لا تحصى ، وكان أثره بها عظيما » (٢) . ويورد ابن عذارى أخبار هذه الغزوة ببعض التفصيل ، فيذكر ان الامير على بن يوسف تحرك من مراكش وجاز الزقاق فى الايام الاخيرة من شهر المحرم من عام ٥١١هـ (١١١٧م) ، واتجه بقواته الى مدينة اشبيلية حيث اقام فترة وجيزة الى أن انتظمت قواته ، واستوفت ترتيب صفوفها ، « وتاهبت العساكر الاندلسية ، ولحققت من قرطبة لمة من الفقهاء والعلماء ، ولفيف من المجاهدين الزعماء ، خيلا ورجلا ، وتاهب فقهاء اشبيلية ومحاهدوها ، واستوفت مطوعة غرناطة ومرتبوها » (٣) . ثم تحرك على بن يوسف مع كل هذه القوات من اشبيلية الى قلمرية ، وأسندت قيادة جيوش المرابطين الى قائدين من اعظم قادة المرابطين وأقدرهم على القتال : أحدهما عبد الله ابن فاطمة ، والآخر المنصور ابن المتوكل بن الافطس الذى كان قد حظى بعفو الامير بعد رجوعه الى الحق واظهار توبته ، ودخل فى خدمة المرابطين ، فعلت مكانته ، وارتفعت منزلته الى حد أن على بن يوسف جعله أحد قادته الموثوق بهم ،

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٠ .

(٢) ابن سمالك ، كتاب الحلل الموشية ، ص ٨٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٤ ، (ط . احسان عباس)

وأسند اليه قيادة فوهة من بجيس المرابطين الموجهة لغزو قلمرية (١).

حاصرت قوات المرابطين مدينته قلمرية مدة عشرين يوما ، وضيق عليها ، ولكنها لم تتمكن من فتحها ، فانسحبت بعد ذلك الى اشبيلية ، وان كان كل من ابن فاطمة وابن الافطس قد تمكنا من التوغل في بلاد الاعداء ، وفي ذلك يقول ابن عذارى : « ومضى عبد الله ابن فاطمة وابن الافطس فقبلا ارواما في بلاد الروم ، ثم وردا الى اشبيلية ... » (٢) مثقلين بالغنائم العظيمة ، وعدد كبير من الاسرى . ويؤكد صاحب الحل الموشية سقوط قلمرية في يد علي بن يوسف في هذه الغزوة (٣) ، وكذلك يؤكد ابن ابي زرع في روض القرطاس ، وقد أخطأ في اسم قلمرية فجعله سنبرية ، كما أخطأ في تحديد تاريخ جواز علي بن يوسف فجعله عام ١١١٣ هـ (١١١٩ م) بدلا من ١١١٠ هـ (١١١٧ م) ، فيقول ابن ابي زرع : « فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمطوعة من العرب ، ورسانه ، والمصامدة ، وسلئر فبائل البربر ... ثم ارحل الى مدينته سنبرية فبزل عليها حتى فتحها عنوة ... » (٤) ، ولكن يرجعنا الى نص ابن عذارى سلف الذكر ، والى المصادر المسيحية الاسبانية يتضح لنا ان علي بن يوسف لم يتمكن من فتح قلمرية ، (٥) ومع ذلك فربما يكون قد افتتحها وفقا لرواية ابن ابي زرع وصاحب الحل الموشية ولكنه لم يحتفظ بها لمدة طويلة أو احتفظ بها لايام قلائل ، ثم انسحب بعدها الى اشبيلية .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٤ ، ص ٦٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٤ .

(٣) الحل الموشية ، ص ٨٦ .

(٤) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ .

(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج٤ ، ص ٦٤ .

ويمكننا تفسير سبب الخفاقة في الاستيلاء عليها ببعدها هذه عن بلاد المسلمين ووقوعها في قلب بلاد البرتغال^(١) .

عاد على بن يوسف إلى مراكش بعد هذه الأحداث ، حيث أقام نحواً من أربعة أعوام ، ثم جاز إلى الأندلس للمرة الرابعة في عام ٥١٥هـ (١١٢١ م) بهدف النظر في الفتنة القرطبية على الحكم المرابطي . وتضمنت جميع المصادر العربية عن أخبار بطليوس في هذه الفترة ، باستثناء فترة ولاية الأمير تاشفين بن علي بن يوسف على الأندلس^(٢) التي أصبح لبطلينوس خلالها شأن كبير .

ب. نشاط تاشفين بن علي بن يوسف العربي في الحواز-بطليوس والغرب:

في عام ٥٢٠هـ (١١٢٦ م) قام الأمير تاشفين بن علي بغزو طليطلة « فدخل حصناً من حصونها بالسيف ، وهناك أحوارها وفيها ، أعنى سنة عشرين المذكورة ، هزم الأمير تاشفين البصارى بفحص التصاب وقلهم قتلاً ذريعاً ، وفتح ثلاثين حصناً من حصون بلاد الغرب ، وكتب

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٨١ .
 (٢) هناك اختلاف كبير في المصادر العربية حول السنة التي تولى فيها تاشفين أمور الأندلس : فابن أبي زرع يذكر أنه تولى الأندلس في عام ٥٢٠هـ (١١٢٦ م) عقب وفاة عمه أبي الطاهر تميم (روض القرطاس ، ص ١٠٦) ، أما ابن الخطيب فيذكر أن ذلك حدث في أواخر عام ٥٢٢هـ (١١٢٨ م) وأوائل عام ٥٢٣هـ (انظر الإحاطة في أخبار غرناطة ، القاهرة ١٩٧٣ ج١ ص ٤٤٦) . أما ابن خلدون فيجعل توليه شؤون الأندلس في عام ٥٢٦هـ (١١٣١ م) (ابن خلدون ، كتاب الغير ، ج٦ ، ص ١٨٦) . ويؤكد ابن عذاري أن تاشفين تولى شؤون الأندلس في عام ٥٢٢هـ (١١٢٨ م) (البيان المغرب ، ج٤ ، ص ٧٩) . ونحن نميل إلى الأخذ بذلك التاريخ الأخير استناداً إلى خبر سافه ابن عذاري عرضاً ذكر فيه أن علي بن يوسف ولى تاشفين الأندلس في نفس عام ٥٢٢ هـ الذي عقد

بالفتح الى ابيه . . . » (١) . ونستنتج من هذا النص أن غرب الاندلس كانت مجالا لغزوات الامير تاشفين منذ حلوله بالاندلس ، وفي نفس الوقت نستدل من النص على أن بطليوس التي كانت من مراكز غرب الاندلس ، قد تعرضت بالتالى للخطر القشتالى والبرتغالى أو كانت مهددة بالغزو من حين لآخر ، فكانت أحوازا مجالا للصراع المرابطى / القشتالى ، ولهذا نستنتج أن بطليوس في هذه الفترة من حكم على بن يوسف لم تكن في وضع حربى آمن ، فهى شأنها شأن بلاد غرب الاندلس ، كانت منطقة مد وجزر بحكم كونها ثغرا . ويؤكد هذا الاستنتاج الاحداث التالية التى تعرضت لها بلاد غرب الاندلس ، فى عهد على بن يوسف وابنه تاشفين ففى عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م) قام القشتاليون بغزو منطقة الغرب ، ووصلوا بقواتهم حتى مدينة قلعة رباح ، فقام تاشفين بقتالهم ، هارتدوا خائبين ، الى قشتالة مرة ثانية (٢) .

فيه لسير بن على بولاية العهد . (ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٨) . يضاف الى ذلك أن تاشفين كان موجودا فى الاندلس فى تلك السنة ، فقد اشنبك فيها بالقشاليين على مقربة من قلعة رباح (أنظر محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٢) وعلى أى الحالات فاننا نرى رأى الأستاذ عنان الذى يذهب الى أن تاشفين عبر الى الاندلس منذ عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م) كما ذكره ابن أبى زرع فى روض القرطاس (ص ١٠٧) ، وأنه غزا فى اراضى طلبطلة فى هذا العام ، ثم سار الى غرب الاندلس فبما بعد ، وقاتل المسيحيين فى منطقة تعرف بفحص الضباب وانتصر عليهم ، وربما يكون فحص الضباب المذكور هو نفس فحص الزلاقة الذى ورد ذكره فى الحلل الموشية على أنه كان مسرحا للقتال بين قوات تاشفين وبين قوات المسيحيين ، ولم يحدد صاحب الحلل تاريخ هذه المعركة (الحلل ، ص ١٢٢) .

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٣ .

وفي عام ٥٢٥هـ (١١٣٠م / ١١٣١م) أغار القشتاليون على حصن أرنيط ، الواقع في الثغر الأعلى ، فتوجه إليهم المرابطون ، وتمكنوا من وضع حد لهذه الاغارات التي كانت تعيثُ فسادا في اراضي المسلمين (١) ويوضح لنا هذا الغزو القشتالي لحصن أرنيط (٢) ، أن النصاري كانوا يركزون غاراتهم على المناطق الثغرية مما يؤكد لدينا ضرورة تعرض بطليوس إحدى القواعد الثغرية الهامة في غرب الاندلس للخطر المسيحي في تلك الآونة شأنها شأن سائر مناطق الثغور .

وفي منتصف رجب عام ٥٢٦هـ (أول يونيو ١١٣٢م) أغارت الجيوش القشتالية بقيادة القومس رودريجو جنثالث Rodrigo González قائد جيوش طليطلة والغرب على اشبيلية منحدرين الى الشرف ، وقد قتل في هذه الغارة عدد كبير من المسلمين (٣) ، فلما علم الامبرتاشفين بهذا الخطر القشتالي الذي كان قد اقترب من اشبيلية ذاتها وتسبب في قتل اعداد كبيرة من المسلمين ، خرج على رأس قواته تجاه اشبيلية ، واشتبك مع خبل النصاري وطاردهم « ثم رجع النصاري دمرهم الله تعالى الى بلادهم بعد نهاية عظيمة في المثلثين ... » (٤) .

(١) ابن عذاري ، البيان ، ج٤ ، ص ٨٤ .

(٢) حصن أرنيط عرفه الحميري بقوله « مدينة بالاندلس ، اولية ، بينها وبين تطيلة ثلاثون ميلا ، وحواليها بطاح طيبة المزارع ، وهي قلعة عظيمة منيعة من أجل القلاع ، وفيها بئر عذبة ... وهذه القلعة مطلة على أرض العدو وبينها وبين تطيلة ثلاثون ميلا .. » (أنظر الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٤) .

(٣) راجع التفاصيل في

A. Huici Miranda, Contribución al estudio de la dinastía almorávide; el gobierno de Tāsfīn ben Ali Ben Yusuf, en el - Andalus, p. 612.

(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٧ ، وانظر هامش ٤ ، ص ١٩٨ وهامش ١ .

وتشير المصادر العربية الى أن فوات النصارى. هاجمت بآبرة في نفس عام ٥٢٦هـ (١١٣١ - ١١٣٢ م) ، فتصدى لها تاشفين وهو بعد إلى على. غريباطه وخرج معه ابن فتوبه وإلى قرطبه الى العرب Algarve حيث انتهى بالفوات الفشنالية التى هاجمت بآبرة وأحوار بطليوس « فالتقوا معهم ، فهزمهم النصارى ، وقبلوهم ، وانقذوا الغنيمه » (١) .

ويسوق صاحب الحل رواية مختلفة عن غزوه تاشفين هذه جاء فيها أن الامير ناشفين اتصل به أن عظماء « الروم وزعمائهم تألف لهم جيش يحتوى على آلاف من أجاد رجالهم ومشاهير أبطالهم ، وقصدوا ناحية بطليوس ، فجاسوا خلالها ، ودوخوا أرضها ، فرحف اليهم ، وناقى معهم بمفرية الزلافة ، فلما تراءى الجمعان اضطرب المحدثان ، وتراكبت المراكب ، فاتخذت مصافها ، ولزمت الرجال مراكزهم فكان في القلب مع الامير تاشفين الم رابطون واصحاب الطاعات ، ننفدهم البنود البيص الباسقات المكتوبة بالآيات ، وفي الجانبين كفاة الدولة وحماة الدعوة ، من أبطال الاندلس ، نتقدمهم حمر الرايات ، بالصور الهائلات ، وفي الجناحين أهل الثغور وذوو الجلادة والصبر ، وفي المقدمة مشاهير زناتة ، ولقيف الحشم أهل العزائم الماضية والبصائر الثابتة بالرابات المطبقة والاعلام المنيفة ، فالتقى الحمعان ، واشتد الضرب والطعان ، فولى الكفرة الادبار ، وامعنوا في الفرار ، فتبعهم المسلمون ، يقتلون ويأسرون ، وصدر تاشفين الى قرطبة عزيزا ظافرا » (٢) .

أما ابن النخطيب فيذكر أن خبر هزيمة المسلمين في 'السبيلة' واستشهاد عدد كبير منهم سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢ م) ، بلغ الامير تاشفين « فطوى

(١) ابن الفطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨ .

(٢) الحلل الموسبة ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

المراحل ، ودخل اشبيلية ، وقد أسرها ، واستؤصلت بأذيتها ، وأكثر بها
التأديب والتنكيل فأخذ أعقاب العدو ، وقد قصد ناحية بطليوس وباجنة
ويابرة في ألف عديدة من أسجاد الرجال ومشهور الأبطال ، فراش جولا
عهدا بالروع ، فطفر بما لا يحصى أحد ولا يفع عليه عدد ، وانثنى على
رسل اسفل السيقة ، وافضى به الاعداد الى فلاة بقرب الزلاقة ، وهو
المهتج الذي يضطر العدو اليه ، ولم يكن الا كلا ولا ، حتى أقبلت الظلائع
منذرة بأقتال العدو ، والغنيمة في يده قد ملأت الارض ، فلما تراءى
الجمعان ، واضطربت الحلات ورتبت المراكب فأخذت مصافها (١) .

ووالضح أن نص الحل مقتبس من نص ابن الخطيب .

وبينما يجعل ابن الخطيب هذه الغزوة سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢ م)
بحددها صاحب الحل بسنة ٥٢٨هـ (٢) (١١٣٣ م) أما ابن عذاري ،
فيؤرخ لخروج تاشفين على رأس قواته الى بطليوس سنة ٥٢٨هـ
(١١٣٣ م) (٣) .

ويكتفى ابن الفطان بذكر تلك الاحداث بين تاشفين وبين القشتاليين
في أخبار ذلك العام ، وقد أخذ الاستاذ محمد عبد الله عنان بروايته
هذه ، فهو يرى أن ناشفين بعد هزيمته للقشتاليين في نابرة وانقاده
الغنائم والاسرى لبث حتى عام ٥٢٨هـ (١١٣٣ م) الى أن تحددت
الحروب سنه وبين القشتاليين في منطقة الغرب وقد أخذ في تحديده
لتاريخ المعركة برواية صاحب الحل الموشية .

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ عنان ،
ج ٢ ، ص ٤٥٢ . وهذا النص ملئ بالتحريف والتشويه .

(٢) الحل الموشية ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٨ .

واذا رجعنا الى حوليات الفونسو السابع Cronica de Alfonso VII
فسنجد ان قائد الجيوش المسيحية رودريجو جونثالث كان مكلفا بقتال
المسلمين في كل منطقة عرب الاندلس Extremadura عام ٥٢٦ هـ
(١١٣٢ م) كما ان الحوليات الطليطلية Anales Toledanas
تؤكد ذلك ، وتوضح ان انتصار رودريجو في معاركه مع والى اشبيلية
عمر بن الحاج وقتله له في معركة Azarceda قد شجع باقى النصارى
على الاستمرار في مهاجمة اراضى المسلمين ، وقد شرحت حوليات الفونسو
السابع ذلك ، فان مجموعة من قادة شلمنقة Salamanca بادروا بمهاجمة
بطليوس عندما بلغهم انتصارات رودريجو جونثالث على قوات اشبيلية
فلما علم تاشفين بن على توجه الى لقاء حند شلمنقة ، والتحم الطرفان
في معركة ضاربة تمزقت فيها القوات المسحبة ، وانتصر تاشفين ، وعاد
بعد ذلك الى قرطبة مظفرا (١) .

وبينما يأخذ استاذنا الدكتور محمود على مكي بالتاريخ الذى حدده
ابن الخطيب لهذه المعركة ، فبميل الى تاريخ المعركة بسنة ٥٢٦ هـ
(١١٣٢ م) (٢) ، نميل نحن بدورنا الى الاخذ برأى الاستاذ محمد
عبد الله عنان الذى يرجح سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) تاريخا للمعركة
التي خاضها تاشفين .

فلم يكن انتصار تاشفين في قتاله مع النصارى عند بطليوس انتقاما

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، حاشية ١ ، ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩
وانظر ايضا :

Huici Miranda, Gobierno de Tasfin Ben Ali en al - Andalus,
P. 612, 613.

(٢) انظر تحقيق د. محمود على مكي لنظم الجمان ، حاشية رقم ٢ ،
ص ١٩٨ .

لما حدث في اشبيلية وأحوازها ، اذا أخذنا في الاعتبار أن قوات الجيش المسيحي الذي تصدى له ناشفين في بطليوس كانت تتألف من بضعة آلاف ، وهو عدد كبير لا يستقيم مع ظروف الحالة الاولى التي تفترض خروج ناشفين في مطاردة جيوش الاعداء حتى بطليوس ، والمنطقى الا ينجاز عددهم بضعة مئات خاصة بعد أن اشتبكت قواتهم مع قوات ناشفين ، واهرمتم في أحواز اشبيلية وباجة ، وقتل منها عدد كبير :

فمن المنطقى أن يكون غزو ناشفين للنصارى وهزيمته لهم في بطليوس قد حدث في عام ٥٢٨هـ (١١٣٣م + ١١٣٤) وليس في عام ٥٢٦هـ (١١٣٢م) .

اما عن الاسباب التي أدت الى خروج ناشفين للغزو في سنة ٥٢٨هـ (١١٣٣م) فهي اعداء ملك فشتالة على اراضى بطليوس في تلك السنة ، وعيّن قوامه في بواحيها ، فبادر ناشفين بالخروج عندما بلغه أن الفونسو السابع (الفونسو ريموندس) المعروف بالسليطن ، قد حشد جيشا « يحتوى على آلاف من زعمائهم ومشهورى أبطالهم وفصدوا ناحية بطليوس ، وباجة ويابرة » (١) .

فشوا الغارة على أجوار بطليوس فجاسوا خلالها ودوخوا ارضها (١) « واستحوذوا جميع ما ألفوا بها ، وانتهاوا الى مواضع كانت لاتروع بعدو لبعدها ومنعتها وتعذر الوصول اليها ، فجاسوا

(١) ابن عدارى ، البيان ، ج٤ ، ص ٨٨ ، وأنظر كذلك الحلل الموشية ، ص ١٢٢ .

(٢) الحلل الموشية ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

خلالها، ويدوخوا أرضها، وأخرقوا طولها وعرضها ...» (٢) .

فاجتمع المشافين من الحشود في اشبيلية ضعف ما كانت عليه هوات قسالة، وأخرج من اشبيلية متجها للقاء أعدائه، واستعان في سيره بجماعة من الادلاء بطلعونه على كل ذروة وثنية، حتى يتمكن من اللحاق بهم سريعا، وفي ذلك يقول ابن عذارى « فثنى الأمير تاشفين الاعنة، وأمر الادلاء أن بنجسوا به كل ذروة وثنية، رحاء في لحاقهم، فأفضى الاخذاء به إلى فدان بقرب زلاقة، موضع المعترك الذي أوقع فيه جده بالطاغية اذ فونش بن هرديند » (٣) .

وفد وصف كل من ابن عذارى وصاحب الحل الموشبة الجيش المرابطى، ومن خلال وصفهما يتضح لنا أن الجيش الاسلامى قد نظم مثلما نظم يوم الزلاقة، فقد كان الأمير تاشفين يحتل القلب مع وجوه المرابطين، وقد رفعوا « البنود الببض الباسقات المكتوبة بالآبات » (١) وفي الجانبين اصطفت جبوش وحماة الدعوة من أبطال الاندلس، وعليهم الرايات الحمراء « قد رسمت عليها الصور الهائلات »، أما أهل الثغور فقد احتلوا الجناحين، « وذوو الحلالة والصبر وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم أهل العرائم الماضية، والبصائر الثابتة، بالرايات الطيفة، والاعلام المنيفة ...» (٢) .

-
- (٣) ابن عذارى، البيان، ج٤، ص ٨٨، وقارن ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ٤٥٢ .
- (٣) ابن عذارى، البيان، ج٤، ص ٨٨ .
- (١) صاحب الحل الموشة، ص ١٢٢ .
- (٢) المصدر السابق، ص ١٢٢ .

وسرعان ما اشتعل العنال بين الطرفين ، وانهزم القشتاليون ، وولوا
الادبار فتنسحبهم هوات المرابطين اثناء فرارهم ، تقتل وتأسر ، وبعد
اننصار ناشفين في هذه المعركة عاد مظفراً الى قرطبة ، ومنها قفل عائداً
الى غرناطة في جمادى الاولى من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة (٣)
(سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م) .

وقد أنشد الشعراء القصائد الطويلة التي تصف شجاعته وانتصاره
على العدو (١) .

ولم تكن هزيمة القشتاليين على يد ناشفين في أحواز بطليوس آخر

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٩ ، الخلل الموشية ، ص ١٢٢ ،
محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٨ .
(١) ننافس الشعراء في وصف هزيمة ناشفين للقشتاليين ، منها قصيدة
طويلة أورد ابن عذارى نبذة منها :

أما وبعث الهند عنك خصوم
فالروم تبذل ما ظباك تروم
بمضى سبوك في العدى وبردها
عن نفسه حث الكلام رحيم
دار جعلت بيونها قطبا لها
أبدا على قمم الملوك تحوم
وكأما الفرسان فد عرفت بها
فطغت وغاصت رؤس وحسوم
جاسب خلال ديارهم وحماتها
في كل واد بالفـرار تهيم

هزائمهم على يديه . واما منوا بهزيمة اخرى اشد واعظم اثرا في جبل
الفصر (٣) ، ففي سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) عاد البصاري الى حشد كل
قواتهم واكتسحوا تلك المنطقة من ارض الاندلس ، فلما علم تاشفين بأمر
هجومهم على الفصر كان له موقف مشرف ، فقد جمع زعماء المرابطين
وفال لهم « الدولة لنا ، فاما نركها او حماينها ، لا يتعذر منا احد الى
لفاء عدونا ، فاذا نحن استشهدنا ، فالامر لمن شاء الله بعد . . . » (٣) .
ثم انه جمع عرب الاندلس ، وحثهم على القتال الى حد انهم طلبوا منه
ان يلقى بهم في ميدان القتال وحدهم ووعدوه بالنصر ، كما اسندعى
زنانة الذين عزموا على القتال الاكيد طالبين اما النصر واما الشهادة ،
فخرج بهذه الحشود للجهاد الى جبل الفصر حيث تحصن البصاري وهناك
« أنى على حلهم القتل ، وأفلت النذر وأمتلأت أمدى المسلمين من دوابهم
وأسلحتهم ، وفكت الاغلال عن الاسارى . . . » (١) وعاد تاشفين بعد
ذلك الى قرطبة منصرفا مظفرا .

واستمر الخطر المسيحي يهدد منطقة الغرب بأكملها ، فقد تخاض
تاشفين موقعة أخرى في بداية عام ٥٢٩هـ (١١٣٤م) مع جيوش فشيالة

(٢) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٤ ، الحلل الموشية ، ص ١٢٣ .

(١) بقصد بها مدينة قصر أبي دانس ، وهي مدينته بالاندلس ، عرفها
بقوله «بينها وبين شلب أربعة مراحل ، وهي مدينة حسنة متوسطة
على ضفة نهر كبير ، وهو نهر تصعد فيه السفن السفريه ، وفما
استدار بها من أرض كلها شجر الصنوبر ، وبها الانشاء الكثير ، وهي
خصبة كثيرة الالبان ، والسمن والعسل واللحم ، وبين الفصر
والبحر ، عشرون ميلا» (انظر الحميري ، صفة جزيرة الاندلس
ص ١٦١) .

في موضع يسمى بالبكار Albacar ويقع شمالى قرطبة ، وتفصيل ذلك ان فوه كبيرة من فرسان فشنالة ، قدمت من الغرب واكتسحت اراضى المسلمين ، فنجهاز ناشفين للقتال وانضمت اليه قوات اشبيلية ، ثم خرج في اثر القشتاليين لمقاتلتهم ، فنزل بفواته في البكار ، ففاجأ القشتاليون بالهجوم ، ولكنه نصدى لهم في قوة من انجاد فرسانه عدتهم ألفان ، اردفوا عددهم من الرجال ، واشتد القتال ونفرت الدواب ، وقطعت مقاودها وقيودها ، فوقعت على الاخبية ، ففر الناس ، وقصد العدو ، ف ضرب خباء تاشفين ، ولكنه ثبت فحاطه رجال من أهل الاندلس وفوه من كماء المرابطين ، حموه ودافعوا عنه ، وكادت الهزيمة تحل بالمسلمين لولا ان محارباً من المسلمين طعن قومس الحيش الفشتالى برمح واضطربت صفوف العدو ، وبادر بالرحيل الى الغرب ، ولكن تاشفين ركب في الصباح في اثرهم حتى وصل الى حصن قشرش ، (او قصرش) من حصون المسلمين ، واضطر تاشفين الى القبول عائدا الى قرطبة (٢) .

ونستدل من هذه الحروب التى خاضها تاشفين على أن بطلبوس كانت قاعدة عسكرية للمرابطين في الغرب ، وانها تعرضت لغارات قشتالية متتابعة .

وينفرد ابن القطان ، بخبر اورد فيه أن الفونسو السابع ملك قشتالة المعروف بالسليطين ، خرج في عام ٥٢٧هـ (١١٣٢م) لغزو اشبيلية والغرب ، واشترك معه في هذه الغزوة سيف الدولة ابن هود ، فانبسطت خيله في نواحي اشبيلية ، وهاجمت مدينة شريش فدخلوها ، واستباحوها

(٢) راجع التفاصيل في ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٠ ، ٩١ .
ابن القطان ، قطعة من كتاب نظم الجمان ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

وَقَتَلُوا عِددا كبيرا من أهلها ، ثم رجعوا الى بلادهم (١) .

وكان رد فعل ناسفين على هذه الغارة الوحشية أن خرج بقواته عازبا الى الغرب في سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣ م) ، فنزل بعسكره على حصن انطاظة Idanha - a - Vella (٢) ويفع بالقرب من قنطره السيف

-
- (١) ابن الفطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٨ ، ومن الملاحظ أن ابن الفطان هو المؤرخ الوحيد الذي ذكر اشتراك ابن هود مع القشتالين في تلك العزوة المسيحية على اشبيلية وعلى شريش ، وابن هود المقصود هنا هو احمد المستنصر بن عماد الدولة عبد الملك بن المستعين احمد بن المؤتمن يوسف بن المقنذر احمد بن سليمان بن احمد بن هود ، أي أنه ينتمي الى سلالة بنى هود ملوك سرفسطة في عهد الطوائف ، وقد وضح لنا الدكتور محمود على مكي أن ابن هود كان صاحب قلعة روضة Rueda من عمل تطيلة Tudela ، ولكنه لم يتمكن من الاستقرار بها ، فسلمها للنصارى ، واشترك في الفن النى أثرت على المرابطين في الاندلس فاسولى على قرطبة أثناء ثورة ابن قسى في الغرب ، ثم ملك جيان وقتل عام ٥٤٠هـ (١١٤٥م) (انظر ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٧٢) .
- (٢) يرجح الاستاذ اولى ميراندا في مقاله عن (روض القرطاس والمرابطين) بمجلة Hespéris ١٩٦٠ وكذلك في مقالة عن حكومة ناسفين بن على في الاندلس ، المنشور في العدد المحصص لليفي بروفنسال (ص ٦١٣) أن المقصود بهذا الموضع مدبنة Idanha - a - Vella البرتغالية القريبة من الحدود الاسبانية في منطقته Castell - Branco أي على بعد ١٥٠ كم من ماردة ، وقد جعل ابن الخطيب (الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥١) هذه العزوة في عام ٥٢٨هـ (١١٣٤م) وليس عام ٥٢٧هـ (١١٣٣م) كما يذكر ابن الفطان (انظر نظم الجمان ، ص ٢٠١ ، حاشية ١) وبوافقه على ذلك ابن أبى زرع في روض القرطاس ، ص ١٠٧ (انظر التفاصيل في ابن الفطان ، ص ٢٠١ ، تعليق الدكتور مكي ، هامش ١) .

فافتتحها، وهدم الحصن (١) . ويذكر ابن أبي زرع أن تاشفين قام بغزوته المذكورة سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) فغزا « قنطرة محمود ودخلها بالسيف » (٢) . وهنا يظهر خلاف بين نص ابن القطان ونص ابن أبي زرع فيما يتعلق بهدف الغزوة ، فالاول يذكر المكان الذى غزاه تاشفين على أنه حصن أنطاطة القريبة للغاية من قنطرة السيف ، والثانى يسمى الموضع قنطرة محمود ، وكلا الموضعين يقع فى منطقة الغرب ، فقنطرة السيف حصن بينه وبين صاردة مسافة بسيطة قدرها الحميرى بيومين (٣) أما قنطرة محمود ، فقد ذكر الادريسي أن هناك مكان يعرف بقنطرة محمود يقع على ضفاف نهر تاجه بين القنطرة ، وشنترين (٤) . ويميل الأستاذ الدكتور محمود على مكي الى الاخذ برواية روض القرطاس ، وإن كان لم يظهر هذا الميل صريحا ولكنه واضح ضمنا .

وعلى أى وجه فما يهمنا من ذلك هو استنتاج الحالة التى كان عليها الغرب الاندلسى فى تلك الفترة من الحكم المرابطى ، وبالتالي يمكننا تخيل وضع بطليوس الذى كان مضطربا بلا شك نتيجة لهذه الغزوات القشتالية التى يعقبها ردود فعل مرابطية بقيادة الامير تاشفين .

وتنتهى الغزوات المرابطية عند هذا الحد وفقا لما ورد فى الروايات المسيحية وإن كان ابن أبي زرع قد ذكر فى حوادث سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) أن الامير تاشفين هزم جموع الروم بفحص عطية ، وأنه اهلك منهم خلقا كثيرا (١) ، وأنه دخل فى ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) مدينة كركر Albuquerque بالسيف ، ولكنه لم يجد بها سكانا .

-
- (١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠١ .
 - (٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ .
 - (٣) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٦٤ .
 - (٤) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٨٩ .
 - (١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ .

ونود أن نوضح أن الهدف الرئيسى الذى استهدفناه من وراء تتبعنا لحملات تاشفين هو التوصل الى حقيقة الاوضاع السياسية والعسكرية لبطليوس خلال الحكم المرابطى ، حيث أن المصادر العربية لم تسعفنا بمادة كافية ، ولم تزودنا بأخبار عنها الا فى مواضع قليلة ومحدودة ، وقد اتاحت دراستنا لظروف المناطق المحيطة بها والقريبة منها فرصة التوصل الى حقيقة هامة وهى أن بطليوس تعرضت لكثير من الاخطار المسيحية شأن جاراتها ، وأن توجيه الحملات الاسلامية الموجهة للغرب ، كان له اعظم الاثر فى تعرض سلامها للخطر ، وأصاب احوالها بالاضطراب والخلل الامر الذى اشعر أهلها بعجز المرابطين عن الدفاع عنهم ، مما ترتب عليه ثورة الغرب العارمة على الحكم المرابطى .

(٢)

الثورة في غرب الاندلس وانهيار سلطان المرابطين

١ - اسباب ثورة الغرب على المرابطين :

ظل الامير تاشفين بن علي بن يوسف اميرا وقائدا اعلى للجيش المرابطية في الاندلس حتى عام ٥٣١هـ (١١٣٦ - ١١٣٧م) (١) او بداية عام ٥٣٠هـ (١١٣٥ - ١١٣٦م) عندما استدعاه ابوه علي بن يوسف الى المغرب فلم يتردد في العبور الى العدو في هذه السنة ، يجر وراءه عددا كبيرا من اسرى غزواته الاخيرة الى اشكونية (٢) ، فأحسن والده استقباله رغم مرضه الشديد الذي كان يعانيه منذ عام ٥٣٠هـ (١١٣٥ - ١١٣٦م) « وكان علي بن يوسف اعتل في السنة الفارطة ، وارتبك في مرضه حتى ارنجف به ، فساعت الظنون وتمكن الجزع ببلاد الاندلس ٠٠٠ » (٣) .

وفي عام ٥٣٣هـ (١١٣٨ - ١١٣٩م) توفي الامير ابو محمد سير ابن علي بن يوسف وولى عهده ، فأصدر علي بن يوسف عندئذ مرسوم ولاية عهده لولده الامير تاشفين وأخذ له البيعة بذلك (٤)

ويعلل الاستاذ محمد عبد الله عنان السرعة التي تم بها ، استدعاء تاشفين من الاندلس الى المغرب بما حل بالمرابطين في المغرب من ظروف خطيرة ، فقد كان المهدي محمد بن تومرت قد ظهر في تلك الاونة بدعوة

-
- (١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٤٦ .
 (٢) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ ويقصد باشكونية مدينة اكشونبة احدى مدن غرب الاندلس .
 (٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٦ .
 (٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٤ . ولاختيار تاشفين لولاية عهد علي بن يوسف ، ومقتل ابنه سير قصة فصلتها المصادر العربية (انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٧ - ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٥)

دينية جديدة أسفرت عن قيام دولة الموحدين في تينملل وتهديدها للمرابطين في مراكش^(١) .

(٤) في بداية عام ٥١٥ هـ (١١٢١ - ١١٢٢ م) توجه ابن تومرت الى اغمات ، وبدأ يعلن دعوته ببطلان دعوة على بن يوسف ، وحلح طاعته ، ثم قصد بلاد السوس حيث جبال المصامدة ، ثم طاف بمسفيوة وهناتبة واكيلين ، واسمر يبيت هذه الدعوة بين القبائل والناس يفدون اليه سراعا ، يؤمنون به ، ويدعوته . وفي ذلك الوقت اشتعلت الفتنة في قرطبة عام ٥١٥ هـ (١١٢١ م - ١١٢٢ م) فأسرع على بن يوسف للنظر في أمر البلاد ، ولكنه لم يمكث بالاندلس طويلا للوصول احبار ابن تومرت اليه ، فعاد الى المغرب ويعبث الى قتاله والي السوس ابا بكر ابن محمد اللمتوني ، ولكن ما كاد اللقاء يتم بين الفريقين حتى هزم المرابطون شر هزيمة ، وطاردتهم الموحدون حتى مدينة مراكش ، وبذلك سجل الموحدون اول انتصار لهم عام ٥١٦ هـ (أغسطس ١١٢٣ م) ، وازداد عدد الموحدين ، والتقوا بالجيش المرابطي مرة ثانية فانهمزم المرابطون أمام الموحدين دون قتال ، فجهز على بن يوسف جيشا ثالثا بقيادة سير بن مزدلي اللمتوني ، ولكن هذا الجيش لم يكن مصيره افضل مما سبقه ، فانهمزم المرابطون أمام الموحدين للمرة الثالثة وشغل محمد بن تومرت فيما بين عامي ٥١٦ هـ و ٥١٨ هـ (١١٢٢ م) و (١١٢٤ م) في نشر مذهبه الموحدى في منطقة السوس كلها ، ثم غادر مقره في جبل ايجليز الى تينملل التي كانت حينئذ محلة صغيرة تقع فوق ربوة عالية في سفح جبل درن ، وأخذ يؤسس فيها حصنا ومسجدا جامعيا ، وأحاطها بسور ، ثم دارت في العامين التاليين ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) و ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) عدة مواقع بين المرابطين والموحدين نكبد خلالها المرابطون العديد من الهزائم . ففي عام ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، التقى الفريقان على مقربة من جبل كيك ، فانهمزم المرابطون هزيمة نكراء ، وطاردتهم الموحدون حتى جبل وريكة الى أن وصل الموحدون الى أسوار مراكش ، وبدأ ابن تومرت بعد هذا الانتصار في رسم خطة للاستيلاء على مراكش واسقاط الدولة المرابطية ، وانتهى الامر بأن حاصر الموحدون مراكش مدة أربعين يوما ، وتخللت فترة الحصار معارك دامية بين الطرفين ، انهزم فيها المرابطون بالقرب من باب دكالة .

وكان يقود الجيوش المرابطية الشيخ أبو محمد وأنودين بن سير ، وبدأ القتال ، وانتصر المرابطون في هذه المعركة الهامة في جمادى

ويمكننا أن نتصور رد فعل الصراع الموحدى - المرابطى فى المغرب على الاندلس ، فقد انتهز الاندلسيون انشغال الدولة المرابطية بالخطر الموحدى ، وفجروا ثورة أندلسية عارمة ضد المرابطين ، ولابد أن ندرك تمام الادراك أن هذه الثورة الاندلسية العارمة لم تكن رد فعل لحركة ابن تومرت فى المغرب فحسب وإنما نبعت من واقع الشعور بالعصبية الاندلسية ضد البربر ، فقد كانت الفتنة البربرية التى تسببت فى سقوط الخلافة الاموية فى الاندلس ماثلة فى أذهانهم ، وهى الفتنة المشؤمة التى يسميها ابن حيان شيخ مؤرخى الاندلس « بالفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة المفرقة للجماعة ، الهادمة للملكة المؤتلة » (١) .

وكانت انتصارات المرابطين فى أفليس سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ - ١١٠٨ م) ، وأفراغه سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ - ١١٣٤ م) قد أنست أهل الاندلس الى حين عصبيتهم الاندلسية ، الى أن بدأت غارات القشتاليين على غرب الاندلس ووسطها واستيلائهم على مواضع هامة من الغرب ، فكانت الثورة التى اندلعت فى قرطبة سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) التعبير الاول عن شعورهم بالاستياء . ونعتقد أن تعرض الغرب الاندلسى للاعتداءات المتواصلة من جانب القشتاليين والليوثيين ورد المرابطين على هذه الهجمات قد سبب الكثير من الضيق لاهالى الغرب الذين افتقدوا الامن والسلام ، فحتى عام ٥٣٣ هـ (١١٣٨ - ١١٣٩ م) ، هاجم

= الاولى من سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٠ م) ، ولم ينج من الموحيدين سوى فلول بسيطة .

(انظر الحلل الموسية ، ص ١٣٠ - ١٤٢ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣ - ٩٧ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٠ - ١٣٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٥٦ - ١٩٠) .

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الثانى ، ص ٥٧٦ .

الفشتاليون بلاد الغرب ، فقام عسكر شنترين ويابرة برد هؤلاء المعتدين « فكانت للمسلمين جولة ، ثم كر المسلمون عليهم فانهزم النصارى ، دمرهم الله تعالى ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا واسروا منهم جملة ، واحتوى المسلمون على أسلابهم وأنهابهم » (١) .

ونستدل من كل ما سبق على الحالة المضطربة التى عاشها الغرب الاندلسى فى تلك الآونة ، وهذه الحالة المضطربة الى جانب بعده وتطرفه عن سلطان الحكومة المركزية ، شجعت العناصر المعارضة للمرابطين على التحفز والوثوب ، واتفق ذلك مع نفس الوقت الذى تغلب فيه الموحدون على الجيوش المرابطية بقيادة الامير تاشفين بن على الذى لقى مصرعه فى موقعة وهران فى رمضان سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، فكانت ثورة الغرب العارمة .

ب - ثورة ابن قسى فى غرب الاندلس :

قدر أن يكون أول رؤساء الثورة فى الاندلس ، رجل من غرب الاندلس ، من سلب ، يسمى أبو القاسم احمد بن الحسين بن قسى ، من المرجح أنه يرجع الى أصل مسيحى ، وقد عمل فى بدء حياته ، فى الاعمال المخزنية ، كما يذكر ابن الأبار ، أى الاعمال الحكومية ، ثم آمن فجأة بالمبادئ الصوفية وتنسك ، أو تظاهر به ، فذكروا أنه « باع ماله ، وتصدق بثمانه وساح فى البلاد » (٢) ، ثم بدأ بؤلف العديد من الكتب الصوفية أهمها كتاب ، « خلع النعلين » (٣) ، وانتقل الى المرية أحد المراكز الهامة للتصوف فى الاندلس ، حيث التقى بأبى العباس بن العريف

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٤ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة المسبراء ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(٣) ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص ٢٤٩ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣٠٧ .

شيخ الصوفية وعميدهم في الاندلس في تلك الآونة ^(١) واستاذ أساتذة ابن عربى ، ودرس على يديه ، ثم عاد الى سلب مرة ثانية حيث « اقبل على قراءة كنب أبى حامد الغزالى فى الظاهر ، وهو يستجلب اهل هذا الشأن ، محرضاً على الفتنة وداعياً الى الثورة فى الباطن » ^(٢) ، هذا بخلاف ما قرأه من كتب الصوفية والباطنية حتى ذاع أمره هو واتباعه الذين سمو بالمريدين فى سلب وميرتلة ولبلة ^(٣) وبطليوس وكل أعمال غرب الاندلس ، ولعلنا نتبين من خلال فراءتنا لنص ابن الأبار أن ابن قسى كان يتخذ من النصوص ستاراً لأفكاره الاستقلالية وأطماعه وطموحاته ، فقد ادعى الهداية وتسمى بالامام ^(٤) ، وبالمهدى ^(٥) ، بينما هو يدعو للثورة فى حقيقة الأمر . وبدأت الوفود والجماعات تتوافد عليه وتعلن

(١) ابن العريف هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله ابن العريف الصنهاجى (٤٨١ - ٥٣٦ هـ) (١٠٨٨ - ١١٤١ م) وسمى والده بالعريف لأنه كان صاحب حرس الليل ، وعريف الفوم ، القائم بأمره . ثم رحل والده الى المرية ، حيث ولد له ابنه أبو العباس أحمد ، وقد اتجه أبو العباس أحمد منذ نعومة أظفاره الى العلم والادب ودراسة الفقه ، ولما كانت المرية ، مركز الصوفية فى الاندلس فى ذلك الوقت فقد اقبل أبو العباس على دراسته فنبغ فيه ، وأصبحت له طائفة من الاتباع والمريدين ، وسرعان ما نشب الخلاف بين الفقهاء من اتباع على بن يوسف وبينه هو واتباعه ، وكان القاضى ابن الاسود على رأس من نزع معارضة ابن العريف ، وحدث أن استدعاه على ابن يوسف مع زميليه أبو بكر محمد بن الحسين الميورقى وأبو الحكم ابن براجان ، ولم يجد ابن العريف الا كل لطف من أمير المسلمين ، وتوفى ابن العريف بعد تلك الحادثة بمراكش (انظر ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، حاشية ٢ ، ص ١٩٧ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٤٩ ، راجع السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٨٤) .

- (٢) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .
- (٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٤٩ .
- (٤) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .
- (٥) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٤٩ .

تأييدها التام له ، ومن هؤلاء ، أبو محمد سبدرای بن وزیر ، وابن عفان فارس من يابرة ، ومحمد بن المنذر من أهل شلب ، وعبد الله بن أبي حبيب « وامثالهم من أعيان ذلك الصقع الغربى » (١) .

ولم تكن حكومة المرابطين غافلة عن هذا النشاط الخفى الذى يمارسه ابن قسى ، لذا بادرت بالقبض على بعض أصحابه ، فهرب ابن قسى الى ميرتله فى قرية تعرف بالجوزة حيث تعرف على رجل سيكون أحد أقرب أصدقائه اليه ، هو محمد بن يحيى الشلطيشى المعروف بابن القابلة الذى أطلق عليه المصطفى لاختياره له .

وبدأ ابن قسى ثورته فى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، باصدار أوامره لاتباعه بالاستيلاء على قلعة ميرتله ، فجمع ابن القابلة سبعين رجلا من المريردين ، « وكان قائد حصن ميرتله قد واعد رجلا من أهلها على الاتيان اليه فى الليل برشوة على حال استنار من أهل الحصن » (٢) .

ونجح المريردون فى الاستيلاء على ميرتله ، وتم ذلك ليلة الخميس الثانى عشر من صفر ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، ثم دخلها ابن قسى فى غرة ربيع الاول وسط التهليل والتكبير « فصعد الى قصبتها واحتل بقصرها ، وشرع فى مخاطبة أعيان البلاد . . . فاستجاب له كثير منهم وأولهم أهل يابرة ، ثم أهل شلب ، واتسع على المرابطين خرق لم يرقعوه ، وهجم عليهم حادث طالما توقعوه . . . » (٣) .

ومن هذا النص يتضح أن كلا من يابرة وشلب قد نزعتا سلطان المرابطين أسوة بابن قسى ، وقد كانت يابرة حينئذ تحت رئاسة سبدرای ابن وزير ، أما شلب فقد كانت تحت رئاسة محمد بن عمر بن المنذر .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥٠ .

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٩٩ .

وكان ابن قسى فى تلك الاثناء يحاول الاتصال بالموحدين عقب انتصارهم فى موقعة وهران سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، ولكن عبد المؤمن ابن على لم يعره اهتماما لان ابن قسى كان فى رسالته اليه قد لقب نفسه بالمهدى ، مما جعل عبد المؤمن يفر من هذه اللهجة المتعالية التى خاطبه بها ابن قسى .

واياها كان الامر فان ابن قسى ولى قبل انتقاله الى ميرثله محمدا ابن عمر بن المنذر على شلب ، وكان محمد هذا قد انتزع حصن مرجيق الواقع فى شرق شلب من المرابطين مقتديا فى ذلك بما فعله ابن قسى فى ميرثله .

اما باجة فقد كانت بعد فى حوزة المرابطين ، فلما علموا بثوة ابن المنذر بشلب طلبوا من اهل باجة الامان ، ثم رحلوا منها الى اسبيلية ، فاسرع ابن المنذر اليها مباشرة عقب خروج المرابطين ومعه مجموعة من جند يابرة بقيادة احمد بن وزير شقيق سيدراى فافتتحتها ، واشترك معه فى فتحها خاله عبد الله بن الصميل . وبعد سقوط باجة فى يد ابن المنذر وابن وزير اتصلا بابن قسى ، وبايعاه بالطاعة فى ربيع الاول سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، وعندئذ منح ابن قسى باجة لابن وزير ، وشلب لابن المنذر .

اما بطليوس فقد كانت تابعة لابن قسى (١) ، شأنها فى ذلك شأن ميرثله من ولايات الغرب طوال عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، ولم يلبث ابو محمد سيدراى بن وزير ان انتزعها هى وميرثله من يد ابن قسى بسبب خلاف نشب بينه وبين ابن قسى مرجعه محاولة سيدراى الاستيلاء على قرطبة لصالح ابن قسى اثناء غيبة ابن المنذر فى حروبه ، فغدر ابن قسى بسيدراى وخلعه عن باجة ويابرة وقبض عليه ، ثم عاد فأطلق سراحه ، وردّه الى ولايته ، وعندئذ كره سيدراى صديق الامس وتخوف منه ،

(١) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، حاشية رقم ١ .

وحاول ابن قسى ان يتفاهم معه ، ولكن دون جدوى ، فبعث ابن قسى ابن المنذر لمحاربة سيدراى ، فانهزم ابن المنذر أمام سيدراى ووقع في أسره ، ثم زحف سيدراى الى شلب فاستولى عليها (١) ، وانتهى به الامر الى انتزاع ميرتلة وبطليوس من يد ابن قسى كما سبق ان ذكرنا ، وأسند ولاية بطليوس وأعمالها الى خاله عبد الله بن الصميل .

أما ابن المنذر فصاحب الفضل الاعظم فى نجاح ثورة ابن قسى ، وساعده الايمن قبل ان يقع فى أسر سيدراى ، ومحمد بن عمر بن المنذر هذا ينتمى الى احدى الاسرات المولدة العريقة فى شلب، وكان نابغة «تميز بالمعارف الادبية والفقهية وولى خطة الشورى ببلده ثم تزهد وانزوى» (٢) وكان قد استولى مع قواته على كل من ولبة ولبله لصالح ابن قسى بعد ان كان ابن قسى قد جدد له عهده على ما بيده من البلاد وسماه العزيز بالله ، وبعد هذا الانتصار تملك الغرور ابن المنذر فخرج من لبله مستهدفا للاستيلاء على اشبيلية ، ونجح فى الاستيلاء على حصن القصر Aznalcazar (٣) وطبلاطة Tablada (٤) من مشارف اشبيلية الغربية ، ولكن ابن غانبة قائد المرابطين تصدى له وأوقع به الهزيمة فى

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥١ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣١٠ ، عبد الله غلام ، الدولة الموحدية ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٤) حصن القصر من الحصون المشهورة باقليم الشرف باشبيلية ، واشتهر فى هذا الموضع الوادى المعروف بوادى الطلح وهو نهر فى نهاية الحسن (ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٢٩٦) .

(٤) طبلاطه ، محلة بينها وبين اشبيلية عشرون ميلا ، وبفحصها جرت معركتان الاولى مع النورمان فى عهد عبد الرحمن الاوسط ، والثانية مع البرتغاليين فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥م) عندما فتكوا بالمسلمين ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة (راجع التفاصيل فى الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ص ١٢٨ ، ١٢٩) .

طريانة Triana (١) ، ففر الى بلبة ، ثم تركها الى شلب تاركا أحد أعوانه وهو يوسف البطروجي بلبله يدافع عنها بسبب حصار ابن غانية لها . وعندما قام ابن حمدين (٢) بثورته في قرطبة ظن ابن قسى أنه من الممكن التدخل في شئونها أثناء الثورة ، فأمر ابن المنذر بالتوجه اليها ولكن اهل قرطبة كانوا قد طردوا ابن حمدين حليفهم وجاءوا بابن هود لبتولى زعامتهم ، فارتد ابن المنذر الى الغرب .

في تلك الاثناء كان الخلاف قد دب بين سيدراى بن وزير وبين ابن قسى ، فدفع ابن قسى بابن المنذر في حرب ضارية مع سيدراى أسفرت عن كارثة لكل من ابن قسى وابن المنذر وضاعت شلب ، وميرتله ، وبطليلوس من أملاك ابن قسى من جهة ، ووقع ابن المنذر في قبضة سيدراى من جهة أخرى . ثم ارتأى سيدراى بن وزير أن يمعن في معاقبة ابن المنذر ،

-
- (١) طريانة ، مدبنة ممتدة على ضفة الوادى الكبير في مقابلة مدينة اشبيلية وتعتبر من أرباضها ، وكانت مسورة من جهة الصحراء ، واستوفت طريانة كل مقومات المدن من حمامات وأسواق ضخمة . وكانت بيوتها المطلة على النهر تبيض بالكلس حتى لا تنبو العين عنها (ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٢٩٣) .
- (٢) هو الفقيه أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين ، التغلبى القرطبي ، من أهل بيت رئاسة ، ولى قضاء الجماعة بقرطبة في شعبان سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤م) ثم صرف عنه سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧م) وعاد الى توليته سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١م) الى أن أعلن ثورته في سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤م) على حكم المرابطين استجابة لثورة ابن قسى في غرب الاندلس وتسمى بأمر المسلمين المنصور بالله ، ودعى له على منبر جامع قرطبة ، ثم خلع ، ثم رد ، ثم خرج الى العدو حيث أقام فترة من الوقت عاد بعدها فاستقر به المطاف بمالقة وظل مقيما بها الى أن توفي سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣م) وقيل سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) (بغية الملتبس في تاريخ رجال الاندلس ، مجريط ، ١٨٨٤ ، ترجمة رقم ٦٨٥ ، ص ٢٦١ ، ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ - ٢١١ ، وارجع الى ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٧ ، هامش ٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣) .

فأرسل سيدراى الى خاله عبد الله بن الصميل يأمره « بأن يسير الى باجة ويستخرج ابن المنذر من سجنه ويسمل عينيه ، ففعل ذلك ، وأقام في معتقله الى أن فتح الموحدون أعزهم الله باجة ، وسائر بلاد الغرب ، فانقذه الله على أيديهم. وعاد الى شلب ٠٠٠ » (١) أما بالنسبة لثورة قرطبة فقد تزعمها القاضى حمدين بن محمد بن على بن حمدين ، وولاه أهل قرطبة عليهم عند قيامهم بالثورة على واليهم المرابطى ، وفي ذلك يقول ابن الخطيب ، « ثارت العامة بوالى البلد الرئيسى أبى عمر الممتونى ، وخلعوا دعوة المثلثين ، واتفقوا على مبايعة القاضى أبى جعفر بن حمدين مبايعة الخاصة والعامة بالمسجد الجامع من قرطبة ، خامس رمضان من سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) المذكورة ، وسكن قصر الخلافة ٠٠ » (٢)

وتسمى بأمر المسلمين ، وناصر الدين (٣) ، وتلقب بالمنصور بالله ، ولا يهمننا من أحداث ثورة قرطبة الا توضيح العلاقة التى كانت تربط بين بطليوس وقرطبة فى تلك الفترة أو بمعنى أصح توضيح الدور الذى قام به عبد الله بن الصميل والى بطليوس لتأييد ابن حمدين زعيم الثوار بقرطبة ، فقد كان هناك من بين ثوار قرطبة من كان بتعصب ضد البربر ويأنف من التبعية لهم ، فسعوا الى استدعاء سيف الدولة المستنصر بالله أبى جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود لانه من وجهة نظرهم ، خير ممثل للزعامة الاندلسية العريقة ، على حد تعبير الاستاذ محمد عبد الله عنان (٤) ، فلما أقبل ابن هود الى قرطبة ، أدبر ابن حمدين عنها ، ولذا بحصن فرنحولش Hornachuelos المنيع (٥). الواقع شمال غربى

-
- (١) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .
 - (٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥٣ .
 - (٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٣ .
 - (٤) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣١٣ .
 - (٥) فرنجولش ، مدينة تقع على مقربة من حصن المدور Almodovar من نواحي قرطبة ، اشتهرت بكثرة كرومها وأشجارها ، وتوفر معدن الذهب والفضة فى موضع منها يعرف بالمرج (الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٤٣) .

قرطبة ، حيث اقام اياما معدودة ، ثار خلالها اهل قرطبة على سيف الدولة ابن هود ، فهاجموا قصره وقتلوا وزيره ابن الشماخ ، فهرب ابن هود ، وعاد ابن حمدين الى قرطبة ، ومارس سلطاته هناك مدة شهور دون خلالها الدواوين ، ورسم الخطط ، وجند الاجناد ، وبعث الى انصاره في المناطق الاخرى يطلب مبايعتهم له فبايعه أبو الغمر ابن عزون صاحب شربش ، وأبو جعفر بن أبي جعفر صاحب مرسية ، غير أن ولايته لم تستمر أكثر من ١١ شهرا إذ تمكن محمد بن غانية من التغلب على هواه في موقعة دارت في احواز بطليوس ، فر ابن حمدين على اثرها الى بطليوس ، واقام في كنف حليفه القديم عبد الله بن الصميل . ويبدو ان الصراع الذي كان قائما بين ابن قسي من جهة وبين سيدهاي والصميل من جهة اخرى لم يؤثر على حسن العلاقات بين ابن حمدين والصميل والى بطليوس ، فاجاره مدة غادر بعدها بطليوس الى حصن اندوجر Andujar الواقع شرق قرطبة (١) .

ولا يعنينا من امر ثورة قرطبة ما طرأ عليها من تطورات (٢) ، ولكن يهمنا ان نعرف ان ابن حمدين زعيم قرطبة المعزول عبر الى المغرب عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) واستحث عبد المؤمن بن علي اول خلفاء الموحدين ، وهو يحاصر مراکش على التدخل في شئون الاندلس بحجة الظروف الاليمة التي كانت تمر بها البلاد في تلك الآونة ، وتدخل القشتاليين في شئون قرطبة ، ولم يكن ابن حمدين اول من وفد على عبد المؤمن بن علي بل سبقه أبو الغمر بن السائب بن عزون المنتزى بشريش واركش

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥٣ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن باقى أحداث ثورة قرطبة ، خاصة عند قدوم الفونسو السابع اليها انظر ابن غالب الاندلسي ، قطعة من فرحة الانفس ، تحقيق د. لطفى عبد البديع ، ص ١٤٨ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣١٤ ، السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

ورنده (١) ، وابن قسى بعد أنقلاب سيدراى بن وزير، عليه واقدامه على انتزاع شلب وميرتلة وبطليوس من مناطق نفوذه بالعرب ، كذلك وفد على عبد المؤمن وفد اشبيللى كبير ، يستنهضون عبد المؤمن لانقاذ الاندلس ويبايعونه . ولم يتردد عبد المؤمن بن على فى الاستجابة الى طلب هذه الوفود ، فأرسل قوات من قبله الى الاندلس ، للنظر فى شأنه .

وأول البلاد التى افتتحها الموحدون هى شريش ، افتتحها الموحدون صلحا، عام ٥٣٩هـ (١١٤٤ م) فى قول (٢) وفى تاريخ لاحق فى قول آخر (٣) ، فقد خرج حاكمها أبو عمران موسى بن سعيد الذى ينتمى الى بنى غانية الى الموحدين وأعلن طاعته لهم ، وفى ذلك يقول ابن أبى زرع « فكان أول بلد فتحوه من الاندلس ، مدينة شريش فتحوها صلحا ، وكان بها قائدها أبو القمر من بنى غانية فى ثلاث مائة فارس ، من المرابطين ، فخرج بمن معه فتلقى الموحدين وبايعهم لعبد المؤمن ، فدخل فى طاعته ، فكان الموحدون يسمونهم السابقين الاولين (٤) » . وتبع افتتاح شريش ، فتح طريف ، والجزيرة الخضراء .

وفى عام ٥٤١هـ (١١٤٦ م) قام عبد المؤمن بإرسال جيش تحت قيادة براز بن محمد المسوفى لفتح شلب وانتزاعها من سيدراى بن وزير وأرجاعها الى ابن قسى صاحبها الاول ، ثم بادر عبد المؤمن بإمداد هذا الجيش بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد ثم بجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجى . وقبل أن يستولى الموحدون على شلب تمكنوا من

(١) Coderia (Francisco), Decadencia y Desaparición de los Almorávides en España, Zaragoza, 1899, P. 159.

عبد الله علام ، الدلة الموحدية ص ١٨١ ، ١٨٤ .

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٢ .

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ ، ابن خلدون ، العبر ،

ج ٦ ، ص ٢٣٣ .

(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٢ .

الاستيلاء على ميرتلة خاضرة ابن قسى ، ومنها اتجهوا الى شلب فأسقطوها ثم الى باجه ومنها الى بطليوس ، وكانت كل من مدينتى باجة وبطليوس تحت حكم ابن وزير وان كانت بطليوس خاضعة لخاله عبد الله بن البصبل الذى كان يحكمها من قبله ، ولم يكن امام ابن وزير سوى بذل الطاعة لجيوش الموحدين . فدخلت قواتهم بطليوس وأخرجوا محمد بن عمر بن المنذر من سجنه ، كما سبق أن أوضحنا ، ولم يتردد هذا فى السير الى شلب (١) ليسنقر جنبا الى جنب مع حليفه السابق ابن قسى .

ج - قيام الثورات على الموحدين فى الغرب :

وما أن تمت للموحدين السيطرة على معظم قواعد الغرب حتى اتجهوا الى اشبيلية لفتحها بعد أن انضمت اليهم قوات الغرب بزعامة احمد بن قسى وسيدراى بن وزير ، ويوسف البطروجى ، كل يرأس جنده وانتهى الأمر بقتل عبد الله بن العربى الثائر فى اشبيلية ولد القاضى أبى بكر بن العربى زعيم فقهاء المدينة ، وكان ذلك فى شعبان من ٥٤١هـ (يناير ١١٤٧ م) .

ثم ولى اشبيلية كل من عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي بن تومرت ، ولكنهما ، أساءا التصرف فى اشبيلية ، فأوقعا الظلم بأهلها ونهبوا الاموال مما دفع يوسف البطروجى ، صاحب لبللة على الثورة على الموحدين ، ففر من اشبيلية الى لبللة ، وجدد الثورة هناك ناقضا عهده للموحدين ، فتحالف مع من كان فى لبللة من بقايا المرابطين ، وكانت هذه الثورة مثل ثورات أخرى نشبت فى غرب الاندلس فى ذلك الوقت ، فقد ثار سكان طبلاطه ، وحصن القصر ، ثم ثار ابن قسى فى شلب وابن ميمون فى قادس وثار ابن الحجام والى بطليوس ، وبذكر ابن الخطيب فى أعمال الاعلام أن ابن الحجام الثائر هذا هو محمد بن على بن الحجام ، وليس عبد

(١) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

الله بن الصميل الذي كان حاكما لها عندما دخلها الموحدون (١) ، كما يذكره ابن خلدون (٢) ، باعتباره من بين الزعماء الذين خلعوا طاعة الموحدين ، ويورد ابن خلدون عنه بعض التفاصيل فيذكر انه حينما عبر يوسف بن سليمان بعساكر الموحدين لمقاتلة ثوار الغرب ، عاد ابن الحجام ، (وكان قد سماه بابن الحاج) (٣) للطاعة وارسل هدية قيمة ، الى عبد المؤمن بن علي ، كان لها أكبر الاثر في نفسه . ويعلق الاستاذ محمد عبد الله عنان على ذلك بأنه لايعرف متى ولا تحت أية ظروف تمكن ابن الحجام من حكم بطليوس بدلا من ابن الصميل .

ولقد استطعنا عن طريق استقراءنا للروايات المختلفة ان نحصر المدة التي قفز فيها ابن الحجام الى حكم بطليوس وهي مدة تتراوح فيما بين سبعة شهور وعام هجري ، فابن الصميل كان على حكم بطليوس ، حين تمكن ابن حمدين من الفرار اليه في عام ٥٤٠هـ (١١٤٥ - ١١٤٦ م) كما جاء في رواية ابن الخطيب (٤) ، واستمر ابن الصميل يتولى بطليوس حتى تم للموحدين فتحها بعد شهر المحرم ٥٤١هـ (١١٤٦ - ١١٤٧ م) لان عبور الموحدين الى الاندلس حدث في المحرم من ذلك العام (٥) .

اما ثورة ابن الحجام فقد نشبت بعد سقوط اشبيلية في ايدي الموحدين في شعبان ٥٤١هـ (١١٤٧ م) ويؤكد كل من ليفي بروفنسال (٦) والاستاذ محمد عبد الله عنان ان ثورة ابن الحجام حدثت في نفس الوقت الذي قام فيه الماسي بثورته ضد الموحدين في المغرب اى في عام ٥٤٢هـ

-
- (١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٤٨ .
 - (٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
 - (٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
 - (٤) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥٣ .
 - (٥) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣٢٧ .

(١٤٨٠ م) : (١) ، وبهذا يقع صعود ابن الحجام الى حكم بطليوس في المدة ما بين المحرم ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) وما بعد شعبان ٥٤١ هـ .
وربما فكر الموحدون بعد استيلائهم على بطليوس في اقصاء حاكمها الاول عنها ، وربما كان ابن الحجام في هذه الآونة يشكل أحد المنافسين لابن الصميل ، فبدأ يتقرب الى القادة الجدد بحيث نجح في اقناعهم كحاجم موال لهم في بطليوس .

ويعلق كوديرة في معرض حديثه عن ابن الحجام ، (ويسميه ملك بطليوس) بقوله : « ان وجه الغرابة فيما يذكره ابن الخطيب في سياق حديثه عن الثوار الاندلسيين الذين شقوا عصا الطاعة على المرابطين واعلنوا استقلالهم في مواقعهم عنهم ، أنه أورد اسم محمد بن علي الحجام ، وهو شخصية لم تصلنا عنها إلا أخبار قليلة ، ولم يكن ابن الحجام هذا من الشخصيات التي لمعت في الفترات الاولى من الثورة على المرابطين » ، وهذا ما يدعونا الى الاعتقاد بأنه لم يظهر فجأة اذ ورد ذكر سيد آخر على بطليوس وهو سيدراى بن وزير . أما عن محمد بن علي ابن الحجام كما يسميه ابن الخطيب فلم أجد عنه أي ذكر الى أن اشتعلت نار الثورة الاولى التي قام بها رؤساء الاندلس ضد الموحيدين بعد أن تمكن ابن عانية من انتزاع الجزيرة من اللوحدين . عندئذ انضم محمد بن الحجام كما يسميه ابن خلدون الى الحركة الثورية في بطليوس (٢) .

كذلك يذكر كوديرة أن ابن الحجام اعتبر في فترة ما ، ملكا مستقلا على بطليوس بدليل الدنانير التي ضربت في بطليوس سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ - ١١٤٩ م) وتحمل اسمه ، وقد رجع كوديرة فيما يختص بأمر هذه الدنانير الى A.Prieto y Vives ، وهذه العملات كانت تحتفظ تماما بطابع العملات المرابطية .

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣٢٩ .

(٢) Codera (F), Decadencia y desaparición, Op.Cit., P. 160 - 161.

ومن الجدير بالذكر أن ليفي بروفنسال أورد في كتابه عن النقوش الكتابية العربية في اسبانيا نقشا محفورا على لوح من الرخام ٢٨×٤٦ سم يشير الى أن خروج المرابطين عن بطليوس لم ينم بدون سفك دماء ، ففي شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) اشتعلت الثورات كما سبق أن ذكرنا في الاندلس كله ، ويسمى ليفي بروفنسال هذه الفترة بعصر الطوائف الثاني ، فتوار الاندلس يبررون قيامهم بالثورة على المرابطين بأطلاق نفس الشعارات الدينية التي أطلقها الموحدون ، وهذا يفسر لقب الشهيد الذي سجله كاتب النقش على المتوفى ، فالمرابطون وهم مجسمون ، كان ينظر اليهم على أنهم مارقون ، لذلك فان قتلهم في نظر هؤلاء الثوار يعد جهادا والقتل على أيديهم يعتبر استشهادا (١) .

ونطالع في النقش النص التالي :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا قبر الشهيد المقتول ظلما ، رحمه الله عبيد الله بن محمد بن أحمد الماردى - ابن المقتول - قتلوه المثلثين يوم خروجهم وذلك يوم الاحد يوم تسعة وعشرين من رمضان المعظم عام تسعة وثلاثين وخمسة مائة) (٢) .

وأيا ما كان الامر فقد قامت الثورة في مدن الغرب على الموحدين بعد فترة قصيرة من الدعوة لهم في هذه المدن بحيث لم يبق في الغرب على ولائه لهم سوى ابن عزون ، صاحب شريش ، وولده ، فاعتنم ابن غانية القائد المرابطى الذى كان قد ظهر في الاحداث السابقة تلك الفرصة وأرسل قوة مرابطية تمكنت من السيطرة على الجزيرة الخضراء ، فلما علم أهل سبتة بذلك الامر ثاروا وخلعوا واليهم يوسف بن مخلوف التينمللى وتزعمهم في ذلك القاضى عياض السبتي .

Lévi - Proveçal., op. cit., p. 57.

(١)

Ibid, p. 56.

(٢)

وكانت أمور اشبيلية قد بلغت حدا كبيرا من السوء بحيث أن عبد المؤمن بن علي حين علم بأحوال الاندلس الغربى واشبيلية ، بادر بارسال جيش من الموحدين بقيادة يوسف بن سليمان الذى تمكن من اخمساد الثورات ، فقد زحف بفواته بادية ذى بدء الى لبلبة ، وقضى على البطروجى ، رأس الثورة هناك ، ثم توجه الى طليطلة التى اخضعها ثم اتبعها بحصن القصر ومنها الى طبيرة التى اعلن حاكمها الطاعة . وبدأ ثوار الغرب يعودون من جديد الى الطاعة ومنهم محمد بن علي ابن الحجام صاحب بطليوس ، وعلى بن عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية الغرب وقادس .

اما ابن الحجام فقد بادر بارسال مجموعة من الهدايا الفخمة الى الخليفة عبد المؤمن بن علي الذى قبلها بسرور بالغ ، وبهذه الهدايا تكون بطليوس قد انضوت تماما فى فلك دولة الموحدين (١) .

اما ابن قسى حاكم بطليوس السابق فقد انتهى أمره نهاية حزينة ، ففى ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) دعا عبد المؤمن بن علي وفود الاندلس للعبور الى المغرب للقاءه فى مدينة سلا ، فسار اليه كل زعماء الغرب وفى مقدمتهم سيدراى بن وزير وابن الحجام صاحب بطليوس ، جميعهم ساروا اليه باستثناء ابن قسى صاحب ميرتلة وشلب .

وكان ابن قسى فى الواقع أول من ثار على السلطان المرابطى ، وأعلن تأييده وطاعته للموحدين ، وهو أول من أشعل الثورة ليس فى غرب الاندلس فحسب وانما فى الاندلس كله ، الا أنه لم يلبث أن نكث بعد ثورة اشبيلية ، فخرج عن طاعة الموحدين وظل متمردا عليهم ، فلما لقي نفسه وحيدا بعد أن قدم جميع رؤساء الغرب فروض الطاعة للموحدين لجأ الى ملوك اسبانيا المسيحية ، ولم يجد امامه سوى مملكة البرتغال الناشئة

في ذلك الوقت ، ولم يتردد الفونسو انريكيث او ابن الريق (١) ، صاحب قلمرية (٢) في الترحيب به وتقديم العون له «فاظهر اجابته الى مراده ، وبعث اليه بفرس وسلاح ٠٠٠» (٣) ، فلما رأى ، اهل شلب موقف ابن قسى هذا غضبوا ، وبرزعهم حينئذ ابن المنذر ، صديق ابن قسى السابق وحليفه القديم ، وصمموا على التخلص من ابن قسى ، فاعدوا للحسين ولد ابن قسى نزهة لابغاده ، عن قصر والده (٤) ، وتمكنوا عن طريق الحيلة من دخول قصر والده المسمى بقصر الشراجب ، (٥) «فأتى بعضهم برجل مكتوف ، كآنه قبض عليه من الدائرة والاشرار ، واستأذنوا على مقدم الحرس ، فعندما دخل الى البلد يستأذن في أمره ، اقتحمت الطائفة الحصن ٠٠٠» (٦) ، وقتلوا ابن قسى ، واحتزوا راسه ورفعوها على الرمح الذى سبق أن أهدها له الفونسو انريكيث ملك البرتغال ، وجلس ابن المنذر الاعمى مكان ابن قسى ، وأعلن طاعته وولائه للموحدين ، وكان ذلك في جمادى الاولى من عام ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) ، (٧) ، وبهذا تكون ثورة الغرب على المرابطين قد انتهت بسقوط دويلاتهم على أيدي الموحدين .

وهناك ملاحظة هامة للغاية ، وهى أن معظم ثوار غرب الاندلس كانوا من الشعراء والادباء الموهوبين ، فابن قسى على سبيل المثال كان عالما ، ممن تفقها في علم الكلام والتصوف الى جانب قوة شعره ، وقد أورد ابن الأبار ، في الحلة السيرة نماذج عديدة من هذا الشعر (٨) .

-
- (١) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .
 - (٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥١ .
 - (٣) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .
 - (٤) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥١ .
 - (٥) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .
 - (٦) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥٢ .
 - (٧) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥٢ .
 - (٨) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

أما ابن المنذر فقد سيطر على شلب بعد مقتل ابن قسى ، ولكن الموحيدين توجسوا منه وخافوا أن يعاود الثورة « فخيف منه أن يثور. نالته ، فنقل إلى اشبيلية بعد أن خلعه ابن وزير وملك شلب دونه » (١) . وقد أورد هذا الخبر ابن صاحب الصلاة في كتابه «ثورة المريدین» ، وهذا الكتاب لم يصل إلينا وإنما عرفناه من خلال رواية ابن الأبار في كتابه «الحلة السرياء» ، فقام الموحدون بنقله إلى اشبيلية ليقيم بها تحت مراقبتهم ، ولكنه «أجاز البحر إلى سلا فتوفى بها سنة ثمان وخمسمائة ...» (٢) .

وإبن المنذر هذا كان هو الآخر من الشعراء الكبار وله عدد من القصائد التي أوردها ابن الأبار كذلك في الحلة السرياء (٣) . وقد فسر الاستاذ محمد عبد الله عنان هذه الظاهرة بقوله : أن المرابطين أثناء حكمهم للاندلس قد تمكنوا من إسقاط كافة الزعامات العسكرية والملكيات الطائفية ، أما الزعامات الفكرية ، فلم يتمكن المرابطون من التخلص منها وخاصة نفوذ الفقهاء ، فكان سلطان الأدباء والشعراء والفقهاء (والقضاة في شرق الاندلس) قويا للغاية مما منحهم الفرصة للتزعم على حساب المرابطين . هذا ، ويقول مارتينث إى مارتينث « لقد نعمت طبقة رجال الدين والفقهاء في عهد المرابطين ، فقد كان أمراء المرابطين آنذاك على درجة كبيرة من الورع ، كما كانوا لجهلهم بالعلوم يحرصون على أن يستلهموا سياستهم بمشورة الطبقة « الكهنوتية » ، ولهذا فإن الشعراء والفلاسفة وسائر أفراد الطبقة المستنيرة من الشعب بدأوا يضيقون لذلك ، وتاقوا إلى البلاطات الصغيرة في عهد ملوك الطوائف ..» (٤) وكلام مارتينث في حد ذاته منطقي وقوى إلا أن تعبيره عن الفقهاء المسلمين بالطبقة الكهنوتية فخاصىء للغاية ، فلا توجد طبقات كهنوتية أو رجال

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السرياء ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

Martinez Matinez, Historia de Badajoz, op. cit., p. 182.

(٤)

دين في الاسلام ، ورغم ان فقهاء الاندلس في عصر المرابطين كانت لهم مكانتهم الدينية ، الا أنهم لم يشكلوا أى طبقة متميزة ، يضاف الى هذا ان معظم كتاب عصر الطوائف وشعرائهم عملوا لدى المرابطين ابتداء من عبد الرحمن بن أسباط الذى يرجع أصله الى مدينة المرية ، وأبى بكر ابن القصيرة ، وأبى بكر بن عبد العزيز بن القبطرنة ، وابن عبدون من شعراء بنى الافطس في عصر الطوائف .

واذا كان اهل بطليوس هم الذين استدعوا المرابطين لتخليصهم من حكم بنى الافطس ، فانما حدث ذلك عندما ناكدوا فقط من خيانة المتوكل عمر بن الافطس لدينه ، فقد استعان بالفونسو السادس ضد المرابطين ، وتنازل له عن كل من اشبونة وشنترين وشنترة كما سبق أن ذكرنا .

ولم يكن هذا يعنى أن اهل الغرب وفي مقدمتهم معظم اهل بطليوس قد زهدوا في حياة الترف والنعيم التى كانوا يحيونها زمن الطوائف ، فبعد أن سيطر المرابطون على الاندلس ، وتبين الاندلسيون تقشفهم وجفاوتهم ، وظهرت لهم بداوتهم وخشونتهم وبعدهم عن مظاهر الترف التى كانوا يتمتعون بها في ظل ملوك الطوائف ، اندى الناس يدا وارقمهم مشاعر واجزلهم عطاء ، ضاقوا ذرعا بالحكم المرابطى وافنقدوا ايام ملوكهم في عصر الطوائف ، فاشعل الغرب ثورته التى كانت فاتحة الثورات في الاندلس كله ، واستدعوا الموحدين ، عسى أن يخلصوهم من غلظ المثلثين وجفوتهم .

حقيقة أن اهل الاندلس بوجه عام والغرب ويطليوس بالدات على وجه الخصوص لم يعترضوا على سلوكيات المرابطين في الفترة الاولى من حكمهم ، اذ كانوا لا يزالوا في بداية هذا العهد نحت تأثير انتصار الزلاقة ، الذى احيا الامل في نفوسهم واعاد لهم الاطمئنان والامن والسلام ، فلم تعد الطرق والمسالك محفوفة بالاعطار الناجمة عن قطاع الطرق (١) ، كما

(١) Martínezy Martínez, Historia del Reino de Badajoz, Op. Cit. p. 181.

أن المسيحيين لم يعودوا يلزمونهم بدفع الاتاوات ، وعلى هذا النحو تحسن الوضع الاقتصادي ، فالخبز كان يباع بأقل ثمن أو بثمن أكثر انخفاضا مما كان عليه زمن ملوك الطوائف .

ولكن الامر تغير في النصف الثاني من العهد المرابطى ، فقد افتقدت بلاد الغرب وموسطة الاندلس الامان بسبب اقدام مملكة قشتالة وليون على شن الغارات المتواصلة وكثر عيثهم في البلاد ، الامر الذى أدى بالتالى الى خروج عسكر المرابطين لتأديبهم ، مما ترنب عليه تعرض بلاد الغرب الى الاضطراب الداخلى والخراب والتدمير ، وقد ساعد ذلك ، على زيادة سخط الاهالى على المرابطين الذين عجزوا امام جماهير الاندلس عن مدافعة القشتاليين ، وتسببوا فيما أصاب بلادهم من اضرار ودمار .

ويورد الادريسي وصفا لعمران مدينة بطليوس زمن المرابطين فيقول « ومدينة بطليوس مدينة جليلة فى بسيط الأرض ، وعليها سور منيع وكان لها ريبض كبير أكبر من المدينة فى سرقياها ، فخلا بالفتن ٠٠٠ » (١) . ونستخلص من هذا الوصف ان ريبض بطليوس الذى كان يقع فى شرق المدينة تعرض للفتن والثورات فى عهد المرابطين ، ولم ينس الادريسي الى أسباب تلك الفتن التى ادت بالريبض الى الزوال ، ولم يرد فى المصادر العربية أى إشارة عن قيام ثوره أو فتنة فى ذلك الريبض ، ولهذا فيمكننا أن نتصور احتماليين ، الاول ، أن تكون تلك الفتن التى ذكرها الادريسي قد فامت فى أيام ابن قسى بعد أن دخلت كل من ميرتلة وبطليوس تحت نفوذه ، فيكون أهل بطليوس قد ناروا على المرابطين ، مؤيدين لابن قسى وذلك فى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤ م) والثانى أن تكون تلك الفتن قد وقعت فى عهد ابن الحجام ضد الحكم المرابطى أيضا وفى تلك الحالة تكون الثورة البطليوسية قد قامت فى اواخر عام ٥٤١هـ (١١٤٦ - ١١٤٧ م) وأوائل عام ٥٤٢هـ (١١٤٧ م) .

(١) الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ص ١٨١ .

وبالرجوع الى النقش الذى أشار اليه ليفى بروفنسال ، والذى سبق
أن تحدثنا عنه ، تجد أن الشهيدين ، البطليوسيين قد قُتلا على أيدي
المرابطين فى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤ م) كما ورد فى النقش ، ولهذا فأننا
نرجح أن الفتن التى قامت فى الربض ، والتى تحدث عنها الادريسي ،
قد وقعت فى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤ م) أى أثناء ثورة ابن قسى على الحكم
المرابطى ، بعد استيلائه على ميرتلة وبطلوريوس .

ويؤكد رأينا هذا النتائج التى توصل اليها العالم الاثرى فرناندو
فالدث Fernando Valdez أخيرا من أن هذا الجزء من مدينة
بطلوريوس ، واعنى به الربض لم يكن جبانة كما اعتقد البعض عقب
اكتشاف النقش المكتوب على شاهدى مقبرة الشهيدين البطليوسيين ، وإنما
كان يقوم به رباط خصصه اهله لقتال المثلثين الذين كانوا فى اعتقاد أهل
الانلس كفرة وجب قتالهم والجهاد ضدهم .

(٣)

بطليوس في عهد عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف

١ - نشاط حركة الاسترداد البرتغالي في الغرب :

أشرنا فيما سبق الى ان سقوط بطليوس في أيدي الموحدين حدث في حدود عام ٥٤٥هـ (١١٥٠ م) ، أي في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي (١) ، الذي عزم على الخروج في ١٠ ربيع الاول عام ٥٥٨هـ (١٩

(١) ، اختلفت الآراء حول خلافة عبد المؤمن بن علي على الموحدين ، فمن الآراء من ينسب الى المهدي بن تومرت ترشيح عبد المؤمن بن علي للخلافة الموحدية قبيل وفاة ابن تومرت بقليل ، مثل رأى ابن القطان ، ومنها ما يؤكد أن عبد المؤمن بن علي بويح بخلافة الموحدين في سنة ٥٣٤هـ ، (١١٣٩ م) ، بيعة خاصة وذلك عقب وفاة المهدي مباشرة ، وأن البيعة العامة لله لم تتم الا في عام ٥٢٧هـ (١١٣٢ م) . على أننا نأخذ برواية البيهقي التي تؤكد أن ابن تومرت توفى في الاربعاء أو الخميس الخامس والعشرين من رمضان عام ٥٢٤هـ (١١٢٩ م) فبويح عبد المؤمن بن علي في « السبت الاقرب من هذا التاريخ » ، وأن هذه البيعة استمرت ثلاثة أيام متوالية ، وتقترب رواية ابن أبي زرع من رواية البيهقي ، فهو يذكر أن بيعة عبد المؤمن بن علي تمت يوم الخميس الرابع عشر من رمضان عام ٥٢٤هـ (١١٢٩ م) وهي البيعة الصغرى أو الخاصة أما البيعة العامة فيذكر انها تمت في عشرين ربيع الاول من سنة ٥٢٦هـ (١١٣١ م) .

وهناك من المؤرخين من يأخذ بالرأى القائل بأن ابن تومرت أوصى بخلافة عبد المؤمن بن علي قبيل وفاته ، ومنهم عبد الواحد المراكشي . ويرى الاستاذ محمد عبد الله عنان أن عبد المؤمن قد تلقى بيعته قبيل وفاة ابن تومرت ، وأنه قد كتم نبأ وفاة المهدي حتى يتخلص من خلافات القبائل وتناقشهم على الخلافة وأن الموحدين حين راوا بداية اضطرام فتنة القبائل خوفا على الخلافة وحرصا عليها بادروا بمبايعة عبد المؤمن بن علي الذي كان أكثر الناس التصاقا بابن تومرت . ويرجع أصل عبد المؤمن بن علي الى قبيلة كومية وهي بطن من بطون زناتة ، سواء من جهة الام أو الاب ، فهو بربري أصيل ،

فبراير ١١٦٣ م) بنية الجواز الى الاندلس للقيام بغزوة أندلسية كبيرة للغاية (١) ، فنزل برباط الفنج ، ثم اسندعى الحاضرين ليستطلع آراءهم في الخطوات التالية ، وكان من بين الحاضرين ابو محمد سيدراى بن وزير الذى كان قد اوضح للخليفة الظروف السيئة التى تمر بها الاندلس ، فدولة البرتغال الناشئة فى ظل الفونسو انريكث لاتتوقف عن ضرب الجزء الغربى من الاندلس بلا هوادة ، لذلك فقد اقترح ابن وزير على عبد المؤمن بن على أن يوجه جيوسه وجهات أربعة « تكون جهة ابن الرنك بقلمربه (٢) اولاً ، وجهة الببوج (٣) ، بالسبطاط (٤) ثانية ،

ولما كان خليفة المهدي على الموحدين فلا بد أن يكون له نسب عربى ، ولذلك فان المصادر العربية مثل المعجب لعبد الواحد المراكشى تذكر أنه من ولد سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر ، فجده من العرب ، وقد نزل الى تلمسان ، هارياً من بعض الفتن بالاندلس فاننسب الى البربر بحكم الجوار والحلف ، هذا الى جانب أن هناك من أرجع نسبه الى آل البيت عن طريق أمه (انظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٦ - ص ١٩٧ ، أبو بكر على الصنهاجى المكنى بالبليذق ، أخبار المهدي بن تومرت ، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ١٩٧٥ ، ص ٧٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢١ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٦٨ . محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٢٢) .

(١) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٢٠ - ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، تحقيق أويشى ميراندا ، ص ٥٥ .

(٢) يسميه عبد الواحد المراكشى ابن الريق ، ويقصد بصاحب قلمرية ملك البرتغال لان قلمرية كانت حاضرة هذه الدولة الناشئة (عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٥٧) .

(٣) الببوج ، هو فرنانده ملك ليون Fernando II والبيبوج لقبه ، وهو لفظ محرف من الاسبانية el Baboso أى الذى يفرز كثيراً من اللعاب ، وكان يطلق على الحمقى من الناس ، وربما أطلق عليه لما عرف عنه من سرعة الغضب (راجع ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٢١٩ ، هامش ٣) .

(٤) السبطاط تعنى Ciudad أى مدينة ، ويقصد بها مدينة Ciudad Rodrigo وتقع شرقى قلمرية وغربى أبله .

وجهة اذفوننس (١) بطليطلة الثالثة وجهة برشلونة رابعة ٠٠٠ » (٢) .

فوافقه الحاضرون ، ومن هذا النص يتضح لنا أن عبد المؤمن بن على كان ينوى في تلك الآونة أن يسير أولا الى مملكة البرتغال الناشئة لمقاتلة ملكها الفونسو انريكث ، ثم الى ليون لمحاربة صاحبها فرناندو الثانى المعروف بالببوج ، ابن الفونسو السابع ريمونديس ، وبعد ذلك يتوجه الى قسنالة ، وكان ملكها في ذلك الوقت الفونسو الثامن ، الذى كان طفلا تحت الوصاية ، ثم يغزو بعد ذلك مملكة أرغون وبرشلونة وملكها الفونسو الثانى (٣) ، وهذا يعنى أن مملكة البرتغال كانت أكثر هذه الممالك خطرا على الاسلام فى تلك الآونة ، فقد كان الفونسو انريكث غاية فى الذكاء ، وقمة فى حرصه على انتهاز كل الفرص ، وفى الوقت الذى كانت فيه الاندلس تصطب وتتموج بالفتن وخاصة اقليم الغرب الذى افتتح الطريق الى الثورة على الحكم المرابطى ، نجد الفونسو انريكث يتأهب لاغتنام أى فرصة تسنح له للسيطرة على الاشبونة ، وكانت آنذاك إحدى القواعد الاسلامية الكبرى فى الغرب وأعظم مراكز الموحدين لشن الغارات على اراضى البرتغال ، فموقعها فى قلب البرتغال ، كان شكل خطورة على هذه المملكة الناشئة ، لذا ، فقد حاول الفونسو انريكث ، أن يقضى على تلك القاعدة الهامة ، ولما لم يكن لديه من الجنوش والقوات مايكفيه ، لاداء هذه المهمة الجبارة ، فانه استعان ، بحملة صليبية تتألف من عدد كبير من الانجليز والالمان والفلمنك ، كانت فى طريقها الى السرق لاحكام الحصار حول مدينة الاشبونة ، وكان ذلك فى أواخر عام ٥٤١هـ (١١٤٧م) واستمر حصار الاشبونة مدة طويلة للغاية امتدت الى عدة شهور ، ولكن حصانة الاشبونة ، حال دون سقوطها سريعا فى ابدى البرتغاليين وحلفائهم

(١) هو الفونسو الثامن ملك قسنالة ويلقب بالملك الصغير el rey chico

(٢) عبد الملك بن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ، الرباط ، ١٩٦٣ ، ص ٢٢٠ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، عمر المرابطيين ، ص ٣٩٤ .

الصليبيين، اذ كان يحوطها سور ، وتقوم بها قصبة منيعة ، وكان بابها الغربى فى غاية الاحكام ، فقد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وكان لها باب غربى آخر ، يعرف بباب الخوخة ، يشرف على سرح فسيح ، يشقه جدول ماء يصب فى البحر ، ولها باب قبلى يسمى باب البحر تدخل أمواج البحر فيه عند مدته ، وترتفع فى سوره ثلاث قبم ، وباب شرقى يعرف بباب الحمة . وباب شرقى أيضا ، يعرف بباب المقبرة . وقد دافع سكان الاشبونة عن مدينتهم خير دفاع ، ورغم شدة الحصار وامتداد أمده ، ورغم وجود الكثير من النعمت التى أنشأها العدو فى أسوار المدينة ، واصل أهلها صمودهم ، واستماتوا فى الدفاع ، ولكن دون جدوى ، فقد ضاعف البرتغاليون من ضرباتهم لاسيما بعد أن أخبرهم ملكهم الفونسو انريكث بأن المدينة غنية بالاموال والحلى والكنوز ، وانتهى الامر بأن اقتحم البرتغاليون المدينة من باب الحمة أو بابها الشرقى ، وأذرع النصارى فى المدينة نهبا وقتلا ، فقد كان بالمدينة من النعم والثروات ما فاق خيالهم وتصورهم ، وبطبيعة الحال فان أول خطوة بادر الملك البرتغالى فى اتخاذها تحويل المسجد الجامع بالاشبونة الى كنيسة وتنصيب أسقف للاشبونة ، وهو الاسقف جابرتو ، وتم ذلك فى جمادى الاولى من عام ٥٤٢هـ (٢١ أكتوبر سنة ١١٤٧ م) (١) .

ولم يكتف الفونسو انريكث بهذا الفتح العظيم ، فقد تمكن من الاستيلاء كذلك على مدينة شنترين والمناطق المحيطة بها ، ولهذا أصبحت مملكة البرتغال ، تشكل خطرا داهما على وحود الموحدين فى الاندلس (٢)

-
- (١) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٢٥ .
 (٢) ويذكر الفونسو العاشر فى المدونة الأولى العامة لاسبانيا « ان هذا الملك دون الفونسو أنتزع من المسلمين مدينتى شنترين وشنترية والاشبونة ، وبابرة والحش ، ومواضع أخرى كانت قريبة من أراضي المسيحية . ولقد استولى الفونسو على كل ذلك من ايدى المسلمين

خاصة وقد استولى الفونسو انريكث على قصر أبى دانس سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) بعد مضي شهرين فقط من محاصرته لها برا وبحرا ، ولم تأت أواخر سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) حتى كان نصارى شنترين قد تمكنوا من غزو مدينة باجة والاستيلاء عليها ، ومكثوا بها مدة أربعة أشهر ، عاثوا خلالها فسادا في ساحتها ، وهدموا أسوارها ، ثم رحلوا عنها (١) .

كانت بطليوس اثناء هذه السنوات المنصرمة على دخول الموحدین الاندلس مدينة مهددة بغزو وشيك من قبل مملكة البرتغال التي كانت تركز ضرباتها على اقليم الغرب . وكانت بطليوس حاضرة الغرب وقاعدة الثغر الجوفى منتهى أمل ملك البرتغال ، لذلك يمكننا أن نتخيل مدى العذاب الذى كان يشعر به أهلها في كل مرة تصلهم فيها أنباء اقتحام الجيوش البرتغالية لاراضى الغرب وسقوط بعض مدنه ، خاصة اذا علمنا أن بطليوس في تلك المرحلة بالذات كانت تعاني من اضطراب سياسى كبير عقب استشهاد صاحبها محمد بن على الحجام اثناء قتاله مع قوات الثائر ابن مردنيش وصهره ابن همشك وحليفهما مدار الأقرع ، المعروف في المصادر العربية بالغلج الذميم (٢) . وعلى اثر ذلك تعرضت لهجوم غادر

بفضل جهوده ، وبفضل أسلحته ، وكانت هذه المدن قد أخليت من سكانها منذ عهود مضت فأعاد تعميرها من جديد وتحصينها بأسوار منيعة ، تحميها من هجمات المسلمين . . . » .

«Este rey don Alffonso,, gano de moros a sacra Aren, Sintria, Vlixbona, Euora, Alanquer, et muchos otros logares que fueron et son a por de la tierra et de Cristianismo. Et esto gano este rey don Alffonso de moros, por su esfuerço et Fuerça de armas, et maguer que las çibdades et las publas dichas aulan yazido yermas et desertidas de luengo tiempo ya, poblolas el de nueuo et affortal-esiolas de muros por que se pudiesen tener bien contra moros...» (Primera Cronica General de España, P. 652).

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٣ .

(٢) هو حفيد البرهانس Alvar Fañez واسمه Alvar Rodriguez (انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ١٩١ ، وهامش

سنة عليها الفونسو انريكت ملك البرتغال في اول ربيع الثاني عام ٥٥٦هـ (٣٠ مايو ١١٦١ م) ، ونستند في هذا على نقش كتابى مسجل على شاهد قبر الفقيه أبى القاسم خلف الذى استشهد بشرقى جامع بطليوس على ايدى النصارى عندما فاجأ العدو بطليوس بهجومه الغادر . والشاهد لايعدو لوحة من الرخام (٥١ × ٣٢ سم) عثر عليها فى مدينة بطليوس فى عام ١٨٧٧م ونطالع فيها النص التالى : (بسملة . كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، هذا قبر الشيخ الفقيه أبى القاسم خلف بن حسن بن فرجون البكرى نور الله ظريحه وقده روحه . استشهد بشرقى جامع بطليوس حين غدر العدو لها فى صبيحة يوم الخميس اول يوم من ربيع الآخر عام ستة وخمسين وخمسمائة) (١) . ويؤكد ابن أبى زرع تلك الحقيقة عندما يذكر أن عددا من الموحدين بقيادة أبى محمد عبد الله بن أبى حفص قدموا من قرطبة وفتحوا حصن اطرنكش من أحواز بطليوس ، وقتلوا من به من النصارى . ويبدو أن هذا الحصن كان قد سقط مع بطليوس فى عام ٥٥٦هـ (١١٦٠ - ١١٦١ م) عندما تعرضت للهجوم البرتغالى ، ثم تمكن الموحدون من استرداد بطليوس فى نفس السنة ، بقول ابن أبى زرع : « وفى هذه السنة ملك الموحدون بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر ، فولى عليها عبد المؤمن محمد بن على الحاج » (٢) .

ثم تجمعت قوات ابن مردنيش ومن تابش معه من حلفائه الثوار وأبرزهم صهره ابن همشك وحليفهما مدار الاقرع فى اشبيلية ، فخرج اليهم السيد أبو يعقوب يوسف فى أنصاره من أمراء غرب الاندلس وفيهم ابن وزير وابن الحجام ، ودار القتال عنيفا وشديدا بين الطرفين ، وانتهى

= رقم ١) وقد سماه ابن أبى زرع فى روض القرطاس بالاقرع ، أما ابن عذارى فيكتفى بتسميته قائد الروم . (انظر البيذق ، أخبار المهدي بن تومرت ، حاشية ٣ ، ص ١٤٨) .

(١) Lévi • Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, t.I, PP. 59-60

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٣١ .

بهزيمة الامير ابي يعقوب يوسف ومقتل اتباعه ، وفي ذلك يقول البيهقي :
 « ومات في تلك الهزيمة محمد بن عمر الصنهاجي ، ويحيى بن ابي
 بكر بن الجد ، وعمر بن ميمون الهرغى ، وولد وسنار ، وابن على
 صاحب بطليوس ، وابن الغمر ، وعين الزجاج وابن وزير » (١) ويذكر
 الاستاذ عنان ان البيهقي وحده هو الذى انفرد بالاشارة الى هذه الوقعة ،
 ولكنه لم يحدد لها تاريخا ثابتا او يوما بعينه ، اما الاستاذ عبد الحميد
 حاجيات ، محقق كتاب البيهقي ، فيحدد تاريخها بعام ٥٥٧هـ (١١٦١م) ،
 وذلك بعد استرجاع ابي سعيد لمدينة قرمونه ، وقبل استيلاء ابن همشك
 وابن مردنيس على غرناطة (٢) . غير ان كوديره يؤكد ان ابن الحمام
 استشهد بنظر اشبيلية في سنة ٥٥٣هـ (١١٥٨ م) (وليس في عام ٥٥٧هـ
 كما يذكر د. حاجيات) في نفس الوقت الذى استشهد فيه ابو الغمر بن
 عزون (٣) .

وبرجعونا الى البيان المغرب لابن عذارى نجده يورد خبرا عن وقعة
 تسمى زغبولة دارت في عام ٥٥٢هـ (١١٥٧ م) وأسفرت عن استشهاد
 ابن الحمام ، وفيما يلى نص ابن عذارى : « وفي سنة اثنين وخمسين
 وخمسمائة كانت وقعة زغبولة على مقربة من اشبيلية على السيد ابي
 يعقوب يوسف ابن الخليفة ، وذلك ان النصارى اهلكهم الله غنما نظروا
 اشبيلية ، فأمر السيد ابو يعقوب بوصول ميمون بن حمدون الوالى على
 شلب والبلاد التى كانت بيد ابن وزير ، ويستعجل بعسكر الغرب ، فوصل
 اليه ، فاستعجل السيد الى حربهم ومقارعتهم ، وبرز اليهم بعسكر
 اشبيلية ، فلقى النصارى بحصن زغبولة ، فدارت الحرب بين الكفرة
 والمسلمين ، فمال الناس وأجفلوا من مواقفهم ، وانهزموا عن السيد
 بجمعهم ، واستشهد في المعركة ابن عزون ، ومحمد بن على الحمام ،

(١) البيهقي ، اخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٤٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، حاشية ٦ .

Codera, Decadencia y desaparición, p. 162.

(٣)

وجملة من أشياخ الموحدين . . . وفز ابن وزير بجواد معار من أحد قراياته» (١) .

وبمقارنة نص البيذق بنص ابن عذارى نجد أن كليهما يتفق على أن ابن الحجام لقي مصرعه في هذه المعركة التي خاضها ضد النصرانية في أشبيلية وأن الذي كان يتولى قيادتهم فيها السيد أبو يعقوب يوسف ، أما وجه الخلاف بينهما فيتلخص في النقاط التالية :

١ - لم يذكر البيذق تاريخ هذه المعركة ولم يحددها زمنيا وإن كان الاستاذ حاجيات محقق النص قد حدد التاريخ بسنة ٥٥٧هـ (١١٦١ - ١١٦٢ م) .

٢ - ذكر البيذق أن هذه المعركة دارت بين الموحدين وبين أعدائهم من ثوار شرق الأندلس وهم ابن مردنيش وابن همشك وأنصارهما من النصاري بقيادة مدار الأقرع ، بينما يؤكد ابن عذارى أن المعركة دارت بين الموحدين وبين النصاري المهاجمين لأشبيلية .

٣ - ذكر البيذق أن ابن وزير لقي مصرعه مع جملة من استشهد في هذه المعركة .

لذلك كله نميل إلى الأخذ برواية ابن عذارى حيث أنه أكثر ثقة بها أن روايته أكثر تمشيا مع مجرى الأحداث المقبلة . فابن وزير لم يقتل في تلك المعركة بدليل أن اسمه سيكرر في السنوات المقبلة ، حيث سيكون له شأن كبير في أحداث كثيرة قادمة ، وهذا يتفق مع ما ذكره ابن عذارى ، وبهذا يكون نص ابن عذارى أكثر دقة وأولى بالثقة .

ومع ذلك فإننا نعتقد أن النص الوارد في البيذق عن اشتراك ثوار

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٣٨ .

شرق الأندلس في مهاجمة الموحدين يتفق مع رواية ابن صاحب الصلاة، الذي يؤرخ ذلك الحادث بسنة ٥٥٧ هـ ، (١١٦١ - ١١٦٢ م) ، ولكن ابن صاحب الصلاة وهو مصدر ثقة يؤكد أن المعركة دارت في الموضع المعروف بمرج الرقاد Majorrocal ويقع على بعد نحو أربعة أميال من غرناطة ، وأن قائد الجيش الموحدى الذى قتل هو الشهيد أبو محمد عبد الله بن أبى حفص (١) . وعلى هذا الأساس يصبح المقصود بابن على صاحب بطليوس الوارد اسمه بين القتلى عند البيهقي هو محمد بن على الحاج الذى كان عبد المؤمن قد ولاه على بطليوس بعد أن استردها الموحدون . وبمقتل ابن الحجام فى عام ٥٥٢ هـ (١١٥٧ - ١١٥٨ م) وتعرض باجة لهجوم نصارى شنترين ، وتعرض بطليوس نفسها لانتحلال البرتغاليين فى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦٠ - ١١٦١ م) لفترة قصيرة ، ثم استشهد واليها محمد بن على الحاج فى سنة ٥٥٧ هـ نكون قد أوضحنا بعض الشئ الصورة القائمة التى كانت عليها بطليوس فى تلك الآونة . فلم تكن حاضرة الغرب وأهم قواعده فحسب ، وإنما كانت من أهم مراكز المناطق اللغرية فى الأندلس بأسره ، وأكثر مدن الغرب تعرضا للسقوط .

ولم يمهله الموت عبد المؤمن بن على لتأمين بلاد الغرب ، وتحرير شنترين ، فقد مرض مرض الموت بعد أيام قليلة من حلوله برباط الفتح ، « ولما تمادى المرض ، أمر أمير المؤمنين رضى الله عنه ، بناسقاط محبته الذى كان ولى العهد من الخطبة ، يوم الجمعة الثانى من جمادى الآخرة من العلم للمؤرخ » (٢) ، لأنه علم بأن ابنه محمدا يقبل على شرب الخمر مما يجعله يخرج مضمورا أمام الناس ، فيرتكب من الأعمال ما يشينه ويشين أباه ، « وفى فلك يقول صاحب المعجب : « فأبى - تمام هذا الأمر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لاتصلح معها الخلافة من ادمان شرب الخمر ، واختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس . ويقال أنه

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ١٩٢ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٢٢١ .

مع هذا كان به ضرب من الجذام ، فالله أعلم « (١) . وقد طلب عبد المؤمن من ولده أبى حفص أن يبذل فصارى جهده لاختد البيعة لآخيه الأصغر أبى يعقوب ، ثم ما لبث أن تمكن المرض من عبد المؤمن بن على ، فتوفى ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣ م) (٢) .

وبويع للامير أبى يعقوب يوسف فى مدينة سلا ، ثم رحل الى مراكش حيث نزل بدار الخلافة ، وولى اخاه أبا حفص الشئون السلطانية والحجابة (٣) .

ب - الصراع بين البرتغاليين والليونيين حول بطليوس :

فى خلافة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بدأت مملكة البرتغال سلسلة جديدة من الغزوات المنظمة على بلاد غرب الاندلس ، وكان الملك الفونسو انريكث قد استعان بفارس مغامر شجاع لايبالى بأى مبادئ أو قيم فى سبيل تحقيق مآربه ، هذا الفارس هو خيرالدو سيمبا فور Gerald Sem Pavor اى خيرالدو الشجاع ، وتطلق عليه المصادر العربية كالبيان المغرب والمن بالامامة وكتاب العبر اسم « العليج جرانده الجليقى » . وحياة خيرالدو تذكرنا الى حد كبير ب حياة السيد الكنبيطور ، ذلك الفارس المرتزق المغامر الذى كان يعمل فى خدمة المسيحيين والمسلمين على السواء ، فقد كان خيرالدو على حد تعبير الاستاذ عنان (٤) ، قاطع طريق أو رئيس عصابة للسلب والنهب ، وجد مجالا خصبا لنشاطه فى الظروف التى كانت سائدة آنذاك فى بلاد الغرب الاندلسية « ولذلك فان البرتغاليين يطلقون عليه اسم « السيد البرتغالى »

-
- (١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٣٦ .
 - (٢) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣٩٤ .
 - (٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٥٩ - ابن صاحب الصلاة ، كتاب المن بالامامة ، ص ٢٣٢ .
 - (٤) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٢٦ .

لتشابه أعماله مع أعمال السيد الكنبيطور : فجرانده اكتسح أراضي الاسلام في الغرب ، وعبث فسادا ونهبا وقتلا ، والسيد الكنبيطور اجتاح بلنسية وطغى وبغى واحرق قاضيها ، وكلاهما كان يشجعه ملك منيحي ، فالقونسو السادس كان وراء أعمال السيد التخريبية ، والقونسو انريكت كان وراء جرانده يساعده ويمده بالاموال والمؤن والرجال لقنال المسلمين وفي ذلك يقول ابن عذارى : « كان هذا الكلب جرانده صاحب جراحة ، فلما عاين ابن الرنك نجدته وتيقظه لغدر البلاد والحصون اعانه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين » (١) . كذلك كان رأى ابن صاحب الصلاة فيه اذ يقول : « وكان أدفونش بن الرنك (Alfonso Enriquez) الغادر الخليقي ، صاحب قلمرية لعنه الله ، قد عاين من نجدة هذا الكلب جراندة وتيقظه لغدر البلاد والحصون ما اعانه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين في الثغور بأوجاله » (٢) . وقد وصف لنا كل من ابن صاحب الصلاة وابن عذارى وابن خلدون الطريقة التي كان يستولون بها جرانده على مدن غرب الاندلس ، فكان هذا المغامر البرتغالي ينتقى اشد الايام برودة وظلاما لينفذ فيها خططه العسكرية القائمة على الغدر والتسلل في الخفاء ، فكان قد اعد آلات من السلالم المتخذة من العيدان الطويلة لتساعده على تسلق اسوار المدن ، فاذا ما تمكن رجاله من ارتقاء السور الى ذروته ، نزلوا الى باب المدينة ، وهاجموا حاميتها ، وفتحوا الباب لعسكر البرتغاليين الذين كانوا يصيحون بلغتهم البرتغالية صيحات مخيفة قوية عند اقتحامهم المدن الاسلامية تمهيدا للاستيلاء عليها واستباحتها ، « فغدر جراندة العليج المذكور - لعنه الله - أولا من غدراته مدينة ترجالة (Trujillo) سنة ستين . (٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) ثم مدينة يابرة (Evora) في ذى القعدة من السنة ، وباعها من النصاري ، ثم غدر مدينة قاصرش (Caceres) في صفر سنة احدى وستين ، ثم غدر حصن منتانجش (Montanchez) في جمادى الآخرة من السنة ، ثم غدر

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٧٨ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٣ .

حصن جلمانية (Jurumenha) على مقربة من بطليوس، وسكنه بجملته الذميمة يفاتن بطليوس، ويؤذى المسلمين فيها حتى مكن سيف الخليفة منه « (١) ». ونستنتج من هذا النص أن نفوذ جراند بلع حدا كبيرا، فقد استولى على ترجاله ويابره في عام ٥٦٠ هـ، الأولى في جمادى الأولى من هذا العام، والثانية في ذى القعدة منه (٢)، كما تمكن من الاستيلاء على قاصرش في صفر سنة ٥٦١ هـ (١١٦٦ م)، ثم استولى على حصن منتانجش في جمادى الثانية من عام ٥٦١ هـ (١١٦٦ م)، وكذلك على جلمانية وحصن شيريه Serpa الواقع جنوبي بطليوس (٣). وكانت كل تلك المدن والحصون في نظر جراند وابن الرنك (الفونسو انريكث بمثابة القنطرة التي يعبرون عليها إلى بطليوس، أهم قواعد المغرب في الاندلس، فكانت بطليوس الهدف الرئيسى الذى يهدفون إليه. وقد عبر ابن عذارى عن هذه الرغبة بوضوح في نصه السابق، كما عبر عنه ابن صاحب الصلاة بقوله: « ثم غدر حصن جلمانية على مقربة من بطليوس وأسكنه بجملته الذميمة يفاتن منه بطليوس، يؤذى المسلمين فيها، حتى مكن الله سيف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين منه على ما ذكره بعد هذا في موضع ذكره، ثم غدر مدينة بطليوس » (٤). ولهذا السبب تم إرسال حملة موحدية كبيرة قوامها خمس مائة فارس إلى بطليوس في سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ - ١١٦٥ م) لحماية صيقتها، « ويسر الله لهم غزو شرذمة ذميمة كبيرة من النصاري أهل شنترين، أعادها الله، وهزموهم وغنموهم، واستأصلوهم قتلًا وسبياً، فكان ذلك عنوان الفتح لما يذكر بعد في هذه الغزوة... » (٥).

نذب أبو يعقوب يوسف في أواخر سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨ م) أخاه

-
- (١) ابن عذارى، البيان المغرب، القسم الثالث، ص ٧٨، ٧٩
 (٢) ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالامامة، ص ٣٧٣.
 (٣) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر السابق، ص ٣٧٤.
 (٤) نفس المصدر، ص ٣٧٤.
 (٥) نفسه، ص ٢٧٠.

أبا اسحاق إبراهيم نيكون، واليا على قرطبة التي كانت يدون وال منحه
أن تركها واليها السابق السيد أبو سعيد عائدا إلى مراكش ، وكان عبور
أبي اسحاق فاتحة خير للجهاد ضد مملكة البرتغال الناشئة على حساب
أراضي غرب الأندلس .

ثم وقع في أواخر عام ٥٦٣هـ (١١٦٧م) ، حادث كان له بالغ الأثر
فيما بعد - في سياسة مملكة البرتغال تجاه بطليوس ،
فقد وفد فرنانده (وهو فرناندو رودريجث Fernando-Rodriguez
صاحب ترجمة) صهر فرنانده البيوج ملك ليون (وهو فوناندو الثاني
الملقب بالسليطن) وزوج اخته بشت القوسو السابع ريموندس ، وفد مع
أخوته إلى أشبيلية « راغبا أن يكون خديما لأمير المؤمنين بن أمير
المؤمنين - أيدهم الله - منابذا لشيعة الكافرين » ، فاستأذن له الموحدون
الذين بأشبيلية حضرة أمير المؤمنين بمراكش (١) . وقد أحسن
الخليفة أبو يعقوب استقباله بعد أن أذن له بالقدوم إليه بأصحابه وأخوته ،
وأقام فرنانده رودريجث هناك مدة خمسة شهور ، نعم خلالها بجزائل
العتاء ، وبألح الحفاوة ، مما أثر في نفسه كل التأثير إلى حد أنه « كاد
أن يسلم ، وعاهد الله في نصح الأمر بالخدمة المجدة واستسلم وأضمن
عن نفسه عن ثغور بلاد الموحدين ، وأن يكون ردا لهم ، حليفا
للمسلمين (٢) » ، ثم عاد « فرنانده راييس النصراني » ، كما يسميه
ابن صاحب الصلاة إلى بلاده بعد أن أمر الخليفة أبو يعقوب بأن يشمل
الموحدون بكل الرعاية .

وقد ترتب على هذه الزيارة التي قام بها فرنانده راييس (رودريجث)
أن تم عقد هدنة بين فرنانده الثاني البيوج ملك ليون وصهر فرنانده

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٦٩ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٧١ .

رودريجت وبين أبى يعقوب يوسف خليفة الموحدين ، وتعهد فرنانده الثانى بأن يكون مع الموحدين عوناً لهم بعسكره على أعدائهم .

وإذا أردنا أن نلم بكافة الخلفيات لهذا الوضع السياسى ، فيجب أن نوضح أن العلاقة التى كانت تربط بين ملك ليون فرنانده الثانى وبين ملك البرتغال الفونسو انريكث ، كانت متوترة للغاية ، رغم أواصر القرابة والمصاهرة التى كانت تربط بينهما ، ففرنانده الثانى ملك ليون كان متزوجاً من أراكه Urraca بنت ملك البرتغال ، ولكن فرنانده الثانى كان دائماً الطمع فى أراضى مملكة البرتغال الناشئة ، إلى جانب حسده لملكها الفونسو انريكث لما أحرزه من انتصارات عديدة على الموحدين فى بلاد غرب الأندلس . ثم أن فرنانده الثانى كان يدرك الأهداف البعيدة من وراء هجمات الفونسو انريكث على غرب الأندلس ، وهى الاستيلاء على مدينة بطليوس التى كان ينظر إليها ملك ليون على أنها ستصبح من خاصة ممتلكاته فى حالة إذا ما استردها من أيدي المسلمين ، ولذلك فقد عمد إلى تحصين مدينة السبباط المسماة بثيوداد رودريجو^(١) Ciudad Rodrigo لتكون قاعدة له يغير منها على مملكة البرتغال .

وكان أول مظاهر التحالف الذى تم بين دولة الموحدين ومملكة ليون قيام الموحدين بتزويد فرنانده الثانى بقوة كبيرة من عسكر المسلمين لقتال القمط نونة (نونيو بيريث دى لارا) حاكم طليطلة^(٢) . وقد

(١) عرفت مدينة Ciudad Rodrigo بالقشتالية القديمة بـ Cíbdad ومنها حرفت التسمية العربية السبباط ، فقد كانت أغلب المصادر العربية تلقب ملك ليون بصاحب السبباط ، وأحياناً بصاحب السبباط وآبله ولبون وسمورة .

(٢) أنجب الفونسو السابع ريموندس من البنين كلا من شانجه الثالث أكبر أولاده وكان ملكاً على طليطلة ، وفرنانده الثانى الذى ولى مملكة ليون وعرفته المصادر العربية باللبوج ، أما شانجه الثالث

اشترك مجموعة كبيرة من كبار قادة الموحدين في القتال الى جانب ملك ليون ضد خصومه ، ومن هؤلاء القادة أبو العلاء بن عزون ، والحافظ أبو علي عمر بن تمصيلت ، وقد حاربوا معه حتى فصلوا حدود استوريش ، ثم عادوا وقد كسبوا صداقة هذا الملك الذي تعهد بمساعدة الموحدين ضد أعدائهم ، وكان ذلك الوعد هو الذي حمى مدينة بطليوس من بطش البرتغاليين في حملتهم سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) .

ملك طليطلة فقد كان رشح للحكم أثناء حياته ولده الطفل الصغير ، وبدلاً من أن يسند نيابة الحكم لفرنانده الثاني ملك ليون وعم الطفل ، أسندها لأحد أفراد أسرة كاسترو ، مما أثار حفيظة أسرة دي لارا النى التجأت الى فرنانده الثاني ليقوم بحماية ابن أخيه (الطفل) من آل كاسترو . ولم يتزدد فرنانده الثاني في اجتلال معظم قشتالة ، وأعلن الوصاية على ابن أخيه في سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م) . ولكن الأمور لم تستقر بينه وبين أسرة لارا ، وبعد سلسلة من المفاوضات التى تلتها حروب ، نشبت حرب جديدة قتل فيها المانريش دي لارا سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م) مما دفع أخاه القمط نونة الى اعلان نفسه وصيا على عرش قشتالة ، واستولى بقواته عنوة على طليطلة الحاضرة منادياً بالملك الطفل ، فاضطر فرنانده الثاني الى الانجاء الى الموحدين لمحاربة نونة (أنظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٠ ، هامش ٥ - يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ص ٣٧١) . ويعبر ابن صاحب الصلاة عن ذلك بقوله : « وذكر انه كان بينه (أى بين فرنانده الثاني ملك ليون) وبين القمط نونة ظئر ابن أخيه أذفونش الصغير صاحب طليطلة - خربها الله - فتنة ملتحمة على منازعة ملكهم ، وأكد الرغبة مع صلحه في عسكر من عساكر الموحدين ، أعزهم الله ، يبعث به اليه الى مدينته بالسبطاط ليقا تل بهم نونة القمط المنازع له عن ابن أخيه في بلاده ، فأمر له أمير المؤمنين - رضى الله عنه - بعسكر اتبيلية ، فمضى عليه مقدما الشيخ الناصح الموحد أبو العلاء بن عزون ، والحافظ أبو علي بن تمصيلت ، والحافظ أبو عمران موسى بن حمو ، ووصلوا اليه بالعسكر المؤيد الى بلاده ، وقا تلوا أعداءه ببلاد قشتالة ، ووصلوا الى أقصى نظره ببلده استريش ، وغزوا من حاربه وسالموا من سالمه ، واقاموا عنده في هذه الغزوة خمسة أشهر ، ثم انصرفوا عنه سالمين ماجورين ، وقد اغتبط بنصرهم ، وارتبط للصلح الذى ربطه بأمرهم ٥٠ » (أنظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١) .

جـ - سقوط بطليوس في أيدي البرتغاليين سنة ٥٦٤هـ واستنقاذها على أيدي الليونيين، في نفس السنة :

سبق أن ذكرنا أن الفونسو انريكث أصبح قريبا من بطليوس إذ استطاع، عن طريق حليفه الفارس المغامر جرانده الجليقي (خير الدو سمبافور) أن يستولى على معظم قواعد الغرب الإسلامية المحيطة ببطلبيوس ، بل أن استيلاءه على حصن جلمانية أصبح يعرض بطليوس للخطر . وكان الفونسو انريكث قد وضع خطته للاستيلاء على بطليوس وقد رأفاه يحاول الاستيلاء عليها في سنة ٥٥٦هـ . (١١٦٠ - ١١٦١ م) ، ويشير الاستاذ عنان الى الاوضاع الداخلية في بطليوس بأنه لا يعرف الظروف التي كانت عليها بطليوس في تلك السنة ، وأنه ليس متأكدا اذا ما كان ابن الحجام مايزال يتولاها أم ان واليا آخر قد أسدت البه ولايتها (١) .

والحقيقة ، كما سبق أن أوضحنا ، أن بطليوس كان يتولاها منذ أن استردها الموحدون وأل يقال له محمد بن علي الحاج ، الذي اسنشهد في سنة ٥٧٧هـ (١١٦١ م) وظلت بطليوس غاية الفونسو انريكث ، ومنتهى أمره ، بعد أن فشل في الاحتفاظ بها لفترة طويلة ، وأثر أن ينتظر الى فرصة مواتية تمكنه من الظفر بها .

وجاءت اللحظة التي كان ينتظرها الفونسو انريكث بعد أن نجح في الاستيلاء على ترجاله ويابرة سنة ٥٦٠هـ ، وقاصرش في صفر سنة ٥٦١هـ . وحصن منتانجش في جمادى الاولى سنة ٥٦١هـ ، وحصن شيريه في نفس الشهر ، وحصن جلمانية الواقع على مقربة من بطليوس في تاريخ لاحق ، وكان قد مضى على استيلائه على الاشبونة وشنترين نحو

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٦٣ ، ٣٧٠ .

عشرين عاما ، فبدا له أن مهمته قد أصبحت سهلة ميسورة ، وإن الامور قد تهيات تماما لتنفيذ خطته . . وكان يتولى بطليوس في تلك الاثناء واليها الجديد أبو علي عمر بن تمصيلت (١) « الذي ولى أمرها بعد مقتل ابن علي الحاج . وما كاد ابن تمصيلت يعاين عظم جيوش جراندو الجليفي وهي مقبلة على بطليوس في سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) بهدف الاستيلاء عليها ، حتى بادر بالامتناع بقصبتها الحصينة ، وأرسل يستنجد بالموحدين ، موضحا لهم الوضع الحرج الذي تجتازه المدينة ، خاصة بعد وصول الملك الفونسو انريكث بنفسه على رأس قواته ، واشترآكه مع جراندو في التضييق على الموحدين في الفصبة ، واقتحام بعض قواته للمدينة نفسها .

وكان الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف على علم كامل بخطورة الموقف في غرب الاندلس منذ أن بلغة سقوط ترجالة وقاصرش وجلمانية في يد الملك البرتغالى ، ولذلك فقد قرر إرسال جيوشه الى غرب الاندلس لوضع حد لهذا العيث في تلك المنطقة الثغرية الحساسة من بلاد غرب الاندلس ، « وقصد العمل في ذلك بنية الجهاد لله عز وجل ، واشفاقا على المسلمين ، ودفاعا عن الدين ، حين رأى العدو قد فغر عليها فما ،

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٠ . وكان أبو علي بن تمصيلت من بين الحفاظ الذين اصطحبهم أبو عبد الله بن أبي ابراهيم بن الشيخ أبي ابراهيم صاحب المهدي بن تومرت الى اشبيلية حين عين واليا عليها ، وكان يصحب ابن تمصيلت من الحفاظ : عبد الله بن يعقوب ، ويعيش الجدميوى ، وأبو العيش من أهل كومية ، ومحمد بن عمران وابن تيقشليت ، وكان ابن تمصيلت هذا من كبار قادة الموحدين ، وقد ظل يتنقل بين الاندلس والحضرة العلوية في خدمة الدولة ، ثم نصب واليا على بطليوس بعد عام ٥٦١هـ (١١٦٦م) وظل واليا عليها حتى أقدم الفونسو انريكث على محاصرته ومن معه من الموحدين داخل القصبية . ثم تقلد ولاية باجة في سنة ٥٧٠هـ بعد أن تولى الموحدون ترميمها ، وكان ابن تمصيلت أحد القادة الذين شاركوا في مقاتلة القمط نونة (دى لارا) تأييدا لفرنانده الثاني كما سبق أن أوضحنا (انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٧٩) .

وأسأل دموع أهلها دما ، فنظر عسكر ضخم ، مبارك شهم ، اختاره من الموحدين ، ووجهه صحة الشيخ المرحوم أبى حفص عمر بن يحيى الى قرطبة تقدمة منه لما امله فى نفسه من جواز الموحدين معه ٠٠٠ وتيمن أهل الاندلس بوصله وحلاله ٠٠» (١) ، وقد كان العامل الرئيسى الذى دفع خليفة الموحدين الى الاهتمام بغرب الاندلس وصول خبر هجوم البرتغاليين على بطليوس وحصارهم لابن تمصيلت ومن معه من الموحدين فى القصبه (٢) . ويسوق ابن صاحب الصلاة رواية على لسان أبى محمد سيدرائى بن وزير فى نبربر تدخل قوات الموحدين ، جاء فيها : « كان السبب فى تعجيل حركة الشيخ المرحوم أبى حفص الى الاندلس بالعسكر المبارك من حضرة مراكش وصول الخبر بغدر اللعين جرانده الجلفى بطليوس ، وتملك ابن الرنك الغادر صاحب قلمرية لها ، وحصر الموحدين الذين فيها قصبته مع حافظهم أبى على عمر بن تمصيلت ، وذلك فى شهر رجب الفرد من عام أربعة وستين وخمس مائة المؤرخ به (ابريل ١١٦٩) وانهم فى ضيقة من الحصار ، وتحت أجل من الكفار » (٣) . ويذكر ابن عذارى ان الخليفة أبى يعقوب يوسف أمر بضرب الطبول والخروج من مراكش الى الاندلس بمجرد أن علم بحصار البرتغاليين لبطليوس وواليها ورجاله من الموحدين ، ويعبر عن ذلك بقوله : « وركب من فوره ، فخرج من مراكش ونزل وادى تنسيفت عازما على الغزو الى الاندلس ، فأقام به ثلاثة أيام على هذه النية ، فاجتمع رأى الموحدين أن يتقدم أبو حفص المذكور بالعسكر » (٤) . وبستطرد ابن عذارى قائلا ان الخليفة « خاطب أهل الاندلس برسالة كريمة من انشاء أبى الحسن ابن عباس شرح فيها الاحوال المعربة عن الآمال ، فكان أبو حفص على

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٧٩ ، وقارن : ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٤ .

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٧٥ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٠ .

ما ذكرناه ، وكانت حركته في شهر ربيع الآخر من سنة أربع وستين ، وهو تاريخ الكتب المذكور » (١) . ومن هذا النص يتضح أن أبا حفص قد عبر الى الاندلس بعد تلفيه هذه الرسالة أي في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨ - ١١٦٩ م) وهذا يعنى أن هذا الجيش الموحدى قد اعد للعبور الى الاندلس ، وأنه قد جاز بالفعل قبل الهجوم البرتغالى على بطليوس بنحو ثلاثة شهور . ويعلل الاستاذ محمد عبد الله عنان ذلك بقوله : « ليكون طليعة لحركة الجهاد الكبرى ، ويطمئن أهل الاندلس بوصله ، وأنه فوجىء بحوادث بطليوس اثناء وجوده باشبيلية » (٢) . ويورد ابن صاحب الصلاة (٣) نص رسالة الخليفة الموحدى ، الى أهل الاندلس ، كاملة ، ويؤكد أن انصراف الجيوش الموحدين من المغرب وعبورها الى الاندلس قد تم في شهر ربيع الآخر من عام ٥٦٤هـ (١١٦٩ م) ، وبهذا يؤكد لدينا أن الموحدين قد عبروا الى الاندلس في هذا التاريخ بناء على الامر الصادر من الخليفة يوسف الذى أراد أن يتفرغ للاهتمام بالاندلس بعد أن قضى على الفتن التى كانت تؤرقه في المغرب ، وقد استقرت هذه القوات الموحدية بقيادة الشيخ أبى حفص فى اشبيلية ، ولم تتحرك من اشبيلية الى بطليوس الا بعد ما يقرب من ثلاثة شهور .

غير أن تسلسل الاحداث لا يستقيم بهذه الصورة ، فكيف يستولى ملك البرتغال على مدينة بطليوس وبأصر قصبتها فى شهر رجب سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩ م) ، ثم يبلغ الخليفة خبر غدر البرتغاليين ببطلليوس فى وقت كان مشغولا فيه ببعض الفتن ، فيتباطأ فى توجيه النجدة الى أن يقضى على الفتن ثم يرسل جيشا من المصامدة يجوز الى الاندلس فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ أى قبل شهر رجب الذى حوصرت فيه قسبة بطليوس بنحو ثلاثة أشهر ؟ فكيف يصل الى علمه واقعة حدثت بعد

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٤ .

(٣) راجع نص الرسالة فى كتاب تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٧ .

وصول قواته الى الاندلس بثلاثة اشهر ؟ ونعتقد ان هناك ثمة خطأ في تاريخ الحصار البرتغالي لقصبة بطليوس ، ونرجح ان يكون التاريخ الصحيح هو شهر رجب من سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ - ١١٦٨ م) بدلا من سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) ، وبهذا يمكن تفسير وصول الحملة التي أرسلها خليفة الموحدين الى الاندلس متأخرة ، بسبب الفتن التي شغلته عن الجهاد في الاندلس ، ويؤكد رأينا هذا قول ابن صاحب الصلاة : « وكان من يمن هذا العسكر المبارك » (الذي أرسله الخليفة) انه لما وصل اشبيلية سالنا صحبة الشيخ المرحوم أبي حفص بينما هو عازم على الحركة لغوث المسلمين ودفاع الجند الغادر ابن الرنك - لعنه الله - عن غلبته على مدينة بطليوس وحمايته للموحدين المحصورين بقصبتها ، وهو قد أعد واستعد لذلك . . . » (١) . ونستدل من هذا النص على ان بطليوس كانت قد احتلت بالفعل وأن قوات البرتغاليين كانت تحاصر بطليوس منذ فترة طويلة .

وعلى الرغم من احكام الحصار البرتغالي حول قصبة بطليوس ، فقد كان في وسع ابن تمصيلت الممتنع بالقصبة الصمود أمام حصار طويل الاعد ، بسبب حصانة القصبة وصعوبة اقتحامها ، وكان يحذوه الامل في ان تصله نجدات من اشبيلية في وقت قريب . ومن الغريب ان النجدة التي كان يترقبها ابن تمصيلت وصلت بالفعل ، ولكن ليس من ابناء ملته وجنسه وانما من ملك ليون ، وفي ذلك يقول ابن عذارى : « اذا البشير قد وصل معلما بان البيوج بن اذفونش المعروف بالسليطن صاحب مدينة السبطاط وآبله ولبون وسمورة قد وصل بخبله ورجاله حاميا للمسلمين ، ودافعا لضيقة الكافرين عن مدينة بطليوس طاعة منه الى الخليفة » (٢) .

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٨٠ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٠ .

وقبل أن نسترسل في وصف بقية الأحداث ، علينا أن نفسر موقف
فرنانده الثاني ملك ليون من البرتغاليين الذين كانوا يحاصرون بطليوس ،
ولقد سبق أن أوضحنا أن تنافسا شديدا بين الملكين فرنانده الثاني الليونى
والفونسو انريكث البرتغالى كان قائما بينهما بسبب تمسك فرنانده الثاني
بدعوى سيادته على المملكة البرتغالية الناشئة بحجة وراثته لها عن والده
القيصر الفونسو السابع ريموندس ، وبطبيعة الحال رفض الفونسو انريكث
هذه الدعوى من قبل ملك ليون ، وعزم على التصدى لاطماع فرنانده
في بلاده ، لذلك فقد بادر بالهجوم على مدينة رودريجو (السبطاط)
التي كان فرنانده الثاني قد انشأها لتكون منطلقا لشن غاراته على
البرتغال . ودارت بالفعل معركة عنيفة بين الجانبين ، أسفرت عن هزيمة
البرتغاليين ووقوع عدد كبير منهم في أسر الليونيين . وجاء رد الفعل
البرتغالى سريعا ، فقد شن الفونسو انريكث هجوما ساحقا على اراضى
مملكة ليون ، واستولى في ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) على مدينة توى Tuy
ثم على مدينتى لمبا وترونيو ، ووضع فيها حاميات برتغالية ، وبرر
سلوكه ازاء مملكة لبون بأن تلك المدن التى استولى عليها كانت فيما
مضى ملكا لامة الملكة تيريسا ، تلقتها عن والدها الفونسو السادس كهدية
لزوجها . ولما كان شانجه الثالث ملك قشتالة وشقيق فرنانده الثاني ملك
ليون قد عقد اتفاقا مع اخيه عقب وفاة والدهما الفونسو ريموندس ،
بقضى بتقسيم اراضى الاندلس (اسبانيا الاسلامية) الى منطقتى نفوذ ،
يختص كل منهما بمنطقة ، فكان من نصيب فرنانده الثاني ملك ليون
منطقة الغرب ، وعلى وجه التحديد المنطقة الممتدة من ليلة حتى اشبونة
بما فيها منتانجش وماردة وبطليوس ويأبرة وشلب بحصونها وقلاعها ،
وكذلك نصف مدينة اشبيلية . أما ملك قشتالة ففى حالة استرداد الاندلس
من المسلمين تؤول اليه بقية اراضى المسلمين فى الاندلس . لهذا فان اعتداء
الفونسو انريكث على بطليوس فى عام ٥٦٤ هـ (١١٦٨ / ١١٦٩ م) كان
يشكل فى نظر فرنانده الثاني اعتداء على ممتلكاته الشخصية ، هذا من
جهة ، وينبغى ألا نغفل من جهة أخرى الاتفاقية التى عقدت بين أبى
يعقوب يوسف وبين فرنانده الثاني ، وبمقتضاها: اشتركت قوات الموحدين

مع القوات الليونية (١) في محاربة القمط نونة (نونيو بيريث دى لارا)
حاكم طليطلة وعدو فرنانده ، وقطع فرنانده عهدا على نفسه بعد تلك
الواقعة أن يساعد الموحدين ضد اعدائهم .

ويضاف الى ما سبق أن والى بطليوس ابا على عمر بن تمصيلت
كان احد قادة الموحدين الذين اشتركوا مع فرنانده الثانى فى قتال عدوه
دى لارا ، ولذلك فان خروج فرنانده الثانى الى بطليوس لتخليصها من
الاحتلال البرتغالى ورفع الحصار عن واليها ابن تمصيلت كان نوعا من
رد الجميل له باعتبار أنه كان ممن اسدوا له معونة عسكرية من قبل .
وكانت عيون فرنانده تطالع تحركات قوات الفونسو انريكث عن كذب ،
فما كادت قوات الاخير تقتحم مدينة بطليوس وتحكم الحصار على قصبتها
حتى بادرت قوات فرنانده الثانى بالخروج الى بطليوس لاستنقاذها .
بل ان فرنانده بادر بارسال احد جواسيسه الى ابن تمصيلت فى القصة
والى سكان بطليوس يطمئنهم بأنه قادم لنجدتهم ، كما يطلب من ابن
تمصيلت أن يدلّه على ايسر الوسائل التى تمكنه من دخول المدينة .
فأرسل ابن تمصيلت مجموعة من رجاله الى موضع فى سور القصة لم
يفطن اليه البرتغاليون ، وانتظر هؤلاء الرجال هنالك الى أن تحققوا
من قدوم اللبوينين ، وعندئذ « نكب الحائط بابا فى قصة بطليوس من
جهة خفية » ، وخرجت قوة من الموحدين الى اقرب ابواب المدينة
ففتحوه ، فاندفع الليونيون داخل المدينة ، ودارت فى شوارعها موقعة
عنيفة اشتركت فيها قوات الموحدين . ولما بدت معالم الهزيمة على
البرتغاليين آثر الفونسو انريكث أن يولى الادبار وينسحب برجاله من
المدينة ، « وخرجوا بجمعهم الى باب قريب من ابواب المدينة وفتحوه ،
وادخلوا منه العسكر المذكور ، فتقاتلوا بداخل المدينة مع اصحاب ابن
الرنك والموحدون المحصورون يعينون اصحاب البيبوج (فرنانده) وهم
قد سوا الصفوف ، ولبسوا الدروع ، فرأى ابن الرنك من تصميم الموحدين

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٠ .

وأصحابهم في قصبته والاقدام عليهم ، وأصحاب البيبوج يجدون مع المسلمين على عسكر ابن الرنك حتى انهزم ، وفر مهزوما^(١) » في شعبان سنة ٥٦٤ هـ . ولكن الامور لم تمر بسلام بالنسبة لالفونسو انريكت ، فقد أصيب بكارثة اثناء انسحابه ، ففي اثناء تراجعه من المدينة مذعورا « كان عمود باب المدينة ممدودا ، وقد أعده الله من جنده مغدودا ، فانضغط اللعين ابن الرنك في الخروج ، فكسر عمود الباب فخذة اليمنى ، فسقط مغشيا عليه .^(٢) » عندئذ حمله أصحابه ، وهو فاقد الوعي الى بلدة قاية Caia الواقعة شمال بطليوس^(٣) ، ولكن قوات فرنانده الثاني البيبوج لم تتركه يفر بسلام ، فقد طاردته وأسرته مع عدد كبير من أنصاره ، وساقوه أسيرا اليه ، مقيدا بأغلال من الحديد ، ثم عامله فيما بعد بمنتهى الكرم والشهامة ، وعالج جراحه حتى برأ ، ثم أطلقه وسرجه الى بلده قلمرية مهزوما بعد أن وعده الفونسو انريكت بأن يعيد اليه سائر المدن والمناطق التي كان قد انتزعها منه^(٤) . ويذكر كل من ابن صاحب الصلاة وابن عذارى أن ذلك الكسر قد أثر على الفونسو انريكت ما تبقى له من عمر ، فقد شلت ساقه ، ولم يعد يستطيع بعد ذلك اليوم أن يركب الخيل .^(٥) . وبينما يؤرخ ابن صاحب الصلاة هذه الهزيمة التي تعرض لها الفونسو انريكت بسنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨م)

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٠ . وقد ورد النص في تاريخ المن بالامامة مفصلا ، فقد أشار الى اشتراك الموحدين بالقصبة في القتال ، فقال : « وهم قد سوا صفوفهم ، ولبسوا الدروع المحكمات ، واثقلت على رؤوسهم البيضات ، وحصنت أعضائهم السواعد والساقات » (ابن صاحب الصلاة ، ص ٣٨١) .

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٨٠ . وقاية بليدة تقع غربى بطليوس على مقربة منها .

(٤) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٨ .

(٥) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٨٠ - ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨١ .

الا أن فلوريش Florez يحدد تاريخ الهزيمة بشهر يونيو ١١٦٩م (أى أوائل عام ٥٦٥ هـ) (١) . وتسوق المدونة الاولى لتاريخ اسبانيا العالم رواية شبيهة بما ورد في المصادر العربية ، جاء فيها « مضى بعد ذلك (يقصد الفونسو انريكث ملك البرتغال) نحو بطليوس التى تدخل فى نصيب الملك دون فرنانده وذلك فى التفسير المتفق عليه لاراضى المسلمين عند استردادها » .

«Badaioç auie caydo al rey don Fernando en partida de los terminos que eran aun de conquerir de Moros».

ثم يقول : «» وبلغ خبر دخول البرتغاليين بطليوس الى فرنانده ملك ليون ، فبادر بالخروج على رأس قواته ، واشتبك داخل بطليوس مع الفونسو انريكث ملك البرتغال وتغلب عليه ، فانسحبت قوات البرتغاليين بينما كانت قوات المسلمين محصورة فى برج .» وعند مغادرة الفونسو انريكث باب بطليوس اصطدم بعمود حديدى كان يغلق به الباب ، فأصيب فخذ ، ولم يستطع أن يمتطى جواده ، فسقط على الارض ، ثم وقع أسيرا بعد ذلك ، ومثل بين يدى الملك دون فرنانده ، فأحسن استقباله ، وتلطف معه .

(et el rey don Fernando recibiólo bien et con piedad)

وأجلسه معه فى منصبه الملكية . . . ومنذ ذلك الحين لم يعد الملك الفونسو ملك البرتغال قادرا على استخدام الخيل بسبب ساقه التى أصيبت عند انسحابه من بطليوس

(El dalli adelant este rey don Alfonsso de Portugal non pudo usår de fecho de caualleria por razon de la pierna quel crebara en la salida de la puerta de Badaioç como dixtiemos).

ثم خرج اليه المسلمون المحصورون فى البرج المشار اليه ، وسلموه قصرهم

وقصبة المدينة ، وقد اكرمهم الملك واستوثق منهم ، واقام عليهم رجلا يدعى ابن هابل أو ابن حابل Abenhabel (لعله الحافظ) وعهد اليه بمهمة الدفاع عن المسلمين في المدينة « (١) .

اما جرانده فقد فر « الى موضعه حتى مكن الله منه سيف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين » (٢) ، وفي رواية أخرى أنه أسر مع الفونسو انريكث ، ثم أطلق سراحه مع الفونسو انريكث (٣) ، ونحن نميل الى الاخذ بنص ابن صاحب الصلاة . ويذكر أشباخ نقلا عن الاسقف رودريجو خيمينث دي رادا أن فرنانده الثاني أقر بعد انتصاره على البرتغاليين ابن حابل Abenhabel واليا على مدينة بطليوس (٤) ، كما اشارت المدونة العامة لتاريخ اسبانيا الى نفس الاسم (٥) ، ولكن هذا القول مشكوك في صحته لمسيين : الاول أن فرنانده الثاني لم تكن له أى سلطة أو سيادة على بطليوس حتى يقلد عليها وإليا دون آخر ، فبطليوس كان يتولاها عامل من قبل الموحيدين ، ومن المنطقي ألا يتدخل فرنانده في

Primera crónica general de España; pp: 675, 676: (١)

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المتن بالامامة ، ص ٣٨٢ . وقد اختلف ابن صاحب الصلاة في ذكر تفاصيل سقوط جرانده الجليقي في يد الخليفة الموحدى الى سفره الثالث المفقود ، ولكننا تمكنا من الاطلاع على تفاصيل ذلك فيما كتبه البيذق وابن عذارى ، وتبين أن جرانده قدم في سنة ٥٦٩ (١١٧٣م) الى اشبيلية مع أصحابه الادلاء ليعمل في خدمة الموحيدين ، فرحبوا بمقدمه وأحسنوا اليه . ولما علم الفونسو انريكث بذلك استاء للغاية ، فراسله سرا ، وأمره بأن يغدر بالموحيدين في الوقت المناسب . فلما علم الموحدون بذلك أرسلوه مكبلا بالاغلال الى سجناسة ، وحاول جرانده الفرار من أحد التراسى ، فقتل واحتزرت رأسه (البيذق ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ب ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ص ١٠٣ ، ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المتن بالامامة ، ص ٣٨٢ هامش ١) .

(٣) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحيدين ، ص ٣٨ .

(٤) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

Primera Crónica General de España, p. 676. (٥)

ادارتها وولاية امرها ، لذلك نرجح أن فرنانده سلم المدينة الى واليها ابن تمصيلت ورحل (١) . والثاني أن اسم ابن حابل الذي ذكره الاسقف رودريجو أو ورد في المدونة الاولى العامة لتاريخ اسبانيا تحريف واضح للقب واليها المسلم ابن تمصيلت ، فهناك تشابه واضح في النطق بين حابل وحافظ وهو لقب ابن تمصيلت .

وايا ما كان الامر فقد وصلت تلك الاخبار السارة الى الشيخ أبى حفص عمر ، وكان في تلك الاثناء في طريقه الى بطليوس لانجادهنا ، فسر للغاية ، وبادر بإبلاغ ذلك للخليفة أبى يعقوب يوسف ، بينما قفل فرنانده الثاني عائدا الى بلاده ظافرا .

د - محاولات جراند الجليقى السيطرة من جديد على بطليوس :

على الرغم من تغلب الليونيين على البرتغاليين في بطليوس سنة ٥٦٤ فان أطماع هؤلاء في هذه المدينة لم تنته عند ذلك الحد ، وظل المغامر البرتغالى جراند الجليقى يأمل في انتهاز أى فرصة للاغارة على بطليوس والاستيلاء عليها ، ولذلك أقام في حصن جلمانية بالقرب من بطليوس يراقب عن كثب ، ويستطلع احوال الغرب كله . وقد أتاح له الظروف فرصة الاغارة من جديد على بطليوس ، وذلك عندما أمر الخليفة أبو يعقوب يوسف في نفس عام ٥٦٤ هـ (١١٦٨ - ١١٦٩ م) الذى وقعت فيه الغزوة البرتغالية السابقة على تلك المدينة بخلع ابن تمصيلت عن ولايتها وتولية الحافظ أبى يحيى بن الشيخ أبى حفص عليها بدلا عنه . وفى ذلك يقول ابن صاحب الصلاة : « وفى هذه السنة ، مدة إقامة الشيخ المرحوم أبى حفص بقرطبة توجه ابنه الحافظ الاسنى أبو يحيى واليا الى مدينة بطليوس عن الأمر العالى ادامة الله من

(١) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ٣٨ .

حافظ على ، ناظم لاشتات المعالى ، غيث فى الندى ، ليث على
العدى ، حاتم قبيلة ، واسد الفوارس فى غيله ، مع انبساط وجه ونفس ،
وروضة يانعة فى المجالسة ، وأنس وعفاف ووقار ، وحفظ للحديث
والعقائد باستظهار ٣٠٠ » (١) .

ومنذ أن ولى الحافظ أبو يحيى بن أبى حفص امر بطليوس وهو
يسعى الى زيادة تحصينها ، فشرع فى تحصين أسوارها الى جانب تأمين
وصول مياه نهر واديانه اليها ، ولذلك فقد قام بتنفيذ اوامر الخليفة
أبى يعقوب التى كانت تقضى بحفر بئر فى داخل قصبة مدينة بطليوس
ليتسرب اليها ماء نهر واديانه ، ضمانا لتوفير المياه داخل القصبة فى
حالة تعرضها للحصار او الهجوم . ويذكر ابن صاحب الصلاة انه « جد
فى حفر البئر المذكور بالعدانين والفعلة فى ذلك وهى المعروفة عند العامة
بالقوراجة ، وجلب الماء اليها ، فتحصنت القصبة ، وقويت بها
النفوس الآمنة » (٢) . ومما لاشك فيه ان هذه البئر كانت من أهم
العوامل التى زادت من حصانة القصبة ومناعتها . ولما كان جرانده
مقيما بجلمانية التى كانت ماتزال فى قبضة البرتغاليين فقد كان محيطا

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٩٢ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٩٢ .
والقوراجة (بالاسبانية Coracha) سور فرعى قصير أو ستارة
تتصل بالسور الاصلى وينتهى عادة ببرج برانى يدعم الدفاع عن
المنطقة التى يقوم فيها (انظر

Elsayed Abdel Aziz Salem, obras almohades en la muralla
almorávide de Sevilla, Revista del Instituto Egipcio de Madrid,
vol. XX, 1979 - 1980; p. 179, Robert Ricard, «Couraça et coracha»,
al - Andalus 1954, pp 149 - 172.

وكان البئر يقام عادة فى تلك المنطقة التى تحميها القوراجة ،
وكان سبب استيلاء البرتغاليين على شلب ، فيما بعد ، استجواذهم
على القوراجة وتحكمهم فى البئر (انظر ابن صاحب الصلاة ،
تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٩٢ هامش ١) .

بكل ما «يجرى في بطليوس من تحصينات دفاعية» ، ولهذا لم يتردد في اهتبال تلك الفرصة ، وبأدر بالهجوم على أحواز بطليوس ، وظل يغير على تلك المناطق المحيطة بالمدينة مدة شهور متتالية ، والتزم وإلى المدينة أسلوب الدفاع . ويعبر ابن عذارى عن هذه الحوادث بقوله : « وفي مدة إقامته دارت بينه وبين جراند النصراني حروب صبر فيها أبو يحيى ، واستبدت دفاع اللعين ، ودام على جهاده شهورا ^(١) » . ولما لم يجد جراند نتيجة فعالة من هذه الاغارات المتواصلة ، أعد حملة عسكرية شارك فيها كثير من أهالي شنترين ، وعمل على خداع أهل بطليوس وإيثارها ، فكمن لهم في مواضع خفية عن عيونهم ، ثم أغار على أحواز مدينة بطليوس فخرج إليه وإليها الحافظ أبو يحيى في قوة من الموحدين ، فتظاهر جراند بالهزيمة ، وتراجعت قواته ، فظن الموحدون أنه انهزم ، وأخذ يولى الادبار ، فشجعهم ذلك على مطاردته ، فتمادى جراند في خداعه لهم ، فلما ابتعدوا عن المدينة خرجت كمائنه المنصوبة وأطبقت عليهم ^(٢) ، فسحق البرتغاليون في ذلك اليوم قوات الموحدين ، وأسروا عددا كبيرا من كبار رجالهم ، أفتدى أكثرهم بماله فيما بعد . وبعد أن أطمأن جراند إلى انتصاره ، أنصرف عن بطليوس ^(٣) . وكان من بين الأسرى من الموحدين رجل يدعى على ابن صاحب الصلاة ، بلغ فداؤه ما يقرب من ثلاث مائة دينار ، ^(٤) ولم نتوصل إلى معرفة أى تفاصيل عن هذا الشخص ، لأننا لم نقف على ترجمة له في كتب التراجم ، ويعلق الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي على سيرة هذا الرجل فيذكر أنه لم يكن بالتأكيد عليا بن محمد بن عبد

(١) ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ٨٣ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٩٣ . ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٣ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٩٤ - ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٨٣ .

(٤) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ٣٩٣ .

الودود الذى ترجم له ابن النبار فى ترجمته ، لان على بن محمد هذا كان صاحب الصلاة والخطبة فى مريبطر Murviedro ، وقد توفى فى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) أى بعد سبعين علما مضت على هذه الواقعة . وهناك احتمال فى أن يكون أخا لعبد الملك بن صاحب الصلاة صاحب كتاب تاريخ المن بالامامة (١) .

ولم تكن هزيمة الموحدين فى أحوار بطليوس آخر الهزائم التى توقعها بهم جرائده ، فان هذا المغامر البرتغالى لم يكف عن شن غاراته وهجماته على هذه القاعدة الثغرية الهامة ، وساعده على ذلك أن مدينة بطليوس تعرضت فى أوائل عام ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) ، أى فى أعقاب سقوطها فى يد الفونسو انريكث عام ٥٦٤ هـ لحالة من الجذب ، فقد ذكر ابن عذارى أن فى هذه السنة ، « فى رجب زاد ضعف مدينة بطليوس من القوت » (٢) . ولم يكن الجذب الذى أصاب بطليوس قاصرا عليها وحدها ، فقد شمل بلاد الاندلس كلها نتيجة الجفاف وتوقف سقوط المطر فى هذا العام ، هذا الى جانب الزلازل الرهيبة التى تواصلت عند شروق الشمس وعند مغيبها طوال شهر جمادى الاولى من عام ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) الى حد أن بعض مدن الاندلس مثل اندوجر Andujar كادت تهبط فى جوف الارض ، وقد بالغ ابن صاحب الصلاة فى وصف هذه الأحوال المؤسفة التى تعرضت لها الاندلس فى ذلك العام فى قوله : « واتصل بعد ذلك بمدينة قرطبة واغرناطة وإشبيلية وجميع الاندلس ، فكان الرأى بعينه ، يرى حيطان الديار تضطرب وتميل حتى الى الارض ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى ، وتهدمت من ذلك مواضع ديار كثيرة فى البلاد المذكورة ، وصوامع مساجد » (٣) . ومما زاد من محنة بطليوس تقرب جرائده لها من

(١) نفس المصدر ، ص ٣٩٣ ، حاشية ٢ .

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، كتاب المن بالامامة ، ص ٣٩٧ .

مقر اقامته في جلمانية وانتهاز الفرصة للاغارة عليها كلما سنحت له ،
اذ كان يغير عليها وعلى احوازها أولا بأول كلما وصلت اليها أى
امدادات أو مؤن كى تضعف قوتها وتنهار عزائم أهلها ، فيتيسر عليه
الاستيلاء عليها ، وظل الامر كذلك حتى ضاق أهل المدينة بهذه الحالة (١) ،
وطالبوا أسيّخ الموحدين باشبيلية بتزويدهم بالاقوات والميرة ، فاستجاب
الموحدون لطلبهم وأرسلوا من اشبيلية « ميرة موفورة من الطعام
والآلات والمحلات لتحمل اليها ، فاجتمع في ذلك نحو خمسة آلاف دابة
موفورة بما ذكر ، وتقدم عليها الحافظ ابو يحيى زكريا بن على بعسكر
اشبيلية ، فوصل بالميرة المذكورة والعسكر الى مقربة من بطليوس » (٢) .
غير أن جراندته ، وكان يترصد هذه القافلة ، لم يتركها تصل الى
مقصدتها ، فبادر بمهاجمتها كعادته في كل مرة تصل فيها الامدادات الى
بطليوس . ولم يكن جراندته في هجومه يعتمد على قواته وحدها ،
وانما ساندته في هذا الهجوم الغادر على قافلة الامدادات نصارى شنترين ،
وكانوا أكثر حلفائه نشاطا وهمة ، فاضطر الموحدون القادمون من
اشبيلية وفي مقدمتهم الحافظ ابو يحيى الى القتال يوم ٢٦ شعبان سنة
٥٦٥هـ (١٤ مايو ١١٧٠م) دفاعا عن انفسهم وعن الامدادات والمؤن
التي كانت موجهة لانقاذ أهالى بطليوس ، واستمر القتال طوال ساعات
النهار ، وانتهى بهزيمة المسلمين ، وقتل وأسر عدد كبير منهم ،
واستشهد الحافظ زكريا ، واستولى البرتغاليون على المؤن كلها . ووصل
نبا هذه الكارثة الى الشيخ المرحوم أبى حفص بقرطبة والى الموحدين
باشبيلية ، فساءهم ذلك ، وعرفوا بذلك الحضرة العلية » (٣) .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف يعانى من ضعف ومرض ألم به في

(١) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٩٩ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ٨٤ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٩٨ .

تلك الآونة ، وكانت آثاره قد بدأت في الظهور عليه منذ أوائل عنام ٥٦٥ هـ ، مما حال بينه وبين القيام بالغزوة التي كان قد وعد بها الموحدين في الاندلس في كتابه الذي أرسله اليهم عندما تعرضت بطليوس للهجوم البرتغالي الاول في عام ٥٦٤ هـ ، ولكن الخليفة ابا يعقوب يوسف رغم مرضه وضعفه لم يتردد في استنفار الموحدين من كل مكان واستقدام العرب من افريقية وتزويدهم بالعتاء والكساء : فقد كانت الظروف السيئة التي تجتازها الاندلس تدفعه على ضرورة التحرك العسكى في الاندلس ومواجهة مصدر الخطورة من ناحيتين : شرق الاندلس وكان يمثل المصدر الاول اذ كان ابن مردنيش لا يكف عن الاغارة على اراضي ابراهيم بن همشك منذ ان دخل الأخير في طاعة الموحدين ، مما دعاه الى الاستنجاد بالخليفة وبالسيد ابي حفص في قرطبة المرة انز المرة . اما المصدر الثانى للخطورة على الاندلس والذي كان يقض مضاجع الموحدين فهو الغرب ، وبالات بطليوس أهم قواعد الاندلس الثغرية في الغرب والتي تعرضت للعدوان البرتغالي مرات متعددة .

ولما رأى الخليفة ابو يعقوب يوسف ان الامر قد أصبح لا يَحْتَمِلُ التاجيل ، قرر رغم ظروفه الصحية غير المواتية ان يبعث السيد ابا حفص بعساكر الموحدين لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى الذين كانوا معه (١) . فخرج السيد ابو حفص بالفعل من مراكش في اول ذى القعدة من عام ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) وصحبه في هذه الغزوة اخوه ابو سعيد في جماعة من كبار شيوخ الموحدين ، وشارك بعض كبار زعماء الاندلس في هذه الغزوة امثال ابو محمد سيدراى بن وزير واخوه ابو الحسن ، ثم قسم الموحدون انفسهم ، فكان من نصيب السيد ابي سعيد قيادة الحملة المتجهة الى بطليوس بهدف وضع حد لهجمات المغامر البرتغالي جراندده ، وقد اختار الشيخ ابو سعيد ان يصحبه في هذه

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٤ .

الغزاة كل من أبى محمد سيدراى بن وزير وأبى العلاء بن عزون
لمعرفتهما بثغر بطليوس ، بالإضافة الى ثقته الكبيرة فى رجاحة
لرائهما (١) .

هـ - تطهير أخواز بطليوس من الاحتلال البرتغالى :

فى هذه الاثناء تعرضت بطليوس لخطر جديد أضيف الى الخطر
البرتغالى ، فقد كان فرنانده الثانى الببوج ملك ليون الذى سبق أن خلص
بطليوس من قبضة الفونسو انريكث قد قرر الاستيلاء على هذه المدينة
الهامة خوفا عليها من اطماع ملك البرتغال ، لاسيما بعد أن عاين اصرار
جراندة وسيده الفونسو انريكث على الاستيلاء عليها ، فأثار ذلك مخاوف
فرانده وقلقه وخشى أن ينتهى الامر بسقوط هذا الموقع الاستراتيجى
الخطير فى أيدي البرتغاليين ، وهو الذى كان يمنى نفسه بضمه مستقبلا
الى ممتلكاته وذلك عندما يتم استرداد النصارى لهذه المدينة . ولما كان
فرنانده حريصا على ضمها الى ملكه فقد أسر فى نفسه أنه « أولى بها
دفاعا لعدوه » (٢) . ثم أنه خرج فى اول سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) على
مقدمة قواته قاصدا بطليوس لينتزعها من أيدي المسلمين ، فوصل بعسكره
وآلات سكتها بالفحص المعروف بالزلاقة فى نفس الوقت الذى كانت
تقترب فيه جيوش الموحدين من المدينة ، فلما علم السيد أبو سعيد
بتحركات الببوج المريبة حاول أن يضع حدا لذلك الخطر الليونى بطريقة
سلمية ، فبادر بارسال كل من أبى محمد سيدراى بن وزير وأبى العلاء
ابن عزون فى وفد من أشياخ الموحدين الى معسكر الببوج للكشف عن
حقيقة نواياه ومعرفة ما اذا كان مايزال باقيا على الصلح المعقود بين
دولتيهما أم أنه نكث باتفاقه مع الموحدين ، فلما دخلوا عليه « رحب
بهم وتكلموا معه فيما وفدوا فيه ، فقال : انما خرجت لحمايتها وامساكها

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٤٠٠ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٤٠١ .

لامير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله ، فشكروه ، وعرضوا عليه الاجتماع مع السيد الاسنى (أبى سعيد) وتجديد الصلح بينهما ، فأجاب الى ذلك (١) . « قلما عاين منه أبو محمد سيدراى بن وزير وابن عزون حسن نواياه عرضا الامر على السيد أبى سعيد ابن الخليفة أبى يعقوب والقائد الاعلى للجيش ، فأجاب الى ذلك ، فتقدم فرنانده الببوج الى بطليوس فى طائفة من أقماطه ورجال دولته حتى أصبح على مقربة منها ، والتقى بالسيد أبى سعيد « هذا راكب على فرسه ، وهذا راكب على فرسه ، وتكلم ابن وزير وابن عزون مع ترجمانه بما يصلح من الصلح بينهما ، حتى كمل الغرض المراد ، واتصل العهد والسداد ، وانصرف فرنانده الببوج بعسكره الى بلاده » (٢) .

أما السيد أبو سعيد ، فقد انتهز هذه الفرصة ، فخرج على رأس جيشه الى حصن جلمانية ، مقر قيادة جرانده الجلىقى ، وقاعدة غاراته على بلاد الغرب وعلى بطليوس . وقد عزم على الاستيلاء عليه وهدمه . فافتتحة عنوة ، وانتسفه ، وكان ذلك فى شهر ربيع الاول من عام ٥٦٦ هـ (نوفمبر ١١٧٠ م) ثم عاد بعد ذلك الى اشبيلية (٣) « وقد احيا بطليوس ، واجلى عنها كل بأس » (٤) .

وفى عام ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) خرج الخليفة أبو يعقوب يوسف من اشبيلية الى غرب الاندلس ليثبت نفوذ الموحدين فى هذه المنطقة ويمكنه ، ومر فى طريقه اليها بشنترين فحاصرها فترة من الوقت ، وأرهب أهلها ،

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠١ ، ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ٨٦ .

(٢) نفسه ، ص ٤٠١ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ٨٦ .

(٤) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٤٠٢ .

ثم تابع سيره في هذه الغزوة حتى مدينة السبباط Ciudad Rodrigo ثم عاد الى اشبيلية وقد جر وراءه عددا كبيرا من الاسرى البرتغاليين (١) ثم عقد العزم في نفس هذه السنة على تأمين الإقوات والميرة والعدد لبطلينوس ، فأرسل « ميرة كبيرة الى بطلينوس من القمح والشعير والآلات المعينات والإقوات المقتوتات على أربعة آلاف بغل اليها في صحبة عسكر مبارك من الموحدين ، أنجدهم الله ، والعرب يسرون بالميرة والمرافق والمصالح الى بطلينوس المذكورة ، حماها الله ، فحضر العسكر المبارك عند الامر العزيز اليهم ، وجازوا على القنطرة الموضوعة على الوادي إلى اطرانية ، وذلك في اليوم الثالث من اكمال عملها ، الثامن من صفر سنة سبع وستين وخمسة مائة المؤرخة ، وهذا العسكر اول عسكر جاز عليها ، فأوصل الميرة اليها على أوفى الامن ، واحياها ، وخصها بالنظر المتدارك عن الامر العزيز وحياتها ، واصرف بعد توصيل الميرة سالما وغانما ظافرا » (٢) .

ولما تهيأ للموحدين تعزيز الدفاع عن بطلينوس وتزويدها بما يلزمها من عذد وآلات ، ومؤن وإقوات ، استجابوا لمشورة ابي العلاء بن عزون بتطهير النواحي المحيطة ببطلينوس من الاحتلال البرتغالي ، لاسيما حصن لبيون Lobon الواقع على مقربة منها الى الشرق ، وكان مايزال يحتله « جملة من اصحاب حراندة ، فنزلوا الحصن ، واستولوا عليه في الحين ، وتغلبنوا على من كان قد بقي فيه من البرتغاليين » (٣) .

و استيلاء البرتغاليين على باجة ونتائجه :

عندما نبين لالفونسو انريكث فشل جرائده في الاستيلاء على

(١) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٣٢٠ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٤٦٢ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٤٦٣ .

بطلْيوس ، والاحتفاظ بقاعدتيه جلمانية ولبيون ، حول انظاره الى مدينة باجة المتصلة بأعمال ماردة . ولعل اهتمامنا بذكر بعض تفاصيل هذه الغزوة البرتغالية لباجة مرجعه رغبتنا في توضيح حالة الغرب في تلك الفترة الحرجة من الحكم الموحدى ، وبالتالي لمعرفة الآثار المترتبة عليه بالنسبة لبطلْيوس . فمدينة بطلْيوس بلا شك كانت تتأثر حتما بالظروف المحيطة بها في بلاد الاندلس بوجه عام ، فما بالنسبة بالظروف المحيطة ببلاد الغرب الذى تمثل هى ذاتها قاعدته ، فغزوة مثل تلك الغزوة البرتغالية على باجة على سبيل المثال كانت - بدون أدنى شك - عاملا من العوامل التى اخلت بالاضطراب السياسى والعسكرية ناهيك عن الاقتصادية والاجتماعية فى الغرب الاندلسى كله ، وتسببت فى اضطراب احوال مدنه ، وبطبيعة الحال فان خروج سكان هذه المدينة منها بعد سقوطها فى أيدي البرتغاليين كان له اعمق الاثر على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لسائر مدن غرب الاندلس ، فبعد استيلاء البرتغاليين على باجة ، وتخريبهم لعمرانها ، كما سنوضح فى الصفحات التالية ، اضطرب العدد الاعظم من سكانها الى تركها والهجرة الى المدن المجاورة . ومن المنطقى ان تكون بطلْيوس - أهم قواعد الغرب - على رأس تلك المدن التى استقبلت تلك المجموعة المهاجرة من بطش البرتغاليين ، ولعل مثل هذا الوضع كان كفيلا بأن يهز اقتصاديات بطلْيوس ، خاصة وانها لم تكن قد افقت بعد من الضربات المتواصلة التى كانت تتلقاها من قوات جرائده ، واعتراضه طريق المؤن والامدادات الواصلة اليها . وقد أشرنا فيما سبق الى تعرضها لازمة اقتصادية طاحنه بسبب انحباس مياه الامطار ، بالإضافة الى الزلازل المدمرة ، وان كان ضيقها قد فاق أكثر مدن الاندلس بسبب ابتلائها بهجمات ذلك المغامر البرتغالى المرتزق جرائده . هذا الى جانب افتقادها لصمام الامان والاستقرار ، واحساسها الدائم بأنها معرضة للغارات البرتغالية المتواصلة .

لقد كان عمر بن تمصيلت - والى بطلْيوس السابق - قد تولى حكم مدينة باجة لفترة قصيرة عقب عزله عن ولاية بطلْيوس ، ولكنه

لم يفلح في إدارة هذه المدينة التي كانت تحتدم بنار الفتن والاضطرابات منذ أن أقصى عن ولايتها سيدراى بن وزير . ولذلك لم تطل ولاية ابن تميميلت ، فوليها بعده طالب بربرى سخييف العقل يدعى عمر بن سحنون ، وكان رجلا فظا سيئا طائشا ، استعان بوزير بدوى من سفلة القوم بمدينة باجة طغى وبغى ، وأساء السيرة فى الناس ، واصطنع العنف فى الاستيلاء على أموال الناس بغير حق والاعتداء عليهم ، وقد أعانته فى ارتكابه لهذه المظالم عمر بن زرقاج قاضى المدينة ، مما دعا أهل باجة يضيّقون من عسفه ، ويضيقون ببغيه وظلمه ، فاشتدت الفتنة ، ذلك ، وسامت أحوال باجة (١) فى أواخر عام ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) فى الوقت الذى شغل فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف بغزوة وبذة . ولما كان البرتغاليون على علم تام بما يجرى فى بلاد الغرب بحكم مجاورتهم للمسلمين فى هذا الصقع من بلاد الأندلس وسيطرتهم على شنترين ويابرة وقصر أبى دانس ، فقد أدركوا أن فرصتهم للسيطرة على باجة قد تهيأت تماما . وكان الدفاع عن باجة قاصرا ، فابن سحنون واليها كان يحرم الحراس والجند من رواتبهم وأعطياتهم مما دفعهم الى الغفلة الحراسة والتقصير فى المراقبة والسهر على الاسوار والابراج . واتفق أن أحد أبراج قصبة المدينة ، وهو برج الحمام كان خاليا من الحراسة ، أثناء الليل ، « وكان البرج المذكور فيه سامر يأخذ فى الليلة على سميره قيراطنا من قطع ، فأخذ له ، وترك البرج مضاعا دون سامر ، فوصل النصارى الى السور فى ليلة مظلمة ، وهم يتسللون على أيديهم وأرجلهم . . . » (٢) ، وهى الليلة التى قتر فيها جرائده مهاجمة المدينة . ليلة مستهل الحرم سنة ٥٦٨ هـ / ٢٣ أغسطس ١١٧٢ م) ، والمعروف أن جرائده كان يؤثر التحرك فى الليلالى المظلمة حتى لايفطن الى تحركاته احد من الحاميات الإسلامية . فلما كادت قواته تصل الى

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٢

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٠٠

السور حتى بادروا بوضع السلالم لصق بُرج الحمام خفية دون أن يشعر به أحد من حراس المسلمين بالقصبة ، ثم صاحوا بلغاتهم ضيحات عالية ايقظت واليها ابن سحنون من نومه ، فبادر بالتوجه الى باب القصبة ، فوجد البرتغاليين ونصارى شنترين قد استولوا على البرج وفتحوا بابه واندفعوا داخل القصبة واحتلوها على الفور ، فترامى ابن سحنون من أعلى البرج ونزل بداخل المدينة ، ثم تدلى من سور المدينة الى فحص باجه ، وفر بنفسه على قدميه الى مدينة مرتلة دون أن يعبا بمصير باجة وأهلها . ويصف ابن عذارى موقف البرتغاليين من سكان المدينة وقصبتها بقوله : « واتمل الصياح وضجيج الروم بالقصبة والمدينة ، ففر الناس على وجوههم من أبوابها ، فقتلوا في الابواب ، وأسروا في كل جناب » (١) ، ووقع في أسرهم أبناء ابن سحنون وبناته وأهله ، واستولوا على أمواله ، وكذلك أسروا أبناء القاضي ابن زرقاج ، وسبوا كثيرا من نساء باجة الا من وفق في الخروج منها ، واستشهد على باب بُرج الحمام أبو جعفر بن اسماعيل بن صاحب الصلاة وغيره من سكان المدينة . ولم يمكث النصارى طويلا بالمدينة ، فقد رأى الفونسو انريكث انه لن يستطيع الدفاع عنها لضخامتها واتساع عمرانها ، واكتفى بهدم أسوارها وأحراق مزارعها ، وفي ذلك يقول ابن عذارى : « ولما أخذ ابن الرنك اللعين باجة ودخلها ، عاين كبرها ، وأنها لايمكن امتناعها لاتساعها ، فأخلاها ، وحرقها ، وهدم سورها ، وأسر أهلها الى أن أنقذها الله من الاسر بالفداء ، ومشى كثير منهم الى مراكش وغيرها يطلبون من الناس ، فوجدوا عندهم الحنان بالعتاء والايناس » (٢) .

ومن العجيب أن يسكت الموحدون على هذا الاعتداء البرتغالي الغاشم على باجة ، وربما يرجع السبب في سكوتهم الى اشتغال الخليفة

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٢

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٠٣

مذ وصوله الى اشبيلية ببناء المسجد الجامع بفصبتها ، وتخطيط قصور البحيرة وبساتينها ، هذا بالاضافة الى انشغال الموحيدين في عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م) بمواجهة القشتاليين والاشتبك معهم في معارك طاحنة ، وكان يقود جيوش قشتالة في تلك المعارك القومس المعروف بالاحدب (١) ، وقد انتهت هذه المعارك بانتصار قوات الموحيدين على قوات القومس الاحدب ، واستيلائهم على خيولهم وكراعهم ، بل ان الموحيدين تمكنوا من استنقاذ أسرى المسلمين ، وقتلوا الاحدب واحتزوا راسه من جسده وهو على سرير في خبائه . وكان لهذا الانتصار الذي احرزه الموحدون اكبر الاثر في رفع الروح المعنوية عند المسلمين ، فبادر الموحدون بتجهيز حملة قوامها اربعة آلاف فارس الى بطليوس لتحمل المؤن والميرة والعتاد ، تولى قيادتها ابو يعقوب يوسف بن أبى عبد الله تيجيت ، وكذلك عبد الله بن اسحق بن جامع ، « تحركا من اشبيلية في اربعة آلاف فارس من الموحيدين - اعزهم الله - ومن الاجناد الاندلسيين ومن العرب ، ومعهم الميرة المذكورة على ثلاثة آلاف دابة من القمح والشعير والدقيق والزيت والملح والآلات والمرافق واستعداد الارزاق لاهلها رفقا لهم في المضايق (٢) » . وعندما وصلت هذه المؤن الى بطليوس ، تم تسليمها الى واليها انذاك أبى غالب بن أبى الحسين بن الموصلى ، وينتسب

(١) هو القومس خيمينو وكان واليا على مدينة آبله ، وعرف في البيان المغرب بالقومس المسن الضال المعروف بالاحدب ، بينما يسميه ابن صاحب الصلاة « القومس المسن الضال شان منوس عظيم النصارى بآبله (ابن صاحب الصلاة ، ص ٥١٨) كذلك أطلق عليه ابن صاحب الصلاة ، ص ٥١٨) اسم « أبو بردع » (انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٥٢١) لانه كان يفضل ركوب جواده فوق بردعة حريرية وثيرة مرصعة بمختلف أنواع الجواهر الثمينة . وكان القومس الاحدب قبل هذه الغزوة التي انتهت بمصرعه وهزيمة قواته أمام الموحيدين قد قام بغارات كثيرة مخربة على طريف والجزيرة الخضراء (انظر ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥١٨) .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥٢٦ .

الى أسرة الموصلى وكانت من بين الاسرات البارزة فى بطليوس لصدارتهم فيها وزعامتهم . ويرجع بنو الموصلى فى الاصل الى قرية موصل بأشبونه ، ومنهم عبيد الله بن خليفة الذى كان قد تولى قضاء اشبيلية فى عهد المرابطين ، ومنهم ايضا شيخ « من أهل بطليوس رأسه كالنعامة بيضا كان قد وقع فى أسر البرتغاليين عند دخولهم بطليوس فى سنة ٥٦٤هـ^(١) » .

وعلى اثر تلك الموجة العاتية من غزوات الموحدين أخذ ملوك المسيحية فى اسبانيا يسعون الى مهادنة الموحدين وموادعتهم ، وأول من بادر بطلب الصلح منهم « القومس نونة صاحب طليطلة ظئر اذفونش الصغير (وهو نفس الفونسو الثامن) لعنه الله ، ثم تابعه اذفونش بن الرنك صاحب قلمرية »^(٢) . وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد سبق الفونسو انريكث فى طلب الصلح^(٣) ، ولم يستجب أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن لعقده بسهولة ، فقد استمرت المفاوضات ما يقرب من شهرين وانتهى الامر باكتمال السلم والتوصل الى المهادنة مع هذين الملكين المذكورين ، وتم ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٨هـ (يوليو ١١٧٣م) . وكان هدف أبى يعقوب من قبول عقده رغبته الصادقة فى التفرغ لتحصين مدن الغرب المتضررة ، وإعادة بنيان باجة .

ثم كان وصول جرانده الجليقى ، كما سبق أن أشرنا اليه ، الى اشبيلية فى بداية عام ٥٧٩هـ ، طالبا من الخليفة أبى يعقوب يوسف الصفح والعفو ، وأن يقبله عبدا خديما لديه ، ليعيش سامعا طائعا له^(٤) . ولعل ذكاء جرانده هو الذى هداه الى التماس العفو من الخليفة بهدف كسب ثقته فيه ، فهو مغامر مرتزق غادر ، شأنه فى ذلك

(١) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٤٥١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٢٦ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٩٠ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٣ .

شأن السيد الكنبيطور (١) ، يجتذبه المال والذهب . فقد أذرك بذكائه الحاد أنه بعقد الصلح بين الفونسو انريكث ملك البرتغال وبين أبي يعقوب يوسف خليفة الموحدين سيفقد فرصه السابقة التي كان يثبث من خلالها وجوده العسكرى ، لذلك فقد آثر الالتحاق بخدمة المسلمين عسى أن يجد في صفوفهم مكانا يستعيد به نفوذه ومكانته الحربية ، فقد توجه الى اشبيلية لعرض خدماته على الخليفة الموحدى فى قوة من ثلثمائة وخمسين فارسا من أتباعه ، وصح ما توقعه ، اذ لم يجد من الخليفة الموحدى الا كل تقدير واکرام « فقبل منه القول ، وانزله ، وأمر له بالأحسان والكرامات » (٢) . ولكن الفونسو انريكث كاد أن يفقد صوابه لاستغناء جراندته عن خدمته ، فبدأ يرأسه سرا ، ويغريه على العودة الى خدمته ، الى أن وقعت بعض هذه المراسلات فى أيدي الموحدين ، وانكشف أمر جراندته ، وخشى الخليفة من وجود مؤامرة تحاك فى الخفاء طرفاها الفونسو انريكث وخليفه السابق ، ولذلك أصدر أمره بالقبض على جراندته وعلى أصحابه ، « وبعثوا بجملتهم الى سجن سلا ، فأقاموا بها تحت سجن وترقيب ونكال .. ثم همت نفسه فيها بالفرار ليحوز من أحد المراسى ، فظهر منه ذلك ، فقتل ، وحز رأسه ، وانكفأ عن الاسلام بأسه » (٣) .

هذه قصة جراندته الجليقى ، كما رواها ابن عذارى ، أما البيهقي فقد ذكر أن جراندته استمر فى خدمة الخليفة أبى يعقوب يوسف الى أن رحل الخليفة الى المغرب فى شعبان ٥٧١هـ (١١٧٦م) فسار معه فى ركابه الى أن عينه الخليفة الموحدى فى السوس ، وعندئذ بدأ جراندته

(١) راجع فى ذلك :

David Lopes, O Cid português : Geraldo Sempavor, Revista do Historia, Coimbra, 1940, pp. 92, 93.

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

بخيانة الخليفة ، فقد اتصل سرا بالفونسو انريكث « فأرسل الكتب ، وقال له : لعلك تعمّر القطائع لتأخذني وأجد معكم » (١) . فلما وقعت بعض هذه الرسائل في أيدي الموحدين ، وعلموا بعرض جرّانده الذي تقدم به الى ملكه وسيده السابق الفونسو انريكث بأن يجهز له اسطولا يفتح به تلك البلاد من المغرب لكي تصبح للبرتغال مراكز عسكرية في السواحل المغربية ، أمر الخليفة بالقبض عليه هو واصحابه سرا ، ثم أمر بقتل جرّانده وتوزيع اتباعه على الفبائل ، فسيق جرّانده الى درعة حيث تم تنفيذ حكم الخليفة فيه (٢) . وفي سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) شرع الخليفة أبو يعقوب يوسف في إعادة تعمير باجة ليعود اليها من هجرها من أهلها وولى عليها أبا بكر بن وزير ، وقدم اليها ابن تمصيلت والى شلب آنذاك ، ووالى بطليوس فيما سبق ، في نحو خمسمائة من الفعلة والأعمال لمساعدة سكانها العائدين اليها في تعمير مدينتهم من جديد . وبلغ عدد من عاد الى باجة من أهلها مائتي شخص بذلوا قسارى جهدهم في إعادة تعمير مدينتهم ، ولكن ابن وزير استبد بهم وأساء اليهم ، فأمر الخليفة بعزله ، وأقام مكانه ابن تمصيلت ، وكان واليا رفيقا بأهلها ، رحيما في معاملته لهم ، فشجع الناس على انتجاعها ، وافرّ الامور فيها ، وعن هذه الاحداث يقول ابن عذارى : « ثم حدثت بين اهل باجة وبين أبى بكر بن وزير مطالبات وشهوات ، فعقد عقودا على اعيانها بشهادة اهل الزور والاراذل وأهل الفجور ، فرمى بها القاضى فى وجوههم ٠٠٠ ثم ان اعبان باجة رفعوا الى حضرة أمير المؤمنين بأحوالهم وما هم عليه مع ابن وزير من سوء السياسة والتدبير ، فأمر بعزله عنهم ، وولى عليهم أبا على عمر بن تيمصيلت ، فاتصلت الغبطة بباجة ، وتمكن الناس بقصبتها ، وفي ديارهم الحديثة

(١) البيهقي ، اخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

البنيان « (١) » .

ز - عودة البرتغاليين الى العيث في الغرب ومصرع الخليفة ابي يعقوب يوسف :

ما كاد الخليفة أبو يعقوب يوسف يغادر الاندلس الى المغرب في شعبان سنة ٥٧١هـ (١١٧٥ م) حتى عاد النصارى الى سابق عهدهم من التعدي على اراضي المسلمين ، فنقضوا عهودهم وخرقوا الهدنة : ففي العام التالي لعبور الخليفة الموحدى الى المغرب انتهر الفونسو الثامن ملك قشتالة فرصة انشغال الخليفة ابي يعقوب يوسف بالوباء الذي اجتاحت مراكش ، وخرج بقواته لغزو الاندلس ، واتجه بها الى مدينة قونكة (٢) في عام ٥٧٢هـ (١١٧٦ م) (٣) . ولم يكن الخطر المسيحي يهدد المدن الواقعة الى الشمال الشرقي من الاندلس فحسب بل أن غرب الاندلس ايضا تعرض في تلك الآونة لخطر أقوى واشد ، فقد غدر الفونسو انريكو هو الآخر بالموحدين ، وشن هجوما عاتيا على باجة للمرة الثانية في سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧ م) بعد أن كانت قد استعادت ازدهارها ، واكتملت الفجيعة بمصرع ابن تمصيلت في احدى المعارك التي خاضها مع نصارى شنترين (٤) ، ولم يقتصر الهجوم البرتغالي على البر وانما حدثت اشتباكات بحرية (٥) بين الموحدين والبرتغاليين انتهت باستيلاء البرتغاليين على جزيرة شلطيـش Saltés واتجهت الوحدات البحرية البرتغالية من هناك الى سبتة ، القاعدة

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٧ .
(٢) راجع وصف قونكة وقصبتها الشاهقة المنبئة المرتفعة في الجو وقد احاط بها وادي شوقر من الغرب بأجرافه الصعبة في كتاب تاريخ المن بالامامة ، ص ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

(٣) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٤) سنعود الى ذكر تفاصيل هذه الاحداث فيما بعد في الصفحات التالية

(٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .

البحرية للموحدين ، بهدف تدمير البحرية الاسلامية ، كما هاجم البرتغاليون مع حلفائهم نصارى شنترين فحص الشرف Aljarafe من احواز اشبيلية ، واتخذت غاراتهم شكل موجات متتابعة استمرت خمس سنوات في الفترة من سنة ٥٧٣هـ وحتى ٥٧٨هـ . وامام هذه الاعتداءات البرتغالية المتكررة على الغرب كان لزاما على ابي يعقوب يوسف ان يتحرك بقواته الى الاندلس لوضع حد لهذا العيث ، وان يعد نفسه للجهاد بعد ان تجاوز العدو البرتغالي حدوده . فاستنفر القبائل ، وحشد الحشود ، وتأهب للجواز الى الاندلس في أوائل شهر جمادى الآخرة ، وفي ذلك يقول ابن عذارى : « ابتدأ بتمييز القبائل والاجناد في الخامس من شهر جمادى الآخرة كما ذكرته ، فميزهم قبيلة بعد قبيلة ، وأمر بعمل عشرة مجانيق فصنعت ، ورمى الرجال بالحجارة قدامه . . . دام هذا الحال شهر جمادى كله ، وفي شهر رجب ارتحل الخليفة عن البحيرة المذكورة الى قصره بمراكش » (١) ثم أصدر الخليفة يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان ٥٧٩هـ (آخر ١١٨٣م) مرسوما بتولية اربعة من ابنائه قواعد الاندلس الرئيسية ، فافر ولده ابا اسحق على اشبيلية ، وولى ابا يحيى على قرطبة ، وابا زيد على غرناطة ، وابا عبد الله على مرسية . وتم توزيع العدد والاسلحة والخيول على عساكر الموحدين في منتصف شهر رمضان ، ثم صدرت الاوامر بالحركة في الخامس والعشرين من شوال سنة ٥٧٩هـ (فبراير سنة ١١٨٤م) . ولم تشرع قوات الموحدين وقبائلهم في الجواز الى الاندلس الا في آخر سنة ٥٧٩هـ ، بينما تحرك الخليفة الى قصر المجاز في بداية عام ٥٨٠هـ فجاز الى جبل الفتح ، ثم انتقل الى الجزيرة الخضراء ومنها الى اشبيلية ، حيث استقبله اهلها استقبالا حافلا .

اقام ابو يعقوب يوسف باشبيلية نحو اسبوعين رتب خلالها قواته ، وحدد وجهته ، واستعد للقتال ، واختار مدينة شنترين لتكون هدفه

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

نظرا للخطورة الجسيمة التى أصبحت تمثلها على غرب الاندلس ، فمعظم هجمات المرتزق البرتغالى جرانده كانت تصدر من هذه المدينة ، ومنها كان يغير على ترجاله وقاصرش ومنتانجش وشيرية وجليمانية ، كما هاجم بطليوس منها كذلك . وقد سبق أن ذكرنا انه تمكن فى احدى غاراته من الاستيلاء عليها ، ولولا مساعدة ملك ليون لواليتها ابن تمصيلت لظلت بطليوس فى قبضة البرتغاليين . وكان نصارى شنترين قد ساعدوا جرانده فى الاستيلاء على بطليوس ، كما كانت بلدهم شنترين المركز الذى اغار منه البرتغاليون على احواز اشبيلية بحيث وصلوا فى احدى غاراتهم الى طريانة Triana الرىض القبلى لاشبيلية ، ومرة اخرى الى شلوقة واقليم الشرف ، لذلك رأى ابو يعقوب أن استيلاءه على شنترين وعزوه لها بمثل ضربة قاصمة لمملكة البرتغال من جهة ، وانقاذ لبطلليوس حاضرة الغرب والمناطق المحيطة بها من جهة ثانية .

تحرك ابو يعقوب يوسف من اشبيلية فى اتجاه شنترين فى السادس والعشرين من صفر عام ٥٨٠هـ (٧ يونيو ١١٨٤م) ، فمر على حصن العرجة (وهو نفس حصن الحنش Alanje) يوم الرابع من ربيع الاول ، وهناك تجمعت حشود الموحدين من الافاق ، ومنها اتجهت الى بطليوس وعسكرت فى ظاهرها لتمييز الجند ، وأمرهم ابو يعقوب بأن يتزودوا بالسلاح ، واخذ يستكمل ما كان ينقص الجيش من زاد وميرة ، وبعد أن اطمأن على سير الامور ، رحل من بطليوس يوم الخميس العاشر من ربيع الاول فى طريقه الى شنترين حتى وصلوا الى وادى تاجه ، وهناك أمر الخليفة قواته بالتوقف على ابواب شنترين (١) وفى تلك الاثناء كان فرنانده ملك ليون يحاصر قاصرش ، فلما بلغه وصول جبوش الموحدين الى بطليوس فى طريقها الى شنترين ، رفع حصاره عن قاصرش ، وقفل عائدا الى حاضرتة مدينة السبطاط

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٣٣ .

(Ciudad Rodrigo) ليتابع منها تطورات الموقف .

وعلى الرغم من ضخامة أعداد جيش الموحدين وقد بلغت عدته أربعين ألفاً ، « من أنجاد العرب الفرسان » ومن الموحدين والجنود والمطوعة وفرسان الاندلس ، واجتازها ما ينبغي على مائة ألف فارس ٠٠٠ » (١) إلا أن هذه الحملة انتهت بكارثة كبيرة للموحدين بسبب استشهاد الخليفة الموحدي أبى يعقوب يوسف نفسه ، ويرى الاستاذ محمد عبد الله عنان أن الهدف الرئيسي من حملة أبى يعقوب هذه على شنترين رغبتة في الاستيلاء على نجر الاشبونة ، وأن اتجاهه الى شنترين قبل الاشبونة كان أمراً طبيعياً للغاية ، فاشبونة هي حصن شنترين الشمالى ، وباستيلائه على شنترين قبل الاشبونة يؤمن مؤخره جيشه ضد أى هجوم يمكن أن يقوم به نصارى شنترين (٢) . ولعل رغبة الخليفة أبى يعقوب في الاستيلاء على الاشبونة هو الذى أدى الى الكارثة التى حلت به ، فقد أمر الخليفة ولده السيد أبى اسحق والسى اشبيلية ذات ليلة بأن يرحل الى غزو مدينة الاشبونة ، فأساء أبى اسحاق فهمه ، وظن أن أباه يأمره بالرحيل الى اشبيلية ، فرحل في فجر فجأة ، مما سبب ذعرا وخوفا بين الجند ، فرحل الجميع متسحبين تاركين الخليفة وحده (٣) . وصحب انسحاب معظم الجيش خلل واضح في صفوف المقاتلة ، ولم يتبق مع الخليفة الا بعض الساقة الى جانب ولده أبى يوسف يعقوب ، الذى ظل مرافقا لابيه الخليفة ، على أن تم استعداد حمايته ، ودرء أى خطر عنه . ويصف ابن أبى زرع هذا الموقف بأسهاب فيقول : « فلما جن الليل وصلى العشاء الأخيرة بعث الى ولده السيد أبى اسحاق وإلى اشبيلية فأمره بالرحيل من تلك الليلة

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١١٤ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ١٢٠ .

(٣) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٥٩ .

الى غزو مدينة اشبونة وشن الغارات على انحاءها ، وأن يسير اليها بجيوش الاندلس خاصة ، وأن يكون رحيله نهارا ، فساء الفهم ، وظن أنه أمره بالرحيل في جوف الليل الى اشبيلية ، وصرخ الشيطان في محلة المسلمين ان أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل . وفي هذه الليلة تحدث الناس لذلك ، وناهبوا له ، فرحل من الناس طائفة بالليل . فلما كان قريب الفجر ، ألقع السيد أبو اسحاق ، وألقع من كان يليه ، وتابعه الناس بالرحيل ، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك ، فلما أصبح وصلى الصبح ، وأضاء النهار ، لم يجد حوله أحدا من المحلات الا اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله وقواد الاندلس ، لانهم هم الذين كانوا يمشون أمام ساقته ، وخلف محلته من أجل من يتخلف منها من الضعفاء » (١) .

وكان نصارى شنترين قد علموا عن طريق عيونهم بما جرى في معسكر الموحدين ، فشنوا هجوما خاطفا على القوات المنسحبة ، وعلى ساقة الخليفة ، بل ان هؤلاء النصارى قد تمكنوا من الوصول الى خيمة الخليفة نفسه ، وتمكن بعضهم من اصابته بجراح خطيرة ألزمته فراشه ، وقبل ان يأمر الخليفة من تبقى من جنده بالرحيل رقد على محفة ، وحوله جنده وأطبائوه ، ورحل الجميع . ولم يكد الركب يعبر وادي تاجه ويسير عدة أميال حتى أسلم الخليفة الروح في الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ (٢٩ يوليو ١١٨٤م) . وهكذا ضحى الخليفة بحياته في تلك الغزوة التي استهدف منها الاستيلاء على شنترين وتخليص بطليوس من الخطر المتواصل الذي كانت تمثله .

وينفرد الحميرى برواية ذكر فيها أن أبا يعقوب يوسف اعتل علته التي توفي بها « فأقام الرجل به على مطية مضطجعا على فراشه ،

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

وضعه يتزايد الى أن تفقد في بعض أميال فوجد ميتا « (١) .

وبقى أن نشير الى أن أبا يعقوب يوسف الشهيد لم يتوان قط عن توفير الاستقرار لبطليوس ، فقد حصنها وتهمم بقصبتها ، « وهو الذي حمى بطليوس من الكفر ، وابتنى لها قصبتها الشاهقة المانعة ، وسرب الماء اليها من الوادي ، فقطع العدو أمله عنها بما أشحنها من الآلات والعدد من الاسلحة والرجال المنتخبة » (٢)

(١) الحميري ، ص ١١٤ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٢٣٦ .

(٤)

بطليوس في عهد الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور

١ - تحركات مملكتى ليون والبرتغال في الغرب وسقوط شلب :

حين توفى الخليفة أبو يعقوب يوسف أمر ولده يعقوب بكتمان خبر وفاة والده الى حين الوصول الى مرحلة معينة من الطريق ، ولذلك فقد ظل الخليفة الشهيد محمولا على محفته ، يحدق بها خدمه وفتيانه على عادتهم ، الى أن وصل الجميع الى حصن طرش ، فضربت اخبیه الخليفة ، وقام السيد أبو زيد ابن الخليفة أبى يعقوب يوسف بابلغ اشياخ الموحدين نبأ وفاة الخليفة ، وطلب منهم الاسراع بمبايعة ولده الامبر يعقوب^(١) . وتمت البيعة الخاصة يوم الاحد التاسع عشر من ربيع الاخر عام ٥٨٠ هـ^(٢) (١١٨٤ م) ، أما البيعة العامة فقد عقدت يوم السبت الثانى من جمادى الاولى من نفس العام^(٣) . وهكذا جرت بيعة يعقوب المنصور في هدوء تام ودون أية معارضة نظرا لانه « بويع له في حياة أبيه بأمره بذلك »^(٤) . وعلى الرغم من أن المصادر العربية بخلاف عبد الواحد المراكشى لم تذكر ذلك ، الا أن الظروف التى أجريت فيها بيعة المنصور تدل على قناعة تامة من جميع الاطراف بخلافته ، لاسيما وأنه كان أكبر أبناء الخليفة المتوفى أبى يعقوب يوسف^(٥) .

وإذا أردنا أن نقوم عصر المنصور الموحدى ، فاننا سنجد أنه كان عصر جهاد ومثاغرة ، فقد استبسل في الجهاد والذب عن الاسلام ضد

(١) ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٤١

(٢) ابن أبى زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٤) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٦١ .

(٥) ابن سمالك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ١٥٧ .

اعدائه في الاندلس ، « وكان المنصور رحمه الله أجل ملوك الموحدين ، وأكثرهم صيتا ، وأحسنهم في الاحوال كلها ، ولى الملوك وأشن ، والمال قد توفر ، وكانت له الهمة العالية ، والعزائم الملوكية ، والدين المتين ، والسير الحسنة في المسلمين » (١) . ويصفه ابن عذارى بأنه كان « شجاعا مقداما ، عظيم الصريمة على اعدائه ، لا تضعيع عنده فضيلة أحد من رجاله ، ولا يغيب عنه شيء من احوال رعيته ... » (٢) . ومما عرف عنه أنه اهتم اهتماما خاصا بالجيش ، فحرص على تنظيمه واعداده للجهاد في المغرب والاندلس في الوقت المناسب . ولم يكف المنصور منذ توليه خلافة الموحدين عن النظر في شئون الثغور لاسيما القسم الغربى من الاندلس في وقت اشتدت فيه حركة الاسترداد . وكانت حادثة استشهاد أبيه في شنترين مازال ماثلة في ذاكرته ، وكان لذلك اعظم الاثر في نفسه . أما بالنسبة للبرتغاليين ، فقد كان لهزيمة الموحدين في شنترين أكبر الاثر في دفع حركة الاسترداد والنوسع البرتغالى في اراضى الغرب الاندلسي ، فقد ازدادت الآمال عند الفونسو انريكث في السيطرة الكاملة على بلاد الغرب ولكن الاجل لم يمتد به ليحقق هذه الآمال ، اذ توفى في سنة ٥٨١ هـ (ديسمبر ١١٨٥ م) بعد وفاة الخليفة أبى يعقوب يوسف بنحو عام ونصف العام ، وخلفه على عرش مملكة البرتغال ابنه سانشو الاول الذى أراد أن يستغل الحركة الصليبية التى بلغت أوجها في ذلك الحين لصالح أطماعه الشخصية في الجزء الغربى من الاندلس (٣) . وساعدت الظروف السبئية التى كانت تجنازها دولة الموحدين في تلك الآونة على مهاجمة اراضى الغرب : فبنو غانية في المغرب ، كانوا يناوئون الخلافة الموحدية ، وزاد خطرهم عندما تحالفوا مع العرب الهلالية ومع الغز المماليك ، وأدت الحروب التى خاضها المنصور معهم الى استنفاد جزء كبير من طاقته . وقد أحسن سانشو

(١) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٢) ابن عذارى ، القسم الثالث من البيان ، ص ١٤١ .

(٣) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٢٩ .

الاول ملك البرتغال استغلال هذه الظروف القاسية التى كانت تجتازها دولة الموحدين فى المغرب كما احسن استغلال الظروف الدولية ائذاك ، اذ كانت الحركة الصليبية فى الشرق الاسلامى فى عنفوانها ، لاسيما بعد ان استرد صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من الصليبيين فى سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، واستثار بذلك المشاعر المناهضة للمسلمين فى الغرب الاوروبى . وكان قد وصل الى مياه البرتغال اسطول صليبي ضخم يتألف من خمسين سفينة وقيل ستين تحمل قوات قوامها عشرة آلاف مقاتل ، تجمعوا من ولايات الراين واللورين وفريزلاند (١) .

وقد توقفت سفن الصليبيين عند ساحل جليقية ، ونزل عسكر الإفرنج برا للتبرك عند مزار شنت ياقب Santiago de Compostela ولكن أهل المدينة تشككوا فى نوايا هؤلاء الافرنج ، وخشوا على مزارهم المقدس ، فدفعوهم بعيدا عنهم ، فعادوا الى سفنهم وهو ينوون الانضمام الى الاسطول الصليبي الانجليزى الراسى فى مياة أشبونة . ولم يجد سانشو الاول ملك البرتغال فرصة أفضل من هذه لتنفيذ اطماعهم فرحب بالصليبيين واحتفل بهم احتفالا عظيما ، ثم طلب منهم ان يعبنوه على فتح المزيد من بلاد الاسلام ، وصور لهم انهم يخدمون بذلك الحركة الصليبية . وركز هدفه على مدينة شلب (٢) .

(١) نفس المرجع ، ص ٣٢٩ - محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) شلب Silves مدينة من مدن غرب الاندلس تقع فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى من شبه جزيرة الاندلس ، على مقربة من البحر المحيط ، وفرضتها مدينة بورتماو ، وتبعد عنها بنحو ثلاثة أميال ، وذكر الجغرافى مجهول الاسم صاحب كتاب « ذكر بلاد الاندلس » (أنها مدينة قديمة أزلية واسعة الشوارع حسنة البناء حصينة ، وأسواقها وطرقها وشوارعها كل ذلك مفروش بالرخام ، وهى مبنية على ضفة نهر أنه) (لوحة ٤٤) ، كذلك يصفها الادريسي قبل هذه الاحداث بنحو خمسين علما ، وقد اهتم فى وصفه لها بابرار أهمية موقعها فى بسط من الارض وسورها الحصين ، كما ذكر المزايا الاقتصادية العديدة التى كانت تنعم بها ، فهى من حيث

وقد وفق سانشو في اقناع الصليبين بنصرته ، فأبدوا استعدادهم الكامل لمساعدته لمجرد أن ذلك يدخل في نطاق أهدافهم . وانتهت خيوط هذه المؤامرة البرتغالية الصليبية بحصار شلب برا وبحرا ، فطوقت المدينة من كل الجهات ، وبالغ البرتغاليون وحلفاؤهم الصليبيون في احكام الحصار عليها الى أن استولوا عليها بعد ثلاثة شهور من بدء الحصار ، واخرجوا اهلها عنها ، فخرجوا عنها . وفي سقوطها يقول ابن عذارى : « وسلموا في أنفسهم ، وخرجوا مسلوبين ، واستأصل العدو حصنا من نظره يعرف بالبور ، وأتى القتل على كل من كان فيه صغير أو كبير واناث وذكور » (١) . وورد في المدونة الاولى العامة لاسبانيا أن هذا الملك (سانشو الاول) « ذهب لحصار شلب ، وكانت في ذلك الحين مدينة جليلة الشأن في الغرب الواقع غربى اسبانيا واقبل عليه هناك من بلاد افرنجة بحرا عدد كبير من المحاربين ومقاتلون أشداء ، وفي نهاية الامر استولى على المدينة ، واتخذها أسقية » (٢) .

ولم يكن سقوط شلب نتيجة تهاون في الدفاع أو ضعف في المقاومة أو تراخ في الصمود ، أو بسبب خيانة بعضهم للموحيدين ، ولكن سقوطها نتج عن عوامل أخرى : فرغم قلة خبرة والى شلب الحافظ عيسى بن أبى حفص بن على في مجال القتال ، إلا أنه تحصن داخل المدينة ، وتصدى بشجاعة للحصار البرتغالى الصليبي ، كما أن اهالى شلب

= الزراعة كانت تنتج كثيرا من الغلات وكانت تزخر بالجنات والبساتين التى يرويهها واديها الذى يجرى جنوبها (نهر دراو) وكانت فرضتها ومرساها على ثلاثة أميال منها ، وفيه تصنع السفن اذ تتوفر بجبالها الاشجار التى تصنع منها السفن (انظر الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق ، ص ١٧٩ ، ١٨٠) .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٥ .

(٣) Primera Cronica General de España, ed. Merendez - Pidal, p. 652.

فوتوا ، بفضل بسالتهم في القتال واستماتتهم في الذب عن بلدهم ، على العدو اكل ما سخره من قوة للاستيلاء عليها ، فعندما حاول عسكر الصليبيين حفر سراديب تحت الاسوار لاقتحام المدينة من داخل السور ، وفتح ثلمات بالسور ينفذون منها الى الداخل ، خاب سعيهم ، وفشلت محاولاتهم امام يقظة الاهالى . ولم يتم سقوط المدينة الا بتأثير الجوع والعطش ، فقد « بالغوا في حصارها الى ان تملكوها » ، واخرجوا اهلها عن . . . بعد اشرافهم على الهلاك من الظم والجوع ، وعدم الهجوم ، وكان يحافظها حينئذ عيسى بن ابي حفص بن على ، لم تحنكه التجارب ، ولا ابتلى بسد الثغور ، فاستولى عليه الجزع ولفه الهلع « (١)

والحقيقة ان السبب الرئيسى في تسليم الاهالى مدينتهم ، ان الصليبيين قطعوا المياه عن اهلها ، وكانت تصلهم عن طريق بئر اقاموه بالقرب من السور يعرف بالقوراجة (بالاسبانية Coracha) فلما انقطعت المياه عنهم ، وبلغ بهم الظم مداه ، ارغموا على التسليم .

ويؤكد ابن عذارى ان الفونسو الثامن ملك قشتالة هاجم بلدة أم غزالة Magazela واستولى عليها في جهادى الاولى من سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) ، وهى من احواز بطليوس ، ويضيف قائلا : « وفي جمادى الاولى من السنة خرج اذفونش ملك قشتالة الى أم غزالة فنازلها ، وخلت قبيل وصوله اليها ، وفي اوائل جمادى الآخرة اقلع عنها « (٢) . ويتحدث ابن ابي زرع عن سقوط شلب فيقول : « وفي سنة ستة وثمانين دخل النصرارى مدينة شلب ومدينة بناجة ويابرة من بلاد غرب الاندلس وذلك لما علموا ان المنصور قد بعد عنهم واشتغل بأفريقية ، فاغتموا

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

الفرصة ، فاتصل الخبر بالمنصور فاستعظم ذلك « (١) .

واذا أمعنا النظر في نص ابن أبي زرع نجد ان ذلك الخبر مختلف من أساسه ويفتقد الصدق ، فمدينة باجة كان قد استولى عليها البرتغاليون للمرة الثانية في عام ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) كما سبق ان اوضحنا ، ولهذا فان استيلائهم عليها في عام ٥٨٥ هـ (١١٩٠ م) مع شلب يعتبر مستجيلا مادامت قد أصبحت منذ عشر سنوات في جوزة البرتغاليين . اما يابرة فكانت هي الاخرى في أيدي البرتغاليين ، بل ان سيطرة البرتغاليين عليها وعلى قصر أبي دانس كان له اكبر الاثر في تمكنهم من باجة واستيلائهم عليها ، لان باجة كانت تقع على مقربة من هاتين المدينتين ، بحيث كان يسهل على البرتغاليين المقيمين في احدهما الاطلاع على اخبار باجة وعلى خبايا امورها السياسية والاقتصادية (٢) . وبهذا يكون الخبر الذي أورده ابن أبي زرع لا يخلو من التشويش والاضطراب ، باستثناء التاريخ الذي حددده لاستيلاء البرتغاليين على شلب ، واعنى به سنة ٥٨٦ هـ بدلا من سنة ٥٨٥ التي ذكرها ابن عذارى . لان خروج المنصور الموحدى الى مراكش برسم الجهاد ومواجهة اعتداءات النصارى وعيئهم في اراضى الاندلس حدث في شهر ذى الحجة من سنة ٥٨٥ هـ أى في نهاية هذه السنة ، وبالتالي يكون سقوط شلب في أيدي البرتغاليين قد تم في اوائل عام ٥٨٦ هـ وليس في سنة ٥٨٥ على حد قول ابن عذارى (٣) .

وما ان علم الخليفة أبو يعقوب بتلك الانباء المقلقة حتى عزم على وضع حد لهذه الغارات المخربة ، وخرج على رأس قواته الى مراكش في

(١) ابن أبي زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ١٤٤ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٨٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٤ .

١٤ ذى الحجة سنة ٥٨٥ هـ (٢٣ يناير ١١٩٠ م) ، ثم وجه فرقة موحدية من جيشه الى الاندلس ، حيث أقامت في اشبيلية ، اما هو فقد خرج الى رباط الفتح حيث أقام نحواً من أربعين يوماً الى أن لحقت به بقية قواته من قبائل الموحدين . وفي تلك الاثناء وحتى جواز الخليفة الى طريف في ٢٣ ربيع الأول سنة ٥٨٦ هـ كانت سفن الاسطول الموحدى قد وصلت الى مياه البرتغال بنية احكام الحصار البحرى حول شلب ، وكان من الواضح أن الموحدين يستهدفون استرداد شلب ، وبالفعل بادروا الموحدون بمحاصرة تلك المدينة ، ونصبوا المجانيق وآلات القتال حول أسوارها ، وبذلك شارك الاسطول القوات البرية في استرداد شلب . ويذكر ابن عذارى أن السيد يعقوب ابن العم الأكبر أبى حفص أمر « بالحركة من اشبيلية بعساكره من أجنادها وأعرابها وما انضوى من أهل البوادي من غرناطة والحشود المطوعة الى آخرها ، ومن تأخر من صنهاجة وهسكورة من كل الجهات والمجاهدين من سائر الاشتات ، فتحرك هذا السيد وجميع من ذكر من هذه العساكر بعد انتظام السابق منهم بالآخر غرة جمادى الأولى ، وتمادى مشيهم حتى نزلوا بظاهر شلب . وفي آخر الشهر المذكور وصلت الاساطيل اليهم ، فالتام غزاة الرجال البرية والبحرية ، ونصبت المجانيق والآلات الحربية . . (١) » . أما المنصور ، فعندما جاز الى الاندلس ، واصل سيره الى قرطبة فنزل بها حيث استقبل رسل مملكة قشتالة ، وكانوا قد قدموا لعقد الصلح ، وطلب الهدنة ، فوافق المنصور على طلبهم ، كما وافق على عقد الهدنة مع ملك ليون . ثم خرج من قرطبة الى وادى تاجه ، وكان هدفه أرغام سانشو الاول ملك البرتغال على احتجاز قسم من عسكره وعسكر حلفائه الصليبيين شمالا بعيدا عن شلب ، لبضعف من الدفاع البرتغالى عنها فتسهل على الموحدين مهمة استردادها . وتنفيذا لهذا المخطط العسكرى

(١) ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٨ ،

البارع سار المنصور الى السهل الممتد شمالى شنترين ، وبدأ يحرب هذه المناطق ليشغل البرتغاليين عن شلب (١) ثم هاجم المنصور قلعة طرش (٢) ، واخرج من بها من النصارى ، ثم هدمها وسواها بالارض (٣) وتحرك بعد ذلك الى طمان (٤) Tomar الواقعة شمالى طرش ، وكانت طمان قاعدة لفرسان الداوية ، وحصنا منيعا لابرام ، فحاصرها المنصور ، ولكنها استعصت عليه ، وفى ذلك يقول ابن عذارى : « ورحل المنصور بعد فتح هذا الحصن (حصن طرش) الى حصن طمان ، فسلك فيه ذلك المسلك من الحصار ، واخذته الجيوش بالتضييق عليه من كل النواحي والاقطار ، ووافقت رسل ابن الرنك راغبا فى السلم وعقده ، ومتلطفا فيما تعجله من ربطه وشده ... » (٥)

وهكذا اضطر أبو يوسف يعقوب الى الرحيل بعد ان عقد الصلح مع سانشو الاول الذى كان مقيما فى شنترين آنذاك ، وبالتالي فان غزوته هذه لم تسفر عن أية نتائج ، بل ان بعض المؤرخين يعتبرونها غزوة فاشلة (٦) ، اذ لم يسترجع شلب ولم يستول على حصن طمان .

ب - استرداد الموحيدين لقصر أبى دانس وشلب :

كان الخليفة المنصور يسعى الى تأمين غرب الاندلس وبالذات الثغر الجوفى الممثل فى بطليوس ونواحيها عن طريق استرجاع الحصون

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ١٧٧ .

(٢) هى قرية برتغالية تعرف اليوم بأسم Torres Novas

(٣) ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٩ - عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٨٠ .

(٤) يسميها ابن عذارى حصن طمان .

(٥) ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ١٨٠ .

(٦) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٢٩ - محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ١٧٨ .

والمدن التي كان البرتغاليون قد انتزعوها من أيدي المسلمين ، فهو كرجل
 سياسى بعيد النظر كان يدرك تمام الإدراك أن الخطوة التالية في مخطط
 التوسع البرتغالى السيطرة على بطليوس وأحوازا ، وفي الوقت نفسه
 وضع في الاعتبار الاطماع القشتالية والليونية في تلك المنطقة الثغرية
 الهامة ، لاسيما بعد أن أقدم الفونسو النامن ملك قشتالة ، على الاغارة
 على أم غزالة في عام ٥٨٥هـ والاستيلاء عليها ، وكذلك كان يدرك أن
 فردلند (فرناندو الثانى) ملك ليون يعتبر بطليوس وماردة جزءا من
 ممتلكاته فبما بعد الاسترداد . وعلى هذا النحو كان أبو يوسف يعقوب
 واثقا في أن أى ضعف أو اضطراب في الدفاع عن هذه المنطقسة كفيل
 بأسالة لعاب هذه الممالك الاسبانية المسيحية المنحرفة والتي لن تتردد عن
 اغتنام الفرصة للاستيلاء على بطليوس وماردة ، وكلتاها يمهده الطريق
 للسيطرة على اشبيلية وولبة ولبلة ، الامر الذى يؤدي حتما الى ضباع
 كل الغرب الاندلسى من أيدي المسلمين . ولذلك رأينا الخليفة ابا يوسف
 يعقوب ، بعد انسحابه من حصار مدن الغرب في المرة السابقة ، قد
 استقر في اشبيلية طوال ما تبقى من عام ٥٨٦هـ ، واشتغل بالنظر في
 أمور البلاد ونشر العدل بين الناس ، واعداد نفسه لغزوة جديدة هدفها
 استرجاع شلب . والظاهر أن ذلك الهدف الاخير كان شغله الشاغل ،
 بدليل أنه مضى يجهز آلات الحرب وعدد القتال ، ويضبط نظام جيشه ،
 ويرتب أموره . وشرع على حد قول ابن عذارى « في التاهب للحركات ،
 والنظر في الآلات ، وانضمت ما تحتاج اليه منازل البلاد ، من العدد
 الحربية والاستعداد ، ولما استوفى بالعمل تكملة الآلات وانضمت الحشود
 من كل الجهات ، تحرك من اشبيلية غرة ربيع الآخر » (١) . (من سنة
 ٥٨٧هـ - ١١٩١م) .

وكانت وجهة المنصور الموحدى في هذه الغزوة مدينة قصر ابى
 دانس التي وصفها الادريسي بقوله : « والقصر مدينة حسنة متوسطه

(١) ابن عذارى ، البلبان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٤ .

على الضفة النهر المسمى شطوير ، وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب
الشفرية كثيرا ، وفيما استدار بها من الارض كلها اشجار الصنوبر ،
وبها الانشاء الكثير ، وهى فى ذاتها رطبة العيش ، خصبة كثيرة الالبان
والسمن والعسل واللحوم ، وبينها وبين البحر عشرون ميلا » (١) .

وعندما وصلت جيوش الموحيدين الى قصر ابى دانس ، قسمها
ال خليفة وفق نظام خاص ، وقام اهل الخدمة من العبيد بردم خندق
المدينة من مختلف جهاته الاربعة ، وعندئذ زجفت حشود الموحيدين الى
سور المدينة ، إما لارتقائه عن طريق السلالم الخشبية واقتحام المدينة
من أعلى سورها أو عن طريق فتح نغرات فى السور تسهل عليهم مهمة
النفوذ منها ، ولكن الحامية البرتغالية أمطرت المهاجمين المسلمين وابلا
من النبال والحجارة (٢) ، ونسببت فى هلاك عدد كبير منهم ، الامر
الذى دعا الخليفة الى اصدار امره بوقف القتال لمدة ثلاثة ايام لاعادة
تنظيم صفوف المسلمين وتعديل خططه الهجومية . وفى اثناء ذلك «وصلت
الاجفان البحرية بالعدد الحربية ، وقد تسابقت لدخول الوادى بتيسير
يعجز العقول عن تكييفه ، ويشكر القدير سبحانه على احكامه وتصريفه ،
فبهت الذى كفر ... افشبت فى يوم وليلة أربعة عشر منجنيقا ، اذ
كانت معدة بعد الفراغ من عملها ، فأحرق منها بالبلد مائتا زاحفة ،
وصواعق قاصفة ... » (٣) . وفى اليوم الخامس عشر من جمادى
الاولى ، امر الخليفة جيشه بالهجوم من جديد على المدينة بكل عنف
وضراوة ، واخذ الموحدون يمطرون المدينة ورجال الحامية بأعلى
الاسوار بقذائف المناجيق ، فأسرع سكان المدينة بطلب الإمان ، ونزلوا
لمواجهة الموحيدين صاغرين مستسلمين ، فدخلها عسكر الموحيدين ،

(١) الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص ١٨١

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٤ .

(٣) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

واستولوا عليها ، وأسر المسلمون من سكانها عددا رمزيا نقلوه بالمراكب الى اشبيلية اعلاما بانتصارهم العظيم على البرتغاليين . ثم شرع الخليفة في النظر في أمر المدينة والحصن ، فولى عليه أبا بكر محمد بن أبى محمد سيدراى بن وزير . وما ان تم له ضبط المدينة وتنظيم احوالها حتى تركها الى حصن قلمالة (١) الذى وصفه ابن عذارى بأنه « من القلاع السامية الارتفاع ، الغربية الارتفاق والانتفاع ، لايمكن من منازلته جيش ، ولا يحسن بغيره بمجاورته عيش ، وقد ملأه الكافر ابن الرنك بأنجاد رجاله ، وكماة أبطاله ... » (٢) ورغم ذلك فقد رأى المدافعون البرتغاليون استحالة التصدى لحافل الموحدين ، فسلموا حصنهم فى الحال ، فى مقابل جلائهم عنه ، فوافق المنصور ، وانتهب عسكره كل ما كان فى الحصن من أثاث وأقوات وسلاح وعدة وآلات ، ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدم وسوى بالارض ، ثم انتقل الموحدون الى حصن المعدن Almada (٣) فافتتحه وهدمه هو الآخر . وبادر سكان الحصون المجاورة باخلائها بعد ما عينوه من قوة جيش الموحدين وصلابتهم فى الهجوم على قصر أبى دانس .

أما شلب فقد نهض اليها الموحدون بعد افتتاحهم لحصن المعدن ، فوصلوا اليها فى اليوم الثانى من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ ، فنصبوا المجانيق حول أسوارها ، وطوقوها تطويق السوار بالمعصم ، وسووا خنادقها بالردم ، ثم أمطروا أسوارها بالرجوم «والبلاء يطرقهم (أى سكانها)

(١) وردت قلماله فى (ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٥) وصحتها بلالة *Palma* كما ذكرها الحميرى فى صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٥

(٣) يقع حصن المعدن جنوبى نهر تاجة قرب مصبه قبالة مدينة لشبونة ، وسمى بذلك لانه عند هياج البحر كان يقذف بالذهب والتبر ، الذى يستخرجه الاهالى من الساحل فى فصل الشتاء . (انظر الادريسى ، ص ١٨٤) .

بالصواعق سحابه ، ويراوحهم ويغاديهم بضروب المنايا عذابه » (١) .
 وذكر الحميري أن جيوش الموحيدين « أهدقت بها وأخذت بمخنقتها ..
 وجدوا في قتالها ، وبالغوا في نكاية أهلها » (٢) . وفي الخامس عشر من
 جمادى الآخرة ، استغل الموحدون غفلة الحامية عن الحراسة ، ظنا منهم
 أن المسلمين لا يقاتلون في الصباح الباكر ، فأحس أحد أدلاء المسلمين
 بغفلتهم عن الحراسة ، فتسلل وارتمى السور من ثلثة فيه ، وشبه أزره
 جماعة من رفاقه ، فرفعوا به الرايات ، وقرعوا الطبول ، وأخذوا
 يصيحون بالتكبير ، فلم يفر الحراس من نومهم إلا وهم بين مطعون
 ومضروب ، فطلبوا الأمان في أنفسهم على أن يسلموا المدينة ويخرجوا
 إلى بلادهم ، فأجيبوا إلى طلبهم ، فجلوا عن قصبة شلب في ٢٥ من
 جمادى الآخرة (٣) .

وأقام المنصور في شلب ثلاثة أيام أخرى ثم تركها بعد أن قلده على
 ولايتها ابن وزير (٤) إلى اشبيلية . وهكذا كان للنشاط المتزايد الذي
 سجله الخليفة الموحد المنصور في المجال العسكري ضد البرتغاليين، على
 وجه الخصوص ، وما أحرزه عليهم من انتصارات ، وإيثاره للجهاد
 في سبيل الإسلام ، أعظم الأثر في حماية ولاية الغرب من غزو وشيك ،
 والحفاظ على قاعدتيها الرئيسيتين : بطليوس وماردة ، في أيدي الموحيدين ،
 واسترجاع قصر أبي دانس وشلب من البرتغاليين . ثم كان انتصار
 الموحيدين بقيادة الخليفة العظيم المنصور في واقعة الأرك سنة ٥٩١هـ
 (١١٩٤م) تنويعا لهذا النشاط الكبير ، ومقدمة لمزيد من الغزوات

(١) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٢) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٦ .

(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٦ . ومن
 الجدير بالذكر أن النص الوارد في الروض المعطار للحميري مبني
 ولا يؤدي نفس المعنى في النص الوارد في البيان .

(٤) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٢٤٥ .

والانتصارات ، الى ان بدأ التصدع والانهيار بهزيمة العقاب في سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) التي فتت في عضد المسلمين ، وكان ذلك ايدانسا بالنهاية المحتومة .

ج - متابعة الجهاد في بلاد الجوف :

قضى المنصور فصل الشتاء الذى تلى وقعة الارك في مدينة اشبيلية^(١) ، فلما انقضى فصل الشتاء واقبل الربيع ، استنفر الخليفة جميع القبائل من منازلها تاهبا لتميزها ، وأمر باعداد العدة لاستئناف الجهاد من جديد على نحو اشد حماسة ، وأكثر شراسة عن ذى قبل^(٢) . وقبل أن يقرر وجهته ويعلن عن هدفه استطلع المنصور آراء أعوانه من القادة وأشياخ قبائل الموحدين حول الغزوة المقبلة ، فأشاروا عليه بضرورة تأمين بلاد الجوف نظرا لاهمية هذه المنطقة ، وتعرضها الدائم لاعتداءات البرتغاليين : فبطليوس تعرضت في السنوات السابقة ، وخاصة في عهد أبيه الشهيد أبى يعقوب يوسف ، كما سبق أن أوضحنا ، لغارات ملك ليون وملك البرتغال ، بل أن ملك قشتالة لم يتزدد في مهاجمة أحوازها هو الآخر في عام ٥٨٥ هـ ، ولذلك أخذ الخليفة المنصور بمشورتهم ، وعزم على الخروج في هذه المرة تجاه الغرب أو ما يسمى

(١) أقام الخليفة يعقوب المنصور في حصن الفرج Aznalfarache الواقع الى الجنوب الغربى من مدينة اشبيلية على الضفة اليسرى من نهر الوادى الكبير ، اذ كان يؤثر هذا الحصن على أى موضع آخر في نواحي اشبيلية (ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٩٨) . وعن حصن الفرج راجع :

L. Torres Bálbas, Aznalfarache, en al - Andalus, Vol. XXV, p. 223 - J. Guerrero/ Lovillo, al - Qasr al - Mubarak, en Boletin de Bellas Artes, Sevilla, 1974, p. 94.

وانظر : السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٨١٢ ، تحقيق أسماء قصور بنى عباد باشبيلية الواردة في شعر ابن زيدون ، مجلة أوراق ، العدد الثانى ، ١٩٧٩ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٩٨ .

أيضا ببلاد الجوف ، وشرع في السير في جيوشه الموحدية في منتصف رجب سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥ م) متجها من اشبيلية الى حصن مبتانجش Montanchez ، وكان « من المعاقبل الشاهقة - الارتفاع » ، المشهورة بالتوعر والامتناع » (١) باعتباره أهم حصون بطليوس ، وأكثرها منعة ، وأن الاستيلاء عليه يؤمن سلامة بطليوس ، ويضعف من حمايتها . وبدأت قوات الاندلس في محاصرته ، وفي اليوم التالي وصلت جيوش الموحدين وشدت الخناق عليه ، فلما أيقن حماته البرتغاليون بعث المقاومة ، التمسوا الأمان لانفسهم ، واستسلموا للموحدين ، فاحترم الموحدون عهودهم لهم واستأمنوهم على أرواحهم ، إلا أن جماعة من « أوباش العرب » هاجمتهم في الطريق ، وأبادتهم عن آخرهم ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : « القوا بيد الاستسلام ، واعتقلوا بحبل الأمام ، فاسعفوا فيما سألوه من الأمان ، وأمر القائد أبا عبد الله بن صناديد بتوصيلهم إلى حيث يأمنون من انجائهم ، وعندما سار بهم مسافة فرسخ من المحلة غشيهم أوباش من العرب فوضعوا فيهم السيوف واستأصلوهم قتلا عن آخرهم ، وسبوا ما كان معهم من النساء والفرية » (٢) .

أثارت هذه الجريمة البشعة غضب المنصور ، فأمر بسجن كل من عثر عليه من هؤلاء العرب الكائمين ، ورد النساء والأطفال إلى أهلهم من جديد . ومما لاشك فيه أن هذه الحادثة أثارت الرعب في سائر بلاد الجوف ، بدليل أن أهالي هذه البلاد أخذوا يخلون ببلادهم ويرجلون منها ، فكان ترجالة (٣) Trujillo مثلا وهى من اقرب مدن الغرب إلى بطليوس ، بادروا بالرحيل عنها ، كذلك أخذ سكان القرى المجاورة إلى مغادرتها عندما بلغتهم أخبار حملة المنصور الموحدي على بلاد الجوف .

(١) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٥١ .

وهكذا بذل يعقوب المنصور قصارى جهده لنأمين بطليوس بعد أن كانت على حافة الوقوع في أيدي البرتغاليين الذين كانوا قد جردوها من حصونها وما كان يحيط بها من مدن ، مثل منتانجش وترجالة والمعدن وقصر أبي دانس وطرش وشلب وباجة وياطرة . ولكن المنصور تمكن من استرجاع معظم هذه الحصون والمدن ، وحقق للثغر البطلليوس الأمن ولو إلى حين .

وفي غرة جمادى الثانية من سنة ٥٩٤هـ (١١٩٧م) رحل المنصور إلى بلاد المغرب بعد غزاته الثالثة في الأندلس ، وكان ملوك إسبانيا المسيحية قد التمسوا مصالحته وموادعته ، وفي ذلك يقول ابن عذارى : « ولما رأت ملوك الروم أن بلادهم ورجالهم قد أتى عليها الاستيصال والاضطلام ، وأن لا نجاة لها إلا الرغبة في الاستسلام ، وجهوا إرسالهم في طلب الصلح على ما عهد من شروط الأحكام ، فأسعفوا فيه على حكم شريعة الإسلام » (١) . وقبل سفره إلى المغرب عمد إلى تثقيف البلاد وضبطها بثقاب ولاته وعماله ، فولى على إشبيلية السيد أبي زيد ابن الخليفة ، وعلى بطليوس وجهاتها السيد أبي الربيع بن أبي حفص بن عبد المؤمن . ولم يكتف الخليفة المنصور بتولية عماله على تلك المنطقة الهامة من الأندلس فحسب ، وإنما أراد أن يطمئن ، كعادته دائما ، إلى تطبيق العدالة وعدم أخذ الأهالي بالعسف ، ولهذا السبب أمر بجباة الضرائب بالتزام العدل في جباية الأموال من الرعية (٢) .

وتوفي الخليفة العظيم أبو يوسف يعقوب المنصور ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ (٢٢ يناير ١١٩٩م) ، وبويع ولده أبو عبد الله محمد الناصر خليفة من بعده للموحدين بيعة خاصة

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٠٤ .

- ٢٥١ -

في صباح اليوم التالي لوفاته (١) ، أما البيعة العامة فقد تمت بعد أسبوع ، وكان محمد الناصر قد بوع بولاية العهد في حياة أبيه سنة ٥٨٦هـ ، اذ اختاره دون اولاده الآخرين (٢) .

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٥٣ - ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢١١ .

- ٢٥٢ -

(٥١)

بطلينوس في عهد خلفاء المنصور

١ - ضعف دولة الموحدين في عهد محمد الناصر ويوسف المستنصر :

بأمر الخليفة محمد الناصر في عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) بتفقد أنحاء دولته ، والاطمئنان على أحوالها الدفاعية ، فأصدر « أوامره السلطانية الى سائر الاقطار الاندلسية بالتحفز الاكيد على عمالها بالنظر في الآلات الحربية » (١) . ومن الطبيعي أن نتصور أن بطلينوس كانت من أهم الاقطار الاندلسية التي أمر الخليفة بامدادها بالميرة والسلاح ، اذ كانت الخط الدفاعي الرئيسي عن وسط الاندلس ، وقاعدة الثغر الجوفى ، فكان تحصينها والاهتمام بتأمينها عسكريا ضرورة استراتيجية ملحة في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الاسلام في الاندلس .

وفي شهر ربيع الاول من نفس عام ٦٠٠ هـ أصدر محمد الناصر امره بابدال ولاية بعض مدن الاندلس بآخرين ، فقد ولى أبا يحيى بن أبى سنان على بطلينوس وجهاتها وأمره بالجد والحماس في تحصين بطلينوس . ثم ولى أبا محمد عبد الواحد بن يعقوب على مدينة شلب وبلاد غرب الاندلس (٢) .

وشهد محمد الناصر هزيمة المسلمين الشنعاء في العقاب في سنة ٦٠٩ هـ ، وكان حادثة مفاجئة في تاريخ الاندلس ترتبت عليها نتائج خطيرة اذ لم تقم للمسلمين في الاندلس بعدها قائمة تحمد ، وأدت الى انهيار حكم الموحدين في الاندلس . وعرفت هذه الواقعة ايضا في المصادر المسيحية باسم لاس نافاس دى تولوسا Las Navas de Tolosa

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢١٨ .

(٢) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ٢١٨ .

كما عرفت أيضا بموقعة أبدة Ubeda لوقوعها على مقربة من هذه المدينة . وكانت خسائر الموحيدين في تلك الموقعة فادحة للغاية . ويرجع بعض المؤرخين هزيمة العقاب الى أسباب مادية ومعنوية الى جانب أسباب تقليدية معروفة تعتبر عادة السبب المباشر في هزيمة أى جيش ، فانقسام الجيش الموحدى على نفسه ، وعدم التجانس بين العناصر المكونة له ، وافتقاده لقادة تتوفر لديهم البراعة والحكمة العسكرية من أهم الاسباب التقليدية لهزيمة العقاب . ومن الاسباب المعنوية والنفسية سخط الجند على كبار قادتهم وأمرائهم بسبب تأخر تسلمهم لاعطياتهم الامر الذى أدى الى خروج الجند للقتال وهم كارهون له ، يضاف الى ذلك أن الخليفة محمد الناصر لم يكن يهتم بمشاعر العناصر الاندلسية في جيشه ، فقد أمر بقتل أبى الحجاج يوسف بن قادس قائد فوات الاندلس بسبب تسليمه قلعة رباح للنصارى دون أن يستمع الى مبرراته في ذلك كما هدد سائر أجناد الاندلس باخراجهم من الجيش مما اثار فيهم مشاعر السخط ، ونمى فيهم روح الهزيمة (١) ، وكانوا من أهم عناصر الجيش الموحدى لعرفتهم بأساليب النصارى في القتال . وكان زهو محمد الناصر بضخامة جيوشه ، واغتراره بعظم قواته ، واغفاله للحذر والاحتراز من الاسباب التى ساعدت على انهزام المسلمين في العقاب .

ثم توفى محمد الناصر في العاشر من شعبان عام ٦١٠هـ بعد أن ترك دولة الموحيدين على حافة الهاوية ، فلم تلبث أن طحنتها الفتن والنواصب ، وشملها الضعف والاضطراب في المغرب والاندلس الامر الذى ساعد الممالك المسيحية على انتزاع أهم قواعد الاندلس شرقا وغربا ، وانتهى الامر بالاستيلاء النصارى على معظم قواعد الاندلس .

وقد عجلت حالة التفكك والتطاحن والانقسام بين افراد بيت عبد المؤمن بن على بالانهيار السياسى الذى أصاب دولة الموحيدين في المغرب

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحيدين ، ص ٣٢٠ .

والاندلس عقب هزيمة العقاب ، وبدأت الخلافات بين أفراد أسرة عبد المؤمن طمعا في الخلافة تتحول الى حرب أهلية طاحنة مما كان له أذى لاثر في التعجيل بنهايتها المحتومة . فقد خلف محمد الناصر على الخلافة المؤحدية ولده يوسف المستنصر في اليوم التالي لوفاته (١) . واختلف المطادار العربية في تقدير سنه يوم بيعته عقب وفاة أبيه ، فبعضهم يحد أنه كان في العاشرة من عمره ، ومنهم من يجعله في السادسة عشرة . وإيما كان الأمر فلم يكن المستنصر عند توليه الخلافة سوى غلاما محد مجردا من المؤهلات الأساسية التي تضمن لصاحبها أن يسوس امبراطور المؤحدين في المغرب والاندلس . وقد وصفت المصادر العربية هذا الخل بأنه كان شابا لاهيا عابثا ، يميل الى حياة الدعة والترف (٢) .

ويسجل عهده بداية ظهور دولة بنى مرين في المغرب ، وبدأ الصراع بينهم وبين المؤحدين ، ومن أهم المواقع التي خاضها المؤحد معهم منقعة المشغلة التي انتهت بهزيمة المؤحدين أمام بنى مرين أخوا زفاس في عام ٦١٣هـ (١٢١٦م) ، وكان إبراهيم بن الفخار الاسلامى (وزير ملك قشتالة قد وصل قبل هذه الهزيمة بنحو عام ، رسولا م قبل ذلك الملك بشأن عقد السلم ، « فأنعم المستنصر بالله بذلك ، وو كتابين اثنين ، احدهما الى السيد أبى الربيع صاحب جيان ، والث للشبى أبى العباس بن أسى حفص والى قرطبة ، ومقتضاهم عقد السلم والمودعة مع ملك قشتالة أخراه الله على جميع بلاد المؤحد

(١) في الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر ١٢١٣م (ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٢٥٠) .

(٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٣٢٥ .

(٣) هكذا وردت في البيان المغرب (القسم الثالث ص ٢٤٤) وصحة اليهودى بدلا من الاسلامى ، وقد سبق أن أرسل ملك قشتالة يوسف بن الفخار اليهودى الى يعقوب المنصور لتجديد الص مع المؤحدين في سنة ٥٨٧ .

بالاندلس على الشروط التى عدوها ، والعهود التى عقدوها ، فالتزم اليهودى لعنه الله ما لزم ، وأنعم بما عقد من الامر وأبرم ، فصلحت البلاد الاندلسية فى هذه السنة من جهة المهادنة ، ووليها كبراء السادة وأشياخ الموحدين » (١) .

ويرجع السبب فى حرص مملكة قشتالة على طلب هذا الصلح ، رغم انتصارها الساحق على المسلمين فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩ ، أن أحوالها الداخلية فى تلك السنوات الأخيرة كانت قد تدهورت للغاية ، فقد تفشى فى مملكة قشتالة وباء خطير اهلك كثيرا من سكانها (٢) ، كما شملتها موجة عنيفة من المحل والقحط (٣) ، ونجدت أن توفى الفونسو الثامن ملك قشتالة فى عام ٦١١ هـ (١٢١٤ م) أثناء ذهابه للقاء ملك البرتغال فى بلدة بلازنسيا الواقعة على حدود مملكته ، وكان هذا الاجتماع يستهدف توثيق أواصر الصداقة بين الممالك المسيحية المختلفة ، ولكن القدر لم يمهل الفونسو الثامن ، فقد توفى فى طريقه إليها ، ودفن فى دير لاس ويلجاس أو الدير الملكى ببرغش Burgos . ولما كان الفونسو الثامن قد أنجب أربعة أبناء لم ينبق منهم على قيد الحياة سوى هنرى الاول أصغرهم الذى كان وقت وفاة ابيه فى العاشرة من عمره ، فقد تولت أمه الملكة اليثورا الوصاية عليه (٤) لفترة قصيرة للغاية ، اذ ما لبثت أن توفيت عقب وفاة زوجها الملك الفونسو الثامن بأيام قلائل (٥) ، وعندئذ تولت الوصاية على الملك الطفل « هنرى الاول »

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٤٤

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٣٤

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٤٤ - يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٨٦ .

(٤) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٣٣ - يوسف اشباخ ، المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .

(٥) اشباخ ، المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .

أخته الكبرى برنجوية ، وكانت مطلقة الفونسو التاسع ملك ليون ، وأثارت وصايتها على هنري الأول مشاكل عديدة في مملكة قشتالة كادت أن تزج بها في حرب أهلية . ثم حسم الأمر وفاة هنري الأول وهو في الرابعة عشرة من عمره في سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) (١) ، وعندئذ أعلنت برنجوية نفسها ملكة على قشتالة ، وفي عهدها « تجددت المهادنة والمصالحة بين ولاية الأندلس من السادة الموحدين بأمر المستنصر بالله وبين النصارى - ذمهم الله - وكتب الوزير أبو يحيى زكريا بن أبي زكريا لملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطليطلة كتابا من إنشاء ابن عياش يخبرها بالسلم الذي انعقد بينه وبين رسولهم « وأورد ابن عذارى نسخة منه (٢) » .

ثم استقدمت برنجوية ولدها فردلند من زوجها السابق الفونسو التاسع ملك ليون ، وتنازلت له عن الملك ، فأصبح ولدها فردلند ملكا على قشتالة تحت اسم فرنانده الثالث (٣) . وبسبب كل هذه الأحداث السابقة كان على مملكة قشتالة أن تعمل على تحييد المسلمين بطلب الصلح والمهادنة لتتفرغ لتنظيم أحوالها الداخلية .

ب - سقوط قصر أبي دانس في أيدي البرتغاليين :

انتهزت مملكة البرتغال فرصة الضعف الذي حل بدولة الموحدين عقب هزيمتهم الشنعاء في العقاب وظهور دولة بني مرين في المغرب ومناوعتها للدولة الموحدة ، وبدأت في تنفيذ أطماعها التقليدية في الاستيلاء على ولاية الغرب وضمها إلى أملاكها ، بما في ذلك بطليوس

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٨ - ٣٩١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٤٦ .

(٣) يوسف اشباخ ، تاريخ الأندلس ص ٣٩١ - محمد عبد الله عنان عصر الموحدين ، ص ٣٣٤ .

حاضرة الغرب ، فقد ذكر ابن أبي زرع أنه في سنة ٦١٤ هـ انهزم المسلمون في قصر أبي دانس على أيدي البرتغاليين هزيمة سنعاء نقارب هزيمتهم في العقاب لان العدو كان قد نزل على هذه المدينة وحاصرها ، فخرج جيش اسبيلية وجيش قرطبة وحشود بلاد عرب الاندلس بأمر يوسف المستنصر لامتدته واستنفاذه (١) ، فكانت الكارثة . ونستدل مما ذكره ابن أبي زرع على أن تهديد البرتغاليين لقصر أبي دانس ، واستيلائهم عليه كان يسكل بالنسبة للموحدين كارثة لاتقل في حجمها عن كارثة العقاب سنة ٦٠٩ هـ . فباستيلاء البرتغاليين على هذا النغر أصبح الطريق امامهم مفتوحا للسيطرة على سائر حواضر الغرب الاخرى مثل بطليوس وماردة وقاعرش . الخ . ومن هذا المنطلق حشد الموحدون جيوشهم باشبيلية وحبان وقرطبة وبلاد غرب الاندلس للتصدى لهذا الهجوم الغادر واستنقاذ قصر أبي دانس . ولكن هذه الجهود التي بذلها الموحدون للحفاظ على قصر أبي دانس ضاعت عبثا ، فبمجرد ان عاين عسكر الموحدين حشود أعدائهم حتى دب الرعب في اوصالهم وتذكروا هزيمة العقاب ، فالتمسوا النجاة بأنفسهم . وبادروا بالفرار ، وولوا الادبار ، وقوات البرتغاليين من ورائهم تحصد فلولهم ، وتمزق جموعهم ، وتفتك بهم حتى ابادتهم عن آخرهم . ولكن عبد الله بن أبي بكر بن وزير والى قصر أبي دانس أظهر شجاعة فائقة واستمات في الدفاع عن مدينته ، فقد اعتمد على مناعة تحصيناتها في التصدي للعدو البرتغالي . وعندما تبين له أن الحصار الذي فرض على قصر أبي دانس قد تحول من محرد حصار وضعه البرتغاليون بقصد الاستيلاء عليها الى حصار صليبي (٢) شامل لهذه المدينة يستهدف القضاء على قوى المسلمين تمهيدا للسيطرة

(١) ابن أبي زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ١٦١ .
 (٢) استعان البرتغاليون بأسطول صليبي يحمل حشدا من الالمان كانوا في طريقهم الى الاراضى المقدسة لمقاتلة المسلمين بحكم أنهم (أى البرتغاليين) كانوا يمارسون حربا صليبية ضد الاسلام في الاندلس .

على الغرب كله ، اخذ يستصرخ الموحدين باشبيلية ملتمسا النجدة ، فبادر الخليفة الموحدى المستنصر بتوجيه الجيوش التى اسرنا اليها ، ولكن قوات الموحدين لم تستطع ان تواجه جحافل البرتغاليين والصلبيين مجتمعين ، التى كانت تشكل كثرة عددية فاقت قوات المسلمين عددا ، فانهزم المسلمون بقصر ابي دانس ، « واستشهد فى هذه الكارثة من المسلمين مايزيد على ستة عشر الفا » (١) . وعلى الرغم من عظم الخسائر التى تعرض لها المسلمون فى الارواح والسلاح فان البرتغاليين لم يتمكنوا من اقتحام المدينة ، وظلت صامدة تقاوم بتراسة وعنف ، فى حين اخفق العدو فى مجرد فتح ثلثة فى سورها ، فاضطر المهاجمون الى صنع ابراج عالية تفوق فى ارتفاعها ارتفاع اسوار المدينة ، تم شحذوها بالورسان والرماة ، واخذوا يقذفون المدينة بالرماح والنبال ، وفى ذات الوقت تعرضت اسوار المدينة لقذائف مجانيقهم ، وعندئذ فقط ادرك اهالى قصر ابي دانس ان نهايتهم اصبحت وشيكة ، فطلبوا الامان لانفسهم فى مقابل التسليم على ان يسمح لهم النصارى بمغادرة البلاد حاملين معهم امتعتهم واموالهم ، فاستجاب النصارى لرجائهم ، ومنحهم امانا على انفسهم على ان يخرجوا من بلدهم آمنين بدون امتعة او نياب او اموال ، وتم ذلك فى رجب سنة ٦١٤هـ (١٨ اكتوبر ١٢١٧م) . وسوق الحميرى رواية هوجزة نرضح كيف سقطت قصر ابي دانس . فيقول : « قصر ابي دانس ، فبه كانت الوقيعة على المسلمين للروم فى سنة ٦١٤هـ ، واعانهم اهل الاسبونة وغيرها من مملكة ابن الرنقى ، فآخذوا فى نهب الارض تحت الحصن الى ان قنطوا ، وافضى الناس الى الهلكة ، وبلغ الامر الى الولاة الذين فى غرب الاندلس واشبيلية وقرطبة وجيان ، فتجهزوا لدفاع العدو ، وحاء منهم جيش عظيم ، لكنهم تخاذلوا على صانعتهم ، فكانت الهزيمة عليهم وولوا منهزمين ، ووقع القتل والاسر ، ولم يبرز للمسلمين من الروم الا نحو سبعين فارسا ،

(١) ابن ابي زرع ، الذخيرة السننية فى تاريخ الدولة المرينية ، الرباط ، ١٩٧٢ ، ص ٥٠ .

ورأى اهل الحصن ذلك ، فأيفنوا بالتغلب عليهم « (١) . أما عبد الله بن وزبر والى المدينة فقد استسلم للبرتغاليين ، وزعم أنه تنصر حتى يستميل النصارى الى أن يتمكن من النجاة ، وبالفعل لم تمض أيام قليلة حتى فر من معسكرهم الى دار الاسلام (٢) . أما صاحب روض القرطاس فيسوق روايتين ، جاء فى الاولى ما يلى : « وفى سنة خمس عشر وستمائة دخل الفنش ملك قشتالة قصر أبى دانس بالسيف » (٣) . وأما الثانية فقد جاء فيها : « ورجع الفنش الى قصر أبى دانس ، فحاصره حتى دخله بالسيف ، وقتل كل من به من المسلمين » (٤) .

ومن هذين النصين اللذين أوردهما ابن أبى زرع يتبين لنا أن كليهما غير صحيح ، ففي سنة ٦١٥هـ الموافقة لعام ١٢١٨م ، لم يكن ملك قشتالة هو الفنش ، والمقصود به هنا الفونسو الثامن النبيل كما ورد فى النصين اللذين أوردهما ابن أبى زرع ، لان الفونسو المذكور كان قد توفى فى سنة ٦١١هـ (أكتوبر ١٢١٤م) وخلفه على ولاية العهد كما سبق أن ذكرنا ولده هنرى الاول الذى كان طفلاً ، ثم توفى هنرى الاول فى عام ١٢١٧م ليخلفه على عرش قشتالة فرنانده الثالث ولد الملكة برنجويله Berenguela التى تنازلت له عن العرش (٥) .

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٤٠ . وقد علق ابن الابار فى ترحمته لعبد الله بن أبى بكر بن وزير أن أمره قد انتهى بأشبيلية حين قبض عليه بأمر محمد بن يوسف بن هود المتوكل ، وعلى أهل بيته ، وقد قتل هو وأخوه أبو عمرو عبد الرحمن اثر منصرفه من الواقعة العظمى عليه بماردة من الشجر الحوفى فى سنة سبع وعشرين وستمائة (انظر ابن الابار ، الحلة السبراء ، ج ٢ ص ٢٩٦) .

(٣) ابن أبى زرع ، الذخيرة السنية ، ص ٥١ .

(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٦١ .

(٥) بوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٩٢ .

كذلك لم يكن المقصود بالفنن في نص ابن زرع الملك الفونسو التاسع ملك ليون الذي لم يكن ينطلق سوى الى السيطرة على بطليوس وماردة. من بلاد الغرب ، اما قصر ابي دانس فكانت هدف ملك البرتغال . ونميل الى الاعتقاد بان المقصود بالفنن الوارد ذكره في نص ابن زرع الملك الفونسو الناسي بن سانشو الاول ، وكان قد خلف ابيه على عرش البرتغال في سنة ١٢١١م (١) ، ودام حكمه حتى سنة ١٢٢٣ . وكان الفونسو الثاني ملك البرتغال قد شارك ملوك اسبانيا المسيحية والفرنجة في وقعة العقاب (٢) . ويؤكد لويس سوارث انه هو الذي استغل مرور إحدى الحملات الحربية للمسلمين على سواحل بلاده وطلب منهم الاشتراك مع قواته في فتح قصر ابي دانس ، فحاصرتهم قواته البرتغالية وقوات حلفائه العرب في ٣ أغسطس ١٢١٧ ، واستمر الحصار شهرا ونصف الشهر وانتهى بموقعة عنيفة أسفرت عن هزيمة المسلمين واستسلام أهلها في ١٨ أكتوبر سنة ١٢١٧ ، وتبع سقوطها في ايدي البرتغاليين سقوط عدد من المراكز الامامية ومن بينها مدينة شبريد Serpa وموره Moura (٣) .

ج - محاولات الليونيين اقتناح قاصرش :

كان الفونسو التاسع ملك ليون قد خرج في سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) الى بعد الانتصار الساحق الذي احرزته قوى المسيحية في اسبانيا على قوى الموحدين في موقعة العقاب ، لمساعدة الفونسو الثامن بطل تارك الموقعة ، في فتح قرطبة وانسابه ، ولكن الفونسو التاسع لم يكن مخلصا للفونسو الثامن ، ولذلك فإنه اتجه الى بلاد العرب من جهة قوربة ، وتمكن من التغلب على قنطرة السيف ، ثم تادم سيره جنوبا ، وفي نيته غزو

(١) Crónica General de España, p. 653.

(٢) Aguado Bleye, Manual de la historia de España, t. I, p. 659.

(٣) Luis Suárez, Historia de España, edad Media, p. 277.

قاصرتس ، ولكنه تركها ، ونابح زحفه الى ماردة ، واضطر الى القفول عائدا الى بلاده بعد ان القى نفسه قد توغل في بلاد المسلمين ، وخشي أن يتعرض لاختطاف لم يحسب لها حسابا (١) .

ورأى الفونسو التاسع ملك ليون أن يصفى حساباته أولا مع ملك فستالة قبل أن يقدم على مثل تلك المغامرة ، وبالفعل تمكن في سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) من عقد هدنة لمدة عامين مع فرنانده التائب الفديس ملك قشتالة وهو في نفس الوقت ابنه من ديبا بروجويله ، وبذلك أنهى خلافاته معه ، وعقد في أغسطس سنة ١٢١٨م (٦١٥ هـ) معاهدة سلام دائم بين فستالة وليون (٢) . وعندئذ تفرغ لتحقيق هدفه بعيد المدى وهو السيطرة على فاصرتس ومدن الغرب المجاورة . وترجع همية فاصرتس بالنسبة لمملكة ليون الى انها تحمي حصن القنطرة الذي كان في ذلك الوقت مركزا لجماعة فرسان القنطرة (٣) ، ولهذا السبب بدأ حصاره لفاصرتس في منتصف نوفمبر ١٢١٨م (٦١٥ هـ) ، ولكن المدينة الاسلانية قاومته ببسالة مما اضطره الى رفع الحصار عنها في ديسمبر من نفس السنة . ثم عاود الفونسو التاسع حصاره لقاصرتس في سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٢م) بمساعدة فرسان سانتياجو ، ولكن الفونسو التاسع عاد من جديد الى رفع الحصار عنها للمرة الثانية لما أبدته المدينة واهلها من بسالة في الدفاع والمقاومة . وواصل الفونسو التاسع نطلقه الى تحقيق هدفه في الاعوام التالية : ١٢٢٣م (٦٢٢ هـ) ، ١٢٢٥م (٦٢٣ هـ) ، ١٢٢٦م (٦٢٤ هـ) وانتهى الامر بسقوط قاصرتس في أيدي اللبونيين بمساعدة بعض القشتاليين في عام ٦٢٤هـ (١٢٢٧م) (٤) . وبسقوطها انفتح الطريق امامه للاستيلاء على أهم معاقل الغرب : منتانجش وماردة والبش وبطلنوس .

Aguado Bleys, Manual de la historia de España, P 656. (١)

Ibid. p. 657. (٢)

وانظر أيضا محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٤٠ . (٣)

Aguado Bleys, op cit p. 627 (٤)
Aguado Bleys, Manual de la historia de España, p. 627

(٦)

سقوط بطليوس في أيدي الليونيين سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠ م)

١ - انهيار سلطان الخلافة الموحدية في الاندلس :

توفى يوسف المستنصر بمراكش في ١٢ ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ (١) .
(١٢٢٣ م) ، وكان سابا لاهيا يميل الى الاستمتاع بملذات الحياة ، كما
فوض أمور دولته لسفلة القوم وسفهائهم ، فضعفت دولة الموحدين في
عهده واضمحلت ، وبدأت تفقد أملاكها في الاندلس ، لاسيما وأنه لم يخرج
قط من حاضرتة مراكش الا الى تينملل للتبرك بالمهدى (٢) . وبوفاته
اضطربت أحوال دولة الموحدين ، ودب الخلاف بين أفراد الاسرة ،
واشتد تنافسهم للظفر بعرش الخلافة مما اتاح المجال لقيام الثورات في
الاندلس ، وعرض مدنها للوقوع لقمة سائغة في براثن ممالك اسبانيا
المسيحية . فعبد الله بن يعقوب المنصور الملقب بالعدل نازع أبا محمد
عبد الواحد الذي خلف المستنصر على خلافة الموحدين ، ولم يلبث عبد
الواحد أن خلع في ٢٠ شعبان من سنة ٦٢١هـ ثم قتل خنقا بعد خلعه
بثلاثة أيام (٣) . أما العدل فلم ينعم طويلا بالخلافة ، اذ ثار عليه أخوه
عبد الله البياسي الذي استعان بمملكة قشتالة لمحاربة أخيه ، فاضطر العدل
الى مغادرة الاندلس الى المغرب بعد أن فوض لآخيه أبي العلاء ادريس
مهمة النظر في شؤونها .

وكانت ظروف الاندلس قد ساءت الى درجة كبيرة لاسيما بعد غارات
الليونيين على اشبيلية والسُرف Aljarafe وطلياطة (٤) Tablada

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٦١
(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٤٧ .
ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .
(٤) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

سنة ٦٢٢هـ. (١٢٢٥م) ، وأخذت الاندلس تموج بالفوضى والاضطراب ، لاسيما بعد أن ثار أبو العلاء ادريس هو الآخر على أخيه العادل ، وخاض طاعته ، وأعلن الدعوة لنفسه في شوال سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧) . أما العادل فقد كان محبباً سيئاً ، إذ قتل على ابدري أنياخ الموحدين (١) . ثم بايع الموحدون في المنرب للمأدون أخى السادل ، ولكنهم نكثوا بيعتهم له خسبة أن يطالبهم بتأثر من قتلوه من قرابته ، وأتروا مبايعة يحيى ابن أخيه لصنر سنة . وقامت الحرب بين المأمون وابن أخيه ، ثم توفى المأمون ، وخلفه ولده الرشيد .

مهدت هذه الحوادث المؤسفة لانتهيار دولة الموحدين في الاندلس ، وتمزق وحدتها ، وقيام الثورات على الموحدين . وشهد أهل الاندلس تلك المرورة المحزنة امامهم : فمن صراعات شخصية على الخلافة الى فتن وثورات ترتبت على هذه الصراعات وتسببت في نسيان الموحدين لواجبهم الدينى وهو الجهاد . وعندئذ ظهر من بين أهل الاندلس زعيمان كان لهذا الفضل في محاولة جمع صفوف المسلمين في الاندلس ، ولم شعثهم هما : محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، ومحمد بن يوسف بن نصر . وكل ما يهمنا في تلك الاحداث أن بطليوس خالعت طاعة الموحدين في سنة ٦٢٦هـ. (١٢٢٩م) وانضمت الى دعوة ابن هود ، وحذت ماردة حذوها (٢) . وكانت بطليوس قد عانت كثيراً في الفترة الاخيرة من حكم الموحدين ، واذا كانت قد تعرضت باستمرار لاعتداءات البرتغاليين في عصر خلفاء الموحدين العظام ، فانها مرت بفترات مظلمة في عصر اضمحلال دولة الموحدين .

(١) ابن أبى زرع ، ص ١٦٥ وما يليها - ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .
 (٢) محمد أحمد عبده أبو الفضل ، شرق الاندلس في عصر دولة الموحدين رسالة دكتوراه (ص ١٧١) .

ب - سقوط بطليوس في أيدي المليونيين :

عرضنا فيما سبق لاحداث بطليوس والغرب من وجهة النظر الاسلامية ولكن علينا كذلك أن ننظر الى هذه الاحداث من خلال منظار المصادر المسيحية لنستطيع أن نلم بكل زوايا الحقيقة التاريخية الكاملة .

فعندما تمكن البرتغاليون من ايقاع الهزيمة الشنعاء بمسلمي قصر ابي دانس في عام ٦١٤هـ طلب اسقف طليطلة المؤرخ رودريجو خيمينث دي رادا من البابا هونوريوس الثالث في سنة ١٢١٧م (٦١٤هـ) أن يمنحه الحق في انشاء عدد من الكنائس التي تقرر تأسيسها في مدن تلك المنطقة ، ومن بينها شيون Chillon (١) و (المعدن) ، ومكناسة Migneza (٢) ، وم غزاله Magazela (٣) ، ومدلين Medellin ، وترجلة Trujillo ، وز فرة Zafarez (٤) . وفي عام ١٢١٧م (٦١٤هـ) نفسها منح الفونسو

(١) تقع شيون بالقرب من مدينة المعدن ، وكانت زمن المسلمين غنية للغاية بمعادنها ، لاسيما معدن الزئبق ، ولا تزال حتى اليوم تحول اسمها الفينيقي القديم Sisapo الذي يعنى المعدن ، ومنها كان يمر الطريق من ماردة الى طليطلة ، والملاحظ أن اسمها العربي «المعدن» يحمل نفس المعنى الذي تحمله اسمائها الاخرى (انظر :
(Martinez y Martinez, historia, p. 27).

(٢) تقع Migneza في نفس الموضع الذي يسميه الادرسي «مكناسة» ، ويرى مارتيث اي مارتيث أن موضع مكناسة يعرف باسم مرتفع مكناسة Cerro de Migneza وهو نفس الراي الذي يميل سافدرا الى الاخذ به ، ويقع مرتفع مكناسة المذكور على الضفة اليمنى من وادي تاجة في ملتقى الطرق من ترجلة وسمورة وط ليرة .

(٣) أم غزاله Magazela كانت تسمى قديما Contosolia ، وتقع على الطريق الروماني من ماردة الى قرطبة ، وبها حصن قديم كانت له أهمية استراتيجية عظمى في هذه المنطقة الثغرية التي طالما غزاها الفونسو الثامن ، خاصة عند احتلاله لترجلة وم دلين (انظر ابن عذاري ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٦ -

(Martinez y Martinez, op. cit p. 272).

(٤) ز فرة Zafarez تقع على نهر تيتار Teitar ، وربما كانت هي نفس مدينة Jaracs الحالية ، أما نهر تيتار فهو النهر الذي ورد ذكره في أخبار مجموعة (ص ٣٠) ، بمناسبة اللقاء طارق بن زياد بموسى بن نصير بالقرب من ط ليرة .

التاسع ملك ليون امتيازا لمرنين فرناندث رئيس جماعة فرسان قلعة رباح حصن القنطرة بكل نواحيه المتاخمة للبرتغال ، وقورية وجالستيو والقنيطرة ، وكان الهدف من هذا الامتياز اجتذاب نظام فرسان قلعة رباح الى مملكة ليون من جهة ، وتدعيم الدفاع عن مدينة القنطرة من جهة اخرى ، ولهذا فقد هاجم الفونسو التاسع مدينة قاصرث في عام ٦١٥هـ وكانت لاتزال في ايدي الموحدين .

وفي هذه المنطقة الواقعة بين القنطرة وبطليوس ، تقع مدينة كركر Albuquerque التي كان نظام فرسان سانتيا جو قد ضمها اليه في سنة ١١٧١م (٥٦٦ هـ) ، ثم استردها المسلمون في حملة سنة ٥٧٩هـ (١١٨٤م) . وكانت كركر آنذاك مهجورة لان قربها من القنطرة صعب مهمة الدفاع الاسلامي عنها ، وفي اواخر عام ٦١٤هـ (١٢١٧م) تمكن الفارس البرتغالي Alfonso Tellez de Menses وكان متزوجا من الابنة غير الشرعية للملك سانشو الاول ملك البرتغال ، من الاستيلاء على حصن كركر ، واسكن فيه مواليه واتباعه ، بالاضافة الى بعض البرتغاليين ، وقام بترميم الاسوار والتحصينات بقدر امكانه حتى يمكنه ان يتصدى للغارات التي كان يسنها المسلمون من بطليوس . ويؤكد مارتينث اي مارتينث ، استنادا الى ما اورده لابولا ، ان بطليوس منذ عام ٦١٤هـ (١٢١٧م) كانت تشكل خطرا جسيما على الفونسو تيبث Alfonso Tellez الذي تولى حكم كركر لمدة سبع سنوات ، لاسيما وانه لم يتلق اى معونة من القنطرة ولا من البرتغال .

ومما لاسك فيه ان استيلاء نظام جماعة فرسان قلعة رباح على القنطرة كان يشكل صعوبات جمة لمملكة ليون ، ذلك ان هذا النظام كان يتلقى أجوره من قشتالة ، وفي هذه الحالة لم يكن فرنانده الثالث ملك قشتالة ليرضى ان يستخدم النظام المذكور هذه الاموال في الدفاع عن القنطرة وكان من المفروض ان تستغل هذه الاموال في تحصين المواقع التي كان يحتلها فرسان هذه الجماعة داخل نطاق مملكته ، وعندئذ وازن الفونسو

التاسع الفائدة والخسارة في هذا الموضوع ، فلكى يستطيع فرسان قلعة رباح الدفاع عن الحدود الليونية ضد المسلمين ، وتكريس جهودهم على وجه الخصوص للتمسك بالقنطرة والدفاع عنها ، قدم لهم هبة في ٦١٥هـ (يناير ١٢١٨م) قوامها قطاع في مدينة البه دى توربس Alba de Torbus وبعض اقطاعات أخرى كان يمتلكها الملك في جاما ، ويبدو أن فرسان قلعة رباح لم يتمكنوا من ارضاء أى من الملكين ، ولهذا فقد اندمجوا في نظام سان خوليان دل بيريرو بعد أن تنازلوا له عن الموقع (أى عن مدينة القنطرة) وعن كل أملاكهم وأمنياتهم في مملكة ليون .

وعندئذ رأى الملك الليونى الفونسو التاسع ، أنه أصبح من الضروري التوسع في نظام فرسان سان خوليان الذى سمي منذ ذلك الحين بنظام فرسان القنطرة . وتحقيقا لهذا الهدف غمر الفونسو التاسع نظام فرسان القنطرة بالهبات التى شجعتهم على تعمير المناطق الثغرية التابعة لها ، كذلك قام الملك الليونى بانتزاع بعض الاقطاعات من جماعة فرسان المعبد في عام ٦١٧هـ (١٢٢٠م) ليمنحها لنظام فرسان القنطرة . وتجنباً لما يمكن أن ينسب من نزاع بين النظامين ، منح الملك لفرسان المعبد (الداوية) مدينة البه دى اوستى Alba de Auste ، كما منح في ١٢ أكتوبر من السنة نفسها لنظام فرسان القنطرة الحق في تلقى رسم عبور بعض مواضع من جليقية حتى يتيح لهم العائد الانفاق على الترميمات الهامة في حصن القنطرة . وفي نفس الوقت منح نفس النظام حصن ميلانا Milana وخول له امتيازاً يقضى بمنحه حق بيع الحصون والمواضع التى يغتمونها مستقبلاً من المسلمين في الثغر الجوفى (استراما دورة - ايون) .

وهكذا ازدهر نظام جماعة فرسان القنطرة ، وأصبح في ظروف أفضل للهجوم على المسلمين المرابطين على الحدود . وفي ربيع تلك السنة (٦١٧هـ) استولى جماعة فرسان القنطرة على بلدة بلنسية القنطرة ، وعلى الرغم من أن الاخبارى توريس يشير الى أن نظام القنطرة دخلها عنوة إلا أن الأرجح أنها كانت مهجورة أو على الأقل كانت خالية من

السكان كالشان في بلدة كركر انتى عمرها الفونسو نيين Alfonso Tellez وكما كان الحال في عدد من المواضع الصغيرة الواقعة في المناطق الامامية من الحدود . ويسوق مارتينيت اى مارتينيث رواية نقلها عن حوليات طليطلة هى مثل صارخ لفئة من المغامرين المسيحيين كانوا يخرجون في قوة من اصحابهم لاحتلال بعض هذه الحصون المهجورة من اصحابها ، فيحصنونها ويتخذونها قواعد عسكرية امامية لهم ، وجاء في الحوليات المذكورة في سياق حادثة وقعت في شهر اغسطس من نفس السنة نصها : « وجاء سانشو فراندث Sancho Ferrandez ابن الملك فرنانده الثانى ملك ليون ابن الامبراطور الى طليطلة ، وقال انه سيمضى الى ملك مراكش وسيسبب له خسائر كثيرة ، فدفعه عدد كبير من المسيحيين واليهود ، فطلب منهم ان يصحبوه الى اشبيلية ، ووعدهم بأن يدفع لهم هناك ، فاستجابوا له ظنا منهم انه سيمضى بهم الى اشبيلية ، ولكنه ضل السبيل ، ووصل الى كانيا ميرو ، وهو حصن عظيم ، وسكنه هو واصحابه ، وتسبب في الحاق كثير من الاضرار بالمسلمين . وفي يوم الثلاثاء وبينما كان سانشو فراندث باعلى جبل هاجمه دب وقتله ، وفي اليوم الثالث (الخميس) جاء ملك بطليوس Badalloz في قوة كبيرة من المسلمين واستولى على كانيا ميرو وذبحهم جميعا وكان ذلك في يوم ٢٥ اغسطس » .

وواضح من النص السابق ان سانشو فراندث الذى كان مكروها من اخيه ملك ليون رحل الى طليطلة للبحث عن رجال يشاركونه المغامرة على غرار المغامر الفونسو تيبث في كركر ، وبعد ان خدع الكثيرين ووعدهم بالسير الى اشبيلية حيث يتلقون من اميرها الموحدى مرتبات ضخمة ذهب معهم لتعمير موضع من استرامادوره يقع على الحدود المهجورة التى لايقدم على الاقامة فيها ونزلوها احد سواء من المسلمين او من المسيحيين ، وكان الموضع الذى نزله سانشو من العزلة بحيث كانت تأوى اليه الوحوش ، ولا شك ان الجبل الذى هاجمه فيه الدب هو جبل وادى لب Guadalupe وكانت تكسوه غابة تسكنها الوحوش ، وفي سنة ٦١٩هـ (١٢٢٢م) قرر الفونسو التاسع ، وكان قد تصالح مع ملك البرتغال ،

توجيه حملة على الثغر الأدنى ومحاصرة قاصرش كما أشرنا من قبل ، وشرع في ذلك في أواخر يوليو ، وهناك تجمع لديه كثير من فرسان الجماعات الدينية العسكرية وحشد كبير من المقاتلة ، وشرع الملك في نصب المجانيق لتخريب الاسوار ، ونجح رجاله في فتح ثغرة كافية لاقتحام المدينة ، ولكن الفونسو تلقى في تلك اللحظة رسولا من قبل خليفة الموحدين . يعرض عليه مبلغا كبيرا من المال مقابل أن يرفع الحصار عن قاصرش ، فلم يتردد الملك الليوني في قبوله ، وقفل عائدا الى مملكته ، وهكذا انسحب ملك ليون بعد أن قبل العرض السخي مع عدد من الاسرى المسلمين بالإضافة الى ما حمله معه من الغنائم ، ونبين فيما بعد أن خليفة الموحدين سخر منه ، ولم يدفع له المال الذي كان قد وعده به . وترتب على هذه الخدعة أن حصن المسلمون قاصرش ، وأصبح الاستيلاء عليها بعد ذلك أمرا عسيرا (١) .

وكان سانشو الثاني قد خلف أباه الفونسو الثاني على عرش البرتغال منذ سنة ١٢٢٣م ، وكانت احوال دولة الموحدين آنذاك في عاية السوء ، لاسيما بعد وفاة المستنصر الموحدي واحتدام الخلافات بين أبناء أسرة عبد المؤمن . وفي أثناء ذلك انصرف الفونسو التاسع الى الاشتغال بمشاكل مملكته . وفي سنة ١٢٢٥م استصرخه الفونسو تيبث صاحب حصن كركر والذي ظل خلال سبع سنوات يحارب المسلمين من حصنه ، وتعرض مرات عديدة للهلاك عندما كان المسلمون يحاصرون حصنه ، ويرغمونه على النحصر بداخله والدفاع من وراء اسواره ، وقد لجأ الفونسو تيبث الى البابا كي يتوسط له عند فرسان ساننياجو الذين كان يستصرخهم لمساعدوه في كل مرة يهاجم فيها المسلمون حصنه . ولم يتردد ملك ليون هذه المرة في القيام بحملته الى قاصرش التي أشرنا اليها وعاد منها بعزيمة كبيرة . وفي العام التالي (ربيع سنة ١٢٢٦م) قام بحملة أخرى الى منطقة بطليوس في الوقت الذي كان ملك البرتغال يتوجه فيه نحو البش Elvas

وربما لم تكن هاتان الحملتان الموجهتان من الملكين المسيحيين قد أعدتا عرضاً أو أنهما خرجتا بمحض الصدفة ، ومن المرجح أنهما تما نتيجة اعداد واتفاق مسبق بين الملكين . وعلى أى حال فقد اجتاز الفونسو التاسع وادى تاجه عن طريق القنطرة ، وتوغل فى منطقة بطليوس ، وعاشت فواته فى احوازها عيثا شديدا ، وأضرمت النيران فى كل ما قابله من عمران ، وانتسفت المزارع ، أما سانشو الثانى فلم يكتف بمجرد شن الغارات على مزارع البش ، وإنما عزم على الاستيلاء عليها ، فضيق عليها الحصار ، وتمكن من الوصول عند أسوارها ، وكاد أن يهلك لولا أن أنقذه الفونسو مندث ساراينس Alfonso Mendez Sarracines

فأخفاه فى غار ليحميه من المسلمين ، ولما عاد الفونسو التاسع هاك ليون من حملته ووصل الى مدينة السبطاط Ciudad Rodrigo منح رئيس جماعة فرسان القنطرة امتيازات جديدة ، وعندما وصل الى قورية فى نوفمبر سنة ١٢٢٧م منح جماعة فرسان القنطرة مدينة سلباليون المجاورة لبلدة ساجوبال Sagubal . ومن المعتقد أنه استغل وجوده فى قورية فى هذا الشهر ليقوم بإحدى غزواته التقليدية على الثغر ، رعله أشتبك آنذاك مع المسلمين فى معركة دارت بالقرب من نهر بوبركو Puerco ثم خرج مع الملك فى حملته التالية سنة ١٢٢٧م عدد كبير من فرسان القنطرة ، وشارك معهم غرسيه سانشو رئيس هذه الجماعة ، كما شارك معهم أيضا رئيس جماعة فرسان سانتياغو ويدعى بدرو جنثالث منجو ، واستبان ذى بلمونتى رئيس جماعة فرسان المعبد وغيرهم (١) . وفى هذه الاثناء اشتد النزاع فى صفوف المسلمين خاصة بعد ظهور ابن هود الذى انضم اليه معظم قواعد الاندلس ، وعزم الفونسو التاسع ، وكان قد شاخ وهرم ، على اصلاح أخطائه القديمة ، فصمم على افتتاح كل اقليم استرامادوره الممتد جنوبى واديانه ، وكان فى امكانه ان يفتح ذلك لولا ان عاجله الموت وهو على وشك اتمامه . وكان فى بلاطه فارسان برتغاليان

يتسمان بالشجاعة والاقدام كانا لايقنعان الا بالغزو العسكرى الشامل هما الامير بدروسانشث ابن ملك البرتغال سانشو الاول وكان يقوم بدور رئيس ديوان ملك ليون ، والثانى مارتين مانشت ، وهو اعظم فرسان جيش مملكة ليون فى جليقية . وكان هذان الفارسان يتمتعان بمكانة عسكرية فى مملكة ليون ، وقد صرفا كل جهودهما فى تعبئة قوات ليون على الحدود الاسلامية تاهبا لاغتنام فرصة تحرك قوات البرتغال وقشالة فى نفس الوقت . وهكذا كان سانشو الثانى متاهبا لحصار البش Elvas ، بينما اجتاز فرنانده الثالث سهول الاندلس ، وأرسل الى ابيه الفونسو التاسع بعض قواته امدادا له . وفى ربيع سنة ١٢٢٩م تجمع الجيش امام اسوار قاصرش التى رغم حصانتها على حد قول لوكاس دى توى Lucas de Tuy الا ان حاميتها لم تكن كافية لكى تصمد لفترة طويلة ، وقد سهل ذلك سقوطها فى ايدى اللبونيين فى ٢٣ ابريل من نفس سنة ١٢٢٩ (٦٢٦هـ) . وقد ترتب على سقوط قاصرش احتجاج جماعة فرسان سانتياجو الذين كانوا يؤمنون بأحقيتهم فى امتلاك قاصرش على اساس ان الملك فرنانده الثانى كان قد وعدهم بمنحها لهم . ولكن لما كان الفونسو التاسع راغبا فى ضم هذه المدينة لمملكة ليون ، فقد اعتبرها حدا ، ومنحها امتيازات للتعمير ، ولكى يرضى جماعة فرسان سانتياجو ، منحهم حق امتلاك مدينتى كاستروثوراف، Castrotoraf وفياتافيله Villafila ، كما قدم لهم بالاضافة الى ذلك مبلغا من المال يقدر بألفى مرابطة من الذهب ، هذا بالاضافة الى أنه وعد هذه الجماعة بأنه اذا قدر له يوما ما افتتاح ترجمة وسنت اقروح ومنتانجش ومدلين فانه سيبهب بعضها الى الجماعة المذكورة (١) .

وبينما كان الملك مشغولا اثناء مقامه بقورية بحل مشاكل الامتيازات الممنوحة لفرسان سانتياجو كان الجيش قد زحف بقيادة بدروسانشث من

نابصر إلى ماردة ، واحتل الطريق المؤدية إلى منتانجش بدون مقاومة ،
 كما احتل جميع المواضع المجاورة وهي المزهارين Almoharim ، والكويسكر
 Aleuscar ، وقرمونيتا Caumonita والحصين Aljucén (١) .
 وثان حساس المليونيين وفرحتهم بالاستيلاء على قاصرش ومنتانجش
 وماردة في شهر واحد ، جعل أحد المؤرخين يشيع ظهور القديس أنتياشو
 بوضوح مع جبهة من العسكر البيض وهم يدرعون بسيوفهم في المسلمين ،
 وهذا الزعم يعبر عن روح الحساس التي كان فرسان سانياجو يقاتلون
 بها المسلمين (٢) .

وتم سقوط ماردة في شهر مايو ، ونسندل من السرعة الفائقة التي
 تمت بها هذه المرحلات ، إلى أن الدفاع الموحدى عن هذه المناطق كان
 هزلاً ، وقد كان ذلك الذعف في المقاومة أمراً دليلياً ، خاصة إذا ما أخذنا
 في الاعتبار الظروف السيئة التي كانت تمر بها دولة الموحدين في تلك
 الآونة ، من صراعات وطاعين وفتنات سنية بين أفراد الأسرة الحاكمة ،
 وشورات داخلية جامحة ، وقد أدى ذلك كله إلى انصرافهم عن تنظيم
 سطط الدفاع عن مدن الأندلس المهددة ، ذاك الحين بالغزو المسيحي ،
 ولذلك فإن مؤرخنا مثل مارتينث إي مارتينث يرى أن الحاميات الإسلامية
 كانت "تسلم بحجرت تاترها أنذار المسيحيين ، أيماناً منها بعجزها عن

(١) ابن الأثير ، زمارتوس لبطلانوس ما حملها من قرى ومدن استرعى نظري
 مدون من المرحلات الماضية للمدينة ، ون بينها قرية الحصين Aljucén
 وواضح من اسمها الأسباني أنه يحرف من لفظة عربية أما أن تكون
 من « الج » وهو اسم علم لعله اسم قائد أو حاكم لهذه المدينة
 أو أنها مرفقة من « الحصين » وهو نصير حصن ، نسبة إلى
 الحصن ، هذه الفرية ما تزال آثاره ترتفع في شوارع على تلة
 مرفوعة .

(٢) شونة لارتاس دي توى ، وقد أورد مارتينث إي مارتينث مقتطفات
 طريفة منها (انظر A. Arias y Martínez, op. cit., p. 230.

التصدى لجيوشهم لاسيما وأن الجيوش الليونية كانت كثيفة العدو الامر الذى دفع الحاميات الاسلامية الى المبادرة بالتسليم^(١) .

وهذا الرأى الذى ساقه مارتينث قد يكون على جانب من الصواب فيما يتعلق بكثافة جيوش الليونيين ، ولكن مارتينث جانب الصواب فى قوله أن المدن الاسلامية كانت تستسلم بمجرد تلقيها أول تهديد مسيحي لحامياتها . وهذا القول مجاف للحقيقة ومخالف للواقع التاريخى ، فكل المدن الاسلامية التى سقطت فى أيدي الجيوش المسيحية كانت قد أبدت من ضروب المقاومة والبسالة والبطولة صورا مشرفة ، فحصن القصر (قصر أبى دانس) لم يستسلم بمجرد رؤية حاميته لحشود العدو ، بل انه قاوم وناضل حتى أن العدو البرتغالى اضطر الى صنع أبراج عالية تمكنه من فتح ثغرات فى أسوار المدينة . وهناك مثل آخر أكثر تعبيراً وهو مدينة قاصرش التى حاصرها الملك الليونى أكثر من مرة طبقاً للروايتين المسيحية والاسلامية ، وفى كل مرة كان الملك يضطر الى رفع الحصار ، ليعود بعد فترة الى محاصرتها ، وفى اعتقادنا انه لولا الصراع الداخلى الذى فكك أوصال الدولة الموحدية لمكانت هذه المدن قد صمدت بقوة أمام هذه الحملات .

وفى ٣٠ مايو من سنة ١٢٢٩م وصل الملك الليونى الفونسو التاسع الى حصن الطليعة ، وهناك أصدر قراراً منح فيه ماردة لصالح كنيسة شنت ياقب الرئيسية Santiago ، وفى ذلك لم يتجاوز التقاليد المتبعة والتى كان يعمل بها شيوخه الذين كانوا يعتبرون ماردة حقاً لاسقفية شنت ياقب وذلك منذ سنة ١١٢٢م التى صدر فيها القرار الذى يبيح لمقرشنت ياقب حرية التصرف فى اختصاص ماردة ، وعلى هذا الاساس فقد قرر الفونسو التاسع أن يتنازل عن ملكيته لماردة عقب سقوطها فى أيدي قواته . وقدّر لنظام جماعة فرسان سانتياجو أن يظفر بعد ذلك

بنصف ماردة بحكم تبعيته لاسقفية شنت ياقب ، ولكن ذلك لم يحدث
الا بعد الاحداث التالية (١) .

وفي نفس الوقت الذي كانت قوات مملكة ليون تستولي فيه على
ماردة ، كان البرتغاليون بدورهم يسيطرون على البشر Elvas ، وجمانية
Jurumenha ، وشيريه Serpa ، وهي مدن كان الموحدون قد استردوها
من جرائده الجليقي (٢) . « وبعد سقوط ماردة ، تابع ملك ليون فتوحاته ،
ولكن بلغه ان ابن هود قد اقبل على رأس جيوشه بعد ان علم المصير
الذي آلت اليه ماردة ، لكي يفوت على الجيش الليوني فرصة الاستيلاء
عليها ، وهنا فقع في حيرة امام الاختلاف بين المصادر العربية والمصادر
المسيحية » ، فبينما يذكر كل من ابن زرع في روض القرطاس (٣) ،
والمقري (٤) في نفح الطيب ان ابن هود اشتبك مع قوات الفونسو التاسع
قبل سقوط ماردة ، تشير المصادر المسيحية المعاصرة امثال لوكاس دي
توي ، ان المعركة بين ابن هود وقوات ليون حدثت بعد سقوط ماردة
بالفعل ، وقد اكد هذه الحقيقة مارتينث اي مارتينث في كتابه عندما اورد
وثيقة هامة للغاية معاصرة لهذه الفترة ، ووضعها تحت عنوان ملحق رقم
٢٥ ذيل بها كتابه ، « ونلاحظ انه في هذا الملحق اشارة الى انه في ٣٠
مارس سنة ١٢٣٠م (٦٢٧هـ) دارت المعركة وان الملك كان موجودا
انذاك في ثارفا Zarza على مقربة من ماردة (٥) . وبالرجوع الى ابن
عذارى في البيان نطالع النص التالي : « وفي سنة سبع وعشرين وستمائة

Martinez y Martinez, op. cit. p. 287.

(١)

(٢) راجع مدونتي قلمرية ورودريجو الطليطلي الواردتين في كتاب
Historia de Badajoz للمؤرخ الاسباني البطليوس مارتينث

اي مارتينث ، ص ٢٨٧ وكذلك :

Primera Cronica general de España, p. 653.

(٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٨٢ .

(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٨٢ .

(٥) انظر ملحق رقم ٢٥ في : Martinez y Martinez, op. cit., p. 287.

تحرك المتوكل على الله بن هود بجيوش عظيمة من المسلمين الى غزو اعداء الله الكافرين ، فالتقى مع عساكر الروم على ماردة ، فدفعت فيهم بنفسه بنجدته وعزمه ، ثم انهزم الى ساقلته ، فوجد الناس قد ولوا منهزمين هنالك من اجل ذلك ، وكان من طبعه ملولا عجولا ، وكانت هذه الغزوة اول غزواته واضخمها ، فلم ينصر فيها .^(١) « . وفي هذا النص ما يشير الى ان معركة ابن هود مع الليونيين حدثت عقب سقوط ماردة وليس قبلها ، فابن عذارى يقول ان ابن هود تقدم الى « غزو الكافرين على ماردة » ، فكلمة غزو تؤكد ان الليونيين كانوا قد استولوا على ماردة ، وان ابن هود يسعى الى غزوها ، والا لكان قد استخدم تعبيرا آخر وهو « للقاء العدو » مثلا او « لمحاربة العدو » ، ولذلك فنحن نميل الى الاخذ بالرأى القائل ان لقاء ابن هود بالليونيين تم بعد استيلاء العدو على ماردة . ومن الجدير بالذكر ان بعض الباحثين الاسبان المحدثين ، يؤكدون ان المعركة المذكورة حدثت قبل سقوط ماردة .^(٢)

ومن المرجح ان يكون ابن هود قد اقبل الى ماردة عن طريق الجادة الممتدة من قرطبة وتمر بنبع اوبيخونا Fuento obejuna وثلمية Zalamea ، ونزل بالموضع المسمى هورنا تشوس Hornachos ويقع على مقربة من ثلمية ، بدليل ان هذا الموضع ورد ذكره في احدى الهبات الممنوحة على انه « منازل ابن هود » Posadas de Abenfud وهو اسم يشير

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٧٠ .
(٢) يذكر Aguado Bleye

Aguado Bloye, Manual de la historia de España, p. 657

ويؤيده لويس شوارث (Luis Suárez, op. cit. p. 283) ان الفونسو التاسع تغلب على منتانجش ، ثم حاصر ماردة ، ولم يلبث ان رفع الحصار عنها لمحاربة ابن هود الذي سارع لنجدة اهل ماردة ، فهزمه الفونسو التاسع عند حصن الحنش ، واستولى بعد ذلك على ماردة ثم على بطليوس والبش وعلى حصون أخرى مجاورة لبطلليوس كانت خالية . ويضيف لويس شوارث ان الفونسو التاسع قدم البش هدية الى سانشو الثاني ملك البرتغال بمناسبة المصالحة التي تمت بين الملكين . وقد سبق ان ذكرنا ان البش سقطت في ايدي البرتغاليين

الى معسكر ابن هود (١) . وتذكر المصادر المسيحية المعاصرة انه نشبت بين الفريقين معركة حامية عند حصن الحنش Alanje ، انهزم فيها ابن هود هزيمة ساحقة (٢) ، وتقهر الى جنوبى الاندلس بعد أن فقد معظم جيشه . ولم يحاول ابن هود بعد تراجعه أن يعيد الكرة على العدو ، ليس لخوفه من الدخول فى معركة جديدة مع جيوش ليون ، وإنما لان بلنسية فى ذلك الوقت كانت موضع منافسة بين بعض الثوار ، بالإضافة الى تلقيه استغاثة من قرطبة بتقدم قوات قشتالة نحوها (٣) .

وفى يوم ٣٠ مارس ١٢٣٠م (٦٢٧هـ) أصدر الفونسو التاسع أثناء وجوده فى ثارثا Zarza عدة هبات ، من بينها بيوت بماردة كانت ملكا لرجل مسلم يدعى عبد العليم بن طبريطة Abentobrita ، وبعض سواقى قريبة من الجسر وباب المدينة ، وكانت ملكا لبران البطليوسى Padazani ، وحقل كان ملكا لعلى الاعرج ، وقد قدم الفونسو هذه الهبات الى نظام جماعة فرسان القنطرة مكافأة منه على الخدمات الجليلة التى قدموها فى مناسبات عديدة لاسيما أثناء استرداده لماردة وفى المعركة التى دارت مع ابن هود فيما وراء واديانه على مقربة من هذه المدينة عند حصن الحنش .

وكانت بطليوس قد أصبحت فى وضع سيئ للغاية ، فاذا كان سقوط ماردة وقاصرش قد ضيق عليها الخناق من جهة المشرق ، فقد ازداد التضيق عليها أكثر عندما تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على البش وبلمانية من الغرب ، وبدأ جماعة فرسان المعبد على الفور ، سواء من مملكة ليون أو من البرتغال ، يجتاحون سهول شريشه Jerez de los Caballeros

(١) Martinez y Martinez, op. cit, p. 288.

(٢) محمد احمد ابو الفضل ، رسالة الدكتوراه التى تقدم بها الى جامعة الاسكندرية عن شرق الاندلس فى ظل دولة الموحدين ، ص ١٧٦ .

(٣) Gaspar Remiro. Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905, P. 277.

من الجنوب ، وعمدت بطليوس كل وسيلة لاقامة خطوط دفاعية امامية . ومن المؤكد أن سكان القرى الصغيرة المتناثرة حول بطليوس أمثال الزلاقة Sagrajas ، وبوتوا Botoa ، ومنتمبور Montemayor ، وتلينه Talena ، وبرثيال Berceal ، وغيرها كانوا قد تحصنوا داخل مدينة بطليوس ، لعدم شعورهم بالامن خارجها ، وكان كل ما ياملون فيه أن يتلقوا مددا أو نجدة من الممكن أن تصل اليهم من جنوبى الاندلس ، ولكن تلاشى أملهم الاخير فى هذه النجدة بعد أن تعرض ابن هود لهزيمته الشنعاء عند حصن الحنش ، وأقبال جحافل الليونيين الى ضواحي المدينة . ومن المرجح أن بطليوس استسلمت منذ الاشتباكات الاولى ، ونستند فى ذلك الى مرور الاخباريين المسلمين على هذه الحادثة مرا سريعا ، فبيدما يذكر المقرئ (١) أن بطليوس استسلمت بعد أن فقدت كل أمل فى وصول امدادات ، تذكر مدونة قلمرية أنها استسلمت فقط دون اضافة اية تفصيلات (٢) ، وتنهج الحوليات الطليطلية نفس النهج ، أما لوكاس دى توى فقد التزم الصمت حيال هذه الحادثة ، ولم يزودنا بأى تفاصيل عنها ، الامر الذى يحمل على الظن بأن فتحها جاء يسيرا . وذكرت مدونة قلمرية أن سقوط بطليوس تم فى عيد الروح القدس الموافق ٣ يونيو .

وبعد أن سقطت بطليوس فى ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) منح الفونسو التاسع فرسان القنطرة بلدة شريشة وفريشنتال وبرغش والكونشيل على أثر استيلائه عليها . ولاندرى فى أى تاريخ تلقى جماعة فرسان القنطرة كنيسة بطليوس وممتلكات أخرى بها ، ومما لا شك فيه أن الفونسو التاسع سار الى ليون فى شهر يوليو بدليل انه كان موجودا فى سمورة فى شهر اغسطس .

ومن واقع الوثائق عرفنا أن الفونسو التاسع عمر بطليوس بسكان

(١) المقرئ ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٨٢

Martinez y Martinez, op. cit. . Apendice 28, 290.

(٢)

جدد من النصارى ، وإن كان بعض سكانها من المسلمين ظلوا يقيمون فيها وعندما كان الفونسو التاسع فى سمورة منح جماعة سانتياجو امتياز مدينة منتانجش وحصنها ، وقد ورد ذكره على أنه ملك لليون وجليقية وبطليوس فى تلك الوثيقة (١) . وتوفى الفونسو التاسع فى ٢١ سبتمبر ١٢٣٠م بعد أن حقق أعز أمانيه .

وفى النهاية ، وبعد أن تم سقوط بطليوس ، يجب أن نذكر حقيقة تاريخية هامة ، وهى أن هذه المدينة لم تسقط فى أيدي الليونيين إلا بعد أن انهارت دولة الموحدين تماما ، وافتقدت المدينة المدافعين عنها والحامين لذمارها ، وأصبحت تعتمد فى تقرير مصيرها على مقوماتها الذاتية وحدها ، وينبغى أن نقر بأن الموحدين كانوا فى فترة قوتهم يهتمون بأمر هذه المدينة العريقة التى كانت قاعدته الثغر الجوفى . وعلى الرغم من أن بطليوس فقدت تفوقها الثقافى والعلمى والاقتصادى الذى شهدته زمن ملوك الطوائف ، وحلت محلها اشبيلية ، حاضرة الموحدين فى الاندلس ، إلا أنها أصبحت موضع اهتمامهم العسكرى ، فيكفى أنهم اهتموا بتدعيم قصبته المشهورة لتكون خطا دفاعيا أمام دولة البرتغال ، تحمى الحاضرة اشبيلية (٢) .

Martinez y Martinez, op. cit. Apendice No. 28.

(١)

(٢) عبد الله علام ، الدولة الموحدية بالمغرب ، ص ٢٨٣ .

الخاتمة

من خلال دراستنا الطويلة للتاريخ السياسي لبطليوس في العصر الاسلامي ، على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون ونصف القرن (من سنة ٢٦١ هـ حتى سنة ٦٢٧ هـ) وعرضنا فيه الى الحوادث التي تعرضت لها المدينة منذ تأسيسها في زمن الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط حتى سقوطها في ايدي الميوسيين ، استطعنا ان نتوصل الى نتائج جديدة قد تكون لها قيمتها بالنسبة للدراسات التاريخية الاندلسية ، استندنا في بعضها على الحقائق الاثرية كنقوش العملات التي تم العثور عليها في ارض بطليوس ، او النقوش الكتابية لبعض شواهد القبور من عصر دويلات الطوائف ونهاية عصر دولة المرابطين في الاندلس ، بالإضافة الى ما أسفرت عنه الحفائر الاثرية التي أجريت منذ سنوات خمسة مضت في موقع بطليوس ، وفي البعض الآخر على المصادر العربية بالدرجة الاولى ، وعدد من المصادر والمدونات الاسبانية المسيحية التي امكنا الرجوع اليها للاسترشاد بما ورد فيها من نصوص تتعلق بطبيعة العلاقات السياسية التي كانت قائمة بين ممالك اسبانيا المسيحية وبين بطليوس المدينة والامارة . وفيما يلي عرض لبعض هذه النتائج :

١ - اثبتنا ان بطليوس مدينة قديمة للغاية ، فقد أسفرت الحفائر الاثرية التي اجراها عالم الآثار الاسباني فرنشكو بالدس فرنانديث Francisco Valdés Fernández في موقع قصبة مدينة بطليوس في الموسم الاثري الاول (يوليو ١٩٧٧) عن كشف آثار ترجع الى العصر البرنزي ^(١) ، يضاف اليها ما تم كشفه في مواضع مختلفة من مدينة بطليوس من آثار من العصر الحجري ، يحتفظ بها متحف الآثار المحلي ببطليوس .

٢ - ناقشنا النظريات المختلفة المتعلقة بأصل تسمية بطليوس ،

(١) Abdel Aziz Salem, Noticias en la Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos de Madrid, 1976 - 1978, pp. 131, 132.

وفندنا الراى القائل بأن اسم بطليوس تحريف من Pax Augustus
أو Pax Julius ، اذ أن هذين الاسمين أكثر ارتباطا باسم مدينة باجة ،
وعرضنا أسماء مواضع فى شبه جزيرة أيبيريا تحمل المقطع الاخير لبطليوس ،
ورجحنا أن يكون لاسم بطليوس علاقته باسم وادى اللوز أو بلد اللوز أو
بلدة اللوز ، على أساس أن الاسم جاء بهذه الصورة فى المدونة الاولى
لتاريخ اسبانيا العام Badaioz ، كما ورد فى رسالة موجهة من فرناندو
ملك البرتغال فى سنة ١٤١٧م باسم بادالوس Badalouze على أنه
بطليوس ، وهو اسم قريب النطق من بطليوس . ومن الغريب أن اخذ
أبواب مدينة قرطبة بسورها الغربى ، وهو باب بطليوس ، يحمل اسما
آخر هو باب الجوز ، كما أن الفحص الممتد شرقى بطليوس تكسوه أشجار
البلوط والجلوز ، ونعتقد أن الاسم العربى « بطليوس » جاء محرفا
من اسم وادى اللوز ، ربما لأن التسمية كانت صادرة من جماعات المولدين
والمستعربين الذين استقروا فيها منذ أن مصرها عبد الرحمن بن مروان
الجليقى ، وتجمع هذه التسمية بين الصوت العربى لوادى اللوز ونطقه
بالاسبانية ، فكلما وادى اذا تحولت الى الاسبانية تنطق « وادا » Guada
كالحال فى الوادى الكبير Guadalquivir ووادى الحجارة Guadalajara
كما أن كلمة بلد تتحول فى النطق الاسبانى الى « بيا » (Valla) كالشان
فى بلدة Valladolid أى بلد الوليد . اما « بلدة اللوز » فنطقها
بالاسبانية يصبح قريبا من بطلوس أو بطليوس كالشان فى حصن اللوز
Iznalloz

٣ - أثبتنا أن غرب الاندلس كان منزلا لعنصرين رئيسيين من سكان
الاندلس : البربر والمولدون فمن قبائل البربر التى نزلت بالغرب مصمودة
وزناتة ومكناسة ونفزة وزواغة ، وقد تركت هذه العناصر البربرية بصماتها
واضحة على العمران الاسبانى والبرتغالى ، وفى الطبوغرافية المدنية
بالغرب ، مثل ذلك أن أسماء المواضع التالية تحمل أسماء قبائل نزلتها :
مكناسة (Mequinsa) ، ومغيلة (Maguilla) ونفزة (Nepza) ، وحصن
زواغة (Azuaga) ، وزناته (Gineta) ومحمود وهو اسم موضع بالبرتغال

ما يزال يسمى Mafimude نسبة الى محمود بن عبد الجبار المصمودى
 التأثير على الحكومة المركزية بقرطبة . كذلك كانت بطليوس ونواحيها
 موطنًا لجماعات المولدين وطائفة /من المستعربين ، ومنهم ابن الجليقي ،
 وسعدون السرنباقي ، ومكحول ، وابن مرتين ، ممن ناهضوا الحكم
 الاموى .

٤ - اوضحنا في دراستنا أهمية الموقع الذى تشغله بطليوس على
 واديانه ، وهو موقع استراتيجى هام للغاية ، فواديانه يعتبر خندقا
 طبيعيا لها من جهة الجنوب والجنوب الغربى ، ونهر ريفياس ونهر
 جيريرو يحميانها من الشمال والشمال الشرقى ، والقصبة المرتفعة تشرف
 عليها بأبراجها وحزامها البرانى وتدعم دفاعها ، والقورجات تقطع على
 'ى عدو الطريق لحصار القصبة من جهة واديانه ، وفى الشمال يمتد فحص
 الزلاقة الفسيح الذى شهد معارك طاحنة فى فترات مختلفة من التاريخ
 الاسلامى ، فى نهاية عصر الطوائف ، عندما عبرت جيوش المرابطين
 الزقاق ، واشتبكت مع جيوش المسيحية مجتمعة فى هذا الفحص سنة
 ٤٧٨هـ ، كما كان الفحص نفسه مسرحا للقتال فى ولاية تاشفين بن على ،
 عندما اشتبك مع قوات رودريجو جنثالث فى سنة ٥٢٨هـ ، كما كاد يصبح
 مسرحا للقتال من جديد فى سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) عندما قدمت قوات
 فرنانده الثانى الببوج ونزلت بهذا الفحص تمهيدا لاقتحام المدينة ، ولكن
 فرنانده لم يلبث أن عدل عن القتال بعد أن تبين له ضخامة حشود
 الموحدين ، وآثر أن يعقد الصلح مع اشيخ الموحدين .

هذا الموقع الاستراتيجى الرائع الذى نعمت به بطليوس يعبر عن
 اختيار ذكى للمدينة المستحدثة بحيث أصبحت بحكم حصانة الموقع وما
 يحيط به من حصون متناثرة الى أحواز المدينة ذات منعة وحصانة ،
 وأصبحت ثغرا من لغور الاسلام فى الاندلس ، ودارا للرباط فى غرب
 الاندلس ، وهذا يفسر الاعتداءات المتواصلة التى تعرضت لها بطليوس
 على ايدى البرتغاليين والليونيين والقشتاليين فى العهود الاسلامية المختلفة ،

وقد نرى لعقد من علماء بطليوس النزوج عنها بحثا عن مناطق أكثر استقرارا كالشأن مع الأديب ابن السيد. البطليوسى مثلا أو الطبيب يحيى بن اسحاق، كمل اجتذبت إليها بدورها من نذر نفسه للجهاد وابتغى الاستشهاد ، ومنهم ابن الأبار نفسه الذى زارها ماثرا .

فطن ابن مروان الجليقى منذ البداية الى أهمية الموقع ، فاسترعى اهتمامه. واختاره موطعا لبطليوس التى اتخذها مقرا لامارته المستقلة بدلا من البشريك ، وهى الربوة المقابلة لها على الضفة اليسرى من واديائه . وقد استغل ابن مروان الجليقى المرتفع المجاور لبطليوس لإنشاء القسبة المنحقة بالمدينة فى نفس الموقع الذى تقوم عليه آثار القسبة الوحيدة . وكان هذا المرتفع من الحصانة يحيث سمن. بالضرس La Muela . وقد زود ابن الجليقى قسبة بطليوس بمسجد جامع بناه باللبن والطابية ، وبنى صومعة بالحجر . ثم تجدد بنيان القسبة فى عهد حفيده عبد الله بن الجليقى ، عقب الغارة المدمرة التى شنها اردون الثانى على يابرة فى سنة ٣٠١ هـ . (٩١٣ م) ، ثم تجدد بنيانها مرة أخرى فى عصر بنى الأفطس . وهكذا اثبتنا أن قسبة بطليوس لم تكن أساسا من بناء الموحدين ، وأما يعود تاريخ بنائها فى الأصل الى عهد عبد الرحمن بن الجليقى ومازال قطاع صغير من سور القسبة القديمة واضح المعالم ، ودور الموحدين فى بناء القسبة أنهم جددوا بنيانها على أساس أسوار القسبة القديمة التى كانت قد تخربت عقب استيلاء عبد الرحمن الناصر على بطليوس فى سنة ٣١٨ هـ . (٩٣٠ م) ، ثم تخربت من جديد فى عصر بنى الأفطس ، وتعرضت بعض أجزائها للتخريب عندما اجتاحتها قوات البرتغاليين سنة ٥٦٤ هـ .

٥ - أبرزنا فى دراستنا لبطليوس فى عصر بنى مروان الجليقى فى الباب الاول من الكتاب الجهود التى بذلها عبد الرحمن بن مروان الجليقى لتحويل بطليوس من مجرد قرية لاقيمة لها الى مركز عمرانى هنام ، ومركز حضارى متالىق فى غرب الأندلس . وقد اتخذها مركزا أسقفيا بديلا

عن أسقفية ماردة بعد وفاة آريولفو أسقف ماردة في ٣٤٨ هـ (٨٦٢ م)
بحيث ورثت ببطلوريوس الكرسي الأسقفى الذى كانت تشغله ماردة .

٣ - أثبتنا أن سابور العامرى ، أول من استقل ببطلوريوس فى أعقاب
الفتنة ، لم يكن فارسى الاصل ، فلم نعثر فى المصادر العربية على أى نص
يؤكد هذه النسبة ، وواضح أن السبب فيما أشيع عن أصله الفارسى ، كما
جاء فى عدد كبير من المراجع الحديثة يرجع الى أن اسم سابور يرتبط
باسم سابور ذى الاكتاف كسرى فارس ، وقد استبعدنا تماما الاصل الفارسى
لسابور إذ أن حمل الاسم وإن كان فارسياً لا ينهض دليلاً على أن صاحبه
فارسى الاصل لاسيما إذا أخذنا فى الاعتبار أن الرقيق الفارسى انقطع منذ
عهد الفتوحات ، وأنه لم يعد هناك عبيد من الفرس فى هذا القرن الخامس
لمهجرة . وقد أوضحنا فى دراستنا أنه كان فتى من فتیان القصر زمن
الحكم المستنصر ، وكان من بين الفتیان الصقالبة المخلصين لفائق الفتى
كبير صقالبة القصر ، بحكم أنه كان أحد صبيانهم ، فلما آلت للحجابه
الى المنصور محمد بن أبى عامر استمال عددا من الفتیان الحشمية اليه ،
ومنهم سابور الذى عرف منذ ذلك التاريخ بسابور العامرى ، وقد أثبتنا
أن سابور حظى بثقة المنصور ، فأُسند اليه ولاية الغرب الى أن استقل
به فى بداية عصر الفتنة ، وقد أوضحنا فى دراستنا أنه كان الفتى العامرى
الوحيد الذى استقل بالحدى دويلات الطوائف فى الغرب ، فى حين استقل
سائر الفتیان العامرية بشرق الاندلس .

٧ - فى دراستنا لشخصية المظفر بن الافطس أثبتنا أنه بخلاف ما
صورته المصادر العربية لم يكن ضعيف الرأى ولا عاجزا عن ضعف فى قتاله
مع المعتضد بن عباد ، وإنما كان فارساً مقداماً ، ومقاتلاً شجاعاً ، كما
كان سمحاً كريم النفس بعيداً عن صفات الخسة والغدر التى اتصف بها
المعتضد ، ولا السفه والجهالة التى عرف بها المؤمن بن ذى النون . كما
أثبتنا أنه كان سياسياً قديراً ، استطاع أن يواجه المعتضد بن عباد ويقارعه
سنتين طويلة كما تصدى بشجاعة لاطماع المؤمن بن ذى النون فى أراضيه ،

وأنه كان أبى النفس ، فعندما عزم ابن عبد الله البرزالي على إطلاق سراحه من معتقله في قرمونة سنة ٤٢٠هـ ، وكان بعد مايزال اميرا يقود جيش ابيه المنصور ، اشترط عليه أن يجتاز على القاضى ابن عباد ليشكره على اطلاقه لسراحه ، فأنف المظفر بكل اباء أن يمر على ابن عباد ليقدم له واجبات الشكر وأثر ان يبقى معتقلا على أن ينزل من قدر نفسه امام خصم ابيه . ورغم ما عرف عن المظفر من مجافاته للهو والمجون ، ومن سلوكه الجدى كما يصوره ابن حيان ، الا أنه حاول أن يبعد الشماتة عن نفسه بعد هزيمته امام المعتضد بالله بن عباد في يابره ، فأرسل الى قرطبة يلتمس شراء وصائف ملهيات .

٨ - رجحنا ان المظفر بن الافطس اعتزل الحياة السياسية في سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٢م) في اعقاب سقوط قلمرية في يد فردلند الاول ملك قشتالة وليون ، وأنه ترك حكم مملكة بطليوس الى ابنه يحيى الذى تلقب بالمنصور بينما ترك ولاية يابره لولده عمر الذى تلقب فيما بعد بالمتوكل على الله ، وأثبتنا ان المظفر توفى سنة ٤٦٠هـ مخالفين في ذلك رأى بريتواى فيشس Prieto y vivos الذى يجعل وفاته في سنة ٤٥٦هـ استنادا الى درهم يحمل اسم يحيى ضرب في هذا التاريخ . وقد ايدته في ذلك الاستاذ حسين مؤنس رغم أن ابن البار يؤكد أنه توفى في سنة ٤٦٠هـ . وقد اثبتنا ان وجود اسم يحيى على درهم ضرب في عام ٤٥٦هـ لا ينهض دليلا على وفاة المظفر في تلك السنة . كذلك رجحنا ان النزاع الذى احتدم بين الاخوين يحيى وعمر بدأ بعد وفاة والدهما في سنة ٤٦٠هـ ، ثم اشتد وبلغ ذروته في العام التالى بسبب انفراد يحيى بعد وفاة ابيه بالملك دون أخيه ، وقد ادى هذا النزاع الى اقدام عمر المتوكل على سك عملات باسمه عثر على بعضها وعليها نقوش تحمل تاريخ سنة ٤٦٠هـ .

٩ - اوضحنا ان المتوكل بن الافطس كان له من الابناء الذين كان لهم دور في التاريخ اربعة : منهم اثنان فضل والعباس لقايا مصرعهما مع ابيهما على ايدي المرابطين في سنة ٤٨٨هـ ، والثالث هو المنصور ، وكان

وكان موصوفاً بالذكاء الخارق والدهاء، وطالما حذر أباه من الوثوق في ابنه
الاحسن الذي نصبه المرابطون شريكاً له في حكم بطليوس وربيعة عليه
يتلقف له الأخطاء ، ولكن المتوكل لم يكثر لتحذيرات ولده المنصور .
وقد بادر المنصور بالفرار من بطليوس قبل أن تدخلها قوات المرابطين ،
ولجأ إلى الفونسو السادس ملك قشتالة ، ودخل في طاعته ، بعد أن ارتد
عن دينه . وبينما استنادا إلى خبر موجز انفرد به ابن عذارى ، أنه ثاب
إلى رشده بعد بضع سنوات ، وأنه عاد إلى دار الإسلام ، ودخل في خدمة
على بن يوسف بن تاشفين ، وحارب في صفوف المرابطين . أما الابن
الرابع فقد ورد ذكره عرضاً في الحلة السرياء لابن الأبار واسمه نجم الدولة
سعد ، كان سجيناً في أحد سجون المرابطين .

١٠ - دافعنا عن المتوكل بن الألفطس ، وأخرجناه بريئاً من صفات
الخيانة التي وصمه بها بعض المؤرخين المحدثين ، وأثبتنا أنه لم يكن
بالحاكم الخائن لقضية الإسلام في الأندلس ، فقد كان أول من اتصل من
ملوك الطوائف في الأندلس بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين في سنة ٤٧٤هـ
أي قبل سقوط طليطلة في يد الفونسو السادس بما يقرب من أربع سنوات ،
وهو الذي استجاب لدعوة أهل طليطلة ليتولى أمورهم في أعقاب الثورة
التي احتدمت في المدينة ضد أميرهم القادر بالله ، ربما سعياً لصرف أنظار
القشتاليين عن مملكة طليطلة . وعندما استولى الفونسو السادس على
قورية من أملاك المتوكل في الغرب لم يتردد ابن الألفطس في الاستنصار
بيوسف بن تاشفين ، وكتب له الوزير الكاتب ابن أيمن رسالة على لسانه
إلى يوسف بن تاشفين يعرض له فيها ما أصاب الإسلام في الأندلس من
رزع بسقوط قورية . وعندما كتب إليه الفونسو السادس يتهدده ويطالبه
بالجزية وبذل الطاعة ، رفض المتوكل بكل أنفة المسلم هذا التهديد ، ورد
على الملك القشتالي رداً عنيفاً شديد اللهجة ، أوردنا نصه في الملحق
الثالث من الرسالة . ولم يكتف المتوكل عمر بذلك بل تصدر حملة اعلامية
وإنفسية بعيدة المدى لدعوة مسلمي الأندلس إلى التضامن وتوحيد الصف
الإسلامي ضد العدو المشترك الذي يتربص بملوك الطوائف كل على حدة ،

و عهد بهذه المهمة الى وزيره القاضى ابنى الوليد الباجى . وكان المتوكل الوحيد من بين ملوك الطوائف الذى تعاون مع المرابطين عقب دخولهم الاندلس واستيلائهم على غرناطة ومالقة والمرية واشبيلية مدة أربع سنوات ، وحارب معهم خلالها العدو المسيحى ، وقبل مشاركة الفقيه السجلماسى ابن الاحسن فى حكمه لبطلوريوس رغم تحذيرات ولده المنصور منه ، ولكن المتوكل ظل يهادن ابن الاحسن ، ورفض فكرة اللجوء الى ملك قشتالة . فلما تبين للمتوكل نوايا المرابطين العدوانية تجاهه ، عمد الى الاتصال سرا بالفونسو السادس ليخلصه من خطر المرابطين على بلده . ومع ذلك فلم يكن ابن الافطس الوحيد من بين ملوك الطوائف الذى اتصل بالفونسو السادس ، فقد سبقه الى ذلك الامير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة ، والمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، والمقتدر بالله بن هود صاحب سرقسطة ، والمامون بالله بن ذى النون صاحب طليطلة ، ثم ان الاتصال بملوك المسيحية للاستظهار بهم على المسلمين كان من طبيعة ذلك العصر ، واستمر ظاهرة شائعة حتى نهاية دولة الاسلام فى الاندلس . ومن هذا المنطلق لا يمكن اعتبار المتوكل بالملك الذى خان أهل دينه وبلده كما يزعم بعض الباحثين المحدثين .

١١ - استطعنا أن نحدد الموضع الذى دارت فيه وقعة الزلافة بين الاندلسيين وخلفائهم المرابطين وبين قوات اسبانيا المسيحية فى السهل الممتد شمالى بطليوس ويبعد عنها بنحو ثمان كيلو مترات ، وقد مكنتنى الظروف من زيارة موقع المعركة منذ أكثر من عام ودراسة طبوغرافيته على الطبيعة ، واستبعدنا أن يكون الموقع المسمى اليوم بالزجالة أرض المعركة لبعده كثيرا عن مدينة بطليوس وبعد الاسم عن اسم الزلافة الذى عرفت به الموقعة فى المصادر العربية ، وتوصلنا الى رسم خريطة لأرض المعركة أوضحنا فيها رأى كل من أسين بلاثيوس والبران .

١٢ - ناقشنا الروايات المختلفة الواردة فى المصادر العربية حول استشهاد ابن الحجام ، ورجحنا بعد تلك المناقشة رواية ابن عذارى التى

أكدت أنه استشهد في سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) ، واستبعدنا رأى كل من الاستاذين عبد الحميد حاجيات محقق كتاب البيذق ، ومحمد عبد الله عنان اللذين يجعلان تاريخ استشهاده في سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م) .

١٣ - اثبتنا ان الموحيدين ، رغم انشغالهم في بدء قيام دولتهم بمحاربة العرب الهلالية في افريقية وحلفائهم من الغز المماليك ومن بنى غانية الميورقيين ، ورغم انصرافهم قرب نهاية دولتهم الى الخلافات والمنازعات الداخلية ، والتطاحن فيما بينهم من اجل الظفر بالخلافة ، رغم كل ذلك لم يغفلوا قط الدفاع عن بطليوس ثغر المسلمين في غرب الاندلس ، وخط الدفاع الامامى لموسطة الاندلس ، فكانوا لاينقطعون عن انقاذها كلما تعرضت لغزو خارجى وتزويدها بالاقوات والمؤن والالات ، حتى جاء اليوم الذى افتقدت فيه بطليوس الرئيس والزعيم الذى يتولى الدفاع عنها ، فاعتمدت على مقوماتها الذاتية واضطرت الى التسليم .

١٤ - فى دراستنا النقدية للمصادر اهتمنا فى كثير من الاحيان ، لاسيما بالنسبة للمراجع الاسبانية الحديثة ، بابرار مواضع القوة والضعف فى الدراسة ، كما اهتمنا فى المصادر بالتركيز على مدى أهمية المادة الواردة فيها بالنسبة لموضوع الدراسة . كما حرصنا على وضع ملحق تفصيلى عن تاريخ الممالك المسيحية فى اسبانيا التى كانت لها علاقات مباشرة مع امارة بطليوس سواء فى عهد بنى الجليقى أو فى عصر بنى الافطس أو حتى فى عصر الموحيدين ، وأبرزها مملكة اشتوريش ، ومملكة ليون ، ومملكة قشتالة ، ومملكة البرتغال .

ملاحق الكتاب

- ١ - عرض تاريخى موجز للممالك المسيحية فى شبه جزيرة ايبيريا التى لها اتصال مباشر بغرب الاندلس *
- ٢ - نص رسالة المتوكل على الله ابن الافطس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين *
- ٣ - نص رسالة المتوكل على الله ابن الافطس الى الفونسو السادس ملك قشتالة *
- ٤ - بعض الاعلام الجغرافية الواردة فى الرسالة باللغتين العربية والاسبانية *

ملحق رقم ١

عرض تاريخى موجز للممالك المسيحية فى شبه جزيرة ايبيريا
التي لها اتصال مباشر بغرب الاندلس

(١) نشأة المملكة الاشثونية ليونية :

فتح انتصار المسلمين الحاسم فى موقعة وادى لكه فى رمضان سنة ٩٢ هـ (١) (يوليو ١٠٧٠ م) الطريق امام المسلمين للانسيح فى شمال شبه جزيرة ابارية والسيطرة التدريجية على معظم انحاءها باستثناء منطقة جبلية تقع فى اقصى الشمال الغربى من قنطابرية وتطل على خليج بسكايه ، عرفت عند العرب باسم صخرة بلاى (٢) ، لجأت اليها شراذم محدودة العدد من فلول القوط وامتنعت فى مفاوز جبالها ، وقدر لهذه المنطقة ان تكون مركزا لامارتين مسيحيين ، قنطابرية ، وجليقية .

اما قنطابريه فقد أسسها الدوق بطره سليل ريكايدو فى الطرف الغربى من جبال البرانس فى سهول نبرة وغسقونية ، وكثيراً ما وطئتها اقدام الفاتحين المسلمين لها عند اقتحامهم لدوقية اقطانية او ولاية سبتمانية واثناء عودتهم من غزواتهم . وإما الثانية وهى جليقية (Galicia) فكانت تقع فى عمق جبال اشثوريس الوعرة يعيدا عن احتكاك الفاتحين وفى هذه الهضاب البائية المنيعه اجتمع بلاى وصحبه ولجأوا الى مغارة عظيمة فى قمم كوفل دونجا تحيط بها اجراف سحيقة ، وعرف الموقع فى المصادر العربية بالصخرة (٣) . وكانت هذه التجمعات فيما يبدو تقوم اساسا على

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩ .
(٢) أخبار مجموعة ، ص ٢٨ - المقرئ ، نفخ الطيب ج ١ ، ص ٢٥٨ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، ص ١٦٨ ، عبد الرحمن النجى ، التاريخ الاندلسى ، ص ٢٦٨ .
(٣) José Luis Martín, Carmen Codoñer Manuel Sanchez, Historia de España, t. III : La Alta edad Media, Madrid, 1980, p. 89 .

بقايا الجيش القوطى بالاضافة الى ما كانت تتلقاه من امدادات من المناطق الواقعة فيما وراء البرتات . ويرى الدكتور عبد الرحمن الحجى ان استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد الى دمشق من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك كان له اكبر الاثر فى نمو هذه التجمعات القوطية (١) . ويرجع بعض المؤرخين بداية حركة الاسترداد الاسبانى الى الفترة التى لجأت فيها فلول الجيوش القوطية المنهزمة الى تلك المناطق النائية عن دار الاسلام للاحتماء فى ذراها من خطر الغزوات الاسلامية ، وللتكاثر العددى فى ظل حياة آمنة استعدادا لمنازلة الفاتحين (٢) .

وقد أهمل المسلمون أمر هؤلاء الفارين ، فلم يحفلوا بأمرهم وتركوهم وشأنهم وانصرفوا الى خلافاتهم الداخلية ، وكان اغفال أمر هذه الفلول الباقية من أشد الاخطاء التى وقع فيها الفاتحون اذ ان هؤلاء الفارين أصبحوا نواة المملكة المسيحية الاولى فى اسبانيا ، التى تفرع منها كل سلالة ملوك ليون وقشتالة الذين تمكنوا فى النهاية من القضاء على دولة الاسلام فى الاندلس وطرد آخر سلاطين بنى الاحمر أصحاب غرناطة

وقد كان الدوق بطره Pedro يرجع الى اصول ملكية ، فقد كان من قادة الجيش القوطى فى عهد غيطشة ملك القوط ، ثم فى عهد لذريق خليفته الذى اغتصب منه العرش ، اما بلاى Pelayo مؤسس امارة جليقية فيحبط بعض الغموض بأصله وان كان معظم المؤرخين يرجعون أصله الى

Lnis suarez, Historia de España : Edad media, p. 15 - Aguado

Bleye, Manual de la historia de España, t. I, p. 476.

محمد، عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الاندلس ، ج ١ ، ص ٢٠٩

(١) عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الاندلسى ، ص ٢٧٠ .

(٢) السيد عبد العزيز سبالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ،

ص ١٦٨ ، عبد الرحمن الحجى ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٦٩ .

اصول عريقة ، فهو ابن فافيل (فافلة) (١) دوق قنطابرية وكان يساعد
الايمن للملك لذريق واحد كبار رجال حاشيته (٢) . فلما دخل المسلمون
الاندلس ، اخذوه من اهل اشتريس من جليقية رهينة عن طاعة اهل بلده
فأقام بقرطبة فترة ثم هرب منها في عام ٩٨ هـ (٧١٦ - ٧١٧ هـ) أيام
الحرب بين عبد الرحمن الثقفي (٣) وعندئذ بدأ في تنفيذ مخططه الذي كان
يقضى بجمع فلول القوط لتكوين دولة ينازع بها دولة الاسلام في الاندلس .
بحيث ينتهي الامر باسترداد ابارية (٤) ، وكما سبق أن ذكرنا فإن اماره
قنطابرية التي اسسها بطرة كانت تتعرض دائماً لاقتحام المسلمين لها عند
غزوهم لبلاد غالة . أما اماره جليقية فقد كانت في مأمن من غارات
المسلمين وقد سميت باسم جليقية لأنها قامت على حدود الولاية البرومانية
القديمة التي كانت تسمى بهذا الاسم (٥) . وحين تكررت ثورات البصاري
في الشمال خاصة في منطقة غسقونية (أو بلاد البشكنس) سير الحربين
عبد الرحمن الثقفي في عام ٩٨ هـ جيشاً لاختصاصهم فاجتاح المسلمون ببلاد
البشكنس وهضاب اشتريس (٦) ، ووافد حليفهم الاسقف ابة «اوباس»
شقيق الملك غيطشة الى بلای في محاولة منه لاقناعه بالتسليم ولكنه أخفق
في اقناعه (٧) ، ولجأ بلای الى « الصخرة » المعروفة بمغارة اونجا (٨)
(Cava donga) . وقد حاول المسلمون بقيادة

(١) ابن خلدون ، ج٤ ، ص ١٧٩ ، محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام
ص ٢٠٨ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في
الاندلس ، ص ١٦٨ .

(٢) Claudio Sanchez Albornoz, los reinos cristianos Españoles, p. 14

(٣) المقرئ ، نفح الطيب ، ج٦ ، ص ٨٢ .

(٤) دارت مناقشات طويلة حول أصل بلای ومن بين تلك الاراء انه ابن
أخى لذريق أو انه حفيده الذي قاتل الى جانبه (انظر

F.J. Simonet, historia de los Mozarabes de España, p 148,

محمد عبد الله عنان دولة الاسلام في الاندلس ، ص ٢٠٩)

(٥) المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٦) Sanchez Albornoz, los reinos cristianos, p 15

(٧) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٢٢ .

(٨) عبد الرحمن الحجي ، التاريخ الاندلسي ، ص ٢٦٩ .

عقمة (١) النفاذ اليهم والاستيلاء على مراكز العدو ، ولكن الوديان السحيقة والأطراف الممتدة لمسافات بعيدة ، حالت بينهم ، وبين بلای، ثم هاجم المسلمون التجل والمغارة ولكنهم اخفقوا في التغلب على بلای، بل ارتدت الهزيمة اليهم في كوفادوشجا التي تعتبر فاتحة حركة الاسترداد وفيها قتل من المسلمين اعداد هائلة . ويعتبر بلای لذلك واضع اساس الدول المسيحية الشمالية الغربية التي ستحمل لواء المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية ، وأبو بتي اذفنش على حد قول مؤرخى الاندلس (٢) . ثم ترك المسلمون هذه الهضاب ، فبدأ النصارى يتوافدون على قنطابرية وسهول جليقية منضمين الى بلای ونصبوه ملكا عليهم ، واخذوا يغيرون على بلاد المسلمين .

وأقدم حاول الهيثم بن عبيد الكلبي عام ١١٢ هـ (٧٣٠ م) ارسال هوثوسة البربرى لغزو جليقية (٣) وسحق اميرها ، ولكن بلای صمد للمسلمين وتمكن من ايقاع الهزيمة بهم ، ولما رأى بلای منعة معقله وقوة عصبته اخترق بلاد البشكتس ، وهاجم قوات المسلمين ومزق وحداتها ثم ارتد الى هضابه وتحصن فيها ، ثم حدثت هزيمة بلاط الشهداء عام ١١٤ هـ (٧٣٢ م) وشغل الولاة يرد جيوش الفرنج عن اراضى سبتمانية تكثرت عندئذ غارات الجلالقة على الاراضى الاسلامية الواقعة شمالى نهر دويرة واسترقعة وعانى المسلمون كثيرا في تلك النواحي من عيث النصارى ثم قام عقبة بن الحجاج السلولى ، وغزا هذه العصابات الجليقية عام ١١٦ هـ (٧٣٤ م) ثم غاد يغزوها مرة ثانية في عام ١١٨ هـ (٧٣٦ م) واستولى على بعض مواقعها ، فلما اشتدت الفتن والحروب الاهلية بين المسلمين في الاندلس في اعقاب ثورة البربر على العرب ، ازداد النصارى جراءة على المسلمين وعاثوا في اراضيهم ، وعجزت حكومة قرطبة عن وضع

(١) Antonio Ramos Oliveira, la edad media, p. 32.

(٢) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٤٠ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٨ .

حد لذلك بسبب اشتغالها بهذه الحرب ، وبسبب ضعف الوجود الاسلامى فى شمال الجزيرة فى هذه المرحلة (١) . وقد كان كفاح بلاى يرجع الى رغبته العارمة فى استرداد جزء من الاراضى المفقودة ، ولكن هذا الكفاح لم يتخذ شكلا دينيا او عنصريا حتى ذلك الوقت حيث ان معاملة المسلمين لاهل الذمة كانت عادلة ومنسامة (٢) . وتشير بعض المصادر العربية (اخبار مجموعة) الى أن بلاى اوقع بالمسلمين هزيمة نكراء فى سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م) بسبب فتنة ابنى الخطار وثوابة ، وتمكن بلاى من اخراج العرب من جليقية كلها وتنصر من تنصر ، وكاد يتغلب على المسلمين (٣) . وواضح من نص صاحب الاخبار المجموعة ان هناك خلطا وقع بين أعمال بلاى وأعمال الفونسو الاول ، فقد توفى بلاى (٤) عام ١١٩هـ (٧٣٧م) ، وان كانت بعض الروايات النصرانية تؤكد أنه عاش حتى عام (١٢٧هـ - ٧٤٥م) فى حين يجعل الفونسو العاشر وفاته ١٢١هـ (٧٣٩م) تم خلفه ابنه فافلة ولكنه توفى بدوره بعد عامين اى عام ١٢٣هـ (٧٤٠م) وفى نفس الوقت توفى الدوق بطره دوق قنطابرية وخلفه ولده الفونسو الملقب بالاول ثم نمت هذه الامارة واشتد ساعدها وازداد التحالف بينها وبين جليقية بزواج الفونسو ابن الدوق بطره من ارمنسندة Ermensinda ابنة بلاى (٥) فلما توفى فافلة بن بلاى اتحدت الامارتان تحت تاج الفونسو الاول دوق قنطابرية ، وتكونت منهما مملكة ليون المعروفة عند المسلمين بجليقية أو مملكة اشتورياس وكانت تمتد من بلاد البشكنس شرقا الى ساحل المحيط غربا ومن خليج غسقونية شمالا حتى نهر دويرة جنوبا (٦) . ويعتبر الفونسو الاول ابن بطره هذا اول ملوك مملكة ليون ، ومؤسس

(١) Sanchez Albornoz, los reinos cristianos, p. 15.

(٢) R. Altamira, historia de España, vol I, P. 224.

(٣) اخبار مجموعة ، ص ٦٢ .

(٤) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٣٢٧ .

(٥) Aguado Bleye, op. cit., p. 478.

(٦) Dozy, histoire, v, II, p 130.

المملكة النصرانية الشمالية ويذكر المؤرخ الاسباني الكبير دون رامون مننديث بيدال ان ملوك ألبيط بعد أن دعموا مملكة اشتوريس الصغيرة في أعقاب سقوط مملكة القوط الغربيين كانوا يحسون بأنهم خلفاء القوط في طليطلة وأنهم استمرار للملكية الاسبانية كلها ، التي تحررت جزئيا وماتزال محتلة في معظمها ، فكانوا يقتصرون على التلقب بمجرد لقب امراء أو ملوك ، الى أن تبدل الحال في عهد الفونسو الثالث العظيم (٢٥٢ هـ - ٢٩٨ هـ) (٨٦٦ - ٩١٠ م) اذ سماه أبناؤه أو رعيته بالامبراطور العظيم .

Magnus imperator أو امبراطورنا imperator nostro ، كما لقب أردون الثاني ٣٠٢ - ٣١١ هـ (٩١٤ - ٩٢٣ م) بعد أن استقر بلاطه في ليون ، وكذلك ردميره الثاني (٣١٨ - ٣٣٩ هـ) (٩٣٠ - ٩٥٠ م) وكذلك ردميره الثالث (٣٥٥ - ٣٧٤ هـ) (٩٦٥ - ٩٨٤ م) بالامبراطور . كما استخدم آخر هؤلاء الملوك لقب بازيلئوس الاعظم Magnus basillus ولاشك أن هذا التلقب انما تم بتأثير من الامبراطورية الكارولنجية ، فشارلمان بالاضافة الى لقبه الامبراطوري تلقب ايضا ببازيلئوس وهو لقب انكرته بيزنطة على اباطرة الغرب ، ولكن تلقب به القيصر سيميون بلغاريا ^(١) وواضح ان تلقب ملوك ليون بهذه الالقاب الفخرية انما استهدفوا به التفوق على غيرهم من ملوك حركة الاسترداد . وقد لقب الفونسو الاول بالكاثوليكي .

حكم الكاثوليكي في ظروف مواتية (١٢٢ - ١٤٠ هـ) (٧٣٩ - ٧٥٧ م) اذ كانت الحروب الاهلية والثورات تجتاح الاندلس وتمزقها مما اتاح لهذا الزعيم المسيحي تأمين بلاده وتأسيس ملك قوى يناوئ المسلمين ^(٢) . وكان الضعف يسود بلاد الاسلام ، ولهذا فقد اجتاحت الفونسو الاراضى المجاورة لحدوده وقتل من بها من المسلمين ، وقد كانت هذه

R. Menendez - Pidal, la España del Cid, vol, I, Madrid, 1947, (١) p. 67.

Sanchez Albornoz, los reinos, p. 15 - 16.

(٢)

المنطقة التي اغار عليها بمثابة الحد الفاصل بين الاراضى الاسلامية والاراضى المسيحية التابعة لمملكة جليقية ، وكان بها قليل من السكان المسلمين . وعندما ضربت المجاعة بجرانها في عام ١٣٣هـ (٧٥٠م) رحل الكثير من المسلمين عن تلك المناطق فزاد ذلك من قوة المملكة الجديدة ، فقد تم تنصيب الفونسو الاول ملكا على اشتوريس في ذلك العام ، ثم انتهب الفونسو الاول فرصة نزوح العرب والبربر من المداين التي خلف الدروب الى طنجة وأصيلا فغزا استرقة واستولى عليها وعلى كثير من الاراضى الاسلامية عام ١٣٦هـ (٧٥٣م) وفي ذلك يقول صاحب اخبار مجموعة « وكانت قبل سنة احدى وثلاثين ومائة . قال : فاعقبهم الله بالجوع والقحط فجاعت الاندلس ، سنة سنتين ثم ٠٠ سنة تلت عام سعيد فثار اهل جليقية على المسلمين ، وغلظ أمر عالج يقال له بلاى ، فقد ذكرناه في أول كتابنا فخرج من الصخرة وغلب على كورة اشتوريس ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه اهل استورقة زمانا طويلا حتى كانت فتنة ابي الخطار وثوابه » (١) .

ويذكر مانويل توروس البران Albarran ان الفونسو الاول «تولى زمام المبادرة المسيحية ، ولم يتردد في سنة ٧٥٠م في استغلال موجة المحل والجوع التي اجتاحت الاندلس واثرت فيها بعمق بالاضافة الى الصراعات الداخلية الضارية التي انتقلت من المغرب الى الاندلس ، وبهجمة قوية قامت بها القوى الاشتورية في العمق وصلت حتى قورية ووادي آنة عن طريق ماردة وهى مواضع اعتبرها المؤرخون ثغرية أو ذات صفات ثغرية وسقطت في يده مدن هامة ستصبح بعضها في العصور التالية شاهدا حيا على النزاع الاسبانى الهائل وهى بورتو وابيخا Abeja وبراجا Braga وبيزو Viseo وكاربوناريا Carbonaria والينساكو Alensaco وكانت

(١) أخبار مجموعة ، ص ٦١ - ٦٢ ، وعن أخبار القحط والمحل انظر ابن عذارى ، البيان ج٢ ، ص ٣٨ .

هذه المدن واقعة فى المناطق الزراعية باسترامادورة أو على مقربة منها ولكن النقص فى الرجال والمادة كان السبب فى منع الفونسو من الاحتفاظ بالأراضى التى ضمها اليه لذا فقد لجأ الى خطة عرفت فى لغة الحروب بخطة الاراضى المحرقة ^(١) بمعنى أنه عمد الى حرق الاشجار وانتساف المزارع فى كل ما يقابله بحيث ترك بين المسلمين والمسيحيين حاجزا طبيعيا اشبه بالصحراء بين الطرفين .

ثم منح الفونسو أخاه فرويلة الجزء الشرقى من تلك المملكة الجديدة واعنى بها اماره قنطابرية ، وكان المسلمون فى تلك الآونة فى حالة يرثى لها. من الفوضى والاضطراب، فقد كانت الحروب والثورات والفتن تنتشر فى جميع انحاء البلاد ، وبينما كان يوسف الفهرى غازيا بجليقية ^(٢) تقدم الفونسو الاول مستغلا هذه الاحداث وغزا مدينة لك ونجح فى افتتاحها فى عام ١٣٧هـ (٧٥٤م) فى حين اخفق يوسف الفهرى فى الدفاع عنها وتركها لمصيرها التعس ، عندما بلغه دخول عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ، وقبل رحيله الى الجنوب لمواجهة عبد الرحمن سير قوة بقيادة الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب لاقاذ مدينة أربونة من حصار الفرنج الذين مزقوا جيش المسلمين وقتلوا قائدهم سليمان وتقهقر الباقون وفى مقدمتهم الحصين الى الجنوب فى عام ١٣٩هـ (٧٥٦م) ^(٣) أى فى نفس العام الذى توفى فيه الفونسو الكاثوليكي فتولى فرويلة ابنه وخليفته (١٤٠هـ - ١٥١هـ) . (٧٥٧م - ٧٦٨م) محاربة المسلمين واحرز عدة انتصارات عليهم ^(٤) . فلما توفى فرويلة فى سنة ١٥١هـ (٧٦٨م) ،

(١) España Sarrada, chronicon albeldense, t. XIII, 1816 p. 438.
Cronica de Alfonso III, ed. Zacarias Garcia Villada, Madrid
1918, P. 116, Apud. Albarran, el solar de los Alfases, p. 94.

(٢) ابن خلدون ، العبر ، المجلد الرابع ، ص ٢٦٣ .

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

Lévi - Provençal, histoire, t I, p. 115.

(٤) وأهم هذه الانتصارات حدثت فى بونوفيوم بجليقية ، وذكر ليفي

توفى أخوه في العام التالي وخلفه أوريليو (١٥١ - ١٥٨ هـ) (٧٦٨ - ٧٧٤ م) وكان فرويلة قد انتهز فرصة اشتغال عبد الرحمن الداخل بتنظيم أمور دولته وأخماد الثورات الداخلية وعبر نهر دويره ، وتمكن من ضم لك قشتالة وشلمنقة وشقوبية وآبله وسمورة وقشتالة الى مملكة جليقية الى أن استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين من الزمان على يد الحاجب المنصور ابن ابي عامر (١) . وعلى الرغم من الاعتداءات المسيحية على اراضي الاسلام فقد كان عبد الرحمن لمشاغله العديدة في الداخل يغمض عينيه ولا يقدم على تأديب جيرانه المسيحيين الذين بالغوا في اغارتهم على بلاده بسبب عجزه . ومع ذلك فقد اضطر للتحرك ، ففي سنة ١٤٩ هـ (٧٦٦ م) سير عبد الرحمن الداخل بعض قواده الى الشمال على رأس قوة كبيرة وصلت الى حدود جليقية ، واشتبكت مع الجالقة في عدة مواقع ، وفي عام ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) بعث عبد الرحمن مولاه بدرا (٢) الى الـ Alava والقلاع (٣) Castilla وهي المنطقة الواقعة بين بلاد

بروفنسال نقلا عن سافدرا ان عددا كبيرا من المسلمين لقوا مصرعهم على ايدي الاشنوريين في هذه المنطقة التي يصمت عن ذكرها المؤرخون المسلمون . وذكروا ان الامير عبر بن عبد الرحمن الداخل أسر في هذا الاشتباك ثم ذبح بأمر الملك الاشنوري .

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص ٣٨٧ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج٢ ، ص ٥٤ .

(٣) البية والقلاع : تطلق الروايات الاسلامية اسم البية والقلاع على ولايتي قشتالة القديمة Castilla والـ Alava وهي المعربة عن اللاتينية القديمة (Alava et Gistilla Vetula) والـ البية في الواقع هي إحدى ولايات بلاد البشكنس وتمتد غربا حتى برغش وشمالا حتى خليج بسكونية وجنوبا حتى نهر ابره ، وأما القلاع أو قشتالة Castile, Castella فقد كانت تضم ما تبقى من المنطقة من برغش شمالا الى ما بعد نهر دويره وجبال وادي الرملة Guadarrama وحتى موقع مدينة مدريد الحالية (انظر محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٢١٦) ، أما اشتنوريش فهي الاسم العربي لولاية اشتورياس Asturias وبسكونية فهي الاسم العربي لولاية بسكاي Vizcaya أما ولاية نافارة Navarra فقد أطلق عليها العرب اسم بلاد البشكنس Bascons أو بلاد نبرة ، أما قشتالة فقد أطلق عليها ابن عذارى اسم قشتالة وهي أقرب لاصلها الافرنجي Castilela أما أراجون Aragon

البشكنس وجبال قنطابرية على صفاف نهر ابره في الطرف الشرقى من مملكة جليقية ، فغزاها وتوغل فيها . وقامت في عهد فرويلة ثورات عنيفة في نبرة في الشرق وفي جليقية كذلك ، وكان فرويلة قد أنشأ مدينة أبيض Oviado التى أصبحت عاصمة جليقية (١) . ومن الجدير بالذكر أن شارلمان قام خلال هذه الفترة بغزو كارولنجى تجاوز به جنوبى البرانس ، ولكن شارلمان فشل في هذه الغزوة فقد هزم في رنشفاله وهاجمه البشكنس عام ١٦٦هـ (٧٧٧م) ولهذا فقد تحول شارلمان الى الممرات الشرقية من جبال البرانس حيث توغلت قواته في مناطق طركونة Tarragona القديمة وتمكنت من السيطرة على المواقع الشمالية التى عرفت فيما بعد باسم قطلونية . ولم يلبث أن ارتبط عدد من الكونتيات البرانسية بامبراطورية شارلمان بعد أن استولى على برشلونة في عام ١٨٥هـ (٨٠١م) . وفي نهاية القرن الثامن ، خرجت بنبلونة من حكم المسلمين وقامت مراكز مقاومة مسيحية في الوديان الوسطى من جبال البرانس وساعدت على ثورات البشكنس ضد امراء قرطبة . وقد عاصرت مرحلة الغارات الكبرى لالفونسو الاول وفرويلة الاول ، الازمة السياسية الاسلامية في الاندلس ، الامر الذى أدى الى اقرار نوع من الهدنة بين الجانبين الاسلامى والمسيحى ، فلما استقرت دولة عبد الرحمن الداخل بدأ يتخذ بادرة الهجوم على أبيض (Oviado) وتوغل المسلمون في هجومهم في قلب مملكة اشتورياس وكان ذلك في عهد ملكها الشاب الفونسو الثانى العفيف (٢) ، الذى ارتقى العرش بعد أن انقسمت مملكة جليقية اثر وفاة فرويلة الى قسمين قسم تولاه أورليو Aurelio أو ارورالى (٣) ابن فرويلة شقيق الملك الفونسو

=

فقد عرفت عند العرب ببلاد أرغون أو أرغن أو أرغونة أو الثغر الاعلى (ارجع الى يوسف أشباخ تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٨ - ٩ ، حاشية ١ ، ٢) .

(١) Antonio Ballesteros Beretta, Sintesis de historia de España, (١) Barcelona, 1936, p. 61.

(٢) Sanchez - Albornoz, los reinos, p. 17.

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٣٥ ، يقول « وفيها مات اورالى ملك جليقية وملك بعده شيالون » .

الاول (١٥١ - ١٥٨ هـ) (٧٦٨ - ٧٧٤ م) ويشتمل على نبرة وبلاد البشكنس ، اما بقية جليقية فقد تولاهما سيلو Silo أو شيلون (١) زوج ابنة الفونسو الاول (١٥٨ - ١٦٧ هـ) (٧٧٤ - ٧٨٣ م) فلما توفى اورالى عام (١٦٤ هـ) ٧٧٤م اتحدت المملكة من جديد تحت تاج شيلون الذى توفى عام (١٥٨ هـ) (٢) ٧٨٣م دون أن يعقب وكان قد أوصى بالعرش لالفونسو ابن فرويلة ، وكان طفلاً ، على أن تتولى الوصاية عليه زوجته ادوسندا Adosinda وعندئذ علت اصوات المعارضة يقودها بعض أبناء الشعب مع الاشراف ، كما اعترض احد الاشراف وهو مروقاط (مرجات) Mauregato (١٦٧ هـ - ١٧٣ هـ) (٧٨٣ - ٧٨٩ م) وكان ابنا لالفونسو الاول من زوجة عربية (٣) غير شرعية كانت جارية لديه وانتهى الامر بأن وصل مروقاط الى كرسى العرش فى جليقية الغربية بمساعدة المسلمين (٤) وفى عهد هؤلاء الملوك الثلاثة اورليو وسيلو ومروقاط لم يتبادل المسلمون والمسيحيون أى غارة خلال ٢١ سنة (٥) .

وكان مروقاط يميل بطبيعته الى المسلمين بحكم أن امه كانت مسلمة

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص ٣٨٧ وذكر لويس شوارس أن أم سيلو كانت فيما يبدو مسلمة

Luis Suarez, Historia de España, Madrid, 1977.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٣٥ ، وانظر الروايات النضرانية ، فى محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٢١٨ .

Luis Suarez, Op. Cit., p. 25.

Aguado Bleye, Historia, t. I, p. 479.

(٣) ويذكر أجوادو بليى أن هذه المساعدة التى قدمها له المسلمون للظفر بالعرش تمت بمقابل اتاوة سنوية يدفعها الى الامير رمزا لتبعية لهم وقيل أن هذه الاتاوة وفقا للتقليد كان متبعا منذ القدم كانت تتمثل فى مائة فتاة Cien doncellas

(Lévi - Provençal, op. cit., p. 117, Luis Suarez. op. Cien doncellas cit., p. 25)

(٥) وذكر ابن خلدون أن مروقاط Lévi - provençal, Histoire, t. I, p. 117. وثب على الفونس فقتله (ابن خلدون العبر ، ج٤ ، ص ٣٨٧) .

لذلك لم يتردد في التحالف مع المسلمين ، وقد ترتب على ذلك ظهور حركة
تذمر تنديد من كافة الاوساط المسيحية في مملكته لاسيما من رجال الدين
ومع ذلك فقد استمر مورقاط يحكم مملكته حتى وفاته في عام ١٧٣ هـ
(٧٨٩ م) (١) . وكان من الطبيعى أن يؤول العرش الى صاحبه الاول
الفونسو ابن فرويلة الا إن الشعب والاشراف تجنبوا من التعرض لنقمة
الفونسو آثروا اختيار برمند الاول الانجلي Vermudo وشقيق اوريالى
ملكا على اشتوريس وكان قد وهب نفسه وحياته للدير فتولى الحكم على
كره منه ، وكان تفوذه يشمل غربى جليقية فقط أى انه حكم المنطقة التى
سبق لمورقاط. ان حكمها ، اما الفونسو الثانى فكان حاكما على القسم
الشرقى من المملكة ، وبعد ثلاث سنوات ضاق ، برمند ذرعا بحياة
الملك (٢) ، فتنازل بارادته عن العرش لالفونسو الذى تولى المملكة كلها
في عام ١٧٥ هـ (اواخر ٧٩١ م) باسم الفونسو الثانى الذى لقب في
اواخر عهده بالعفيف El casto (١٧٥ - ٢٢٨ هـ) (٧٩١ - ٨٤٢ م)
وبذلك عادت مملكة اشتوريس الى سابق وحدتها . وفي عهد الفونسو الثانى
اشيع اكتشاف ضريح القديس يعقوب (شنت ياقب) ١٩٨ هـ (٨١٣ م)
على جبل بمنطقة امانة وامر الفونسو باقامة كنيسة (٣) فوق الضريح
وأصبحت مدينة Santiago de Compostela مزارا لجميع النصرى في
جميع انحاء العالم ، وقد كان لهذا الاكتشاف اكبر الاثر في غلبة الشعور

(١) انظر التفاصيل في محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام ، ص ٢١٩ .
(٢) وكان الامير هشام قد سير لمحاربة قائد ابا عثمان عبيد الله بن
عثمان . في سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص
٩٥ . كما أغزى يوسف بن بخت الى جليقية واشتوريس في نفس
العام فأوقع الهزيمة بجيش الملك برمند الاول وكانت هذه الكارثة
سببا في تنازل الملك برمند عن الحكم

Aguado Bleye, op. cit., p. 479.

وانظر ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين - ص ٢١٦ .

Luis Suarez, op. cit., p. 25.

Aguado Bleye, op. cit., 480.

(٣)

الدينى ضد المسلمين (١) ، وسيصبح الخطر المسيحى منذ ذلك الحين شديد الوطأة ، ، على المسلمين فى الاندلس (٢) رغم هجمات المسلمين المتواصلة على مملكة اشتورياس (٣) التى عرفت أيضا بمملكة ليون ، منذ عهد الملك الفونسو الثانى العفيف (١٧٥هـ - ٧٩١م) .

وكان الفونسو الثانى ملكا حازما مقداما ، ضبط امور مملكته ونهض بها وعمل على تحسين شئونها ، وجعل عاصمتها أبيض ، وكانت جليقية ، تمتد من بلاد البشكنس شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ، ومن خليج بسكيا شمالا الى نهر دويره جنوبا . وقد طال حكم الفونسو نصف قرن ، ، عاصر فيه هشام الاول والحكم الرضى ، وعبد الرحمن الاوسط ، وكانت اهم الاحداث التى جرت فى عصره ، هزيمته على ايدى المسلمين فى موقعة الصخرة باقصى جليقية عام (١٧٩هـ) (٧٩٥م) (٤) . وفى عام ١٩٣هـ

(١) Sanchez - Albornoz, los reinos, p. 19, Altamira, hist. de España Vol, I, p. 239.

(٢) الصميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١١٦ .

Sanchez — Albornoz, los reinos, p. 17.

(٣)

(٤) جاءت هزيمة الفونسو الثانى رد فعل لانتصاره على قوات عبد الملك

بن عبد الواحد بن مغيث فى موقعة لوتس Lutos أو لودوس Lodos التى دارت على مقربة من أبيض ويعرف الاسم حاليا بلهيب العربى Llamas de moro حيث سمي السهل الذى دارت فيه المعركة بنلاظ المذبحة El campo de la Matanza وفيها نال نصارى

أشتوريس من جيش عبد الملك وكبدته خسائر كبيرة (راجع Lévi - Provençal, histoire, b. I, p. 143. وانتظر تفاصيل الموقعة فى المقرئ

نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣١٧) ، فقد خرج عبد الكريم بن عبد الواحد بصافقة سنة ١٧٩هـ (٧٩٥م) الى أسترقة واستولى عليها فتراجع الفونسو الثانى الى الشمال واستمد العون من البشكنس وغيرهم من سكان النواحي وبلغ عبد الكريم انه حشد عسكرا كثيفا « ما بين حيز جليقية والصخرة » (ابن عذارى البيان ، ج٢ ،

ص ٩٦) فاستعان عبد الكريم بالقائد فرج بن كنانة وقدمه على قوة من أربعة آلاف من الخيالة لمطاردة ملك أشتوريس ، ووفق فرج فى ايقاع الهزيمة بفرقة مسيحية بقيادة غد شاره فى واد يقال له وادى كريسبه فوق غد شاره هذا أسيرا فى ايدى المسلمين وقتل من قواته عدة كبير ، ثم زحف القائد فرج لملاقاة الفونسو ، فتحصن هذا

(٨١٠ م) عبر الفونسو الثانى بقواته نهر دويره ، وتوغل حتى
 'الشيونة' (١) وعاث في هذه البلاد ايما عيث ، وكان قد استعان في هذه
 الغزوات بشارلمان الذى امدّه بالمساعدات خاصة بعد هزيمته السابقة امام
 المسلمين (٢) . وقد رد الحكم على ذلك بنفسه ، في صيف العام التالى
 غازيا الى جليقية (٣) ، وفي عهد الحكم توالى الحملات الاسلامية على
 'اشتوريس' ، ففي عام ١٩٢ هـ (٨٠٨ م) عاد هشام ابن الامير الحكم الرضى
 من حملته الى جليقية مظفرا ، وفي صيف ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) اعزى التحكم
 وزيره عبد الكريم الى اشتوريس واصطدمت قواته مع قوات الفونسو
 الثانى على نهر 'ارون' Oron وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وقتل
 عدد كبير من قادة الفونسو من بينهم غرسية بن لب Garcia lope
 خال الفونسو وشانجة Sancho أحد زعماء البشكنس (٤) .

وفي عهد عبد الرحمن الاوسط غزا عبد الكريم بن عبد الواحد عام
 ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) الى البية والقلاع ، وعاث المسلمون في اراضى جليقية
 وخرّبوا مدينة ليون ، وفي سنة ٢٠٨ هـ ، كانت الصائفة المعروفة بغزاة
 البية والقلاع بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ، اقتحم فيها المسلمون
 'بمملكة ليون من فج يقال له جرنيق' (٥) ، وكان ينتهى ببسيط للعدو جمع

في حصن يقع على وادى نلون Nalon ، وبدأ فرج يحاصره ، ففر الفونسو
 من الحصن وامتنع بحصن آخر ، وتمكن فرج من الاستيلاء على
 حصن وادى نلون (السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين
 وآثارهم في الاندلس ، ص ٢١٨) .

(١) Albarrañ, El solar, op. cit, p. 95 - Luis Suarez, op. cit, pp. 31.

Aguado Bleye, Manual de la historia de España, t. I, p. 480.

Sanchez - Albornoz, los reinos, p. 17 - 18.

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، المقرئ ، نفح الطيب ،
 ج ١ ، ص ٣١٩ .

Lévi - Provençal, op. cit, p. 176.

Puerto de Herenchugercenu

Encia وسلسلة جبال ايتوريتا

(٥) يقابل هذا الفج ما يعرف حاليا باسم

ويقع بين جبال سيرا دى انثيا

فيه خزائنه وذخائره ، فحط عسكر قرطبة على تلك البسائط فاستصفوها وعلى ذخائر تلك الخزائن فانتهبوها ، ثم قفل المسلمون الى قرطبة ظافرين ^(١) .

وتوفى الفونسو الثانى عام ٢٢٧هـ (٨٤٢م) وخلفه ابنه ردميره الاول ^(١) Ramiro I (٢٢٨هـ - ٢٣٦هـ) (٨٤٢ - ٨٥٠م) وكان ردميره او ردمير كما تسميه الروايات الاسلامية آنذاك فى بردوليا الشرقية المعروفة بالقلاع او قشتالة Castilla ، نظرا لتعدد قلاعها ، وفى عهده تغلب على قوات المسلمين ٢٣٠هـ (٨٤٤م) فى بسائط البلدة (موقعة كلافيخو) ^(٣) واستولى على مدينة قلهرة Calahorra ، ويزعمون انه انتصر على المسلمين بفضل صيحة سانتياجو ، وعلى اثر هذا الانتصار وضع حدا للاناوة المهينة التى كانوا يقدمونها الى المسلمين منذ عهد مورقاط ^(٤) .

وفى سنة ٢٣١هـ (٨٤٧م) غزا محمد ابن الامير عبد الرحمن بالصائفة بلاد جليقية وحاصر مدينة ليون ، ورماها بالمجانيق ، فلما ايقنوا بالهلاك لاذوا ليلا بالجبال والغياض فأحرق محمد بن عبد الرحمن

= Iturrieta وهو ممر يقع بين منطقة استلا وفيتوريا
Lévi : Provençal, op. cit, p. 203.

- (١) ابن عذارى ، البيان ، ج٢ ، ص ٨٢ .
(٢) Aguado Bleye, Manual de la historia, p 481. ، محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٣٥٥ .
(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذه الموقعة راجع

José Luis Martin, la alta edad

Media, p 91 - Aguado Bleye, Manual de historia de España, L.I, t.I, P. 481.

Aguado Bleye, op. cit, p. 481 - Antonio Balkesteros Beretta op. (٤)
cit, P. 62.

Carl Grimbero, Historia Universal, Daimon : , t.4, La edad Media,
Madrid, 1973, p. 260,

José Luis Maritn, la alta edad media, p 91 - 93.

ما فيها، وأؤاد هدم سورها فوجد ستمه ثمان عشرة ذراعاً ، فتركه وأخفى
غالباً مملكة ليون (١) ، وتوفي رحمه في عام ٢٣٤هـ (٨٥٠ م) تاركاً
عرش اشتورياس وقشتالة لولده أردون الذي تلقب بأردون الاول (٢٣٦هـ
٢٥٢هـ) (٨٥٠ - ٨٦٦ م) ، وقد قام أردون الاول بتحسين مدن ليون
واسترقه أمام المسلمين كما ائصح باقى القلاع والحصون وحاول مساعدة
الشوار المولدين بطليطلة على الامير محمد ، فتغلب عليه الامير محمد في
موقعة وأدى شريط في المحرم ٢٤٠هـ (يونيو عام ٨٥٤ م) وانهزم قائده
عائون Gaton (٢) وقتل عدد كبير من قواته (٣) .

وفي عهد الامير محمد تمكن موسى بن موسى بن قسى والى النغر
الاعلى من تكوين امارة مستقلة قوية ، واقترب غرسية امير نبرة (٤)
ياينة موسى والحالف معه ليستعين به على مقاومة المسلمين ومقاومة جيرانه
النصارى في الغرب ويقصد بهم أردون ملك ليون . وفي أوائل عهد الامير
محمد غزا موسى جنوبى فرنسا ، مما يدل على انه أصبح يشكل قوة
كبيرة وبالتالي خطراً شديداً على الملك أردون ، وقد عرف بأنه الملك الثالث
في أسبانيا (٥) ، ومن دلائل خطره وقوته ان ملك فرنسا في ذلك الوقت
شارل الاصغر أجبر على مهادنته ، وقد حاول أردون محاربة موسى ولكنه
فشل في ذلك لتحريض غرسية امير نبرة عليه ، فتجدد العداء ، وقام

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

(٢) هو عائون قومس بيرزو Bierzo ، وصاحب الفضل في اعادة تعمير
استرقه Luis Suarez, op. cit., p. 45.

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، وانظر
Luis Suarez, op. cit., p. 45.

(٤) في خلال النصف الاول من القرن التاسع عاشت الكونتيات الفرنجية
على الحدود الاسبانية داخل فلك الامبراطورية الكارولنجية في الوقت
الذى قطعت المراكز المسيحية في البرانس صلاتها بها ، وكانت مملكة
نبرة أهمها جميعاً ، وظهرت فيها أسرة بشكنسية لها صلة مصاهرة وقربة
مع أسرة من مسالة وادى ابرة من اصول قوطية ساندتها ، هي أسرة
بنى قسى الذين أسسوا مع نبرة مركزين سياسيين أحدهما مسيحي
والآخر اسلامي ، ظلا مستقلين حتى بداية القرن التالى (انظر
= Sanchez - Albornoz, los reinos cristianos, p. 19.

أردون بمهاجمة بعض الحصون الغربية التي كانت في حوزة موسى ، فسار موسى لقتله ٢٤٦هـ (٨٦٠م) يعاونه في ذلك صهره غربية ملك نبرة فانهزم موسى شر هزيمة ، وقتل غربية في موقعة البلدة . وفي ٢٤٨هـ (٨٦٢م) قتل موسى بن موسى واضطرب لب بن موسى عقب مقتل أبيه . وأمام قوة أردون وخطورته عليه الى مصالحته والاتفاق معه على شروط قتال المسلمين وردهم عن الولايات الشمالية . وكان أردون قد حصل في ٢٤٢هـ (٨٥٦م) الى قورية التي تشغل موقعا حصينا واستراتيجيا هاما لعب دورا حاسما في عملية التراجع التغراي المتأخرة ، ثم أصبح الدشاش الذي تلا هذه الحملة على جانب كبير من الاهمية ، وذلك عندما عمرت المناطق المهجورة في تلك السنة (١) ، واثرت تواجد العامل البشري في استمرار النزاع على هذه الاراضي .

وقد انتهر أردون فرصة اشتغال حكومة قرطبة بالقضاء على الثورات التي اشتعلت في الداخل فعبر نهر دويره بقواته وهاجم مدينة قورية ، وأسر واليها ، فقام الأمير محمد بإرسال عدة حملات الى البنية والقلاع (٢) ، ثم توفي أردون في عام ٢٥٢هـ (٨٦٦م) وخلفه ابنه الفونسو الثالث العظيم وكان عمره أربعة عشر عاما حين تولي الحكم ، وقد واجه الفونسو الثالث في بداية عهده ثورة قام بها الكونت قرويلة Froila Bermudez حاكم ولاية جليقية ، وساعدته الظروف بمصرع قرويلة في قصره بمدينة أبيت (٣) . وعقب ذلك توج ملكا على ليون ، ثم توالى عليه

José Luis Martín, la Alta edad media, p. 94 - Luis Suarez, historia de España, edad media, p. 45.

(١) في سنة ٢٤٢هـ (٨٥٦م) قام أردون الأول بإعادة تعمير مدينة ليون . وفي سنة ٢٤٦هـ (٨٦٠م) عمر مدينة ثوي Tuy وأمياة Amaya واسترقة Astorga (راجع Aguado Bleye, op. cit., p 481, Jose Luis Martín, la alta edad media, p 49.

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ٩٩ .
(٣) Aguado Bleye, op. cit., p. 482.

المؤامرات، فقد دبر له أخواته مؤامرة استهدفت عزله، ولكن الفونسو فبض عليهم جميعا وعاقبهم بأن سمل أعينهم، وقد حكم الفونسو مدة أربعة وأربعين عاما، بلغت فيها دولته مبلغا كبيرا من القوة والازدهار، وقد وصل بغزواته حتى ضفاف نهر تاجة وغزا عدة مدن أهمها مدينة ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة . وفى عام ٢٦٨هـ (٨٨١م) غزا أراضى المسلمين خاصة مناطق الانهار مثل دويرة وتاجة وواديانة، ويذكر المستشرق الاسبانى شانسيب البرنس Sanchez - Albarnoz عن هذه الفترة التى حكم فيها الفونسو الثالث أنه عند منتصف القرن التاسع بدأ يحكم فى أبيض فرع محاذى للاسرة السابقة، وأن الملوك الجدد أقدموا على النزول من الجبال الى السهول وحصنوا مجموعة من المدن المهجورة لدعم تقدسهم البطيء وحماية طرق الغزو الواقعة فيما وراء الجبال، وهى التى كان يسلكها أسلافهم، وكان عليهم التصدى لرد الفعل القرطبى، ولكنهم همدوا وغامروا بمساعدة أهل طليطلة الثوار ضد الامراء، أما الفونسو الثالث العظيم ثالث ملوك أبيض الجدد، فقد استغل الاضطرابات القائمة فى الاندلس بسبب ثورات المولدين أحسن استغلال، وأتاحت له هذه الثورات مد حدود مملكة أبيض حتى نهر منديق Mendigo فى البرتغال ونهر دويره فى ليون ونهرى بيسورجة Pisuerga وارانثا Arlanza بقتالة، وهذا التقدم جاء نتيجة لفشل الحملات القرطبية العديدة وانتصاراته فى موقعة بولفوراريا Polvoraria Valdemora (بلفوراريا بلد يمورة) عام ٢٦٥هـ (٨٧٨م) ومنذ ذلك الحين لم يبق امامه من الاعداء سوى البقية الباقية من بنى قسى فى وادى ابره، حتى يتمكن من وضع حدود ثانية للمنطقة القشتالية (١) .

وقد قام الفونسو الثالث فى ذلك الوقت بمساعدة قبط برشلونة لاقامة امرة فى بنبلونة عام ٢٩٣هـ (٩٠٥م) معادية للامويين . ومن الجدير

(١) Sanchez - Albarnoz, los reinos Cristianos p. 19 - 20 - Luis Suarez, op. cit., p. 50.

بالذكر ان حكم الفونسو الثالث الذى استمر اربعة واربعين عاما قد امتلا بالحروب ضد المسلمين ، ففى عام ٢٦٥هـ (٨٧٨م) على سبيل المثال حاول المسلمون غزو ليون واسترقة ولكنهم انهزموا امام الفونسو الثالث بالقرب من سمورة ، كما تشير الروايات النصرانية انه اثناء سد الفونسو الثالث لحدوده حتى احواز ماردة وواديانه فى اراضى المسلمين كما سبق ان ذكرنا اشتبك مع المسلمين عند سفح جبل اريفر من جبال سيرا مورينا وانه انتصر على المسلمين واستشهد منهم الوف عديدة فى هذه الموقعة وهذا ما لم تشر اليه الروايات الاسلامية (١) . وحين تمكن المسلمون من اقتراع سرقسطة مقر حكومة ابن لب زعيم الثوار فى الشجر الاعلى اضطر الفونسو الثالث الى مهادنة المسلمين لان بنى قسى هم الذين كانوا يحمونهم من هجمات المسلمين ، وقد انهمك عقب تلك المهادنة الى تحسين اوضاعه وسياسته الداخلية بسبب قيام الثورات ضده لكثرة الضرائب التى كان يفرضها على الاهالى . وتوفى الفونسو الثالث العظيم بعد حياة جافلة فى عام (٢٩٨هـ) ٩١٠م وكان قد قسم مملكته بين ابنائيه فتنازل عيين مملكته لابنه الاكبر غرسية ، وعين اردون حاكما لجليقية ، وفرويلة على اشتوريس ، ومثذ وفاته اطلق على مملكته اشتوريس جليقية ، اسم مملكة ليون (٢) .

٢ - نشأة مملكة نبرة Navarra

والى جانب ملكة ليون قامت مملكة اخرى فى بلاد البشكنس الجبلية (٣) غربى جبال البرانس كانت تخضع فى بدايتها اى منذ اواخر القرن الثامن الميلادى لبعض السادة الاقطاعيين الذين كانوا يتبعون مملكة الفرنج ، وربما حكمها دوقات قنطابرية او امراء اشتوريس وكانت قاعدتهم

(١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٣٥٩ .

(٢) عن دور الفونسو الثالث فى تاريخ اسبانيا راجع Luis Suarez, op. cit, p. 50. 482 - 485. Agüado Bleye, op. cit., p. 67.

(٣) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٣٦١ .

بنبلونة ، وكانت بلاد البشكنس كما سبق أن رأينا هدفا للغزوات الاسلامية من جهة والفرنجية من جهة أخرى ، فقد حاول ملوك جليقية أو ليون غزوها أكثر من مرة ولكن البشكنس كانوا يتفانون في الدفاع عن بلادهم بهدف الانفصال عن التبعية للجلالقة . وفي عام ١٨٣ هـ (٧٩٩ م) ظهر زعيم ثبرى يدعى ازوار تمكن من الاستقلال ببلاده وتوفى عام ٢٢٢ هـ (٨٣٦ م) فخلفه أخوه شانجة ، ولكن الامور لم تستقر له ، فسرعان ماظهر امير آخر من البشكنس هو غرسية أنيجيث ابن أنيجو أريستا ، هذا الزعيم الجديد في المصادر العربية باسم ونقة بن شانجة ملك البشناكسة (١) ومنذ ان توج غرسية ملكا على هذه المملكة المستقلة ومركزها بنبولونة ، تحالف ملوكها فيما بعد مع بنى قسى وارتبطوا معهم برباط قوى من المصاهرة فقد تزوج انيجوارستا من أرملة موسى بن فرتون بن قسى ، وبالمثل تزوج موسى بن موسى من ابنة غرسية ، كما تزوج أخوه غرسية من بنت لب بن موسى بن فرتون .

وفي عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) قتل غرسية أنيجيث وهو يحارب أردون الاول ملك ليون (٢) في موقعة البلدة ، وكان صهره موسى بن موسى يقتل الى جانبه وخلفه ولده فرتون Fortun Garces I الذى وقع اسيرا في ايدى المسلمين (٣) عام ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) واستمر اسيرا فى قرطبة أكثر من عشرين عاما ، وتم عزل فرتون عام ٢٩٣ هـ (٩٠٥ م) على يد سانشو غرسية Sancho Garces ٢٩٣ - ٣١٣ هـ (٩٠٥ - ٩٢٥ م) وهو من فرع اميرى آخر تمكن من الاستيلاء على العرش بطريقة ما (٤) .

(١) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٨ .

(٢) ذكر أنطونيو راموث أن غرسية أنيجث Garcia Iniguoz قتل فى سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) على أيدى المسلمين .

Lévi - Provençal, op. cit., p. 392.

(٣) هو البجد الاول لام عبد الرحمن الناصر

(٤) Lévi - Provençal, op. cit., p. 392 - Aguado bleye, op. cit, p. 500.

اما فرتون فقد اعتزل في احد الاديرة البقية الباقية من عمره . وكان سانشو هذا اول من تلقب بالقاب الملك من حكام نبرة ، واستقر على عرش نبرة حتى سنة ٣١٤هـ (٩٢٦م) حارب خلالها بنى قسى ، وهاجم لب بن محمد بن لب زعيم بنى قسى نبرة في عهده عدة مرات وانتهى الامر بهزيمة لب ومقتله في عام ٢٩٤هـ (٩٠٧م) ، فخلفه اخوه عبد الله في تطيلة الذي واصل حروبه ضد نبرة وهزم شانجة هزيمة نكراء في عام ٢٩٨هـ (٩١١م) (١). ولكن شانجة بن غرسية صاحب بنبلونة غزا تطيلة في سنة ٣٠٣هـ (٩١٥م) حسبما أورده ابن حيان الذي قال « وفي سنة ثلاث وثلاث مائة كانت للعدو في بنى قسى ، ملوك الثعر الاعلى جولات أسر فيها عبد الله بن محمد بن لب بن قسى ، أمير تطيلة ، وصار مكانه اخوه مطرف بن محمد وكانا معا من الابطال ذوى بأس وشجاعة ونكاية شديدة للعدو ومات عبد الله بن محمد بن لب ، فوثب ابنه محمد بن عبد الله بن محمد على عمه مطرف بن محمد فقتله ، ووقعت بأسباب ذلك بين بنى لب فتن وحروب واختلاف وضعع عزمهم ، فاضطرب الثغر بأفتتاتهم» (٢). وعلى الرغم من هزائم شانجة غرسية الاول ، فقد كان في نظر المؤرخين الاسبان واحدا من اعظم ملوك الاسترداد الاسباني (٣) .

٣ - أحداث كل من مملكتي ليون ونبرة في عهد عبد الرحمن الناصر :

تم في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر قيام حلف يضم مملكتي ليون ونبرة في مواجهة دولة الاسلام في الاندلس ، وكان عهد الفونسو الثالث ملك ليون كما اشرنا حافلا بغزواته المتكررة على اراضى المسلمين ، وكانت القواعد الاسلامية المتاخمة لمملكة ليون مثل استرقة وسمورة وشلمنقة

(١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ص ٣٦٣

Levi - Provençal, op. cit, p. 392.

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٥ ، تحقيق شلميتا ، ص ١٢٥

Aguado Bleye, op. cit, p. 501.

(٣)

وشقوبية وميراندة ، قد بدأت تخلو من سكانها المسلمين الذين فروا أمام الهجمات الليونية المتتالية ، وفي عهد عبد الرحمن الناصر لم يعد الخطر المسيحي قاصرا على مملكة ليون وحدها بل ظهر خطر جديد هو خطر مملكة نبرة ، وكان قد خلف الفونسو الثالث على عرش ليون ابنه الأكبر غرسية Carcar (٢٩٨ - ٣٠٢ هـ) (٩١٠ - ٩١٤ م) الذي سار على نفس سياسة أبيه فيما يختص بعلاقاته بجيرانه المسلمين (١) . وقد عانى الاستاذ محمد عبد الله عنان سر بداية الهجوم المسيحي الليوني الشديد على اراضي المسلمين في تلك الفترة المبكرة بأسباب اقتصادية يجتئ (٢) :

وما كاد عبد الرحمن بن محمد الناصر يرتقى دسب الامارة بقرطبة حتى شن اردون الثاني ملك ليون ٣٠٢ - ٣١٢ هـ (٩١٤ - ٩٢٤ م) الذي خلف غرسية على عرش البلاد (٣) ، هجوما واسيع النطاق على اراضي المسلمين في الغرب سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) كما سبق أن ذكرنا في الباب الاول ، وركز هجومه على كورة ماردة واستولى على حصن الحنش وذبح جميع حاميته (٤) وقد سبق هذا الهجوم في بداية العام الثاني من امارة عبد الرحمن الناصر غزو لبلدة يابرة وفيها استشهد معظم سكان يابرة ومن بينهم واليها مروان بن عبد الملك بن احمد (٥)

وكان الغرب في تلك الفترة من حكم عبد الرحمن الناصر لا يزال يعجز بالثوار أمثال عبد الله بن الجليقي في بطليوس وحليفه مسعود بن

(١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٢٩١ .
Lévi-Provençal, op. cit., t. II, p. 36.

(٢) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٣٩٢ .

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الخامس ، ص ٩٨ ، وكان ذلك في أوائل عام ٣٠١ هـ (٩١٣ م) .

(٤) ابن حيان ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ وما يليها وراجع أيضا (Aguado Bleye, op. cit., p. 487.

(٥) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شاميتا ، ص ٩٨ ، وانظر مدونة عبد الرحمن الناصر ص ٤٤ ، وراجع

(Lévi - Provençal op. cit., t. III, p. 36.

سعدون السرباقي في يابرة ، ومحمد بن تاجيت في ماردة ، وسعيد بن مالك في باجة ، ويحيى بن بكر في اكشونية . فأراد عبد الرحمن الناصر ان يضع حدا لهذه الدويلات المستقلة في الغرب وعلى الاخص دويلة ابن الجليقي رئيس دعوة المولدين في الغرب . وفي نفس الوقت كان يسعى الى تأديب الليونيين على ما اقترفوه في يابرة وقلعة الحثش . ففي أوائل عام ٣٠٤هـ ، اغزى الناصر لدين الله القائد احمد بن محمد بن أبي عبده الى مملكة ليون فخرجت قواته في ١٦ من المحرم سنة ٣٠٤هـ (١٨ يوليو ٩١٦ م) ، واجتاحت اراضي مملكة ليون ، قغنم وسبي . وقفل عائدا بقواته الى قرطبة (١) .

وكان رد فعل ملك ليون أن اغار في عام ٣٠٥هـ (٩١٧ م) على منطقة يابرة مما جعل عبد الرحمن الناصر يبعث قائدة ابن أبي عبده من جديد لقتالهم ، ولكن سوء الحظ حالف المسلمين في هذه المرة ، فقد تلقى ابن أبي عبده هزيمة مروعة على أيدي قوات من ليون في موقعة قشتره مورش المعروفة بشنت اشتين ولقى القائد ابن أبي عبده مصرعه في هذه الموقعة (٢) . حدث اللقاء في ١٤ ربيع الاول سنة ٣٠٥هـ (٤ سبتمبر ٩١٧ م) وقد انهزم المسلمون في هذه الموقعة هزيمة شنعاء واذرع الليونيون فيهم بسيفهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة بالغت مدونه سيلوس في تصويرها ، فذكرت أن المرتفعات والغابات والسهول ابتداء من وادي دويره حتى بلدة اتينزا Atienza وباراكويوس Paraquellos كانت مغطاة بجثث عساكر المسلمين . وعاد أردون الثاني عقب انتصاره على المسلمين الى ليون بعد أن نصب رأس الشهيد المسلم أحمد بن أبي عبدة على سور شنت اشتين San Esteban بجوار رأس خنزير (٣) .

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ١٦٩ .

Lévi - Provençal, op. cit., t. II, P. 37.

Lévi - Provençal op. cit. t. II, p. 37.

Ibid. p. 38.

(٢)

(٣)

وفي هذه الواقعة يقول ابن عذارى « وجد المسلمون في محاربة المشركين حتى كانوا قد أشرفوا على الظفر بمن كان في الحصن فانحشدت النصرانية من جميع جهاتها ممددين لكفرتهم ومجلبين على المسلمين بخيلهم ورجلهم . . . وثبت القائد أحمد بن محمد بنفسه وأظهر الصبر ودافع مدافعه الموطن وقيل انه كان قد اعتقد مذهباً في طلب الشهادة . . . » (١) . ومن عوامل هزيمة المسلمين في هذه الواقعة أن الجيش الاسلامي كان يتكون معظمه من البربر المرتزقة الذين اهتموا بغنائمهم، ولما راوا هجوم النصارى الساحق تسلم معظمهم ونفروا بأنفسهم من ساحة المعركة هاربين من ميدان القتال . ولم يكتف اوردون الثانى بهذا بل عقد حلفاً مع سانشو غرسية ملك نبرة لغزو اراضى المسلمين، وتم ذلك في اواخر عام ٣٠٥ هـ (٩١٨ م) . ففى عام ٣٠٥ هـ « حشد الطاغية اوردون بن اذفونش ملك جليقية وشانجة ابن غرسية البشكنسى ، قومس بنبلونة ، حشد النصرانية بجليقية ، وببلونة فخرجا معا في احتفال من جموعهم واستيعاب من كفرتهم الى مدينة ناجرة Najera بالغر الاقصى ، فنزلا عليها في عقب ذى الحجة منها واقاما عليها ثلاثة ايام منازلين لاهلها ، وعاثت خيولهم في ذلك الثغر كيف شاءت فاقسدت الزرع وانتسفت المعاش ، ثم انتقلت الى مدينة تطيلة Tudela قاصية الثغر فانتهدت سراياهم الى نهر كلتس وحواجز مشقيرة ووادى طرسونة ، وعبر شانجة لعنة الله نهر ابره ، فقاتل حصن بلتييرة (Valtierra) وقهر اهل ريبضه واحرق المسجد الجامع فيه ، وانقلب الكفرة لعنهم الله الى بلادهم اعزة . . . » (٢) .

وكان رد الفعل الاسلامي خروج حملة اسلامية في المحرم سنة ٣٠٦ هـ (منتصف أغسطس ٩١٨ م) بقيادة الحاجب بدر بن احمد لقتال العدو وهى غزوة مطونية Mudonia (Milonia) على مقربة من قلعة رباح وفيها اقتحم الحاجب بدر بحشوده اراضى مملكة ليون «ووطىء تحريمهم وآدأخ

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ١٧١ .
(٢) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٤٣ .

بلدهم ، منتسفا لغلاتهم ، هادما لمصانعهم ، حاطما لمعايشهم ، ولقيهم
اعداء الله ، مستطليين عليهم لحين اقتراب فرحتهم بظفرهم ، واستغلاظ
من شوكتهم ، فحاربهم المسلمون حربا شديدة ، حمى لها جميعهم ،
فأمدتهم الله تعالى بالنصر ٠٠٠ » (١) . ولم يكتف عبد الرحمن
الناصر بما أحرزته قواته من انتصارات، وإنما أراد أن ينتقم لمصر، قائده
أحمد بن أبي عبده ، ومن أهم غزواته التى حدثت الغزوة المعروفة باسم
غزوة مويس (٢) Muez ، أهم غزوات المسلمين على الإطلاق حدثت
فى صيف عام ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) وقادها عبد الرحمن الناصر بنفسه ،
فخرج فى ١٣ المحرم (٥ يونيو) فى اتجاه طليطلة ، ثم عبر واديانه
فى طريق البلة والقلاع (قشالة) ، ثم عبر نهر دويرة وزحف على مدينة
وخشمة Osma واحرقها وهدمها (٣) ، ثم اتجه الى حصن شنت اشتبن
الذى سبق للمسلمين أن انهزموا عنده وقتل أمامه القائد ابن أبي عبدة
فخرب ما فى المنطقة من كنائس واديرة « فهدم منها حصن وخشمة وحصن
قاستره موريش وما والاهما من المعاقن والابراج وكثيرا من الديارات
والبيع (٤) » . ويضيف ابن عذارى « ثم رحل عنها فى اليوم الثانى الى
حصن قاستر مورش ، وهى شنت اشتبين ، بيضة الكفرة ، وقاعدتهم
والموضع الذى كانوا تعودوا فيه الاستطالة على من وردهم ، فلما رأوا
أن أنصار دين الله قد اطلوهم وأولياءه قد صمدوا نحوهم اخلوا الحصن ،
وخرجوا هاربين عنه فدخله المسلمون وغنموا جميع ما فيه ٠٠٠ » (٥)
ثم سار الناصر الى منطقة قلوونية Clunia وكان أهلها قد اخلوها

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٤٥ ، ابن عذارى ،
البيان ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .
(٢) ابن حيان المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٥٩ ، ابن عذارى ،
البيان ، ج ٢ ، ص ١٧٥ .
(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٦٠ ، وابن عذارى ،
البيان ، ج ٧ ، ص ١٧٧ ، وأرجع التفصيل فى
Lévi - Provençal, op. cit., t. II, p. 40.

(٤) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٦٠ .

(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .

وتعرضت للخراب والدمار ، وكان كل من أردون الثاني ملك ليون وشانجة غرسية ملك نبرة قد حشد حشوده يتربعان وصول الناصر الى الشمال ، وكان الناصر قد وجه بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى الى قلعة قلقرة (Carcar) لاحتلالها ثم استولى الناصر على حصن قلهرة Calahorra وهنا حاول النصارى استدراج المسلمين عند عبورهم وادى خنقيرة Junquera ، وانتظر عبد الرحمن وصول الليونيين والنبريين ، وعندئذ صدمتهم صدمة عنيفة وهزمهم هزيمة نكراء لم تشهد اسبانيا المسيحية نظيرا لها من قبل ، وسقط كثير من قوات ليون ونبرة قتلى ، من بينهم اسقفان هما دولثديو Dulcidio اسقف سلمنقة ، وارمخيو (Ermogio) اسقف توى Tuy وحدثت هذه الموقعة العظيمة التى انتصر فيها المسلمون بقيادة الخليفة عبد الرحمن الناصر على الحلف الثنائى الليونى النبرى فى اليوم السادس من شهر ربيع الاول سنة ٣٠٨ هـ (٢٦ يوليو ٩٢٠م) (١) وقد تمكن الناصر عقب هذه الغزوة من الاستيلاء على حصن بقيرة Viguera الذى كان حصنا على حدود نبرة ، فرممه وزوده بما يحتاجه المسلمون من اسلحة ومؤن . ولكن هذه الهزيمة المروعة لم تكن كافية لردع النصارى المتطلعين الى الاستيلاء على اراضى المسلمين فقد ظلوا يواصلون سياسة الاعتداء على اراضى الاسلام ، فلم يكن يمضى عامان عليها حتى اغار اردون الثانى على ناجرة واستولى عليها فى حين اغار خليفه ملك نبرة على بقيرة وتمكن من الظفر بجميع زعمائها اسرى ثم قتلهم بما فيهم زعمائهم محمد بن عبد الله بن لب القسوى مما اثار اهالى الاندلس وارتفعت اصوات احتجاجاتهم على الناصر لقصوره فى الدفاع عن تلك المدن (٢) ، فبادر الناصر عام ٣١١ هـ (٩٢٣م) بارسال مولاة

(١) ابن عذارى ، البيان ، ٢٤ ، ص ١٧٨ ،

Lévi - Provençal, op. cit., t. II, p. 42.

محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، القسم الاول ، العصر الثانى ، ص ٣٩٧ .

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، (تحقيق شالميتا) ، ص ١٨٦ .

عبد الحميد بن بسيل « الى الثغر الاقصى في جيش كثيف عدته ، أغاث به أهله على شغله بما بين يديه من حرب أهل الخلاف بالموسطة ، فجرد عبد الحميد الى ذلك الفرع ، وقوى عدته واستقوى عدته ، واستقوى على الجيش الذي ضمه اليه ، وشرفه بتقديمه الى خطة الوزارة ٠٠٠ فمضى لوجهه ذلك ، فمصلتا حتى دخل الثغر الاعلى ، واجتمع اليه خلق من أهل الثغر وغيرهم ودخل مدينة تطيله قاصية ، وأهلها بعد ممرضون في المطاعة ، فملكها للناصر لدين الله ، وكان ذلك أول ملكها . (١) »

والناصر

وتبعته جملة عبد الحميد بن بسيل على الثغر الاعلى وتطيله ، وجوازها الى مملكة نبرة وتدميره لبعض الحائثا حملة أخرى وجهها الناصر في العام التالي في ١٦ من المحرم عام ٣١٢ هـ (٢٧ أبريل سنة ٩٢٤ م) الى قلب مملكة نبرة ، ففي ٤ ربيع الآخر (١٠ يوليو) عبر نهر ابره واخترق عمق نبرة وعاثت قواته في اراضي مملكة نبرة تحرق وتدمر ما يقابلها من حصون تتحكم في الطريق الى بنبلونة ، مما ترتب عليه جلاء حاميات نبرة من القلاع خوفا من جيوش الخليفة الناصر ، وبذلك تمكن الناصر من الاستيلاء على العديد من الحصون والقلاع منها حصن قلهرة وقلقرة carcar وبيطراته (بيرالته) Poralta وهو قنطرة البة كما ورد في المقتبس (٢) او ببطرة التا كما ورد في البيان المغرب . وفي هذه الغزوة يقول ابن عذاري « فحل من أول بلادهم حصن قلهرة ، وكان العليج شائعة قد أخلاه فأمر بهدمه وأحرق جميع ما فيه وحوله ، ثم نقل عنه الى موضع يعرف ببيطرة التة وكانت حوله حصون مانعة فأخلاها الكفرة ... (٣) » . كما استولى على حصن بالجش Falces وأحرقه وحصن قرقشتال Carcastillo في وادي أرجون الواقع شرقي بيرالته (٤)

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شاليتا ، ص ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

(٣) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

Lévi - Provençal, op. cit, II, p. 46.

(٤)

وانظر : محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، ص ٣٩٩

وشمال شرقى تطيله . ولم يكتف عبد الرحمن الناصر بهذا ، فبهذه الفتوح انفتح الطريق امامه الى قلب نبرة حيث زحف على عاصمتها بنبلونة ودخلها رغم محاولات الملك النبرى سانشو غرسية ان يحول بينه وبين ذلك ، الا ان سكان بنبلونة مالبثوا ان جلوا عنها هاربين خوفا ورعبا من قوات المسلمين . وطلب ملك نبرة العون من قشتالة وحاول لقاء المسلمين واستدراجهم فى مفاوز نبرة الوعرة ، ولكن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم وتمزيق قواتهم (١) . وحاول عبد الرحمن الناصر التعمق شمالا مستهدفا تدمير القلعة الاسلامية القديمة المسماة صخرة قيس Huarte

Aroquil - ، ولما تحقق له ذلك قفل عائدا الى قلعة تطيله . وبهذا الدرس القاسى الذى لقنه الناصر لسانشو غرسية الاول فى تلك السنة تنتهى الحلقة الاولى من الغزو الاسلامى ، وكان اردون الثانى قد توفى فى سنة ٣١١هـ (٩٢٤م) وخلفه اخوه فلويره الثانى بن اذفونش Fruela قبل ان يقوم الناصر بحملته على بنبلونة ، ولكن فلويره الثانى لم يحكم سوى عاما واحدا وتوفى ٣١٣هـ (٩٢٥م) تاركا وراءه صراعا ضاريا بين شانجة Sancho Ordenez والفونسو الرابع ولدى اردون الثانى ولم تلبث الحرب الاهلية ان نشبت فى مملكة ليون وانتهت بوفاة شانجة عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) Sancho Ordoñez الذى كان قد ظفر بعرش مملكة ليون ثم تجددت بين الفونسو الرابع (٣١٣ - ٣١٩هـ / ٩٢٥م - ٩٣١م) واخيه ردميره Ramiro II وانتهى الامر بفوز ردميره الذى ارتقى الى عرش ليون فى عام ٣١٩هـ (٩٣١م) (٢) بعد ان تنازل له اخوه الفونسو الرابع عن العرش واغام فى دير ساهاجون ، وقد اشتهر راميرو اوردميره (٣١٩ - ٣٤٠هـ / ٩٣١ - ٩٥١م) الذى تلقب بالثانى بشجاعته وقوته وشدة بأسه ، فقد تابع سياسة من س قه فى الصراع ضد المسلمين ، فانتهاز فرصة احتدام نار الثورة فى طليطالة ، فتوجه بقواته

(١) لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص ١٨٩ - ١٩٥ ، وابن عذارى البيان ، ٢ ، ص ١٨٦ - ١٨٩ .
(٢) Aguado Bleye, op. cit, p. 488.

لمساعدة الثوار ، ولكنه فوجيء بزحف أخيه الفونسو الرابع الراهب إلى مدينة ليون واستيلائه عليها ، فعاد راميرو مسرعا وجاصر أخاه في ليون واستردها عام ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) ثم سمل عيني أخيه وأبناء عمومته الثلاثة الذين اشتركوا في الثورة ضده وسجنهم (١) . وكان الناصر قد عزم على وضع حد لثورات مدينة طليطلة ، ولذلك فقد تقدم إليها في ربيع الثاني من عام ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) ثم حاصرها ، ولكنه غادرها بعد أسابيع وعاد إلى حصارها مرة ثانية بعد عامين وكله عزم وحماس على إخضاع هذه المدينة العاصية ، وقد حاول رذمير انقاذ هذه المدينة التي طالما شجع ثوارها ، وبالفعل فقد تقدم إليها مارا بحصن مجريط (مدريد) ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) ، ثم انهزم على أيدي المسلمين في أوسمة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) وعجز عن منعهم من تدمير أراضي قشتالة ومدينة برغش (٢) . وفي ذلك يقول ابن عذارى « وكان أهل طليطلة لما أخذهم الحصار واشتد عليهم التضييق ولازمهم القواد ، قد استجاشوا بالمشركين ، واستنجدوهم ورجعوا نصرهم لهم ، فلم يغنوا عنهم فتيل ، ولا كشفوا عنهم عذابا ولا جلبوا إليهم الا خزيا وهوانا ، وخرج القواد المحاصرون لهم إلى الكفرة فهزموهم وفرقوا جمعهم ، وانصرفوا مولين على أعقابهم ، خاذلين لمن انتصر بهم . فلما يئس أهل طليطلة أن ينصرهم أحد من بأس الله الذي عاجلهم وانتقامه الذي طالولهم ، عاذوا بصفح أمير المؤمنين ، وسألوه تأمينهم . » (٣) وقد ساعد على رحيل رذمير وعدم انجاده لطليطلة اضطراب ظروف بلاده الداخلية وثورة أخيه السابق ذكره عليه .

وفي عام ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) أعد الخليفة الناصر نفسه للجهاد ،

(١) وأبناء أخيه هم أدفنش وردميره وأردون ، وكانوا قد ساعدوا الفونسو الرابع
Lévi - Provençal, op. cit., t. II, p. 51.

(٢) Lévi - Provençal, Ibid, t. II, p. 53.

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

وقرر غزو مملكة نبرة ، وكان ملكها سانشو غرسية قد توفى في سنة ٣١٤هـ .
 (٩٢٦م) تاركا زوجته تيودا (طوطة) Toda Aznarez وصية على
 ولدها غرسية Garcia Sanchez 1 (٣١٤ - ٣٦٠هـ / ٩٢٦ - ٩٧٠م) .
 فلما علمت بقفاؤم الناصر « وردت عليه رسل الماكرة طوطة ابنة اشيلز
 تلوذ بطاعته وتمت بسبب اسلافها بالخلفاء سلفه ، وتسأله عقد سلمها
 وصرفه اوجه الخيل عنها . . . فسارعت الخروج نحوه بنفسها في وجوه
 رجالها وقواميسها واساقفتها ، ووافقت اليه مسرعة لعسكره في محلة قلهرة
 ومعها هدية حسنة ، وقد امر الناصر لدين الله بتعبئة الجيوش لدخولها
 . . . وخضعت له في سؤالها ومقالها ، فأحسن الناصر لدين الله قبولها ، وكرم
 منزلتها ، وعقد عليها وعلى قوامها عقدا ، اعز الله الاسلام به ، تضمن
 تصحيح الطاعة والتبرؤ من سائر ملوك النصرانية (١) . . . وبهذا يتبين
 لنا ان الناصر قد عقد صلحا مع طوطة في مقابل وعدها له بالآ تهدد أي
 رقعة من بلاد الاسلام والا تقدم أي عون لأي مملكة نصرانية ضد المسلمين ،
 ومضت سنوات عدة دارت خلالها العديد من الحروب بين الناصر وبين
 النصارى ، فقد كان كثيرا ما يتجه بكل قواته الى البة والقلاع مجتاحا
 بقواته العديد من الحصون المسيحية مثل حصن غرماج Gormaz الواقع بالقرب
 من ليون ، هذا وقد زحف الناصر على مدينة بزغش عاصمة قشتالة في
 عام (٣٢٣هـ) ٩٣٤م وخربها ، وبعدها هاجم أوسمة والقصر وحضن
 انه والديز المنسوب اليه من بلاد البة والقلاع ، وحصن بسيطة ، واشكفريش
 ولزمه (٢) . ولم تقتصر الحروب بين الناصر واعدائه التصاري على المواقع
 البرية ، بل ان هناك من المواقع البحرية ما دار بين الطرفين ، فقد ذكر
 ابن حيان ، خبر هذه الغزوة البحرية التي كان يقودها عبد الملك ابن
 سعيد بن أبي حمامة (٣) ضد الفرنج ، وقد انهزم الفرنج فيها ، وانتهت

(١) ابن حيان ، المقتبس ، ص ٣٣٦ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٤٠٤ .

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، ص ٣٦٦ .

هذه الحرب بعقد الصلح بين الناصر و ردميرة الثانى ملك ليون عام ٣٢٣هـ :
 ٩٣٤م . ثم تتابعت الغزوات فيما بعد ، فقد سار الناصر عام ٣٢٢هـ (٩٣٣م) :
 لمخاربة النصارى ، وفى عام ٣٢٤هـ (٩٣٥م) حاول ملك ليون أن يستولى
 على قلعة مجريط ولكن حامية الحصن تمكنت من صدده ، وانقاذ
 القلعة (١) . ثم واجه الناصر حلفاء ثلاثيا يتكون من التجيبين فى سرقسطة :
 وملك نبرة وملك ليون ، وعزم على التحرك السريع ، وفى عام ٣٢٦/٣٢٥هـ
 تمكن الناصر من الاستيلاء على قلعة أيوب Calatayud بعد أن كبّد
 حاميتها خسائر كبيرة فى النفس ثم على سرقسطة رغم المساعدات الجديدة .
 الضخمة التى قدمها ردمير ملك ليون لصاحبها (٢) ، وبهذا يكون الناصر
 قد قضى على ثورة التجيبين فى الشمال والغرب الأعلى وهم الذين طامروا
 كانوا يستعينون بليون ضد الناصر ، فيكون الناصر بهذا قد قضى على عدوين
 فى آن واحد .

وفى صيف ٢٢٧هـ (٩٣٩م) (٣) سار الناصر الى ليون ، وكان يقوده
 جيشا ضخما للغاية ، عبر نهر التاجة من جهة طليطلة ، ثم عبر نهر الدويره ،
 متجها نحو شنت مانكش Simancas ، وكان ردميره الثانى يربط على
 مقربة منها فى حشود عظيمة متاهبا للقتال ، وزوده خليفه الخائن اميرة بن
 اسحاق ، بنصائح ومعلومات قيمة ، وانضمت اليه طوطة ملكة نيرة ضاربة
 بعهودها عرض الحائط ، وبذلك اتحدت قوى اسبانيا المسيحية ضد :

(١) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ ، ابن حيان ، المقتبس
 ص ٣٧٩ .

(٢) Lévi.- Provençal, op. cit, t, II, p. 55.

(٣) لازيد من التفاصيل عن حملات الناصر انظر محمد عبد الله عنان ،
 دولة الاسلام ، ص ٤٠٢ - ٤٠٧ ، وكان الناصر قد عقد صلحا مع
 راميرو ملك ليون عام ٣٢٣هـ (٩٣٥م) (انظر ابن حيان ،
 المقتبس ، تحقيق شاليتا ، ص ٣٦٥) .

المسلمين . وتتفق المصادر العربية والاسلامية على أن الواقعة عرفت بالخنديق ، وكان من أبرز الذين خلنوا عبد الرحمن الناصر من اتباعه الخائن ابن فرتون بن محمد الطويل ، فقبض عليه الناصر وصلبه في قرطبة ، وكانت لهذه الهزيمة ، اثرها الكبير في أوربا والعالم الاسلامي (١) وانتهى الأمر بان عقد ردميره الصلح مع الناصر .

وعلى الرغم من السلم المنعقد بين الناصر ورمير الثاني ملك ليون إلا أن هذا الأخير لم يحترم عهوده معه ، فقد تجددت المعارك بينه وبين الناصر الى أن توفي ردميره الثاني في ٣٣٩ هـ (٩٥١ م) ، فاشتعلت الحرب الاهلية بين ولديه أردون الثالث Ordoño III (٩٥١ - ٩٥٦ م) وشانجة (٣) Sancho I حفيد طوطة الوصية على عرش مملكة نبرة وانتهاز المسلمون هذه الفرصة فآغاروا على مملكة ليون الى أن تولى أردون الثالث عرش ليون ، وعندئذ أرسل الى الخليفة الناصر يطلب موادعته ومسالته ، قاجابه الناصر وعقد معه معاهدة صلح على الرغم من أن شانجة اخاه عارضها وحال دون تنفيذها لفترة محددة . وكان أردون الثالث ابنا لردميره الثاني من زوجته الاولى تيريسا Teresa ، أما سانشو فكان ابنه من زوجته الثانية اراكه Urraca ، وكما سبق أن ذكرنا فإن الصراع لم يلبث أن دب بين الاخوين ، فقد ادعى أردون أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الاخوين ، ولكن شانجة اخاه وقف امامه يؤيده في ذلك اشراف نبرة وامراؤها الذين كانوا اخواله لامه وجدته طوطة الوصية على مملكة نبرة

(١) لمزيد من التفاصيل عن وقعة الخندق ، راجع ، ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ٣٤٢ - ٣٤٧ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٣٧ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٤١ ،

Lévi - Provençal, op. cit, p. 51 - 65, Aguado Bleye, op. cit, p. 487 - 488.

(٢) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

الى جانب اهل قشتالة ، وتوفى اردون الثالث بسمورة في ٣٤٥هـ (٩٥٦م) بعد فترة قصيرة من حكمه للبلاد خلفه اخوه شانجة الاول المعروف بالسمين (٣٤٥ - ٣٥٦ هـ / ٩٥٦ - ٩٦٦ م) السدي Sancho el grueso رفض تنفيذ اتفاقية السلام مع الخليفة الناصر^(١) ، مما دفع الناصر الى محاربته فسير لهذا الغرض قائده احمد بن يعلى في ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) الذي كان واليا على طليطلة الى ليون ، وتمكن القائد ابن يعلى من ايقاع الهزيمة بشانجة وارغمه في النهاية على قبول الصلح .

ثم ثار الاشراف على شانجة السمين بحجة هزيمته امام المسلمين في كثير من المعارك وبحجة ان بدائته المفرطة تحول بينه وبين ركوب الخيل ، فلاذ شانجة ببنيبلونه عاصمة نبرة واقام في كنف جدته طوطة ملكة نبرة^(٢) وفي ذلك الوقت قام الليونيون باختيار اردون الرابع السدي بن الفونسو الرابع الراهب عم الملك شانجة وصهر الكونت فردلند جنثالث Fernán González ، وذلك في عام ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) ، وقد كان اردون الرابع سييء الخلق كريها ، قبيح الشكل مما جعله يتلقب بالسييء El Malo فلما وجد شانجة السمين ان الامور قد ساءت ضده لجأ الى الناصر يطلب معونته ، فقام الناصر بمعالجته من بدائته وامداده بالاموال والرجال مما سهل لشانجة استرجاع عرش مملكة ليون مرة ثانية .

وفي مقابل هذه المساعدات التي قدمها الناصر لشانجة كان عليه ان يتنازل بعد استرجاع للعرش عن بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وساعد اشراف نبرة شانجة على الاستعادة للعرش ، وكانت الملكة طوطة قد وفدت الى قرطبة عام ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) ومعها ولداها غرسية الذي كانت

(١) Aguado Bleye, op. cit. p. 488 - Lévi - Provençal, op. cit., t. II, p. 70

(٢) Aguado Bleye, op. cit, P. 488 - Lévi - Provençal, Ibid, p. 70 - 71.

وهنية أعليه وحفيدها شانجة ملك ليون الذى خلعه اشرافها ، فاستقبلهم
الناصر بحفاوة بالغة ، ووعدهم ببذل المساعدة ، فلما تم لشانجة ما اراد
في ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) ، وفر اردون الرابع الى برغش ، نكث شانجة بكل
وعوده للمسلمين ، وتوفى الناصر بعد ذلك بفترة قصيرة في رمضان ٣٥٠ هـ
(أكتوبر ٩٦١ م) (١) . وفي ذلك الوقت أعلن فردلند (فرنان جنثالث)
تفسيه اميرا مستقلا على قشتالة وهو الذى كان قد تدخل في الاحداث الاخيرة
ليون تارة مع شانجة السمين ، وتارة ضده (٢) .

فلما علم اردون الرابع بنكث شانجة السمين لعهوده مع المسلمين
سعى الى التحكم المستنصر بالله مبدئاً رغبته في الصلح معه على أن يساعده في
استرجاع ملكة قوعده الحكم باعادته ، ولكن شانجة بادر هو الآخر باستمالة
الحكم وأعلن الطاعة له (٣) ، وما لبث أن نكث من جديد عندما علم بوفاة
اردون ، فقام الحكم بمحاربة شانجة ملك ليون ، وهزم فرنان جنثالث
امير قشتالة في موقعة شنت استيبين وأزعمهما على طلب الصلح ، وقد واجه
شانجة مشاكل عديدة منها قيام Conzalo Sanchez (غند شلب)
حاكم جليقية بالاستقلال بعد أن كان قد استولى على ليق وبازو وقلربة
مما دفع شانجة الى محاربته ، ولكن غند شلب دس له السم فمات في عام
٣٥٦ هـ (٩٦٦ م) وخلفه ابنة ردميرة الثالث (٣٥٦ - ٣٧٢ هـ / ٩٦٦
- ٩٨٢ م) وكان طفلا في الخامسة من عمره ، لذلك فقد تولت الوصاية
عليه حمته الراهبة البيرة Elvira . ولم تستتب الامور في ليون منذ
مصرع شانجة السمين مما جعلها تبدأ عصرا جديدا من الفوضى
والاضطرابات ، فالقوامسة لم يعترفوا بالملك الصغير ، والفتن انتشرت في
كل انحاء البلاد ، والليورمان اخذوا يهددون ساحل جليقية (٤) .

Sanchez-Albornoz, los reinos cristianos, op. cit, p:22.

(١)

Aguado Bleye, op. cit, p. 488.

(٢)

٤ - مملكة ليون بعد وفاة شاذجة المسلمين :

قامت الثورات في مملكة ليون وخاصة في ولاية جليقية في أعقاب وفاة شاذجة وحاول كثير من الزعماء الاستقلال عن مملكة ليون، وأخذوا يتوجهون الى قرطبة للتفاوض مع خليفة المسلمين (١) . وكان من أبرز هؤلاء الزعماء فرنان جنثالث (٢) الذي استقل بقشتالة ، كما ظل عند شلب Sanchez Gonzalo الذي اقدم على الفتك بشاذجة مستقلا في منطقة لميقي وبازو وقلمرية . ثم توفي فرنان جنثالث عام ٣٦٠ هـ (٩٧٠) وخلفه في الامارة ابنه غرسية فرنانديث Garcia Fernandez كما توفي عند شلب ملك نبرة في نفس السنة وخلفه ولده سانشو غرسية الثاني Sancho Garcés II Abarca (٣) ، الذي زوج ابنته من المنصور فأسلمت وتسمت عبدة ، وقد تنافس هؤلاء الامراء في اعلان طاعتهم للحكم المستنصر والوفود الى قرطبة ومنهم القمط بوريل الثاني من برشلونة ، الذي كان يمارس الحكم وحده بعد وفاة أخيه وشريكه في الحكم ميرو عام ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م) ومنهم الملك شاذجة غرسية Sancho Garcés II ملك نبرة ، ومعه السيدة البيرة الموصية على الملك الشاب ، ومنهم فرنان لايث Fernan Iainez قومس شلمنقة ، وغرسية فرنانديث Garcia Fernández أمير قشتالة وفرنانديث أنسورث Fernando Ansures أمير قشتالة قومس مونثون Monzon (منتشون) وعند شلب ، قومس جليقية ، ورودريجو بلاسكت Rodrigo Velázquez أمير جليقية ، وبنى غومث Gómez قمامسة قريون Carrion (٣) .

وفي عهد هشام المؤيد وحجاية المنصور بن أبي عامر أبلغ المنصور بقيام حلف مضاد للإسلام في الاندلس يجمع بين ردميرة الثالث وغرسية فرنانديث Garcia Fernandez وشاذجة أبركة Sancho Abarca ملك بنبلونة . فبادر المنصور بالخروج الى طليطلة ، ثم تقدم الى وادي

(١) Lévi - Provençal, op. cit. p. 180.

(٢) Sanchez - Albornoz, los reinos cristianos, p. 22

(٣) Lévi - Provençal, op. cit, t, II, p. 181.

دويره حيث بلغته الاخبار باحتشاد قوات الحلفاء في هذه المنطقة ، وتم الاشتباك في روضة Rueda في (٣٧١ هـ) اغسطس ٩٨١م على مقربة من شنت مانكش ، وأسفر الاشتباك عن كارثة بالنسبة للمتحالفين الثلاثة ، وانتهاز المنصور الفرصة ودخل حصن شنت مانكش ودمره ، وتمكن من أسر أعداد كبيرة (١) .

.وإمام هذه الهزائم المتتالية ، أقدم أشراف ليون في ذلك الوقت على التخلص من ردميرة ، فخلعوه وأقاموا مكانه ابن عمه برمودة Vermudo II بن ردميرة الثالث ، وتم ذلك في عام ٩٧٢م ، ولكن ردميرة الثالث لم يسكت على هذا الوضع الجديد فسرعان ما جمع قواته وأنصاره ، وأشعل نيران الحرب الأهلية من جديد ، بيد أنه تلقى في النهاية هزيمة نكراء من خصومه فر على أثرها الى استرقة محاولا اللجوء الى المنصور ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب وفاته المبكرة في ٢٦ يونيو ، وبهذا يكون برمودة قد تخلص من منافسه الوحيد ، وعندئذ بادر هو الآخر الى طلب المساعدة من المنصور الذي أمدّه بقوة كبيرة لمساعدته على التخلص من الأشراف ، ولكن برمودة ، لم يلبث أن بدل فجأة سياسته مع المنصور ، فطرد الحامية الإسلامية واسترد نفوذه على ليون (٢) ، ولم يتردد المنصور في محاربته ومهاجمة قلصية وتخريبها تماما بحيث ظلت خربة لمدة سبع سنوات ، كما جرد حملة وجهها الى مدينة ليون اشترك فيها بعض النبلاء والقوامسة ، فتعرضت للدمار وفر منها الملك الى سمورة التي تعرضت هي الاخرى للدمار (٣) مما

(١) . Sanchez - Alborno, los reinos cristianos españoles hasta el descubrimiento de América Buenos Aires, 1979, p. 22 - Lévi Provençal, op. cit, p. 235.

وراجع الرواية العربية في ابن عذارى ، البيان ، ٢٤٦ ، ص ٢٥٦ - ٢٨٠ .

(٢) Luis de Valde Avellano, op. cit, p. 229 - Lévi - Provençal, op. cit, p. 242.

(٣) Luis de Valde Avellano. op. cit, p. 250.

دفع برمودة إلى طلب الصلح عام (٣٨٥ هـ) ٩٩٥ م ، ثم توفي برمودة عام ٣٩٠ هـ (٩٩٠ م) وخلفه ابنه الفونسو الخامس النبيل EL NOBLE (٣٩٠ هـ - ٤١٨ هـ / ٩٩٩ - ١٠٢٧ م) ، وكان قاصرا ، فتولت الوصاية عليه امه الملكة البيرة والقومس (١) . منندو غثالث (منندس ابن غند شلب) .

٥ - نشأة مملكة قشتالة :

كانت تقع في أقصى الطرف الشرقي الذي يكاد يكون مهجورا من مملكة ليون ، وتمتد شرقا حتى هضاب نبرة ، ومن ولاية ريوخا Rioja جنوبا حتى الاراضي التي عرفت فيما بعد بأرغون (٢) ، وكانت تسمى بردوليا Bardulia (٣) ثم سميت فيما بعد بقشتالة Castilla (القلاع عند العرب) لتعدد القلاع بها ، ويمتاز موقعها بأنه استراتيجي ، للغاية ، فهي على وجه التحديد تقع في جنوب سلاسل جبال قنطابرية وفيه وادي ابره الأعلى وفي منطقة التماس مع جبال قنطابرية الموحشة وسكانها البشكنس الشرسين الذين لم يقهرهم القوط الغربيون قط (٤) .

وكانت حاضرة قشتالة مدينة أماية Amaya الواقعة على نهر حصين للغاية على ضفة وادي بيسويرجه Pisuerga ، وقد تعرضت هذه المنطقة لحملات المسلمين العنيفة طوال قرن كامل سواء من جانب القوات القرطبية أو من جماعات المسألة في وادي ابره الاوسط الذين كانوا يغزونها بدون انقطاع . وكان سكانها الاصليون من البشكنس وأهل البة (٥) . وكان

(١) Aguado Bleye, op. cit, p. 489.

(٢) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٥٩٠ .

(٣) Antonio Ramos Oliveira, Historia crítica de España, la edad media, p. 67.

(٤) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٦٣ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٣٣٢ .

(٥) Aguado Bleye, op. cit, p. 492. ، محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٥٩٠ .

لاختلافها في الارض والجنس والتاريخ عن سائر مملكة ليون اكبر الاثر في ايجاد نوع من الشعور بالعصبية والروح الانفصالية التي انتهت فيما بعد بانفصال شعبي لغويا وتشريعيا وادبيا (١) . وقد ثار اهل قشتالة في اوائل القرن العاشر ضد ملوك ليون فحاربهم اردون واخضعهم (٢) . كما سعى فرويلة والفونسو الثالث على اجتذابهم اليها بتزويجهم من سيّدات قشتالة (٣) او اعادة تعمير المدن والحصون في قشتالة بعناصر بشكنسية كما حدث في برغش وكاردينا وقلونية وشنت اشّتين (٤) . وقد تمكّنت قشتالة من تحقيق شخصيتها التاريخية في منتصف القرن العاشر الميلادي حين وجدت في القومس القشتالي Fernán González فرنان غنثالث (٥) الرجل الذي سيضع اساس استقلال الكونتية والذي عرف كيف يستغل

Sanchez - Albornoz, p. 22.

(١)

(٢) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ؛ ص ٥٩١ .

Aguado Bleye, op. cit, p. 492.

(٣)

Aguado Bleye, Ibid, p. 492 - José Luis Martín, op. cit, p. 108.

(٤)

(٥) هي فردلند في المصادر العربية ابن جئنالو فرنانث González Fernández قومس برغش منذ عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) والذي ورث كونتية قشتالة فيما يقرب من عام ٢٩٨هـ (٩١٠م) من قومس قشتالة السابق نونيو نونيث Nuño Nuñez (٢٨٦ - ٢٩٧هـ) (٨٩٩ - ٩٠٩م) ، عن طريق زواجه من مونيا بنت نونيو Muña . وقد قام جئنالو فرنانث منذ ان تولى كونتية قشتالة بترميم القلاع ، واعادة تعمير البلاد ومن بينها مدينة لارة Lara . ولقد ورث فرنان جئنالث من ابيه باديء ذي بدء ملكية مدينة لارة واصبح قومسا لها ، وفي بداية عام ٣٢٠هـ (٩٣٢م) وضع يده على كونتية قشتالة في حياة ابيه ، ولم يلبث ان الغى لقب قومس من اصحاب الكونتيات القشتالية وقصره على نفسه ، ومنذ سنة ٣٢٠هـ (٩٣٢م) اصبح يضم الى لقبه لقب قومس البية عن طريق زواجه من سانشا ارملة هراميث Herramelliz قومس البية (المتوفى سنة ٣١٩هـ/٩٣١م) وقد طال عهد فرنان جئنالث حتى سنة ٣٦٠هـ (٩٧٠م) وعاصر خمسا من ملوك ليون هم ردميرة الثاني (٣١٨ - ٣٣٩هـ) (٩٣٠ - ٩٥٠م) واردون الثالث (٣٣٩هـ - ٣٤٤هـ) (٩٥٠ - ٩٥٥م) وشانجة الاول (٣٤٤ - ٣٥٦هـ) (٩٥٥ - ٩٦٦م) واردون الرابع ٣٤٧هـ (٩٥٨م) وردميرة الثالث (٣٥٦ - ٣٧٢هـ) (٩٦٦ - ٩٨٢م) وتسجل الاربعون

حيويته في ظروف سياسية مواتية ، وهو الذي حشد قواته وانصاره معلنا الحرب على ردميرة الثاني ملك ليون وولده أردون الثالث من بعده ، وكان ردميرة الثاني قد بلغ أوج قوته عقب انتصاره الباهر على المسلمين في وقعة الخندق سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ هـ) ، لذا فقد أمكنه الانتصار على فرنان غنثالث بسهولة وتمكن من أسره الى ليون حيث أقام سجيناً نحو عشرة أشهر ، وأقام على حكم قشتالة أسور فرنانديث كونت مونثون Asur Fernandez conde de Monzon ، ثم أسند هذه الكونتية الى ولده سانشو في سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) مع الابقاء على أسور (١) وأمره بأن يحسن معاملة القشتاليين ، ولكن القشتاليين لم يرضوا عن أميرهم فرنان غنثالث بديلاً ، فواصلوا ثورتهم التي تحولت الى بركان من الغضب جعل مجموعهم الغالبة تخرج في حشود مرعدة الى ليون ، وعندئذ أطلق ردميرة في ذلك الوقت سراح فردلند (فرنان غنثالث) على أن يقسم يمين الولاء والطاعة للملك ليون وأن يتنازل عن كل أملاكه وأن يتزوج ابنة أردون (أى ابن ردميرة) أراكه Urraca بنت غنثالث ، فقبل فرنان غنثالث شروطه مرغماً ، وعلى أثر ذلك عاد فرنان غنثالث الى كونتية قشتالة (٢) وعقب وفاة ردميرة الثاني سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) تغيرت أمور قشتالة ، فقد تيسر لفرنان غنثالث ضم كونتيات قشتالة كلها تحت جناحه استعداداً لجعلها إمارة مستقلة نحو منتصف القرن العاشر ، وانتهاز فرنان غنثالث فرصة نشوب الحرب الأهلية بين شائجة السمين وأردون الرابع ولدى ردميره الثاني واستقل ببلده ، ونصب نفسه أميراً مستقلاً على قشتالة ، وأخذ يوسع أملاكه

عاماً من حكمه أحداثاً خطيرة من صراعات ومنازعات واضطرابات
(راجع)

Antonio Ramos Oliveira, historia de España, la edad media, p. 66
72).

Antonio Ramos Oliverira, op. cit, p. 86.

(١)

Ibid, p. 86. ,

(٢)

على حساب المسلمين (١) وفي هذه الاثناء كان شانجة السمين قد استنصر عقب جلوسه على عرش ليون. بعبد الرحمن الناصر ليدعم نفوذه ، وتولت عمته الراهبة دونيا البيرة الوصاية على ابنه ردميرة الثالث الملك الطفل وانتهى هذا الملك الصغير هو الآخر باستنصاره بعبد الرحمن الناصر (٢) ، وعندما تتابعت اعتداءات فردلند (فرنان جنثال) على اراضى المسلمين لم يتردد الحكم المستنصر فى ارسال قواته لوضع حد لهذه الاعتداءات واوقعت بقواته هزيمة نكراء فى موقعة شنت اشتين ٣٥٢ هـ (٩٦٢ م) . واضطر الى طلب الصلح ، ثم توالى غزوات المسلمين على اراضى قشتالة فيما بين عامى ٣٥٢ - ٣٥٧ هـ (٩٦٣ - ٩٦٧ م) وسيطر المسلمون على ضفاف دوبرة ، وما ان تولى المنصور ابن ابى عامر منصب الحجابة فى دولة هشام المؤيد حتى ظهرت مواهبه العسكرية وتمكن بفضل انتصاراته الحربية من الظفر بقلب المنصور ، ولم ينقطع عن توجيه ضرباته ضد المسيحية فى اسبانيا. خلال عقدين من الزمان فقدت الممالك المسيحية اثناءها خط دويره ، وفقدت شنت مانكش وسمورة ، وانقذ حلول الشتاء ليون من السقوط فى ايدي المسلمين (٣) ، وسقطت عواصم ثلاثة دول مسيحية هامة فى يده. هى ليون وبنبلونة وبرشلونة سواها بالارض ودمر منشأتها واسوارها ، ولقيت الكنائس الكبرى فى الممالك الثلاث ، بما فى ذلك شانت ياقب نفس المصير التعس ، اذ دمرت قواته ضريحها سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، وتوفى قوميس قشتالة فردلند فى يناير عام ٣٦٠ هـ (٩٧٠ م) ، وخلفه ابنه غريبيية Garcia Fernández (٣٦٠ هـ - ٣٨٥ هـ / ٩٧٠ - ٩٩٥ م) الذى لم يتردد فى محاربة المسلمين ، وتمكن من الاستيلاء على ديشا Deza

(١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٥٩٤ ،

António Ramos Oliveira, op. cit, p. 85 - 87,

Sanchez Albornoz, op. cit, p. 24,

Jose Luis Martin, op. cit, p. 110.

(٢)

Antonio Ramos, op. cit, p. 97 - Lévi - Provençal, op. cit, II p.235.

(٣)

والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ،

ص ٣٣٢ .

كما انتصر عليهم في البريقه (١) Alboreca

وفي سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) اشتبكت قوات المنصور مع قوات غرسية قومن قشتالة في موقعة دارت في السهل الواقع بين لنجة Langa والقصار Alcozer ، وانتهت بانتصار سريع لقوات المسلمين ، واصيب غرسية بجرح بالغ ، ووقع اسيرا في يد المنصور ، فحمل الى مدينة سالم Medinaceli ومنها الى قرطبة حيث توفي في ٢٩ يوليو من نفس السنة (٢) وخلفه على قشتالة ابنه شانجة غرسية Sancho Garcia حليف المنصور . ثم توفي المنصور في ٣٩٣ هـ (١٠ أغسطس ١٠٠٢ م) فخلفت وفاته نصارى اسبانيا من اعلى اعدائهم في جزيرة الاندلس ، ولكن ابنه عبد الملك لم يتركهم ينعمون بالراحة ، فقد واصل سياسة ابيه تجاه ممالك اسبانيا المسيحية ، فظل يقاتلهم ويبيد الرعب والهلع في قلوبهم بغزواته المتلاحقة ، ولكن مواهبه العسكرية ، كانت اقل من مواهب ابيه ، ولم يفق النصارى من الكابوس الجاثم عليهم الا بقيام اهل قرطبة بالثورة على شنجول في عام (٤٠٠ هـ) ١٠٠٩ م ، ولم تستطع مملكتنا ليون ونبرة الافادة من المسار الجديد الذى اتخذه التاريخ الاسبانى . اذ كانا قد عانيا بما فيه الكفاية ، فمملكة ليون كان يحكمها ملك صغير هو الفونسو الخامس كما سبق ان ذكرنا . في حين كان يحكم نبرة شانجة الثالث الذى لم يكن يحس باى حافز لمحاربة المسلمين في الوقت الذى استعانت فيه الطائفتان المتصارعتان في قرطبة على السلطان وهما طائفة البربر وطائفة الضقالبة بزعمى قوتين يمكن اعتبارهما من حيث المرتبة السلطانية اقل شأنا ، ولكن تتوفر لديهما الجراحة واعنى بهما قشتالة وبرشلونة ، فقشتالة منذ ان انفصلت عن مملكة ليون تمكنت من تدعيم قوتها واعدت نفسها لحياة استقلالية جديدة في ظل حاكم قدير يتمتع بمواهب سياسية وعسكرية واعنى به شانجة بن غرسية Sancho Garcia ٣٨٥ - ٤٠٨ هـ (٩٩٥ - ١٠١٧ م) اما ادواق الثغر الاسبانى

الذين عاشوا أحرارا في جنوب البرانس خلال الازمة الكارولنجية ، فقد أخذوا يستشعرون يوما بعد يوم بأهتمام خاص نحو مشاكل شبه الجزيرة ، كما بدأوا يتضامنون تدريجيا مع قوى المسيحية في أسبانيا . فكان اقواهم جميعا دوق برشلونة الذى كان يحكم اقوى مدن المنطقة التى ورثت مكانة طركونة المخربة منذ القرن الرابع ، وأمكن لادواقها ضم دوقيات اخرى في المنطقة ، ولم يكن هؤلاء الادواق قد اتموا وحدة بلادهم بعد ، كما انهم لم يكونوا في قوة القشاليين ، ومع ذلك فقد كانوا يستشعرون بالقوة ويتطلعون الى محاربة المسلمين . ودخل شانجة بن غرسية في سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٨ م) ورامون بوريل (٣٨٢ - ٤٠٩ هـ) (٩٩٢ - ١٠١٨ م) Ramón Borrell قرطبة في سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩ م) لمساعدة البربر والصقالبة (١) . واراد سليمان المستعين بالله ان يدخل قرطبة مع أصحابه البربر لاسقاط المهدى محمد بن هشام ، وتحقيقا لذلك استعان بشانجة بن غرسية بن فرذند قومس قشتالة ، ويعرف في المصادر العربية بابن مامة دونة (٢) . ولم يتردد قومس قشتالة في اغتنام هذه الفرصة لتدمير المسلمين والانتقام ممن سبق أن أصلوا بلاده نارا حامية ، وتم الاشتباك بين الخصمين المروانيين في ١٣ ربيع أول ٤٠٠هـ (٥ نوفمبر ١٠١٠ م) عند قنتيش (٣) .

ووجدت قوات القشاليين وهم نحو ٦٠٠ فارس نفسها داخل المدينة التى طالما تلقوا منها الضربات العنيفة ، وتحقق لقشتالة عودة حدود اراضيها عند نهر دويرة كنتيجة طبيعية لمساعداتها لسليمان (٤) ، بل

(١) Sanchez - Alborno, op. cit, p. 26.

(٢) هو تحريف من موما دومنا Mumma Domna وهو اسم جدة شانجة وام فرذند عند شلب Fernán. Gonzalez

Lévi - Provençal, Histoire t, II. p. 308, note 1.

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ص ٤٣ .

(٤) استرد قومس قشتالة أكثر من مائتى موضع وقلعة وفقا لاتفاقية عقدها مع سليمان المستعين منها قلونية وأوسمة وغرماج وشنت اشتبين وشقوبية .

تجاوزت قشتالة هذا الحد واتخذت مواقع جديدة جنوبى هذا النهر تتمثل فى سوبولفيدا Sepulveda وآبله Avila ، واتيح لقومس قشتالة اقامة المؤسسات الشعبية فى البلاد ، وشرع فى نهج سياسة قيادية وذلك بتزويج بناته من ملوك اسبانيا المسيحية من برشلونة حتى ليون ، وصعدت قشتالة بذلك على مسرح التاريخ .

وكان واضح الفتى قد خرج بعد فراره من قرطبة الى مدينة سالم ثم الى طرطوشة Tortosa واتفق مع قومس برشلونة ريموند بوريل الثالث وأخيه أرمنجول Armengol de Urgel ويسميه العرب أرمقند على أن يساعده عسكريا نظير تخليه لهم عن مدينة سالم قاعدة الثغر الاوسط ، فدخلها القطلان وحولوا جامعها الى كنيسة ، ثم زحف بقوة منهم عددهم تسعة آلاف (١) ، بالاضافة الى ثلاثين الفا من اتباعه ، واشتبكت قواته عند عقبة البقر (٢) وهو موضع يقع على بعد ٢٠ كم شمال قرطبة فى ٤٠١ هـ (يونيو ١٠١٠ م) ، فانهزم سليمان المستعين وجيشه ، ولكن القطلان لافعوا لمن اشتركهم فى هذه الغزوة ، فقتل منهم عدد كبير فى مقدمتهم أرمقند نفسه (٣) ثم توفى شانجة قومس قشتالة فى ٤٠٨ هـ (٥ فبراير ١٠١٧ م) تاركا رعيته فى حالة سيئة من الاضطراب والارتباك وخلفه ولده غرسية وكان صبيا فى الخامسة من عمره .

٦ - اسبانيا فى عهد شانجة الكبير وابنه فردلند الاول :

من خلال عرضنا السابق لاحوال الممالك المسيحية يتضح أنه فى اواخر القرن العاشر الميلادى كانت هناك ثلاثة ممالك مسيحية

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٩٦
Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t, II, p 297 - Lévi -
Provençal, histoire de l'Espagne, op. cit, t, II, p. 313.

وانظر سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٣٥٣
Antonio Ramos Oliveira, op. cit, p. 102.

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٣٥٣ .

الاولى : نافار (نبرة) اكثر تلك الممالك الثلاث اتساعا لاشتمالها على ولايات قنطابرية وسوبر اربى Sobrarbe ، وريبيا جورثه Ribagorza ، وقد حكم نبرة الملك شانجة الثالث الكبير Sancho Garcés el Mayor عقب وفاة حاكمها غرسية سانشيث عام ٣٩١هـ (١٠٠٠ م) .

والثانية : ليون التى توفى ملكها برمودة الثانى Vermudo II فى ٣٩٠هـ (٩٩٩ م) تاركا حكم بلاده الى ولده الطفل الفونسو الخامس الذى كان يتولى الوصاية عليه مندمس عند شلب Menendo González قومس جليقية واحد اكبر المملكة .

والثالثة : مملكة قشتالة التى كان يحكمها منذ عام ٣٨٥هـ (٩٩٥ م) : شانجة بن غرسية بن فردلند ، وقد حكم شانجة حتى عام ٤٠٨هـ (١٠١٧ م) ثم خلفه ولده غرسية ، الذى سقط صريعا فى ٤٢٠هـ (١٣ مايو ١٠٢٩ م) امام رواق كنيسة سان خوان بليون اثناء زواجه من اخت ملكها برمودة الثالث Vermudo III بن الفونسو الخامس ، وقتله أبناء Vela أحد الكونتات الذين كانوا يسعون الى الانتقام من غرسية لاغتصابه املاكهم ، ومات غرسية دون ان يعقب مما ترتب عليه نتائج خطيرة فى مستقبل الممالك المسيحية باسبانيا ، فقد اسرع شانجة الكبير ملك نبرة بضم قشتالة الى مملكته ، ونصب عليها ولده فردلند Fernando ملكا ، فاصبح فرناندو بذلك اول ملوك قشتالة ، وكانت حجة شانجة الكبير فى هذا ان زوجته ام فردلند هى البيرة اخت غرسية من ابيه شانجة غرسية ، ولهذا كان يحق لها وراثة العرش فى قشتالة مما مكن زوجها شانجة الكبير من تنصيب ابنة ملكا على هذه المملكة وراثة عن امه وبالتالي عن جده فى حين تلقب شانجة الكبير بملك اسبانيا (١) .

(١) Julio Valdeon, Aproximación histórica a Castilla y León, P. 44.

António Ramos Oliveira, op cit, p. 107, y 59.

هذا عن أخبار نبرة وفشتالة، أما عن مملكة ليون فقد حكمها الفونسو الخامس حتى وفاته في ٤ يوليو ١٠٢٨ م^(١) (٤١٩ هـ) ، أثناء حصاره لمدينة بيزيو Visco حين فاجأه أحد المسلمين بسهم مسموم أدى إلى وفاته ، وخلفه على عرش ليون ابنه برمودة الثالث ، الذي كان قد صاهر فردلند بن شانجة ملك قشتالة بزواجه من أخته تيريسا مما زاد من اطماع فردلند ملك قشتالة ، و شانجة الثالث والده في مملكة ليون ، لاسيما وأن برمودة الثالث كان لا يتجاوز الحادية عشرة سنة من عمره ، وبالفعل بادر شانجة بالزحف بقواته إلى ليون في صحبة غرسية قومس قشتالة الشاب الذي لقي حتفه مسموما ، وقتلها في ٤٢٠ هـ (مايو ١٠٣٩ م) وأعلن نفسه ملكا عليها ، في الوقت الذي اضطر فيه برمودة إلى الفرار ، ولم يلبث شانجة أن فرر محاربة برمودة ، وقامت الحرب بينهما في ٤٢٥ هـ (١٠٣٣ م) ثم واصل فردلند بن شانجة الحرب التي بدأها أبوه فاشتبك مع برمودة في سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) في موقعة تامارون (بعد وفاة شانجة الكبير بعامين) وفي هذه الموقعة الحاسمة سقط برمودة صريعا^(٢) ومات دون أن يعقب ، وبذلك استكمل فردلند الأول استيلاءه على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة^(٣) ، وتلقب بالامبراطور سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) Rex Imperator ، وتلقبت زوجته سانشا بالملكة الامبراطورة Regina Imperatrice^(٤) .

كان شانجة الكبير ملك نبرة قد قسم مملكته قبل وفاته سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥ م) بين أبنائه الأربعة ، فكانت نبرة من نصيب ابنه الأكبر غرسية ،

(١) يخطيء الاستاذ محمد عبد الله عنان في تحديد سنة وفاته فيجعلها في سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) في حين تجمع المصادر المسيحية على التاريخ المثبت بالمتن .

(٢) Antonio Ballesteros Beretta, op. cit, p 64.

(٣) Antonio Ballesteros, sintesis de historia de España, p 65 - António

Ramos olveira, op. cit; p. 109.

محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٧٨

Aguado Bleye, op. cit, p. 594. (٤)

اما فردلند الاول فقد حظى بمملكة قشتالة (١) وقسم من مملكة ليون (٤٢٧ - ٤٥٨ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٦٥ م) ، وابنه الثالث غند شلب Gonzalo فقد آلت اليه ولايتى Sobrarbe سوبراربي ، وريباجورتا Ribagorza في منطقة البرانس الوسطى ، واخيرا منح ردميره ابنه غير الشرعى رقعة ضئيلة تمتد بحذاء نبرة تسمى مملكة ارغون (٢) (٤٢٧ - ٤٥٥ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٦٣ م) وسجل ذلك مولد مملكتين هما قشتالة في الغرب وارغون في الشرق (٣) .

ومن الجدير بالذكر ان مملكة قشتالة كانت بالنسبة لشانجة الاكبر المنطلق الى الحى والرئيسى للاسترداد المسيحى ولقيام اسبانيا الكبرى وهو فكر ينعارض مع ايدولوجية ملوك اثنوريس وليون الذين ارادوا الاستئثار وحدهم باسترداد اسبانيا واحياء مملكة القوط البائدة كلها ، ولهذا تلقب ملوكها بلقب الامبراطور ، وقد ظهر قوامسة قشتالة بالنسبة لهم كعصاة مارقين ، ولكن عصيان فرنان جونثالث كان ضرورة حتمها العصر والوضع المناسب الذى فرضته الظروف فى الغرب الاوروبى كله ، ومن الادلة التى تثبت ان اتجاه قومس قشتالة نحو الاستقلال لم يكن تحركه الانانية او الشعور بالقومية الاقليمية ان قشتالة تحملت على عاتقها مسؤوليات الحرب ضد اهل الاندلس ، وانها بذلت كل طاقاتها لدعم هذه الفكرة ، وعندما ورث شانجة الاكبر كونتية قشتالة تلقب باللقب الامبراطورى امام امبراطور ليون ، وعندما وزع فردلند الاول مملكته الواسعة فى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م) على بنيه خص ابنه الاكبر بقشتالة كرمز للزعامة على اخوته الآخرين ، وقد

(١) Julio Valdeon, Aproximación histórica a Castilla y León p. 44.

ويذكر بعض المؤرخين الاسبان المحدثين أن فردلند لم يكن ليصبح ملكا لو أنه لم يدخل مدينة ليون بالاضافة الى زواجه من اخت برمودة الثالث الذى قتل فى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) فى سهول تامارزون (Ibid, p. 54)

(٢) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ٩ - ١٠ .

Aguado Bleye, op. cit, p. 593.

(٣)

فعل الفونسو السابع في ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) نفس الشيء عندما ترك قشتالة لشانجة الثالث. وهو ابنه الأكبر بينما ترك لفرناندو الثاني مملكة ليون الهرمة . وسيتبلور تفوق قشتالة للأبد في سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) عندما اتحدت مع ليون التي ما لبثت أن تقشّلت بعمق، وأصبحت قشتالة ترمز لاسبانيا كلها، وهناك مثل صارخ يعبر عن ذلك ، فعندما خرج خايمي الأول ملك أرغون لمساعدة الفونسو العاشر في اخماد ثورة المسلمين في مرسية ، لم يجد خايمي لاقناع باروناتا بالموافقة على تلك المساعدة بعد أن عرضوا عن تقديمها سوى أن يقول لهم كما نطالع في مدونته : لابد من تقديم العون لانقاذ اسبانيا *Per salvar Espanya* الممثلة في مملكة قشتالة التي انقذت الجميع من المرابطين والتي دفعت الجميع لمواجهة الموحيدين (١) .

وحدث أن قتل غند شلب ملك سوبراربي وريباجورثا أثناء عودته من رحلة صيد في عام ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) فنصب شعب هذه المملكة اخاه ردميرة أمير أرغون حاكما عليهم (٢) في الوقت الذي انصرف فيه أبناء شانجة الكبير الآخرين في أمور أخرى غير سوبراربي وريباجورثا . ولم يلبث أن تلقب ردميره بلقب الامبراطور ردميره الأول .

ولكن ردميره لم يقنع بحكم أرغون وسوبراربي معا ، بل زاده ذلك طمعا في مزيد من التوسع ، فتطلع الى حكم نبرة نفسها وتحالف مع المستعين بالله سليمان بن هود صاحب سرقسطة (٤٣١ - ٤٣٨ هـ) (١٠٣٩ - ١٠٤٦ م) ، واتجه على رأس قواته يساعده في ذلك ابن هود الى نبرة ، ولكنه تلقى هزيمة حاسمة قتل فيها معظم جيشه ومعظم حلفائه من المسلمين ، وكان ذلك في عام ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) ، وهرب ردميره الى جبال سوبراربي حيث أمضى عدة سنوات ، يعد فيها عدته ويعيد تنظيم صفوفه لاسترجاع أملاكه من جديد .

Aguade Bleye, op. cit, p. 593 - 594.

(١)

Luis Valdevellano, historia de España, t II, p. 273.

Aguado Bleye, op. cit, p. 503.

(٢)

وفي ذلك الحين كان الصراع بين نبرة وقشتالة قد بلغ أوجهه ،
فقد كان غرسية ملك نبرة، وهو الأخ الأكبر يشعر بالحقد والغيرة من أخيه
فردلند الأول الذي أصبح أول ملك على قشتالة وليون ، ودفع الحسد
غرسية إلى تدبير مؤامرة لقتل فردلند ، فقد أرسل يطلب الاجتماع به بحجة
مرضه الشديد وإشرافه على الموت، ولكن خبر هذه المؤامرة بلغ فردلند
قبل رحيله، لزيارة أخيه، فبادر بالعودة على عجلة إلى برغش، إلا أن فردلند
رد على هذه المؤامرة بأخرى بعد مرور عدة سنوات على مؤامرة أخيه
غرسية ، فقد دعاه لزيارته بقشتالة ، وحين أصبح غرسية داخل قشتالة
أمر فردلند بالقبض عليه وزج به في إحدى القلاع حيث ظل معتقلاً إلى
أن تمكن من الفرار إلى نبرة ، ومع ذلك كله فقد تميز فردلند بكرم بخله
وطيب عنصره ، وكان أفضل من أخيه غرسية ، وليس أدل على ذلك
من أنه لما احتدمت الحرب بينهما وانضم إلى غرسية أخوه ردميره ملك
نبرة بعد أن أنهى خلافاته معه كما انضم إليهما أيضاً ابن هود حاول
فردلند أكثر من مرة أن يتجنب الحرب بينه وبين أخيه ، فقد أرسل إليه
رسلاً من قبله ومنهم راهب سيلوس El abad de Silos وسانتو
دومنجو Santo Domingo ، يدعونه إلى الصلح ، ولكن هذه الوساطات
لم تؤد إلى نتيجة ، وانتهت الحرب التي نشبت بين فردلند ملك ليون
وقشتالة من جهة وبين أخويه غرسية ودميره مع حليفهما المسلم أحمد
بن سليمان بن هود من جهة أخرى بهزيمة غرسية ومقتله في موقعة
أتابوركا Atapuerca التي تبعد نحو ١٨ كم شرقى برغش (١) في أول
سبتمبر ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) ورغم ذلك فإن فرناندو أمر بأن يكرم جثمان
أخيه وأن يدفن في كنيسة ناجرة ، كما أنه لم يستول على مملكة نبرة
رغم انتصاره على أخيه غرسية ملكها السابق ، وإنما وافق على تنصيب
شانجة ابن أخيه القاتل غرسية على عرش نبرة ليحافظ على ملك أبيه

المسابق (١) .

ثم تطورت الامور في شبه الجزيرة تطورا حاسما في هذه الفترة، فقد كان المسلمون في الاندلس في حالة يرثى لها من التفكك والتدهور وعدم الاستقرار السياسى ، فقد انهارت الخلافة الاموية في قرطبة، وتمزقت وحدة الاندلس الى دويلات صغيرة مستقلة عرفت بدويلات الطوائف (٢) ، وأخذت هذه الدويلات تتطاحن فيما بينها وتستعين احداها على الاخرى بالقوى المسيحية التى اصبحت تمثل مراكز القوة في البلاد ، وبعد ان كان الاسبان يحتكمون الى خليفة قرطبة فيما شجر بينهم من خلافات ، انقلب الوضع ، واصبح المسلمون يستعينون بالقوى المسيحية لتحقيق مآربهم . ولم يكن تدخل اسبانيا المسيحية في خلافات المسلمين يتم بلا مقابل فقد اشترطوا نظير تقديم خدماتهم بأن يتنازل لهم المسلمون عن اراض وحصون . وأن يدفعوا لهم جزيات واثوات سنوية (٣) ، وكانت هذه التنازلات من جانب المسلمين عاملا في انحسار السيطرة الاسلامية في الاندلس الى الجنوب وتنشيط حركة الاسترداد الاسبانى .

ويعتبر فرناندو الاول ملك قشتالة وليون ، رائد هذه الحركة منذ ان تفرغ لهذا الهدف بعد ان صفى الصراع الداخلى بينه وبين اخوته ، ومن المعروف انه بدأ حملاته ضد المسلمين في ٤٤٧هـ (١٠٥٥ م) ، فقد تمكن من الاستيلاء على بيزيو Viseo وليميق Lamego الواقعتين على وادى دويره ، في سنة ٤٤٩هـ (١٠٥٧ م) وكانتا تتبعان مملكة المظفر بن الافطس صاحب بطليوس ، كما اقتزع من المقتدر بالله بن هود صاحب سرقسطة شنت اشتين وحصونا اخرى ، وعندما اغار على ضفاف وادى تاجة شمالى مملكة بنى

(١) Menendez - Pidal, España del Cid, op. cit, p. 122 - 123.

(٢) Lévi - Provençal, l'Espagne musulmane au xe siècle, p. 19 - 20.

Isidro de las Cagigas, Andalucía musulmana, Madrid, 1950, p. 34.

(٣) عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، ج١ ، ص ١٢٨ .

ذى النون بطليطلة خرج اليه صاحبها ، وقدم له جملة من الهدايا النفيسة ، واعلن تبعيته له ، وتعهد بدفع اتاوة سنوية . وكذلك فعل المعتضد بالله صاحب اشبيلية فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) . وفى العام التالى حاصر فردلند الاول مدينة قلمرية واستولى عليها (١) بعد مضى ٦ اشهر من الحصار ، وفرض الملك القشتالى على اهلها اخلاء الاراضى الواقعة ما بين وادى دويرة ووادى منديق (٢) وعلى اثر ذلك حول فردلند أسلحته نحو مملكة بلنسية (٣) .

وعند وفاته قسم فردلند الاول مملكته العريضة بين ابناءه ، فظفر اكبرهم شانجة الثالث بمملكة قشتالة واتاوة سرقسطة ، أما الفونسو السادس الاثير لديه فقد ورث مملكة ليون واتاوة طليطلة ، فى حين خص الابن الثالث غرسية بجليقية وماتكون من بلاد البرتقال بالاضافة الى اتاوات اشبيلية وبطليوس (٤) . ومن الغريب الا يرضى شانجة ولا الفونسو السادس بهذا التقسيم . فقد دخل الفونسو السادس فى حرب مع اخيه شانجة الثانى كما خالف الفونسو قرار توزيع التركة الذى وضعه ابوه واغار فى

(١) كلف الاستيلاء على قلمرية فى ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) فردلند الاول ثمنا باهظا للغاية ، وكان الفونسو الثالث قد حققه قبل ذلك بقرنين ٣٦٥هـ (٨٧٨م) ولكن خبرة فردلند السياسية ، حركته للشروع فى سياسة مختلفة مع ملوك الطوائف ، فكان فى امكان قوات ليون وقشتالة اجتياح الاراضى الاسلامية وتمزيقها ، ومهاجمة القرى والضياع ونهبها ولكن دون السيطرة على المدن الكبرى ، وكان ملوك الطوائف يرون مزارعهم تنتسف ومواشيهم تنهب ، وكانوا يرهبون دائما هجمات فردلند فى العمق ، وللتخلص من هذه الهجمات كانوا يلوذون بالجزيات او الاتاوات يدفعونها الى هذا الملك المسيحى يشترى بها سلامهم ، فكان فرناندو الاول يتسلمها من بطليوس وطليطلة واشبيلية وسرقسطة ، هذه الاتاوات كان لها اعظم الاثر فى تهدئة حركة الاسترداد والتاثير على التحرك السياسى الداخلى للمملكة .

(٢) Mehendez Pidal, op. cit, t. I, p. 145 - 146 Aguado Bleye, op. cit, p. 599.

(٣) Aguado Bleye, Ibid, p. 595.

(٤) اشباخ ، تاريخ الاندلس (ترجمة محمد عبد الله عنان ، ص ٢٠)

٤٦١هـ (١٠٦٨م) على املاك اخيه غرسية صاحب جليقية ، وكان اضعف ابناء فردلند الاول . فغزا بلاد بنى الافطس في بطليوس . ولم يلبث شانجة والفونسو ان اتفقا على تقسيم مملكة اخيهما غرسية بينما نفيا غرسية الى اشبيلية . ولكن الاخوين شانجة والفونسو سرعان ما اختلفا من جديد واشتبكا في معركة ضارية في يناير ٤٦٥هـ (١٠٧٢م) على مقربة من سهول القريون Carrion . وانتهت بهزيمة الفونسو السادس الذى وقع فى اسر اخيه ولم يلبث شانجة ان توج ملكا فى نفس السنة على ليون . ثم توسطت اخته الاميرة اراكه للافراج عن الفونسو ونفيه الى طليطلة حيث استقبله المامون بن ذى النون استقبالا حافلا (١) . وحدث اثناء حصار شانجة الثانى لسمورة التى كانت تابعة للفونسو السادس ان خرج اليه فارس من فرسان ليون وقتله ، فى ٧ اكتوبر ٤٦٥هـ (١٠٧٢م) ، وعلى اثر ذلك استقدم الفونسو السادس من طليطلة الى ليون حيث اعترفوا به ملكا على قشتالة بالاضافة الى مملكة ليون وجليقية .

وفى سنة ٤٦٩هـ (٤ يونيو ١٠٧٦م) اغتيل شانجة الرابع ملك نبرة فدرا بايعاز من اخيه الاصغر ، وعلى اثر ذلك طالب سكان ريوخا بالتعبعية للفونسو السادس ، واستقدموا الملك القشتالى لمبايعته، وتم ذلك فى نفس العام . وفى بداية ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) تلقب الفونسو السادس بامبراطور اسبانيا كلها (٢) . وكان استيلاء الفونسو على طليطلة سنة ٤٧٨هـ فى (٢٥ مايو ١٠٨٥م) نذيرا خطيرا للملك الطوائف فى الاندلس الذين استنصروا بيوسف بن تاشفين امير المرابطين فى المغرب ، ولم يتردد ابن تاشفين فى نصرته الاسلام فى الاندلس ، فعبر البحر وانضمت قوات الاندلس الى قوات المغرب وتقدمت جميعا الى بطليوس حيث دارت فى

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٩٠
Aguado Bleye, p. 599.

(٢) عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٨٤ .

سهلها المعروف بالزلزلة معركة فاصلة في رجب ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦ م) دارت فيها الدائرة على الفونسو السادس وحلفائه من ملوك ونبلاء اسبانيا المسيحية (١) وفي الاعوام التالية ثبت المرابطون اقدمهم في سائر اسبانيا الاسلامية ، كما احرزوا عدة انتصارات على القشتاليين في قنشوجرة في ٤٩١ هـ (١٥ أغسطس ١٠٩٧ م) وفي اقلش ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) (٢) ، ومع ذلك فقد امكن لافونسو السادس ان يحرز بعض الامتيازات في اراضي الاندلس وذلك عندما بدأ ملوك الطوائف يعملون معه ضد بقاء قوات المرابطين في الاندلس لاسيما بعد ان بدأ هؤلاء يخططون لخلع ملوك الطوائف عن عروشهم ، فالت الى الفونسو عدة مدن من غرب الاندلس منها شنترين ولشبونة وشنترة في ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) (٣) .

٥ - قيام مملكة ارغون :

بعد مصرع ردمير الاول ملك ارغون في معركة جراوس Graus في سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) انتقلت مملكة ارغون الى ولده شانجة ردميره Sancho Ramirez (٤٥٥ - ٤٨٧ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٩٤ م) الذي اصبحت ملكا على نبرة ايضا منذ سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) على اثر مصرع الملك شانجة الرابع في كمين اعدته ، اخته ارموزندة مع اخيه ريمند .

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه المعركة راجع مؤرخ مجهول ، الحلل الموسية ، تحقيق سهيل زكار وزمامة ، ص ٦٠ - ٦٦ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، القسم الثالث ص ٢٤٢ ، Menendez Pidal, la España del Cid, t, I, P 328 341, Ambrosio, Huici Miranda, la invasión de los Almoravides, y la batalla de Zallaca, Hesperis, t, xl, 1953, p. 40.

حسن محمود ، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢٧٣ - ٢٨٨ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٧٢٠ الى ٧٢٧ .

(٢) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٥١ - ١٦٤ .

(٣) Aguado Bleye op. cit, p, 603,

(٣)

وقد قام سانشو رميرو ملك أرغون بحصار منقشون Monzon في مملكة سرقسطة عام ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م)^(١) وتمكن من الاستيلاء عليها (١) ، ثم رحل الى وشقة Huesca - لحصارها وهناك توفي تحت أسوارها فخلفه ولده بطره الاول Pedro (٤٨٧ - ٤٩٨ هـ) (١٠٩٤ - ١١٠٤ م) على عرش البلاد وتابع الحصار ، فاستغاث المستعين بالله بن هود بالملك القشتالي الفونسو السادس ، ولكنه انهزم هزيمة ذكراء وهو والفونسو في بلدة الكراث Alcoraz سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) أمام ضربات الارغويين وسقطت وشقة في يد ملك أرغون سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) .

وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) استرد بطره الاول نهائيا مدينة بريشت (٢) ، وواصل تغلبه على حصون المسلمين حتى وفاته في عام ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) وخلفه أخوه الفونسو سانشو Alfonso Sanchez

(١) Aguado, Bleye, p. 628,
(٢) كانت قد سقطت في يد شانجة بن رذير Sancho Ramirez في عام ٤٥٧ هـ (أغسطس ١٠٦٤ م) إثر حصار صليبي عنيف شاركت فيه قوات أوربية بدعوة من البابا اسكندر الثاني في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) ومن أمراء هذه الحملة الصليبية وليم كونت بواتييه ، ودوق اقطانية وبعض النبلاء من البيت النورمندي برئاسة روبرت كريسبين Robert Crespín وبعض الايطاليين برئاسة وليم دي مونترى De Montruil وازمنقد Armengol III دوق أورخيل (قطالونيا) واسقف بيش Vich (راجع تفاصيل سقوط بريشت وما ارتكبه الصليبيون من جرائم يندى لها الجبين في ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) في : ابن عذاري البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ ، الحل الموسوية ، ص ٧٦ ،
(150). Menéndez Pidal, la España del Cid, t. I, p. 148

ولكن سقوط بريشت أثار غضب الاسلام في الاندلس ، فتصدى المقتدر بالله بن هود لاسترجاعها ، واستنفر للجهاد سائر بلاد الاندلس ، فتقدمت أعداد كبيرة من مختلف الجهات ، بلغ عددهم ستة آلاف من الرماة والعقارة ، وشارك المعتضد بالله صاحب اشبيلية بفرقة من الفرسان عدتها ٥٠٠ فارس ، وتمكن ابن هود بفضل ذلك من استردادها في نفس السنة التي سقطت فيها (راجع ابن عذاري ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٧)^٣

Aguado Bleye, Manual, p. 627.

الاول الملقب بالمحارب (١) ، (٤٩٨ - ٥٢٩ هـ) (١١٠٤ - ١١٣٤ م) المعروف في المصادر العربية بابن رذمير (٢) ، وقد تزوج الفونسو فيما بعد باراكة بنت الفونسو السادس ، ولهذا فقد ورث سائر ممالك اسبانيا (٣) .

٦ - مملكة قشتالة وأراغون بعد وفاة الفونسو السادس وبداية ظهور مملكة البرتغال :

قبل وفاة الفونسو السادس في طليطلة في ٥٠٣ هـ (٣٠ يونيو ١١٠٩ م) عمل على تزويج ابنته اراكة من الفونسو الاول ملك أراغون ، وكانت فيما سبق زوجة للمكونت ريمون البورجونى كونت جليقية وابنته غير الشرعية تيريسا من هنرى البورجونى مع منحهما ولاية لجدانية التى كان قد انتزعاها من المسلمين وستصبح هذه الولاية نواة لمملكة البرتغال .

وقد تم زواج اراكة من الفونسو الاول في حصن Muño بالقرب من برغش في سنة ٥٠٣ هـ (سبتمبر ١١٠٩ م) ولكنها كانت زيجة فاشلة

(١) ولد في ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) ، وكان ثمة زواج شانجة راميرث من فيليثيا دى روكى Felicia de Roucy ، اعتلى عرش أراغون بعد وفاة أخيه بطرة الاول في ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) وأخذ الفونسو يظهر منذ وفاة الامير شانجة بن الفونسو السادس من زائدة المسلمة في إقليش ، الرجل القوي الوحيد في اسبانيا المسيحية (ولزيد من التفاصيل عن الفونسو المحارب انظر

Jose Maria Lacarra, Alfonso el batallador, coleccion Basica Aragonesa, Zaragoza, 1978).

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج٤ ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ابن القطان ، جزء من كتاب نظم الجمان تحقيق د. محمود علي مكي ، الرباط ، ص ١٠٩ ، الحلل الموشية ، ص ٩١ ، ابن الخطيب ، كتاب الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان ، ج١ ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، Aguado Bleye, op. cit, p. 628.

لاختلاف الطباق بين الزوجين ، وقد جلبت هذه الخلافات بينهما الخراب والحروب الاهلية بين قشتالة وليون وجليقية وارغون ، ووصل الخلاف بين الزوجين الى حد الحروب العاصفة بل ان خلافا بين اراكة وابنها الطفل الفونسو ريمونديس Alfonso Raimundez من زوجها الاول قد نشب اثناء حربها لزوجها الفونسو المحارب ملك ارغون ، وانضم هنري البورجونى امير البرتغال وزوج اختها تريسا الى صف ملك ارغون ضدها وان كانت تريسا قد انضمت فى مرحلة من مراحل الحرب الى جانب اختها فى مقابل اراضى تنازلت اراكة لها عنها ، كذلك تدخلت البابوية فى هذه الحروب اكثر من مرة ، مرة حين عين البابا كالستوس الثانى احد اعوان اراكة وهو الاسقف ديجو خلمريت (١) مطرانا ، ومرة حين اصدر البابا قرارا ببطلان زواج اراكة من الفونسو المحارب لشدة القرابة بين الزوجين ، ولم تنته تلك الحروب الاهلية الا بوفاة اراكة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦ م) تلك الملكة التى وصفتها كثير من المصادر الاسبانية بانها سيئة الطباع ومستهترّة فى سلوكها لم تحترم نفسها كزوجة او كام ، بعد ان ظلت تعتلى عرش ابيها الفونسو السادس مدة عشرين عاما حاربت خلالها ابنها الوحيد الفونسو ريمونديس ، بعد ان رفضت اعلانه ملكا على البلاد ، كما حاربت زوجها الفونسو الاول ملك ارغون . وحين توفيت اعلن ولدها الفونسو ريمونديس نفسه ملكا على قشتالة وليون وسائر الاراضى التى حكمها جده الفونسو السادس وتلقب بالامبراطور الفونسو السابع (٢) ، وعرف فى المصادر العربية

(١) ديجو خلمريت : كان 'سقفا لسانت ياقب منذ عام ٤٩٥هـ (١١٠١م) ، وصفته المراجع بأنه كان شديد الحزم ، كثير الاطماع ، شغوبا بتوسيع سلطانه وحقوق كنيسته مع عدم اهتمامه بالوسيلة التى يتم بها ذلك ، وقد كان يتمشى مع سير الاحداث فكان تارة صديقا لاراقة ثم تخلى عنها ، وتارة مع اختها تريسا اميرة البرتغال ، وتارة عدوا لها ، ومرة ينحاز فى صف الصبى الفونسو ريمونديس ثم يقلب عليه مرة اخرى (انظر Aguado Bleye, p. 621. - يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٥٠ - ١٦٠ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٨٢)

(٢) لمزيد من التفاصيل حول عهد اوراكا انظر Aguado Bleye, p. 618

بالسليطين (١) (٥٢٠ هـ - ٥٥٢ هـ / ١١٢٦ م - ١١٥٧ م) وبه بدخاثة في حكم قشتالة أسرة جديدة هي أسرة بورجونيا: Borgoña استمرت حتى ١٤٧٤ (١٣٦٩ م) (١).

٧ - الممالك الإسبانية النصرانية في عهد الفونسو السابع:

توفي الفونسو المحارب (٢) في رمضان عام ٥٢٨ هـ (شهر يوليو ١١٣٤ م) أثناء حصاره لافراغه دون أن يعقب، وكان الفونسو قد أوصى بتقسيم مملكته الى ثلاثة أقسام، القسم الاول يخصص لسلام روح والديه، وللتكفير عن زلاته وللقبر المقدس ولخدمه، أما الثاني فقد خصصه للفقراء وفرسان الاسبتارية في بيت المقدس، أما الثالث فقد خصصه لفرسان الداوية (٣). وكان الفونسو قد حاول انشاء جماعات فرسان دينية على غرار جماعة بيت المقدس ولكنه وجد معارضة شديدة من الاشراف، ولذا عمل على تنفيذ مشروعه من خلال وصيته، وقد عارض النبريون والارغونيون هذه الوصية التي تقضى بالتصرف فيهم وفي ممالكهم بصورة سيئة للغاية لذلك فقد اجتمع الشعبان بكافة طبقاتهما من رجال الدين والاشراف ونواب الشعب في بلدة خاقا Jaca فيما يعرف بمؤتمر وطني وتوصل الارغونيون فيه الى اختيار ردميره الثاني الراهب شقيق الملك الفونسو المحارب

=

يوسف اشياخ، تاريخ الاندلس، ص ١٥٠ - ١٦٠، محمد عزم الله عنان، عصر المرابطين، ص ٤٨٠ - ٤٨٨.
(١٠) ابن عذاري، ج ٤، ص ٨٦، مجموعة رسائل موحدية، من كتاب الدولة المؤمنية، نشرها ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٤١، ص ٧٥، ابن القطان، جزء من كتاب نظم الجمان، ص ١١٣، والمقرى، فتح الطيب، ج ٦، ص ٢٠٧. والمراد بالسليطين تصغير السلطان وهو لقب أطلقه عليه المسلمون لانه تولى الملك صغيرا بعد وفاة أمه أراكلابنة الفونسو السادس ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م).
(٢) عن تفاصيل وفاة الفونسو المحارب، انظر يوسف اشياخ، تاريخ الاندلس، ص ١٦٣ - ١٦٧.
(٣)

Aguado Bleye, op. cit, p. 630.

لحكم البلاد ولكن النبريون اعترضوا على هذا الوضع ،، فأعلنوا في ينبلونة
عناصمتهم القديمة عن رغبتهم في الاستقلال ،، وبالفعل اختاروا ملكهم وهو
غرسية راميريث Ramirez Garcia . بحفيد ملكهم شانجة الرابع الذي
قتلته أخته أرموزده سنة ٦٩٠ هـ (١٢٧٦ م) وبهذا عادت نبرة سنة ٥٢٩ هـ
(١٢٤٦ م) إلى الظهور من جديد مملكة مستقلة لها كيان وسياده .

ولكن الفونسو ريمونديس (٥٢٠ هـ - ٥٥٢ هـ) (١١٢٦ - ١١٥٧ م)
ملك قشتالة لم يرغب في إبقاء الأوضاع على مثل ما هي عليه ، لذلك فقد
تدخل في شؤون أرغون بعد أن دخل سرقسطة دون مقاومة ، وانتهى
الامر بأن أعلن ردميره الثاني الراهب أنه يحكم أرغون في ظل قشتالة وأنه
يكتفى بلقب ملك أرغون وسويراربي وريباجورسا ، كما أن غرسية
راميريث ملك نبرة لم يتردد في طلب نصرتة والاعتراف بحمايته ، فقد أراد
كل منهما أن يحتفظ بشيء من السلطان ،، فهما يعرفان أنهما لن يقويا على
حرب ضد الفونسو ريمونديس (١) ،، وبهذا يكون الفونسو ريمونديس قد
وفق في الحصول على لقب الامبراطور عن استحقاق .

وسرعان ما حسب الخلاف بين أرغون ونبرة ،، فيادر ردميره الراهب
ملك أرغون بتقديم ابنته بترونيلا Petronila الطفلة عروسا لشانجة
«ولى عهد قشتالة» معلنا تعاونه مع الفونسو ريمونديس ضد نبرة ، التي
كان الفونسو ريمونديس قد بدأ ينظر إلى ملكها بعين التوجس والغضب
ورجف عليها بجيش كبير ،، ولم يلق نبرة سوى معجزة جاءت نتيجة قيام
الفونسو ريمونديس Alfonso Enriquez أمير البرتغال بمهاجمة أراضي
الطبيقة التابعة لقشتالة وإقدام المرابطين على تهديد حدود قشتالة الجنوبية
مما اضطر الفونسو ريمونديس إلى الانسحاب . وفي تلك الاثناء كان ردميره

Aguado Bleve, op. cit, p. 635 - 636.

(١)

ومحمد عبد الله عثان ، عصر المرابطين ، ص ٤٩٥ ، واشباخ ،
تاريخ الاندلس ، ص ١٧٦ .

الثانى الراهب شقيق الفونسو المحارب قد تبرم بحياة الملك ، فعزم على تزويج ابنته بترونيلا من الكونت رامون برنجير الرابع Ramón Berenguer IV قومن برشلونة ، وكانت كل الطبقات فى ارغون يحبذون ذلك الزواج لتقارب الشعبين الارغونى والقطلانى فى التقاليد والعادات ، وقد تم هذا الزواج حين كانت بترونيلا لاتزال فى الثانية من عمرها، ثم تنازل راميرو الراهب عن الحكم ، وأبدى الفونسو ريمونديس ملك قشتالة موافقته على هذا كله ، وعاد راميرو الى الدين مرة ثانية فى سنة ٥٢٦هـ (١١٣١م) (١)

ومن الجدير بالذكر أن الميول الاستقلالية لمملكة البرتغال أخذت فى الظهور فى عهد الامبراطور الفونسو ريمونديس السابع : فقد كان الفونسو هنريكيز على غرار أمه تريسا ماضيا فى تحديه لسلطان قشتالة، بل أنه أخذ يتصن بالثوار الجالقة، الأمر الذى اثار غضب الفونسو ريمونديس، فتاهب لمقابلة الفونسو هنريكيز ، ولكن هذا القتال المزعوم انتهى بصلح مؤقت عام ٥٣٢هـ (١١٣٧م) اعترف فيه ملك البرتغال بسيادة قشتالة عليه ، وكان قد اجبر على الصلح بسبب ضغط المسلمين على اراضيه (٢) .

ثم انصرف الفونسو ريمونديس الى محاربة المسلمين ، فشن حملات متتابعة على طليطلة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) وقوزية وحصن اوريليه Oreja ، واستولى على هذا الحصن ٥٣٣/٥٣٤هـ (١١٣٩م) (٣) . ورغم حروبه مع المسلمين الا أنه وجد الوقت للاتفاق والتآمر مع صهره رامون برنجار الرابع أمير مملكة اراجون وقطلونية المتحدة على مملكة نبرة لاقتسامها بينهما ، ولكن هذه المؤامرة انتهت عام ٥٣٥هـ (١١٤٠م) بأن اعلن ملك نبرة سيادة الامبراطور الفونسو ريمونديس ، وان تتزوج الاميرة بلانكا ابنة غرسية من الأمير سانشو ولد الامبراطور . وفى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م)

Aguade Bleyc, p. 636.

Aguado Bleyc, Ibid, p. 636.

(١) ابن القطان ، جرد من كتاب نظم الجمان ، ص ٢٤٥ .

(٢)

(٣)

تم زواج غرشية ملك نبرة من اراكة ابنة القيصر الفونسو ريمونديس غير الشرعية ، وكانت لهذه الزيجة اكبر الاثر في وضع حد للاغارة القشتالية الارغونية على نبرة للمرة الثانية بعد صلح ٥٣٢هـ (١١٣٧ م) .١

واثناء هذا كله توالى المعارك القشتالية / الاسلامية ، وفي احدى هذه المعارك هزم أحد قادة الفونسو السابع ، وهو مارتين فرنانديث وقتل فغضب الملك ، وهاجم احوار قرطبة واشبيلية ، ووصل حتى اراضى غرناطة والمرية ، ثم عاد لبلاده مثقلا بالغنائم ، ولعل عنف الضربات المسيحية الموجهة لبلاد المسلمين في الاندلس كان له اكبر الاثر في اشتعال نيران الثورات ضد الحكم المرابطى في الاندلس كما سبق أن ذكرنا وكانت اعظم ضربة نزلت بالمسلمين استيلاء جيوش الممالك الصليبية على المرية في جمادى الاولى ٥٤٢هـ (اكتوبر عام ١١٤٧ م) وظلت تحت سيطرة الفونسو السابع الى ان استعادها الموحدون في اواخر ٥٥٢هـ (١١٥٧ م) (١) . ومن الجدير بالذكر ان الفونسو السابع السليطين طالب ابن غانية (أبو زكريا يحيى بن غانية المسوفى) كبير قواد المرابطين في الاندلس بمدينة قرطبة ، ثمن لما قدمه له من مساعدات ، وكان قد امدّه بقوة في ٥٤٠هـ (١١٤٥ م) . دخلت قرطبة في ١٢ شعبان وعاشت فسادا في مسجدها الجامع ، وربطوا خيولهم في اروقته ، واقاموا قداسا حافلا ، ولكن ابن غانية ماله على ان يعطيه بياسة وتحفا كثيرة ، ويرسل اليه جزية سنوية ، فخرجوا منها بعد عشرة ايام من دخولها (٢) .

كذلك استولت الحملة الصليبية الثالثة من مقاتلين من قطلونية وارغون ونبرة وجنوة بقيادة رامون برينجير الرابع امير برشلونة على طرطوشة ٥٤٣هـ (١١٤٨ م) ولاردة ٥٤٤هـ (١١٤٩ م) وافراغه ومكناسة وبذلك انتهت سيادة المسلمين على الثغر الاعلى .

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ٩٥ ، المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٩٠ .
(٢) ابن غالب الاندلسي ، قطعة من فرحة الانفس ، ص ٢٩٩ .

وتوفي عام ٥٤٥هـ (١١٥٠م) ، توفى غرسية راميريث ملك نبرة وخلفه ولده شانجة السادس العالم (٥٤٥ - ٥٩١ هـ / ١٢٥٠ - ١١٩٤ م) مما حرك اطماع الفونسو السابع لاسيئتاف الخضرة على نبرة ، ولكن زواج يلانكا اخت سانشو ملك نبرة من الدوق شانجة القشتالي عام ٥٤٦هـ (١١٥١) أوقف التآمر على نبرة .

وتوفى الفونسو ريمونديس في بلدة فريسندة Fresenda في سنة ٥٥٢هـ (٢١ أغسطس ١١٥٧م) عقب عودته من المرية وكان قد قسم مملكته كما كان متبعها من قبل بين أبنائه ، فكانت قشتالة وإستراما دورة وبلليطلة من نصيب شانجة الثالث (٥٥٢ - ٥٥٣ هـ) (١١٥٧ - ١١٥٨م) ، وآلت ليون وجليقية الى فردلند الثاني (٥٥٢ - ٥٨٤ هـ) (١١٥٧ - ١٢٨٨م) .

ثم توفى الكونت رامون برنجير الرابع في ٥٥٨هـ (١١٦٢م) وكان من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، ويعد المؤسس الحقيقي لمملكة أرغون .

وكانت وفاة الفونسو السابع تدبر شؤم على أمتالي قشتالة ، فطلبها للنظام الذي كان قد وضعه في أواخر حياته نجد أنه اختص شانجة الثالث بعرض قشتالة وما يتبعها من أراضي في أعالي التاج ، وكانت عاصمتها طابعللة ، مع حقه أخذ الجزية من مملكتي نبرة وارغون اما ولده فردلند فقد تولى مملكة ليون وجليقية واشتوريس مع حق السيادة على البرتغال . وبهذا التقسيم أصبحت الممالك المسيحية الإسبانية خمسة ، أرغون وقطالونية المتحدة ونبرة وقشتالة وليون والبرتغال . وقد جاول شانجة الثالث ملك نبرة أن يسترد ريوخا وأن يتحرر من السلطة القشتالية ولكن فرناندو (فردلند) هدهد بعنف مما دفع الملك النبري على الصلح . ثم توفى شانجة الثالث فجأة في عام ٥٥٣هـ (آخر أغسطس سنة ١١٥٨م) بعد أن حكم عاما واحدا ولم يترك سوى ولدا واحدا هو الفونسو الثامن الذي لقب فيما بعد ثالنبيل ، وكان في الثالثة من عمره في ذلك الوقت ، وكانت مسألة الوصاية على هذا الطفل ، المعلق الرئيسي في اقيام الحروب

أهلية مدمرة عصفت بقشتالة ، فقد تنافست أستراليا كاسترو ولارا على وصايتيه ، وحاول عمه الملك الليونى فرناندو أن يظفر بالوصاية ، ولكنه فشل فى النهاية (١) .

٨ - قيام مملكة البرتغال :

ترجع الاصول الاولى لمملكة البرتغال المستقلة عن قشتالة الى ولاية لجدانية Lusitania وهى القسم الغربى من شبه الجزيرة الاسبانية ، وهى التى كان أهلها يتمتعون بخواص تتميز عن سائر الاسبان فى شرقى الجزيرة ووسطها ، وكانت لجدانية فى العصر القديم تشمل الرقعة الغربية الواقعة جنوبى جليقية المحاذية لساحل الأطلنطى فيما بين مصب نهر دويرة ومصب نهر وادى يانة ، وقد نزلها الوندال والسوابيون ، ثم عبر الوندال الى المغرب ، وظل السوابيون يحتلون زهاء نصف قرن ، ثم أجلاهم عنها القوط الغربيون واحتلوها بدورهم ، واتخذوا ماردة حاضرة لها ، وكانت لجدانية اقليما من الاقاليم الستة التى تنقسم اليها مملكة القوط ولما افتتح المسلمون ابارية ظلت لجدانية تحتفظ بعاصمتها ماردة التى اصبحت مركزا للثورات ، ثم ظهرت بطلبوس فى عصر الدولة الاموية حين ثار بها بنو الجليقى وفى عصر الطوائف أطلق على القسم الواقع فى ابدى المسلمين من ولاية لجدانية اسم ولاية الغرب ، استقل به بنو الافطس ، الذين كان يمتد حكمهم من منتصف وادى يانة حتى مدينة قلمرية ويشتمل على ثغر اشبونة وشنترين ويابرة ، اما القسم الشمالى من لجدانية فقد اخذ النصرانى ينتزعونه من المسلمين بالتدريج مدينة اثر مدينة وكان آخر هذه المدن المفتوحة هى قلمرية التى استولى عليها فردلند الاول فى عام ٤٥٦هـ (١٠٦٤م) ، وقد جعل فردلند من هذه المنطقة ولاية مستقلة

Aguado Bleye, op. cit, p. 638 - Luis Suarez, Historia de España, (١)
p 237.

Jose Luis Martin, la peninsula en la edad media, Barcelona 1980,
p 358, 359.

باسم البرتغال المشتق من اسم « بورثوكال » Porto cale وقد انتدب لولايتها وزيره المستعرب سسندو دافيدس ، وحاول اللجديون أو البرتغاليون أهل الولاية الجديدة أن ينالوا حريتهم واستقلالهم فثاروا ضد حكم الملك غرسية بقيادة زعيمهم الكونت نونيو منندس ولكنهم هزموا وقتل زعيمهم عام (٤٦٤ هـ) (١٠٧١ م) ، وعادت ولاية البرتغال تستقبل ولايتها من قبل قشتالة (١) .

وعقب واقعة الزلاقة وفد على الفونسو السادس فرنسيان من فرسان بوجونيا هما ريموند وهنرى البورجونى ، ولما اخلص هذان الفارسان فى خدمة الفونسو السادس زوج الفونسو ريمون البورجونى من ابنته اراكة ونصبه واليا على شنترة واشبونة وشنترين (٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م) ، كما زوج هنرى من ابنته غير الشرعية تريسا، ولما مات ريمون خلفه على البرتغال هنرى البورجونى الذى تلقب بالدوق وأصبح يحكم باعتباره تابعا لمملكة قشتالة، واتخذ قلمرية عاصمة للبرتغال ، فتسمى هنرى لذلك بصاحب قلمرية ولما توفى الفونسو السادس سجل فى وصيته بتثبيت حكم هنرى على البرتغال تحت سيادة قشتالة ، وكان هنرى قد ترك ولده الفونسو أنريكث طفلا فى الثالثة من عمره ، فتولت تريسا الوصاية عليه .

وحين شب الفونسو أنريكث كان الشعب قد بدأ يمل حكم تريسا المستهترة والتف حول الفونسو أنريكث الذى تطبع بطباع الفرسان وارتبط برجال الدين لاقصى مدى ، وقد نشبت الحرب بينه وبين أمه ، وأنتهى الأمر بسجنها لتكفر عن زلاتها ونفى صديقها فرناندو بيريث .

ولما بلغ الفونسو أنريكث الثامنة عشرة من عمره أعلن نفسه ملكا على البرتغال مما اغضب الفونسو ريمونديس ، فتوجه لقتال أنريكث ، وفى هذه الاثناء تم تحالف كبير بين مملكة نبرة ومملكة البرتغال . وتحديثنا عن

وثيقة الكوبازا ، وهى وثيقة مختومة. أمر الفونسو انريكيث بكتابتها لتأريخ موقعة اوريك (Auric) . (٥٣٤ هـ) (٢٥ يوليو ١١٣٩ م) وهى المعركة التى انتصر فيها الفونسو انريكيث على المسلمين وكانوا بقيادة قائد سمته الوثيقة باسم اسماء (اسماعيل) وأربعة آخرين من القادة المسلمين (١) ، انهزم البرتغاليون فى بداية المعركة ، ولكن السيد المسيح ظهر ليلا مصلوبا لالفونسو انريكيث وحته على مواصلة القتال بعنف واعداءه بالانصر بشرط ان يتخذ الفونسو شعار مملكته من الجروح الخمسة التى اصيب بها المسيح مع الثلاثين قطعة فضية التى نالها يهودا ثمنا لخيانته وبالفعل جعل الفونسو شعار مملكته (ولا يزال حتى الان) خمسة دروع تمثل جروح المسيح فى شكل صليب منقوش على كل منها ثلاثين نقطة من الفضة ، وانتصر البرتغاليون كما تذكر الوثيقة ، وان كان باقى الروايات النصرانية لم تذكر عن هذه الموقعة أى شئ وحتى رودريك الطليطلى ولوقا التطيلى ، وكذلك الروايات الاسلامية ، وعلى أى حال فقد لقب الفونسو نفسه بالملك عقب هذه الرؤيا التى ظهرت له (٢) . وعقب هذا النصر كما تذكر الرواية المسيحية اجتمع ماك البرتغال فى لميق (لميقة) مع طبقات الشعب المختلفة حين وضعوا دستور البلاد ، ونصب ملكا وضع على راسه تاج من الذهب المرصع بالجواهر (٣) .

وبالنسبة لمملكة أرغون وقطلونية المتحدة فقد حكم ريموند برنجار الرابع من شئ هذه المملكة مدى احدى وثلاثين عاما ، وقد ضحى باستقلال مملكته وانضوى تحت سلطان ملك قشتالة القوى ، ولم يكتف ريموند برنجار بمطاردته المسلمين ومحاربة نبرة بل اهتم بحروبه فى لانجدوك

(١) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٤٦ .
 (٢) يوسف اشباخ ، المرجع السابق ، ص ٢٤٧ ، وتذكر الرواية المسيحية ان ولاية بطليوس وبابيرة وباجة واشبيلية قد تقدموا لانقاذ اوريك
 (٣) Luis Suarez, op, cit, p. 227. ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥٢٧ .

وبروفانس كذلك (١) . ولما توفي شانجة الثالث ملك قشتالة تجددت الخصومة بين نبرة وارغون ، وحاول رجال الدين اخماد هذه الخصومة الجديدة وسرعان ما مرض ريمون برنجار وتوفي في سنة ٥٥٨هـ (١١٦٢م) فقامت بترونيلا ارملة باستدعاء طبقات الامة الثلاثة للاجتماع في وشفة للاطلاع على وصية زوجها وفيها عهد الى ريموند برنجار الذي تلقب بالفونسو الثانى بحكم ارغون وقطلونية وارضى لانجدوك ، أما شرطانية ومعها قرقشونة وحق الجزية على الفيكونت ريموند ترنكافل ، وكذلك من اربونة فعهد بها الى ولده الثانى بطره، ولما كان الفونسو الثانى لايزال في العاشرة من عمره ، فقد قامت أمه بترونيلا بحكم ارغون ، وعلمت في فترة حكمها على توطيد دعائم التحالف بينها وبين قشتالة وانجلترا ، ونبرة حتى تخلت عن الحكم لابنها .

٩ - مملكتا البرتغال وليون اثناء وبعد عهد فردلند الثانى والفونسو انريكت :

ظفر فردلند بعد وفاة ابيه الفونسو ريموندس بمملكة ليون وجليقية واشتورياس بالاضافة الى السيادة على البرتغال ، ونظرا لانصرافه الى الحروب الاهلية التى دارت في قشتالة عقب وفاة شانجة الثالث ، فقد أهمل ممارسة حق سيادته على البرتغال ، ولكن ماكاد يبسط سلطانه على قشتالة واسترمدورة بمعاونة آل كاسترو حتى بدا يتفقد احوال مملكة البرتغال ، فتزوج من اوراكا (اوراكة) ابنة ملكها سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م) ولكنه رغم هذه المصاهرة اهتم بتحسين مدينة رودريجو Ciudad Rodrigo الواقعة على حدود البرتغال ، وأخذ يوجه منها الغارات المخربة على البرتغال .

(١) انظر تفاصيل هذه الحروب في : يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٥٩ .

وكان الفونسو انريكت ملك البرتغال مشغولا آنذاك بحروبه مع المسلمين ، وكان قد نجح في انتزاع يابرة من المسلمين في عام ٥٦١ هـ / ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) ، ولكن ماكداد يرى أن سلطان فرلند قد تحطم على يد أسرة لارا حتى سار بنفسه الى جليقية واستولى على مدينة ليمبا مبررا ذلك بأن هذه المناطق كانت تتبع البرتغال منذ أن منحها الفونسو السادس مهرا لابنته تريسا يوم زواجها ، ولم يكتف الفونسو انريكت بذلك بل طمع في مزيد من السيطرة فسار في عام ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) الى مدينة بطليوس لافتتاحها . ولكن فردلند الثانى ملك ليون غضب لتعدى البرتغال على اراضى المسلمين اذ كان يرى أنها من نصيبه في حال رجوعها للمسلمين ، ثم ظهرت نوايا ليون تجاه البرتغال حين تقدم الموحدون لحصار شنترين عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) فتقدم فردلند ملك ليون فوقف قريبا من الميدان بجيوشه منتظرا هزيمة البرتغاليين للتدخل في بلادهم ، فلما رأى أن كفة البرتغاليين راجحة ، أرسل الى الفونسو انريكيث رسولا يهنئه بالنصر .

ثم صدر في عام ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) مرسوم بابوى يقضى باستقلال مملكة البرتغال عن قشتالة وليون ، ومنح الفونسو انريكت لقب الملك ، وكان الفونسو انريكت قد أسس جماعة فرسان يابرة الذين كرسوا حياتهم لقتال المسلمين ، ثم توفى الفونسو انريكت عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) في السادسة والسبعين من عمره ، وبعد بضعة أعوام توفى فردلند الثانى ملك ليون عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) أثناء حجة الى شنت ياقب وخلفه ابنه الفونسو التاسع .

اما الفونسو الثامن ملك قشتالة ابن سانشو الثالث فقد اتخذ سياسة حكيمه في حكم البلاد بعد بلوغه سن الرشد . فبدأ بعقد صلح مع الفونسو الثانى ملك أرغون كما صالح شانجة الرابع ملك نبرة (١) ، وكان قد

(١) Aguado Bleye, op. cit, p 641. تم عقد الصلح بين الفونسو الثامن والفونسو الثانى ملك أرغون في Cazorla عام ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) .

خاض حرباً في بداية الامر مع ملك أرغون ، عند قلعة رباح سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) ولم يحمله على الصلح سوى الملك هنرى الثانى ملك إنجلترا الذى كان حليفاً لملك أرغون وكان فى نفس الوقت صهراً لالفونسو الثامن الذى تزوج من ابنة هنرى الثانى Leonor الينور . ولما ازداد الخطر الموحدى على الممالك المسيحية اجتمع ملوك اسبانيا المسيحية على وضع خطة موحدة لقتال المسلمين ، وعلى الرغم من ذلك الخطر الاسلامى فان ملوك الدول المسيحية و فى مقدمتها ليون والبرتغال وقشتالة وأرغون ونبرة أخذوا يختلفون فيما بينهم ويتنازعون على حقوق الفتح فى اراضى المسلمين وكان ذلك من اسباب الهزيمة التى أصابت الفونسو الثامن فى وقعة الارك ٥٩١هـ (١١٩٤/١١٩٥م) ^(١) ولكن أجواهو بليو يبرر الهزيمة التى منى بها الفونسو الثامن فى الارك بتعجله فى الاشتباك قبل وصول القوات المتحالفة ، وقد استغل الفونسو التاسع ملك ليون فرصة هزيمة الفونسو الثامن واقتحم بلاد قشتالة ، ورد الفونسو الثامن على هذا الاعتداء بمثله ^(٢) ، كذلك قام شانجة الرابع ملك نبرة بغزو قشتالة من جهة سرية والمزان فى حين شن الموحدون غاراتهم على طليطلة ومجريط وقونقه (قونكة) واقلش ومكادة وطلبيرة . ومع ذلك فقد احتفظ الفونسو الثامن برباطة جأشه ، وعقد حلفاً مع بطرة الثانى ملك أرغون (٥٩٣هـ - ٦١٠هـ / ١١٩٦م - ١٢١٣م) وبفضل هذا الحلف تمكنا من غزو نبرة وليون ^(٣) .

وظهر فى أرغون رجل نبرى تعبر شخصيته عن صورة تلك الاحداث ، ذلك هو بيدرو رويث دى أساجرا ، كان مرتزقاً حارب تارة الى جانب مملكة أرغون ومرات مع نبرة ومرات أخرى مع قشتالة ، وكان يستغل خلافاتهم لتوطيد سلطانه .

(١) يوسف أشباخ تاريخ الاندلس ، ص ٢٨٧ .

Aguado Bleye, op. cit, p 642.

Ibid. p. 642.

(٢)

(٣)

وكان سانشو السادس ملك نافارا قد توفى قبله بعامين عام ٥٩١هـ (١١٩٤م) ، وحاول الفونسو الثانى ملك أرغون جمع شمل الممالك المسيحية من جديد ، فخرج الى شانت ياقب ، واجتمع مع ملك ليون، ثم رحل الى قلمرية والتقى بشانجة ملك البرتغال ثم اجتمع مع ملكى قشتالة ونبرة فى طرسونة ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، وتوفى الفونسو الثانى فى ٥٩٣هـ (٢٥ أبريل ١١٩٦م) وخلفه بطره الثانى (٥٩٣ - ٦١٠هـ) (١١٩٦ - ١٢١٣م) وكان شانجة السادس ملك نبرة قد توفى قبله بعامين وخلفه الملك شانجة السابع (٥٩١هـ - ٦٣٢هـ) (١١٩٤ - ١٢٣٤م)^١ .

كان لهزيمة الفونسو الثامن فى الارك بالاضافة الى الصراع الداخلى بين الممالك المسيحية اعظم الاثر فى اضعاف شأنها ، فقد كلفتها الحروب المتواصلة الكثير من الارواح والاموال والاسلحة ، ولم تنج اسبانيا المسيحية من الخطر المحقق بها الا بعودة يعقوب المنصور الخليفة الموحدى الى المغرب ثم وفاته بعد ذلك ولقد كان من الواضح تماما أنه لو كان محمد الناصر الذى خلف يعقوب المنصور على خلافة الموحدين ، قد سار على نفس سياسة ابيه ، او استغل حالة الضعف والانحلال التى أصيبوا بها بسبب منازعاتهم الداخلية فاعان المملكة الضعيفة على القوة ، لقاء عدد من المدن والحصون ، لكان مصير اسبانيا المسيحية والاندلس قد تغير تغيرا جذريا .

وساءت احوال الممالك المسيحية فى اسبانيا بعد انتصار الموحدين فى الارك ، وحاول كل من الفونسو الثانى ملك أرغون والبابا سلبتين Celestino III التوفيق بين الممالك المسيحية بغية جمع شملها^(١) ولكن دون جدوى ، فقد كان العداء قد بلغ اشده بين ملك ليون وملك قشتالة .

والقى الفونسو الثامن النبيل ملك قشتالة تبعة هزيمته في الارك على مملكة ليون، فاتهم الجيش الليوني بأنه لم يبادر بامداده وانقاذه، وتحولت مرحلة العتاب الى اللوم الشديد تم الى الصدام المسلح ، وقد كان اعتداء ملكي ليون ونبرة المتحالفين على قشتالة شديدا وعنيفا خاصة بعد خروجها من هزيمة الارك ، لذا فقد تحالف الفونسو الثامن مع بطرة الثاني ملك ارغون الجديد على النحو الذي ذكرناه من قبل ثم اشعرا الحرب على حلف ليون ونبرة ، اللتين فكرتا في الاستعانة بالموحدين رغم تهديد البابا Celestino III لكل من يستعين بالمسلمين بالحرمان من الكنيسة ، وعلى الرغم من مساعدات الموحدين الا ان الحلف القشتالي / الارغوني نجح في اختراق مملكة ليون مرتين ، وتمكنت قواتهما من تخريب احوار ليون واسترقة واستعد الفريقان لخوض غمار حرب جديدة لولا أن تدخل رجال الدين للصلح . وفي ذلك الوقت كان الفونسو التاسع ملك ليون قد طلق زوجته الاميرة تريسا بنت ملك البرتغال طبقا لما طلبه البابا ولكنه عاد يريد الزواج من اميرة قشتالة برنجاريا ابنة الفونسو الثامن ، رغم شدة القرابة بينهما واستطاع الفونسو التاسع الحصول على موافقة رجال الدين في اسبانيا ولكنه لم يحصل على إذن من البابا ثلستينو الثالث ، لذلك فقد بادر البابا باعلان بطلانه ، وقرر اصدار قرار التحريم ضد الملكين وارضيهما في حالة رفضهما للطلاق وبالفعل صدر قرار الحرمان ضد ليون وملكتها وضد اساقفة شلمنقة وسمورة واسترقة وليون ، وضد مملكة ليون كلها .

ولما تولى انوسنت الثالث الكرسي البابوي اصدر قرارا بالحرمان هو الآخر ضد الملكين . وفي اثناء ذلك كان المسلمون ينفذون الى اراضى النصراني للغزو ، مستغلين الاوضاع السيئة التي آلت اليها ممالك اسبانيا المسيحية ، فقشتالة وليون رغم المصاهرة والصلح لاتزال كل منهما تنظر الى الاخرى بعين الكراهية ، في حين كانتا متفقتين على محاربة البرتغال اما بالنسبة لمملكة ارغون فقد كان ملكها في حرب دائمة مع اتباعه الامراء الذين كانوا متنازعين فيما بينهم ، وبينما تحالف ملك ارغون مع قشتالة

ضد نبرة التي تعاونت مع سلطان الموحيدين للدفاع عن كيانه ضد هذا الحلف ، كان شانجة السابع ملك نبرة منذ عام ٥٩١هـ (١١٩٤٠م) قد تحالف مع ملك ليون ضد الفونسو الثامن ملك قشتالة ، وعلى هذا النحو كانت قشتالة تتلقى الضربات من الموحيدين والليونيين في آن واحد ويسوق صاحب روض القرطاس رواية تؤكد أن التحالف القائم بين شانجة السابع ملك نبرة وبين الموحيدين بلغ حدا كبيرا ، يقول صاحب روض القرطاس « اهتزت جميع بلاد الروم بجوازه (محمد الناصر) ووقع خوفه في قلوب ملوكهم واخذوا في تحصين بلادهم ، واخلى ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم ، وكتب اليه أكثر أمرائهم يسألونه سلامه ويطلبون منه عفوه وجاءه منهم ملك بيونة (١) مستسلما خاضعا مستصغرا يطلب صلحه ويسأل منه عفوه وصفححه ، ولما سمع هذا اللعين بدخول أمير المؤمنين الى شبيلية أدركه الخوف ، فبادر الى الإدارة عن نفسه وبلاده ، فبعث رسوله اليه يستأذنه في القدوم اليه ، فأذن له أمير المؤمنين في الوصول ، وكتب الى كل بلد من بلاد الاندلس هو على طريق هذا اللعين اذا مر بهم يضيفونه ثلاثة أيام ، فاذا عزم على الرحيل في اليوم الرابع يحبسونه عندهم من جيشه ألف فارس ، فخرج هذا اللعين من قاعدة ملكه بجيوشه قاصدا وادخلا الى أمير المؤمنين ، فكان اذا وصل الى بلد من بلاد المسلمين تلقاه قوادها واجنادها ، وبرز عليه أهلها في أكمل عدة وأحسن هيئة ، وأضافوه ثلاثة أيام خير ضيافة ، فاذا كان يوم رحيه حبسوا له ألف فارس من جيشه ، فلم يزالوا يفعلون ذلك به حتى وصل مدينة قرمونة ولم يبق معه من جيشه غير ألف فارس ، فأقام في ضيافة أهلها ثلاثة أيام ، فلما أراد الرحيل في الرابع حبست الألف فارس الباقية معه . فقال لقوادها كيف تمسكون بها وما بقى لى مع من أسير غيرها ؟ فقالوا له تسير في ذمة أمير المؤمنين وتحت ظلال سيوفه ، فخرج لعنه الله من قرمونة في خاصته

(١) صحتها بنبلونة ، ويقصد به ملك نبرة ، وقد وردت مصححة في الاستقصاء للسخاوى .

وزوجته وخدامه وهديته التى قدم بها الى الناصر ، وقدم من يديه كتاب النبى ﷺ الذى كان كتبه الى هرقل ملك الروم يستشفعه ويعلن أن الملك عنده موروثا كابرا عن كابر ٠٠٠٠ فأنزله بداخل المدينة (اشبيلية) واعطاه تحفا جليلة ، وصالحه صلحا مؤبدا مادامت دولة الموحدين ولعقبه ، ثم صرفه الى بلاده مكرما مسعفا بجميع مطالبه « (١)

أما الروايات المسيحية عن هذه الرحلة فقد وصفها يوسف أشباخ بأنها أقل تفصيلا ولكنها اقرب الى الحقيقة ، وقد تمت هذه الرحلة أو الزيارة فى عهد الخليفة محمد الناصر الذى لم يكتف بالترحيب به حين زاره وإنما وافق على زواج شانجة السابع ملك نبذة من أخته وان كان لم يتحدث مع شانجة فى أمور تخص ننازل الموحدين عن أملاكهم الاسبانية اليه ، ولهذا فلم يتعجل شانجة بالزواج من أخته وقد اشترك مع الموحدين فى اخماد ثورة قامت فى جبال غمارة (٢). وإذا قارنا بين الرواية العربية والرواية النصرانية نجد أن الرواية العربية تذكر أن مقابلة شانجة للناصر تمت فى الاندلس عندما كان الخليفة الموحدى مقيما فى اشبيلية ، بعكس الرواية المسيحية التى تؤكد أنه جاز البحر بنفسه الى المغرب ليراه . أما بخصوص زواج أميرة مسلمة موحدية من الملك النبرى فهذا لا يمكن أن نقبله لانه لم يرد فى أى مصدر أو رواية عربية ، كما أنه ليس منطقيا أن تتزوج أميرة مسلمة واخت خليفة المسلمين الذى يتمسك بأهداب الدين والشريعة الاسلامية من رجل مسيحى اللهم فى حالة واحدة وهى أن يكون شانجة السابع قد وافق على اسهار الاسلام (٣) .

وبينما كان شانجة السابع غائبا عن بلاطه فى زيارته لاشبيلية ، قام

-
- (١) ابن أبى زرع ، كتاب الانيس المطرب روض القرطاس ، ج٢ ، نشره تورنبرج ، أوبسالة ١٨٤٣ ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .
 (٢) يوسف أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٥٠ .
 (٣) أنظر تعليق محمد عبد الله عنان ، فى كتاب تاريخ الاندلس ليوسف أشباخ ، ص ٣٤٨ ، حاشية رقم ١ .

الفونسو الثامن ملك قشتالة مع حليفه بطريرك ملك أرغون بمهاجمة أراضى نبرة عام ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ضارين بكل المعاهدات والهدنات السابقة عرض الحائط ، وتمكن الملك القشتالى من انتزاع حصن فيتوريا Vitoria وولايات البية وبسكونيه Vasconia وجيبوسكوا Guipuscoa . وقد كانت تلك الولايات الثلاثة ملكا لقشتالة من قبل (١) .

أما بطريرك فقد انتزع بضع مناطق متفرقة على الحدود ، فعاد شانجة من رحلته بعد عامين ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) . وتمكن من استرداد كافة ممتلكاته ، التى انتزعها منه الملكان المتحالفان .

أما ليون فقد كانت أحوالها فى غاية الفوضى والاضطراب ، فقد كان الملك لايزال محبا . لزوجته القشتالية برنجويلا Berenguola رافضا الانفصال عنها فلما أنجب منها ولده فردلند الثالث الذى سيلقب بالقديس وافقت برنجويلا Berenguela على إعلان الانفصال لتحقيق للبلاد الأمن والسلام (٢) . وعندئذ وافق البابا على إلغاء قرار الحرمان الكنسى ، وسرعان ما دب الشقاق بين قشتالة وليون من جديد ، فقد طلب ملك قشتالة من ملك ليون أن يرد له جميع الأراضى التى كان قد وهبها لابنته مهرا لزواجها ، وكان البابا قد وافقه على هذا المطلب ، وفى بداية الأمر اعترض ملك ليون على هذا الطلب ولكنه فى النهاية آثر السلام فتنازل عن تلك المناطق للملك القشتالى (٣) .

١٠ - هزيمة المسلمين فى موقعة العقاب وبداية النهاية :

انتصر النصارى على قوى الموحدين انتصارا حاسما فى موقعة العقاب المعروفة فى المصادر الأسبانية بـ Las Navas de Tolosa أو موقعة أبدة

Luis Suarez, Historia de España, p. 264.

Ibid. p. 266.

Ibid. p. 262.

(١)

(٢)

(٣)

Ubeda ، وكان ذلك في ١٥ صفر من عام ٦٠٩ هـ (١٦ يوليو ١٢١٢ م) وايا ماكانت أسباب هزيمة المسلمين ، فان هذه الموقعة كانت وبالا على الموحدين في الاندلس ، وكانت بداية اضمحلال سلطان الموحدين بالاندلس ^(١) . ويرجع السبب في انتصار القوى المسيحية في العقاب فيما يظهر الى غلبة روح الحركة الصليبية نتيجة الجهود التي بذلها الفونسو الثامن لجمع كلمة الممالك المسيحية الاسبانية ، فالفونسو ملك قشتالة كانت تربطه ببطره الثانى ملك أرغون (٥٩٣ - ٦١٠ هـ / ١١٩٦ - ١٢١٣ م) أقوى اواصر الصداقة والتحالف ، اما شانجة السابع ملك نبرة (٥٩١ - ٦٣٢ هـ) (١١٩٤ - ١٢٣٤) الخصم التقليدى ، فقد زار الفونسو الثامن عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) في وادى الحجارة ، وتفاهما حول عدد من القضايا وأسفر هذا اللقاء عن هدنة لمدة خمس سنوات ^(٢) . كما تم التفاهم بين ملكى قشتالة الفونسو الثامن وليون الفونسو التاسع (٥٨٤ - ٦٢٨ هـ) (١١٨٨ - ١٢٣٠ م) من جهة ، وبين ملك قشتالة وشانجة ملك البرتغال (٥٨١ - ٦٠٨ هـ) (١١٨٥ - ١٢١١ م) من جهة ثانية ، لاسيما بعد أن تزوجت الاميرة اراكة والقشتالية عام ٦٠٥ (١٢٠٨ م) من الفونسو ولى عهد البرتغال ^(٣) . ولم يكن انتصار الفونسو الثامن في العقاب نهاية لحروبه مع الموحدين ، فقد سعى الى استثمار هذا الانتصار فتابع غزوه لاراضى الاسلام . مخترقا جبال الشارات ، ثم انحدر الى بياسة Baeza ، وافتتح عددا من الحصون من

(١) لمزيد من التفاصيل حول موقعة العقاب انظر ابن ابى زرع ، الروض القرطاس ص ١٥٧ - ١٥٩ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٣٢١ - ٣٢٣ ، الحلل الموشية ص ١٦٠ ، محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٢٨٢ - ٣٢٦ ، يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ص ٣٥٤ - ٣٧٣ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨١٩ - ٨٣٠ ،

Aguado Bleye, Manual de la historia de España, 642 - 647, Luis

Suárez historia de España, edad media, p 268 - 271.

Luis de valdeavellano, historia de España, p. 596 - 605.

Aguado Bleye, manual, p 643,

Aguade Bleye, Ibid. p 643.

(٢)

(٣)

بينها حصن بلج Vilches ، وفرال Ferral ، وبانيوس ، وتواوسة .

كما استولى على بياسة التي هجرها فأضرم فيها النيران واستولى على أبده عنوة . وظل الفونسو الثامن يناضل ضد الموحدين في الاندلس دون هوادة حتى توفى في ٦١١ هـ (سبتمبر ١٢١٤) (١) أثناء رحلته الى البرتغال لزيارة ملكها الفونسو ، وبفضل الفونسو الثامن احتفظت قشتالة في عهده بسيادتها على الممالك المسيحية الاخرى ، ويذكر اجوادى بلى انه توفى في ٦ أكتوبر (٢) .

وخلف الفونسو الثامن على عرش قشتالة ابنه هنري الاول Enrique I .

(٦١١ - ٦١٤ هـ) (١٢١٤ - ١٢١٧ م) وكان في الحادية عشرة من عمره فتولت أمه الينورا الوصاية عليه ، ولكنها توفيت بعد قليل ، فالت الوصاية الى اخته برنجويلا الزوجة السابقة للفونسو التاسع ملك ليون ، ولكن آل لارا Lara انتزعوا منها الوصاية وقرروا تزويجه في هذا السن الصغير (١٢٧ سنة) من الاميرة مافالدا Mafalda ابنة شانجة الاول ملك البرتغال ولما كانت مافالدا شديدة القرابة اليه وتكبره بنحو ثمانية أعوام فقد اعترضت اخته برنجويلا على هذه الزيجة ، فلجأت الى البابا انوسنت Inocencio III . الثالث الذي أصدر قرارا بمنع الزواج لشدة القرابة بين الزوجين في (٦١٤ هـ) ٦ يونيو ١٢١٧م توفى هنري الاول أثناء لهوه مع اصدقائه الصبية فبادرت برنجويلا باعلان نفسها ملكة على قشتالة ثم تنازلت عن العرش في الحال لابنها فردلند الثالث الذي انجبته من ملك ليون وكان عمره انذاك ١٨ سنة وتم تتويجه ملكا على قشتالة في بلد الوليد Valla dolid ، وقد لفردلند ان يكون بطلا من ابطال ايبانبا المسيحية بحيث عرف بالقديس (٣) .

Luis Suarez, op. cit. p 270.

Aguado Bleye, op. cit. p. 648.

Ibid. p. 648.

Aguado Bleye, op. cit. p. 650.

(١) .

(٢) .

(٣) .

١١ - دور الممالك المسيحية في استرداد الغرب Algarve

١ - مملكة ليون :

حرص فردلند الثانى ملك ليون (٥٥٢ - ٥٥٨ هـ) (١١٥٧ - ١١٨٨ م) على صرف مزيد من اهتمامه بمشكلة الحدود الجنوبية لمملكته التى كان الرئيس خيرالدو سيمبافور المعروف فى المصادر العربية باسم جرانده الجليقى (١) ، وعند البرتغاليين بالسيد البرتغالى El Cid Portugés (٢) قد تصرف بالتدخل فيها لحسابه الخاص . وكان جرانده هذا قد انتزع من المسلمين ، مدينة يابرة وترجلة وقصرش ومنتانجش ، وتاهب للاستيلاء على بطليوس ، ولكن سقوط بطليوس فى يد الزعيم البرتغالى كان يعنى بالنسبة لمملكة ليون القضاء على الامال التوسعية التى كانت قد خططت فى سهاجون وضياع الاتاوات التى كان يفرضها ملك ليون على المسلمين فى هذه البلاد وكانت تشكل مصدرا رئيسيا للدخول المالية لمملكته . ولهذا السبب لم يتردد فردلند فى عرقلة مساعى جرانده عن طريق تعاونه الوثيق مع المسلمين وتمكن فى عام ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) بفضل هذا التعاون من استرجاع الاراضى التى كان قد استولى عليها جرانده وعهد بالدفاع عنها الى ارمنجول السابع دى اورخيل Ermengol VII de Urgel والى فردلند رودريجت دى قاشترو Fernando Rodríguez de Castro وأسقف شنت ياقب الذى تدخل بنفوذه الكنسى ماديا وعسكريا فى اعداد الحملات ضد جرانده (٣) ولقد ساعد انقسام الممالك المسيحية الموحدين على التحالف مع فردلند الثانى فى ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) ضد جرانده ومهاجمة قشتالة والبرتغال ابتداء من سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) غير ان قشتالة التى كانت تحرص على مخازنة

(١) عن جرانده انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٣

(٢) Jose Luis Martin, la península en la edad media .p 358.

(٣) Jose Luis Martin, op. cit., p. 358.

نبرة أكثر من، عرضها على مهاجمة المسلمين عقدت مع هؤلاء السلم في سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م) ولم تلبث البرتغال أن حذت حذوها بعد فترة قصيرة وعقد ملكها اتفاقا مع الموحدين . وعندئذ تحول الموحدون ضد مملكة ليون ، واسترد خليفة الموحدين جميع أراضي الغرب التي كانت في حوزة الليونيين وعندئذ بدأ فردلند الثانى ملك ليون غاراته على قاصرش ولكن الموت وضع حدا لاطماعه (١) وخلفه ابنه الفونسو التاسع .

ذكرنا فيما سبق أن الملك الليونى الفونسو التاسع تزوج من تيريسا بنت شانجة الاول ملك البرتغال فى عام ٥٨٧هـ (١١٩١م) عسى أن يقضى رباط المصاهرة على المشاكل التي كانت قد نشأت بين المملكتين ، ولكن نظرا للقراية الشديدة بين الزوجين فقد اصدر البابا ثلستينو Celestino III قرارا بمنع هذه الزيجة وبحرمان الملكين كنسيا ، مما دفع بهما الى الانفصال عام ٥٩١هـ (١١٩٤م) رغم انجابها ثلاثة أبناء . وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد فرض سيطرته الادبية على كافة الممالك المسيحية مما أدى الى كراهية هذه الممالك المسيحية له ، وربما كان سببا فى تخلى ملوك اسبانيا المسيحية عن الفونسو الثامن عندما اشتبكت قواته أمام جيوش الموحدين فى الارك ٥٩٢هـ (١١٩٥م) مما تسبب فى هزيمته امامهم ، بل أن ليون بادرت بعقد صلح وحلف مع الموحدين ، وكانت ليون قد عقدت الصلح مع نبرة مما ترتب عليه مهاجمة اراضى قشتالة فى عام ٥٩٣هـ (١١٩٦م) ولكن الفونسو الثامن تمكن بمساعدة البرتغال وارغون من الرد على هذا الاعتداء ، وفى عام ٥٩٤هـ و (١١٩٧م) غزا الفونسو الثامن اراضى ليون وجليقية ، ثم عاد الصلح بين ليون وقشتالة وتزوج الفونسو التاسع ملك ليون من الاميرة برنجديسلا بنت الفونسو الثامن ، ولكن هذا الزواج كان باطلا لشدة القرابة بين الزوجين . ولهذا قدر للزوجين الانفصال ، وقد تحققت الوحدة بين الممالك النصرانية

بناء على دعوة البابوية من جهة وعلى جهود الفونسو الثامن ملك قشتالة من جهة أخرى ، وظهرت آثار ذلك في موقعة العقاب التي انهزم فيها الموحدون .

وكان ملك قشتالة قد اتفق مع الفونسو التاسع ملك ليون في العام الذي تلا موقعة العقاب على أن يتوجها لغزو بعض حصون المسلمين وبينما توجه الفونسو الثامن في طريق بياسة ، قام الفونسو التاسع ملك ليون بغزو قطاع اشبيلية ، ولكن الفونسو التاسع مضى الى قاصرش وحاول أن يستولى عليها ولكن بلا فائدة ^(١) . في هذه الفترة تلقى الفونسو رسولا من خليفة الموحدين عرض عليه مبلغا كبيرا من المال اذا رفع الحصار عن قاصرش وعاد الى مملكته ، فانسحب ملك ليون الغافل بعد أن قبل العرض السخي وانسحب مع الأسرى والغنائم ، ولكن الموحدين لم يدفعوا له المال واخذوا يحصنون قاصرش مما جعل الاستيلاء عليها صعبا ولذلك فقد تقدم الى ماردة ولكنه قرر العودة الى بلاده نظرا لقدم الشتاء ، مما اغضب حلفائه القشتاليين الذين أجبروا بدورهم على العودة الى وطنهم ، وكان ذلك في عام ٦١١ هـ (١٢١٤ م) . وفي نفس هذا العام توفي فردلند ولي عهد ليون ، وأكبر أبناء الفونسو التاسع ، وكان للملك الليوني ولذان آخران من برنجويلا القشتالية هما فرناندو والفونسو فتولى فرناندو عرش قشتالة عام ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) على النحو الذي اشرنا اليه فيما سبق وأثار اطماع والده ، وقد حاول أن يحاربه ليستولى على حكم المملكتين ، ولكنه أثر في نهاية الامر السلام ، وتم الصلح عام ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ^(٢) وكان الفونسو التاسع ملك ليون من أشد المهتمين بحركة الاسترداد ، لذلك فقد قام بمساعدة رجال الجماعات الدينية والمتطوعة الصليبيين للاستيلاء على القطاع المخصص له من أراضي المسلمين . وقد رأينا

Martinez y Martinez op. cit. p. 278.

(١)

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٥٩٥ - ٥٩٦ .

انه خـزج في ٦١٤هـ (اواخر عام ١٢١٧م) لمحاصرة مدينة قاصرش (١)
على رأس قوة مشتركة من ليون وقشتالة ثم رفعوا الحصار عنها ، وتكرر
حصار الملك الليوني لقاصرش إلى ان انتهى الامر بسقوطها عام ١٢٢٧ (٢)
حسبما ورد في صلب الرسالة .

ثم عاد الفونسو التاسع في عام ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) للقيام بغزوة
جديدة في اراضي المسلمين واستولى في ذلك العام على حصن منتانجش
على مقربة من ماردة ، ثم استولى على ماردة ، ودارت بينه وبين ابن
هود معركة دارت فيها الدائرة على المسلمين ، وما ان وقعت ماردة في
حوزته حتي اتجه الى بطليوس التي سرعان ما سقطت بسهولة ويسر في
ايدي قواته ، و تم ذلك في اواخر عام ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) ولم تكد تمضي اسابيع
قليلة حتى توفي الفونسو التاسع ملك ليون بعد ان انهى سيادة الاسلام
في بطليوس حاضرة الغرب الاسلامي ، ولما سقطت بطليوس في يد هذه
المملكة المسيحية شأن غيرها من الحواضر الاسلامية العريقة في الاندلس ،
بقى عدد كبير من اهلها المسلمين تحلت السيادة الاسبانية ، عرفوا
بالمـدجـنـين (٣) ثم سمو بانوريسكيين .

ب - ارغون :

توفي الفونسو الثاني بن رامون برينجير الرابع في (٥٩٣هـ)
(٢٥ أبريل ١١٩٦م) وخلفه على مملكة ارغون وامارة قطلونية ابنه
بطره الثاني الكاثوليكي (٥٩٣ - ٦١٥ هـ) (١١٩٦ - ١٢١٨م) وبدأ
عهده بوصاية امه دنيا سانشا . وكان بطره الثاني صديقا لالفونسو الثامن

(١) يسميها ابن عذارى قشرش (ابن عذارى البيان ، ج٤ ، ص ٩١)
بينما يسميها ابن القبطان قصرش (قطعة من نظم الجمان ، ص
٢١٦) .

(٢) José Luis Martin, la peninsula en la edad media, p. 394.

(٣) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، وتاريخ العرب المنتصرين ،
ص ٥٦ .

وقد بذل له العون في حملته على مملكة ليون ، ونزلا على استرقة وشلمنقة الامر الذي دعا الفونسو التاسع ملك ليون الى فتح باب المفاوضات مع الملكين المتحالفين ، ولم يلبث ملك ليون أن انضم الى هذا الحلف وبفضله تمكن ملك قشتالة من الظفر بعدد من القلاع في مملكة نبرة ، واضطر شانجة السابع ملك نبرة الى زيارة ملك قشتالة في وادي الحجارة عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) واتفقا على هدنة لمدة خمس سنوات على النحو الذي أشرنا اليه من قبل .

وقد اهتم بطرة الثاني بعد ذلك باملاكه فيما وراء البرانس واقليم بروفانس وبعض المناطق الاخرى ، كما اهتم بزيارة جنوة وبيزا للتفاهم مع هاتين الجمهوريتين على غزو الجزر الشرقية ^(١) ، ثم زار رومة لينال موافقة البابا على تنويجه ونجح في الحصول على هذا الحق عام ٦٠١هـ (١٢٠٤م) .

وحاول بطره أن يصلح من النظم الاقطاعية في بلاده ، كما حارب بعض الملحمدين الالبيين حتى يحمى أملاكه فيما وراء البرانس ، وتوفي في عام ٥١٧هـ (١١٢٣م) تاركا وراءه ابنه خايمي الاول طفلا صغيرا ^(٢) . ولم يكن للملك خايمي الاول اى علاقة بالغرب بل ان كل جهوده في الفتوحات الاسلامية اتجهت نحو شرق الاندلس والجزائر الشرقية .

كذلك لم يكن لالفونسو السابع الملقب بالقوى ملك نبرة اية علاقات بالغرب او بببليوس وكانت سياسته تتلخص في أمرين :

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الزيارات راجع :

Claudio Galindo Guijarro, historia de España, t, II, Barcelona, 1935, p. 443.

Aguado Bleye, op. cit. p 670.

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٦٠٥ .

١ - محالفة الموحدين للاستنصار بهم من خطر الحلف القشنالى الارغونى (١) وقد سبق أن تحدثنا عن رحلته لمقابلة الخليفة محمد الناصر .

٢ - عقد الصلح مع ملوك اسبانيا المسيحية قبل موقعة لاس نافاس دى تولوسا .

ج - مملكة البرتغال :

كان الفونسو انريكث (٥٣٣ - ٥٨١ هـ) (١١٣٨ - ١١٨٥ م) ويسميه العرب أدفونش بن الرنك صاحب قلمرية (٢) قد استقل بالبرتغال عن مملكة ليون وقد حرص الفونسو انريكث على توسيع أملاكه حتى بلغت ضفاف واديانه ، وفي عام ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) أعلن نفسه ملكا على البرتغال وان كان مايزال يعتبر نفسه تابعا لالفونسو السابع ملك ليون وقشتالة . وللتخلص من تلك التبعية أقر بسلطان البابوية عام ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، ثم دعا الى مملكته الداوية والاسبتارية ، وبمساعدهم تمكن من انتزاع شنترين من الموحدين .

وقد سخر الفونسو الصليبيين المارين ببلاده في طريقهم الى الاراضى المقدسة في الاستيلاء على لشبونة وشنترين عام ٥٤٣ هـ (١١٤٧ م) ، ثم باجة في ٢١ من ذى الحجة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ، وترجالة في جمادى الثانية ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) ، ويابرة في ذى القعدة سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) وقاصرش في صفر ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) وحصن منتانجش في جمادى الاولى

(١) Aguado Bleye, op. cit , p. 675. ، استعان شانجة القوى بالموحدين ضد الفونسو الثامن الذى كان قد استولى على البش وجيبوسكوا عام ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) ثم عاد الى مصالحته في العام التالى عندما اتفق معه في وادى الحجارة على الصلح مقابل التنازل له عن عدد من الحصون والمشاركة في الحملة الصليبية المشتركة ضد الموحدين .
(٢) Terrasse, histoire du Maroc, t, I, p 321. ، وانظر ابن صاحب الصلاة تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٢ .

سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م) ، وحصن شيرية في جمادى الاولى سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م) ، وحصن جلمانية في نفس السنة (١) ، وهدد بطليوس ولكن فرنانده بن اذفونش السليطين (ويعرف فرناندة بالببوج) قدم دافعا لجراندة عن مدينة بطليوس ونجح في ايقاع الهزيمة بجيش ابن الرنك Alfonso Enríquez ، وأصيب نفس الملك اصابة بالغة عالجها منها الملك فرنانده ثم اطلق سراحه (٢) . وفي عام ٥٦٦هـ (١١٧٠م) تمكن الموحدون من استرجاع حصن جلمانية فهدموه ثم استرد الموحدون بعد ذلك يابرة وترجلة وقاصرش ومنتانجش .

على أن استقلال مملكة البرتغال لم يصبح حقيقة ثابتة الا باعتلاء ابنه شانجة الاول (٥٨١هـ - ٦٠٩هـ / ١١٨٥ - ١٢١١م) بعد وفاة الفونسو انريكث في ٥٨١هـ (١١٨٥م) الذي عرف بفتح اليمتيخو ، ففي سنة ٥٨٦هـ (١١٨٩م) تمكن من الاستيلاء على شلب Silves وباجة ويابرة (٣) مستغلا في ذلك حملة صليبية من الدانيين والفريزيين (٤) ، كانت في طريقها الى الشرق ، وظلت شلب في حوزته زهاء عامين الى أن استردها الخليفة يعقوب المنصور في شوال ٥٨٧هـ (١١٩١م) مع باجة وقصر أبى دانس ويابرة (٥) ، ثم انشغل سانشو الاول فيما بعد في خلاف نشب بينه وبين البابوية وخلافات أخرى اندلعت بينه وبين بعض الاساقفة في مملكته الذين اصدروا ضده قرار الحرمان . وتوفى في عام ٦٠٨هـ (١٢١١م) وقرار الحرمان لا يزال ساريا ضده . فخلفه على حكم البرتغال ابنة الفونسو الثانى (٦٠٨ - ٦٢٠هـ / ١٢١١ -

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٣ .

(٢) Pascual Madoz, Diccionario geográfico histórico de España y sus posesiones de Ultramar, t. II Madrid, 1846, p. 258.

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٤٤

(٤) Luis Suarez, op. cit. p. 256 - Claudio Galindo Guijarro, historia de España, Barcelona, 1935, p. 395.

(٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٤٤ .

(١٢٢٣م) الذى تلقى لقب البدين لشدة بدانته ، وقد بدأ عهده بنزاعه مع شقيقته بشأن سيادته على بعض مواضع تابعة لهما ، واحتمينا بالبابا الذى عهد بالمناطق موضوع النزاع الى فرسان الداوية على أن تكون خاضعة لالفونسو البدين بينما يكون دخلها لصالح شقيقته الاميرتين تيريسا وسانشا^(١) . ثم تمكن الفونسو الثانى بمساعدة الفرق الصليبية من الاستيلاء على ثغر قصر ابى دانس ^(٢) ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) وتوفى الفونسو البدين فى عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) وخلفه ابنه شانجة الثانى (٦٢٥ - ٦٤٥ هـ / ١٢٢٧ - ١٢٤٧ م) الذى أزال كل خلاف بينه وبين عمته منتهزا فرصة الخلافات الداخلية الموحدة ، فقد كان الخليفة المستنصر قد مات دون أن يعقب ، وبويع عبد الواحد أخو المنصور الموحدى ، وقام منافسوه وأهمهم أبو محمد ابن أخيه المنصور والى مرسية الذى كان يرى نفسه أحق بالخلافة وأقدم على خلع عمه مستندا على ولاية وسط الاندلس والغرب ، وبويع هو بالخلافة ، عندئذ استغل أبو محمد بن ابى العلاء والى بياسة الفرصة وطلب مساعدة فردلند الثالث ملك قشتالة ، ولكن هذا الأخير ، هو الذى استثمر ثورة ابى محمد لنفسه ، فقد غزا الاندلس وافتتح جيان وابدة وبياسة ^(٣) ، ثم تفرغ بعد ذلك لانتزاع باقى أراضي المسلمين فى الغرب ، فاسترد ألبه عام ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) والبش Elvas وشيريه Sorpa وجلمانية Jurumenha التى كانت تجاور بطليوس ، الى جانب كافة الحصون الواقعة على ضفاف وادى آنة مثل طبيرة Tavira والخار Alfajar ، ثم استولى على ميرتلة Mertaola ، وسلمها لفرسان شنت ياقب ، ثم على شلب عام ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) .

(١) Jose Luis Martin, la peninsula en la edad media, p. 396.

(٢) يقول ابن أبى زرع: «وفى سنة أربع عشرة وستمائة هزم المسلمون بقصر أبى دانس بالسيف وقتل منهم العدو أمما لاتحصى وفى سنة خمس وست مائة دخل الفتنش قصر أبى دانس بالسيف وقتل من به من المسلمين» ، ص ١٨١ .

(٣) Martinez y Martinez, op. cit, p. 278.

وكانت بطليوس (١) وماردة وقاصرش قد سقطت في أيدي الليونيين وبذلك يكون المسلمون قد فقدوا أهم مدن الغرب الاندلسي .

١٢ - جماعات الفرسان الدينية :

استوحى الملك الفونسو الاول المحارب ملك أرغون فكرة انشاء منظمات أو جماعات الفرسان الدينية الحربية من الحركة الصليبية، وربما كان مصدر هذه المنظمات الدينية العسكرية في الاندلس قد ظهرت نتيجة التأثير العميق للنفوذ الروحي البابوي، على أن هناك أمرا لابد من الإشارة اليه وهو أن جماعات من المجاهدين المسلمين ، كرسوا أنفسهم للرباط والجهاد والمثابرة بهدف اغتنام الشهادة (٢) ، وكانوا ينزلون منذ القرن الاول الهجري في رباطات اقيمت على السواحل أو في المناطق الثغرية ولعل كثرة ورود الالفاظ الدالة على الرباط في اللغة القشتالية يؤكد هذه الفكرة مثل Rabato، Rábida، Rábida، وهنا لا ينبغي أن نتجاهل امكانية تأثير فكرة الرباط عند القوى المسيحية ، ولعل ابلغ دليل على انتشار روح الجهاد والرباط ، الحركة المعروفة بحركة ابن القط التي سبق ان اشرنا اليها في الجزء الاول من الرسالة ، وسواء كان هذا الافتراض صحيحا أو خاطئا بسبب عدم وجود طبقات من رجال الدين في الاسلام كما هو الحال في المسيحية ، فانه مما لا شك فيه أن اسبانيا عرفت نظام جماعات الفرسان الدينية العسكرية منذ القرن السادس الهجري ، وأن هذا النظام انتشر انتشارا سريعا وعم في سائر الممالك المسيحية بأسبانيا وأول

(١) استولى الفونسو التاسع ملك ليون على بطليوس استنادا الى أحد الامتيازات التي منحها الملك لدير فلپورايسو Valporaiso في (٦٢٨هـ) ٨ يناير ١٢٣٠م وفيه تلقب بملك بطليوس (راجع Madoz, op. cit, p 258.

(٢) من الجدير بالذكر أن عددا كبيرا من العلماء المتفهمين في العلوم الدينية كانوا احرص الناس على الرباط والجهاد بغية الثواب ولا ينبغي أن ننسى أن فتح جزيرة صقلية انما قام بفضل قيادة الفقيه أسد بن الفرات وأن كثيرا من القضاة في الاندلس في العصر الاموي كانوا يشاركون في الغزوات في كثير من الحملات .

من حاول انشاء جماعات الفرسان الدينية في اسبانيا الفونسو الاول المحارب ملك ارغون الذى انشا بعد افتتاحه لسرقسطة في ٥١٢هـ (١١١٨م) قلعة سميت بقلعة مونريال Monreal لتكون مركزا للدفاع ضد المسلمين (١). ثم اخذ يفكر في انشاء جماعة من الفرسان برسم القبر المقدس ولكن مشروعه لم يقدر له أن يتم لافتقاده للفرسان الصالحين لهذه المهمة وفي هذه الفترة كانت جماعة الداوية « قد انشئت عام ٥١٣هـ (١١١٩م) في بيت المقدس عقب سقوطها في أيدي الصليبيين وكان ملك بيت المقدس قد خصص لهم جناحا في قصره في المعبد المجاور له ، فعرفوا لذلك بفرسان المعبد Templars (٢) ، وعلى هذا الاساس تطلع ملوك المسيحية في اسبانيا الى اقامة فرع من نظام فرسان الداوية بالمشرق في ممالكهم ، وانضم ريموند برنجار الثالث أمير برشلونة في ذلك الوقت في سلك الداوية قبيل وفاته عام ٥٢٦هـ (١١٣١م) ، فانشأ ولده عقب وفاته اول دير للداوية في قطلونية ، ومن الجدير بالذكر أن الفونسو المحارب تنازل في وصيته عن ثلث املاكه ومملكته لفرسان الداوية ، وللفرع المقدس ولللاستارية (٣) ، ولما كان الشعب قد رفض تقسيم المملكة فقد أعطى للداوية في عام ٥٣٨هـ (١١٤٣م) .

كذلك قامت في مملكة ليون بعد سنوات قليلة جماعة سان خوليو-ان سان Julian del periero دل بيريرو (٤) أو نظام فرسان القنطرة Orden de Alcántara ، ورغم ذلك فهي لم تزدهر وتكبر بمثل ما حدث للجماعة الثانية ، جماعة فرسان قلعة رباح Calatrava . وقد ظهرت جماعة فرسان القنطرة في عهد الفونسو السابع (ريمونديس) حيث اتفق فارسان شلمنقيان هما سويرو وجومث نذرا أن يهبأ حياتهما

José Luis Martín la península en la edad media, p 361. (١)

يوسف اشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٧ . (٢)

José Luis Martín, op. cit. p. 361. (٣)

Martínez y Martínez, op. cit. p. 274 - 275. (٤)

لمحاربة المسلمين وانضم اليها راهب هو سانت أما ندوس ، وأخذوا يبحثون عن مكان يتخذونه حصنا لجماعتهم ، فالتمسوه في دير سنت جوليانوس وابتنوا فيه حصنا ، سرعان ما امتلأ بأتباعهم من الزهاد والنسك الذين يرغبون في قتال المسلمين وقد تولى تنظيم هذه الجماعة الاسقف الشلمنقى اردون . وعرفت في أول ظهورها باسم جماعة سان خوليان ذل بيريرو ثم تحول اسمها بعد نصف قرن الى جماعة فرسان القنطرة Alcantara (١) ونشأت في البرتغال عام ١١٧٦م ، اجناد يابرة La Milicia de Alcántara التى اندمجت بعد احدى عشرة سنة في جماعة قلعة رباح .

وفي عام (١٢٦١م) قامت في غليسية جماعة دينية جديدة، هى جماعة القديس ياقب Orden de Santiago (٢) ، أنشأها مجموعة من قطاع الطرق وعظهم رجال الدين ونهضوهم بالعمل الصالح الجاد ، وكان أول رئيس لهذه الجماعة هو الفارس «بيدروفرنانديس» Pedro Fernández الذى أباح لأعضاء جماعته الزواج ، وقد وصلنا مخطوط مصور عن تاريخ نظام فرسان سنت ياقب Santiago ، أعده بدرو دى أوروئكو وخوان دى لابارا فى سنة ٨٩٤هـ (١٤٨٨م) قبل سقوط غرناطة ، وفى القسم الاول من المخطوط مجموعة من البراءات البابوية أرسلها البابوات تعبيرا عن قبولهم لنظام فرسان سانت ياقب ، وتبداً بترجمة قشتالية من البراءة الاولى التى أرسلها البابا الكسندر الثالث عام ٥٧١هـ (١١٧٥م) ، والقسم الاول من تاريخ نظام فرسان سنت ياقب أفرد لحياة ومعجزات سنت ياقب الكبير قطب اسبانيا ، ويتألف من

Martinez y Martinez, op. cit. p. 275.

(١)

ومن الجدير بالذكر أن الطابع القومى لهذه الجماعات واضح للغاية ، فجماعة فرسان قلعة رباح قشتالية ، والقنطرة ليونية ، ويابرة برتغالية .

(٢) كانت تعرف عند نشأتها بجماعة قاصرش ، حيث نشأت بادىء ذى بدء فى عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) عقب انتصار فرناندو الثانى على جرانددة الجليقى (جير الدوسمبافور) .

ثمان فصول ، والثاني من ٢٢ فصلا تتضمن موجزا عن قواعد هذه الجماعة ، أما القسم الثالث فيشتمل على ٤٠ فصلا ، خصص كل فصل منها لترجمة رئيس واحد من رؤساء الجماعة (١) .

وكما ذكرنا فان الطابع القومى لهذه الجماعات واضح للغاية فجماعة قلعة رباح قشتالية ، والقنطرة ليونية ، ويابرة برتغالية .

وقد ذكرت بعض الروايات النصرانية ان الفونسو انريكث (٢) قد انشا في عام ٥٦٣هـ (١١٦٧ م) جماعة القديس ميخائيل المكنح San Michael del Ala لانه رأى أثناء موقعة شنترين ذراعا يتقلد سيفاً ، انقذه من الهزيمة بمعجزة مما دفعه الى القول بأن هذا الذراع كان ذراع قديس (٣) .

ولعل هذه الجماعات الدينية قد صبغت حروب النصارى ضد المسلمين المعروفة بالاسترداد La Reconquista بصبغة دينية صليبية بحتة ، فكأنه كانت هناك حرب صليبية بالشام وحرب صليبية في اسبانيا انتهت بسقوط دولة الاسلام في الاندلس .

(١) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ جماعة فرسان شنت ياقب أنظر
Primera Historia de la Orden de Santiago (Manuscrito del siglo
xv) : introducción, notas y apéndice del Marquís de Siete Iglesias,
Badajoz, 1978, pp. xvi).

(٢) وكان قد دعا الى مملكته الداوية والاسبتارية وتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء على شنترين

(Aguado Bleye, op. cit. p. 659).

(٣) يوسف اشياخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٧٠ .

ملحق ٢

رسالة من عمر المتوكل على الله ابن الافطس

أمير بطليوس

الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (١)

«لما كان نور الهدى ، أيدك الله ، دليلك ، وسبيل الخير سبيلك ، ووضحت في الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح العلم بأنك لدعوة الاسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب إن تستدعى لما اضل الداء ، وتستغاث لما احاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها اهلكهم الله عند افراط تسلطها واعتدائها ، وشدة كلبها واستشرائها ، تلاطف بالاحتلال وتستنزى بالاموال ويخرج لها عن كل ذخيرة وتسترضى بكل خطيرة ، ولم يزل دأبها التشطط والعناد ، ودأبنا الانقياد ، حتى نفذ الطارق والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ ، وأيقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، واضطرمت في كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن اخطأه القتل منهم فأنما هم بأيديهم أسارا وسبابا يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، وقد هموا بما أرادوه من التوثب وإشرفوا على ما أملوه من التغلب فيالله وياللمسلمين : أيسطو هكذا بالحق الافك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الايمان الفكر ، ولا يكشف هذه البلية النصر ، الا ناصر لهذا الدين المهتضم ؟ الا حامى لما استبيح من الحرم ؟ وانا لله على ما لحق عرشه من ثل ، وعزه من ذل ، فانها الرزية التى ليس فيها عزاء ، والبلية التى ليس لمثلها بلاء ، ومن قبل هذا ماكنت خاطبتك ، أعزك الله ، بالنازلة في مدينة قورية ، أعادها

(١) الحل المشوية ص ٣٤ - ٣٦ ، مجموعات وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية بالمغرب ، المجموعة الاولى ١٩٧٦ ، الرباط ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

الله ، وانها مؤذنة للجزيرة بالخلا ، ومن فيها من المسلمين بالجلال ثم
مازال ذلك التخاذل يتزايد ، والتدابير يتسائد ، حتى تخلصت القضية
وتضاعفت البلية ، وتحصلت في يد العدو مدينة سرية وعليها قلعة تجاوزت
حد القلاع ، في الحصانة والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة
وواسطة القلادة تدركها من جميع نواحيها ، ويستوى في الارض بها قاصيها
ودانيها ، وما هو الا نفس خافت وزمر داهق ، استولى عليه عدو مشرك ،
وطاغية منافق ، ان تم تبادروا بجماعتكم عجالا وتتداركوها ركباناً ورجالا
وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، وما اخصكم على الجهاد بما في كتاب الله ،
فانكم له اتلى ، ولانما في حديث رسول الله ﷺ ، فانكم الى معرفته
اهدى ، وكتابى اليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ ، يفصلها ويشرحها
ومشتمل على نكتة هو يبينها ويوضحها ، فانه لما توجه نحوك احتسابا
وتكلف المشقة اليك طالبا ثوابا ، عولت على بيانه ووثقت بفصاحة لسانه ،
والسلام . »

ملحق ٣

رسالة من عمر المتوكل على الله ابن الافطس
امير بطليوس الى الفونسو السادس ملك قشتالة (١)

« وصل الينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير ، واحكام العزيز
القدير يرعد ويبرق ، ويجمع تارة ثم يفرق ويهدد بجنوده الوافرة ،
واحواله المتضافرة ، ولو علم ان لله جنودا اعز بهم كلمة الاسلام ، واظهر
بهم دين نبينا محمد عليه السلام ، اعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل
الله ولا يخافون ، بالتقوى يعرفون ، وفي التوبة يتصرفون ، ولئن لمعت من
خلف الروم بارقة فباذن الله ، وليعلم المؤمنين وليميز الله الخبيث من
الطيب ويعلم المنافقين .

واما تعييرك للمسلمين بما وهى من احوالهم ، وظهر من اختلالهم
فالذنوب المركوبة والفرك المكتوبة ، ولو انفقنا كلمتنا مع سائرنا من
الاملاك ، لعلمت اى صاب اذقناك ، كما كانت آباؤك من آباءنا تتجرعه
فلم نزل نذيقها من الحمام وضروب الكلام ، شر ما تراه وتسمعه ، واما
المال تتوزعه ، فبالامس كانت قطيعة المنصور على سلفك اهداء ابنته
اليه مع الذخائر التى كانت تفد فى كل عام عليه ، واما نحن وان قلنا
اعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ،
ولاصعب نروضه الا سيوفا شهد بحدتها رقاب قومك ، وجلادا تبصره
فى ليلك ويومك .

وبالله تعالى وملائكته المسومين ، نتقوى عليك ونستعين ، ليس لنا
سوى الله مطلب ولا لنا الى غيره مهرب ، وما تتربصون بنا الا احدى
الحسينين : نصر عليكم فيالها من نعمة ومنة ، او شهادة فى سبيل الله
فيالها من جنة ، وفى الله العوض مما به هددت ، وفرج ييتر ما مددت
ويقطع بك فيما اعددت » .

(١) الحلل الموشية ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، وانظر مجموعات وثائقية ص ١٧٠ ،
١٧١ .

ملحق ٤

أهم الاعلام الجغرافية الواردة في الرسالة
باللغتين العربية والاسبانية

Ubeda	أبدة (وبدة)
Ebro	إبره (نهر)
Abtir	أبطير (حصن)
Oviedo	أبيط
Exitania (Idanha)	إجدانية
Castillo de Lares	الارش (حصن)
Alarcos	الارك
Arcos	أركش
Arun	أرندة
Astorga	أستركة
Esparragosa	أشبر غوزة (جبل)
Sevilla	أشبيلية
Lisboa	الاشبونة
Fraga	أفراغة
Uclés	أقليش
Ocsonoba	أكشونة
Elvas	البش
Alava	ألبسة
Amaya	أماية (جبل)
Magazela	أم غزالة (حصن)
Encinar	أنسين
Idanha - a - velha	انطاطة (حصن)
Andujar	أندوجر
Oporto	أوريطة
Beja	باجة
Viseo	بازو (بيزيو)

Palva	بالفة
Porto	برتقال
Burgos	برغش
Pedraja	بطريشة
Viguera	بقيرق (حصن)
Velillos	بلايش (حصن)
Valada	بلاطة (فحص)
Belinchon	بلشون (حصن)
Valtierra	بلايرة (حصن)
Palmela	بلملة (حصن)
Valladolid	بالد الوليد
Albelda	البلدة (قلعة)
Tajo	تاجو (نهر)
Tacorona	تاكونا
Trujillo	ترجالو (ترجلة)
Sierra de Almadén	جبل المعدن
Gibraltar	جبال العيون
Jerez de los Caballeros	جريشة
Guernica	جريق
Jurumenha	جلمانة
Jaen	جان
Alanje	حصن الحش
Aznalcázar	حصن القصر
Iznalloz	حصن اللوز
Azuaga	حصن زواغة
Zacatan	حصن سكتان
Aznalfarache	حصن الفرج
Cardela	حصن قرذيره
Marvão	حصن مروان
Almadá	حصن المعدن

Aljucén:	الحصين
Duero	دويره (نهر)
Ronda	رنده
Rueda	روضة (حصن)
Azagalā	الزجالة (حصن)
Sagrajas	الزلاجة (فحص)
Gineta	زناتة
Giudad Rodrigo	الستبطاط
Sever	سبير (نهر)
Zaragoza	سرقسطة
Soria	سرية
Zorita	سرتة
Zamora	سمورة
Medina Sidonia	شدونة
Aljarafe	الشرف
Jerez	شربش
Jerez de los Caballeros	شريشة
Setubal	شطوير (نهر)
Segura	شلقورة (نهر)
Silves:	شلب
Salvatierra	شلبطرة
Saltés	شلطيش
Salamanca	شلمنقة
Sanlucar	شلوقة
Santa Cruz de la sierra	شنت اقروج (حصن)
Santa maria de Algarve	شنت برية الغرب
Santaver	شنت برية
Santarem	شنترين
Cintra	شنترة
Santiago de compostela	شنت ياقب

Serpa	شيرة (حصن)
Covadonga	الصخرة
Castillo de la peña	صخرة أبى حسان (حصن)
Safarez	صفرة
Tavira	طيرة
Torres Novas	طرش
Tarragona	طركونة
Talavera	طلبيرة
Triana	طريانة
Toledo	طليطلة
Tablada	طلياطه
Toucanique	طوطالقه
Tomar	طمان
Las Navas de Tolosa	العقاب (حصن)
Albacar	عقبة البقر
Granada	غرناطة
Vez de Marbán	فحص مروان
Valle de los pedroches	فحص البلوط
Alfajar	الفخار
Hornachuelos	فرنجلش
Cadiz	قادس
San Estéban de Gormaz	غرماج (حصن)
Castro Muros	قاشتريه مورش
Cáceres	قاصرش
Caia	قاية
Carmona	قرمونة
Cacella	قسطة الغرب
Alcaçer do sal	قصر أبى دانس
Coimbra	قلمرية
Calatrava	قلعة رباح

Caliosa	قليوشة
Canales	قنالش
Alcántara	قنطرة السيف
Cantich	قنتيش
Cuenca	قونكة
Coria	قورية
Albuquerque	كركر (حصن)
Lerida	لاردة
Niebla	لبلة
Castillo Logrosán	لقرشان (حصن)
Fuente de cantos	لقنت
Lamego	لميق
Lanchach	لنشاش (حصن)
Lobón	ليبون (حصن)
Mertola	مارتلة (مرتلة)
Merida	ماردة
Madrid	مجريط
Medellin	مدلين
Almodovar	المدور
Medinaceli	مدينة سالم
Majorrocal	مرج الرقاد
Murviedro	مربيطر
Almeria	المرية
Mestanza	مسطاسة
Maguilla	مغيلة
Mudonia	مطونية
Malagón	ملقون
Mequinez	مكناسة الاصنام
Montánchez	منتانجش
Monsalud	منت شلوط

- ٢٨٨ -

Mentesa.	منتيشة
Montemor O Velho	منت ميور
Mondego,	منتيق (نهر)
Miño	مئييه (نهر)
Moura	مورة
Moron	مورور
Muros.	مورس (حصن)
Nepza	نقرة
Nogales	نقالش
Osma	واشمة
Guadiana	واديانة (نهر)
Guadalajara	وادي الحجارة
Junquera	وادي خنقيرة
Guadalupe,	وادي لب (جبل)
Evora	يابة
Elvas	يلبس

قائمة المصادر والمراجع

أولا - المصادر العربية (١) المخطوطات العربية

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد) : مسالك الابصار فى ممالك
الامصار ، الجزء التاسع ، نسخة مصورة محفوظة بمكتبة
المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، تحت رقم ٢٠

الشاطبى المغربى (محمد بن على) : « عقود الجمان فى مختصر
اخبار الزمان » ميكروفيلىم ، محفوظ بمكتبة البحث
العلمى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

مجهول « تاريخ مدينة فاس وبناء جامع القرويين ، وجغرافية
الاندلس ومصر والشام والحجاز » ، ميكروفيلىم محفوظ
بمكتبة البحث العلمى بجامعة أم القرى ، رقم ٥٣٠

مجهول « ذكر بلاد الاندلس وفضلها وصفتها وذكر اصقاعها » نسخة
مصورة محفوظة بمكتبة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية
بمدريد تحت رقم ٢٦ (وقد حققها مؤرخا الاستاذ لويس
مولينا Luis Molina وصدرت فى مدريد ١٩٨٣) .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) « نهاية الارب فى
فنون الادب » ، المجلد ٢٢ ، نسخة مصورة محفوظة
بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية (وقد حققت
مؤرخا وصدرت فى الهيئة العامة للكتاب) .

(٢) المصادر العربية المحققة

الادريسى (الشريف أبو عبد الله محمد) : « صفة المغرب وأرض
السودان ومصر والاندلس » ، مأخوذة من كتاب نزهة
المشتاق فى اختراق الافاق تحقيق دوزى ودى غويه ،

ليدن ١٩٦٨ (مصورة عن النسخة الاصلية) ونسخة
مصورة عن القسم الخاص بالاندلس صدرت بعنوان :
Idrisi, geografia de España, Valencia, 1974).

ابن البار (ابو عبيد الله محمد القضاء) : « كتاب التكملة لكتاب
الصلة ، تحقيق كوندريه ، مدريد ، ١٨٨٦ .

» : « المعجم في اصحاب القاضي الامام ابي علي الصديقي ،
مدريد ، ١٨٨٥ .

» : « الحلة الشريفة » ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ،
القاهرة ١٩٦٣ .

ابن الاثير (علي بن احمد الملقب بعز الدين) : « الكامل في التاريخ »
طبعة بيروت ١٩٦٥ ، وهي مصورة عن طبعة ليدن ،
١٨٦٥ .

» : « (مجد الدين) : « المرضع في الآباء والامهات والبنين
والبنات » ، تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي ، بغداد
١٩٧١ .

ابن ابي اصبهجة (موفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم الخزرجي) :
« عيون الاطباء في طبقات الاطباء » ، نشر وتحقيق
الدكتور نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥ .

ابن ابي زرع (ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسي) : « كتاب الانيس
المطرب روض القوطاش في اخبار ملوك المغرب وتاريخ
مدينة فاس » تحقيق تورنبرج ، اويسالة ١٨٤٣ .

» : « » : « المخطوطة السنوية في تاريخ الدولة المرينية » نشر دار
المنصور الرباط ، ١٩٧٢ .

ابن بسام (أبو الحسن على الشنتريني) : كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، أربعة أقسام في ثمان مجلدات ، بيروت ١٩٧٩ .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الله) : كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس « مجموعة تراثنا ، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان) : « طبقات الأطباء والحكماء » تحقيق الاستاذ فؤاد السيد ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) : « جمهرة أنساب العرب » تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٦٢ .

« » « نقط العروس » تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥١ ، والنسخة القديمة التي حققها سيبولد وترجمها الى الاسبانية لويس سيكو دي لوثينا ، صدرت ببلنسية ، ١٩٧٤ .

ابن حوقل، النصيبى (أبو القاسم محمد بن على) : « كتاب صورة الارض » ، نشر دار الحياة ، بيروت ، ١٩٦٣ .

ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي) : « كتاب المقتبس من انباء أهل الاندلس » ، أربع قطع :

منها قطعة خاصة بعهد الأمير عبد الله ، نشرها الاب مشور انطونية ، وصدرت في باريس ١٩٣٧ ، وقطعة خاصة بالسنوات الاخيرة من عهد عبد الرحمن الاوسط وعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، حققها الدكتور محمود على مكي مع دراسات وتعليقات ، وصدرت في بيروت

١٩٧٣ . وفطعة خاصة بالسنيين الثلاثين الاولى من عهد
عبد الرحمن الناصر ، نشرها بدور شالميتا وكورينطى
ومحمود صبح ، مدريد ١٩٧٩ ، وقطعة خاصة بالحكم
المستنصر نشرها د . عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٦٥

ابن خاقان (ابو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى) : « قلائد
العقيان » القاهرة ، ١٣٢٠ هـ .

ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد) : « كتاب أعمال
الاعلام » ، تحقيق ليفى بروفنسال بيروت ، ١٩٥٦ .

ابن الخطيب : « الاحاطة فى اخبار غرناطة » ، تحقيق الاستاذ محمد
عبد الله عنان ، ٤ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : « كتاب العبر وديوان المبتدأ
والخبر » ، المقدمة طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة بدون
تاريخ ، والجزآن الرابع والسادس طبعة بيروت ، ١٩٦٨

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس احمد ابن محمد) : « وفيات
الاعيان وأنباء ابناء الزمان » ، تحقيق الدكتور احسان
عباس ، ٨ مجلدات دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧١

ابن دراج القسطلی : ديوان ابن دراج القسطلی ، نشر وتحقيق الدكتور
محمود على مكى ، دمشق ١٩٦١ .

ابن سعيد المغربى (على بن موسى) : « المغرب فى حلى المغرب » ،
تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٣

« » « رايات المبرزين وغايات المميزين » ، تحقيق الدكتور
النعمان عبد المتعال القاضى ، القاهرة ١٩٧٣ .

ابن سمالك العاملى (أبو القاسم محمد بن أبى العلاء محمد) :
« الزهرات المنثورة فى نكت الاخبار الماثورة » تقديم
وتحقيق الدكتور محمود على مكى مجلة المعهد المصرى
للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد العشرون ، ١٩٧٩
- ١٩٨٠ .

» » » (أبو عبد الله بن أبى العلاء) : « الحلل الموسية فى ذكر
الاخبار المراكشية » ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ،
والاستاذ عبد القادر زمامه ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ .

ابن صاحب الصلاة (عبد الملك محمد بن احمد الباجى) : « تاريخ
المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله ائمة وجعلهم
الوارثين » تحقيق عبد الهادى التازى ، بيروت ، ١٩٦٤

ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد) : « البيان المغرب فى
اخبار الاندلس والمغرب ٤ أجزاء تنتهى بنهاية عصر دولة
المرابطين فى المغرب والاندلس ، نشر دار الثقافة ببيروت
والقسم الثالث بدولة الموحدين ، تحقيق امبروسيو اوينى
ميراندا ومحمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتانى ،
مطبوعات كلية الآداب ، جامعة الملك محمد الخامس ،
تطوان ، ١٩٦٣ .

ابن غالب (محمد بن أيوب الاندلسى) : قطعة من كتاب فرحة الانفس ،
نشرها الدكتور احمد لطفى عبد البديع ، مجلة معهد
المخطوطات العربية القاهرة ، ١٩٥٦

ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف) : « تاريخ
علماء الاندلس » تحقيق فرنسيسكو كوديره ، جزان ، مدريد
١٨٩١ .

ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الملك الكتامي ،
الفاي) . قطعة من كتاب نظم الجمان ، تحقيق الدكتور
محمود على مكي ، منشورات كلية الآداب جامعة محمد
الخامس بالرباط ، تطوان (بدون تاريخ) .

ابن القوطية (أبو بكر محمد القرطبي) « تاريخ افتتاح الاندلس »
نشرة خليان ربيرا ، مدريد ، ١٩٢٦

ابن كثير الدمشقي (عماد الدين اسماعيل) « البداية والنهاية » ،
بيروت ، ١٩٦٦ .

ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك التوزري) : « تاريخ الاندلس »
وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، تحقيق
الدكتور مختار العبادي ، مطبوعات المعهد المصري
للدراسات الإسلامية مدريد ، ١٩٧١ .

ابن مرزوق (محمد التلمساني) : « المسند الصحيح للنصن في مآثر
مولانا الحسن » ، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ، ومحمود
بوعبيد ، الجزائر ، ١٩٨١ .

البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز) : « جغرافية الاندلس وأوروبا
من كتاب المسالك والممالك » تحقيق الدكتور عبد الرحمن
الحجي ، بيروت ١٩٦٨ .

البيذقي (أبو بكر بن علي الصنهاجي) : « كتاب أخبار المهدي بن
تومرت » تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ،
الجزائر ، ١٩٧٤ .

الحميدني (أبو عبد الله محمد بن فتوح) : « جذوة المقتبس في ذكر
رجال الاندلس » ، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ،
القاهرة ١٩٦٦

الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) : « صفة جزيرة الاندلس
منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار » ،
تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

الرازى (احمد بن محمد) وصف الاندلس من خلال الترجمة الفرنسية
للنسخة البرتغالية المنقحة الصادرة في لشبونة ١٩٥٢ ،
وقد عنى بهذا الترجمة الفرنسية الاستاذ ليفى بروفنسال
فصدرت في مجلة الاندلس بعنوان :

La Description de l'Espagne (d'Ahmad al - Razi, al'Andalus,
vol. XXIII, fasc. I, 1953 (PP: 51 - 109)

La «Cronica do Mouro Rasis» y el «Ajbar Muluk al - «
Andalus», de Ahmad ibn Muhammad al - Razi, ed. Diego
Catalan y Maria soledad de Andres, y otros colaboradores,
Madrid, 1975.

الضبي (احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة) بغية الملتبس في تاريخ
رجال أهل الاندلس ، نشره كوديرد وريبيرا ، مدريد
١٨٨٤ .

عبد الله الزيرى (عبد الله بلقين بن باديس بن حبوس) « مذكرات
الامير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ، المسماة
بكتاب التبيان » نشر وتحقيق ليفى بروفنسال ، باريس ،
١٩٥٥ .

العذرى (احمد بن عمر بن انس المعروف بابن الدلائى) : « ترصيع
الاخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان
والمسالك الى الممالك » ، تحقيق الدكتور عبد العزيز
الاهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥ .

القزوينى (زكريا بن محمد) : « آثار البلاد وأخبار العباد » -
١٨٤٨ .

القفطى (جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف) :
الحكماء» ، تحقيق Julius Lippert ليبزج ،

مجموعة رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤ
نشرها ليفى بروفنسال الرباط ، ١٩٤١ .

» » مجموعات وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق
بالمغرب ، المجموعة الاولى ، الرباط ١٩٧٦ .
مجهول : أخبار مجموعة فى تاريخ الاندلس ، نشره .
القنطريه ، فى مجموعة: Obras arábicas ، مدريد ،

» مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لديز
نشرها وقام بدراساتها وترجمتها الى الاسبانية الا
لبفى بروفنسال وغرسية غومس بعنوان :

rónica anònima de Abd al - Rahman III al - Nasir,
d - Granada, 1950.

مجهول : « نبذ تاريخية من كتاب مفاخر البربر » ، تحقيق
بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ .

المراكشى (عبد الواحد بن على) : المعجب فى تلخيص أخبار ا.
نشره الاستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد
العلمى ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى) « نفح الطيب من غصن
الربطى » ، تحقيق الاستاذ محيى الدين عبد
(الاجزاء الستة الاولى) القاهرة ، ١٩٤٩ .

النباهى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن الملقى) « تاريخ قضاة
الاندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء
والفتيا » (نسخة مصورة من النسخة النى حققها ليفى
بروفنسال وصورت بالقاهرة فى ١٩٤٨) .

الدونشريتى (أبو العباس احمد بن يحيى محمد التلمسانى) : « أسنى
المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصرارى ولم
يهاجر » ، نشره الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة المعهد
المصرى بمديرى ، المجلد الخامس مديري ، ١٩٥٧ .

ثانيا : المصادر الاسبانية

Isidro Henrique Florez, España Sagrada, t. XIV, Madrid, M. Dec

1 — Chronicon Lusitanum, pp. 402 - 419.

2 — Chronicon de Sampiro obispo de Astorga, pp. 419-457.

3 — Chronicon del obispo de Oviedo D. Pelayo, pp. 458 - 475.

La Crónica General de España, II tomo de la tercera reimpresión, editada por Ramon Menendez Pidal con un estudio de Diego Catalan, Madrid, 1977.

La historia de la orden de Santiago (Manuscrito del siglo XV; introducción, notas y apéndice del Marques de Siete Iglesias, Badajoz, 1978.

Documentos transcritos en los apéndices de :

Matias Ramón Martínez y Martínez, Historia del reino de Badajoz, 1904.

1 — Apéndice V : conquista de Coria por Alfonso VII

2 — Apéndice XXV : donacion de varios bienes en Merida a la orden de Alcántara, en el año 1230

3 — Apéndice XXVLLL : Donación de Montanchez a la orden de Santiago, en el año 1230.

ثالثا - المراجع العربية الحديثة والمعربة

أبو الفضل (دكتور محمد أحمد) : شرق الاندلس في ظل الدولة
الموحدية ، رسالة دكتوراه ، نوقشت في جامعة الاسكندرية
في أكتوبر ١٩٨٠ .

اسباخ (جوزيف) : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ،
ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨

جمال الدين (دكتور عبد الله) أبو مروان بن حيان أمير مؤرخي
الاندلس ، منزلته وكتبه ومنهجه التاريخي ومصادره ،
مجلة أوراق ، العدد الثاني ، مدريد ١٩٧٩

جنثالث بالنثيا (آنخل) : تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة دكتور حسين
مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥

جوميث مورينو (مانويل) : الفن الاسلامي في اسبانيا منذ الفتح العربي
حتى عصر المرابطين ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع ،
والدكتور السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٩

الحريري (دكتور محمد عيسى) : عمر بن حفصون ، زعيم المولدين
في الجنوب الاندلسي ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٨٣

سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تحقيق أسماء قصور بني عباد
باشبيلية الواردة في شعر ابن زيدون مجلة أوراق ، العدد
الثاني ، مدريد ١٩٧٩

» تاريخ المغرب الكبير ، الجزء الثاني : العصر الاسلامي ، دراسة
تاريخية وعمرانية واثريه ، بيروت ، ١٩٨١ .

» التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٨١ .

- سالم (دكتور السيد عبد العزيز) بطليوس ، دائرة المعارف الشعب ،
عدد ٦١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- » تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ .
- » قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، جزآن ، بيروت ، ١٩٧١ .
- » تازيخ بمدينة المرية الاسلامية قاعدة اسطول الاندلس ، بيروت
١٩٦٩ .
- » اضماء على مشكلة تاريخ بناء اسوار اشبيلية مجلة المعهد المصرى
للدراسات الاسلامية بمديرد ، عدد ١٨ ، ١٩٧٥ .
- » حول رفع الاولوية السوداء في المغرب والاندلس ندوة التاريخ
الوسيط ، المجلد الثانى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ص ٤٩ -
٨٣ .
- » واحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض
البحر المتوسط الجزء الثانى البحرية الاسلامية فى المغرب
والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ .
- » (سحر السيد عبد العزيز) : للحقيقة والتاريخ ، مجلة أكتوبر
يونيو ١٩٨٤ العدد ٤٠٠ .
- الشيال (دكتور جمال الدين) : التاريخ الاسلامى واثره فى الفكر
التاريخى الاوروبى فى عصر النهضة ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- العبادى (دكتور احمد مختار) : فى تاريخ المغرب والاندلس ، بيروت
١٩٧٢ .
- » دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، مجلة تطوان ، العدد
الخامس ، ١٩٦٠ .
- » تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، الاسكندرية ،
١٩٨٢ .

- ٤٠٣ -

الحُجِّي (دُكْتُور عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلِي) اَندَلُسِيَّات ، المَجمُوعَةُ الثَّانِيَّة ، دار
الارِثَاق بِيُزُوت ، ١٩٦٩ .

» التَّارِيخُ الْاَندَلُسِيُّ مِنَ الْفَتْحِ الْاِسْلَامِيِّ حَتَّى سَقُوطِ غِرْنَاطَةِ ٩٢ -
٨٩٧ هـ ، دَمِشْق ، ١٩٧٦ .

عَزَت قَاسِم تَارِيخ مَرَسِيَّة الْاِسْلَامِيَّة مِنْذِ اَنْشَاءِهَا حَتَّى اسْتِيْلَاءِ الْمُرَابِطِيْنَ
عَلَيْهَا ، رِسَالَةٌ مَاجِسْتِيْزٌ مَقْدَمَةٌ اِلَى كَلِيَّةِ الْاَدَابِ ، جَامِعَةُ
الْاِسْكَندَرِيَّة ، ١٩٨٤ .

عِلَام (دُكْتُور عَبْدُ اللهِ) الدَّوْلَةُ الْمُوَحَّدِيَّةُ فِي الْمَغْرِبِ ، الْقَاهِرَةُ

عَنَان (الْاِسْتَاذُ مُحَمَّدُ عَبْدُ اللهِ) دَوْلَةُ الْاِسْلَامِ فِي الْاَنْدَلُسِ ، الْعَصْرُ الْاَوَّلُ ،
الْقِسْمُ الْاَوَّلُ بَعْدَ الْفَتْحِ اِلَى بَدَايَةِ عَصْرِ الْخِلَافَةِ ، الْقَاهِرَةُ
١٩٦٩ الْقِسْمُ الثَّانِي : الْخِلَافَةُ الْاُمَوِيَّةُ وَالدَّوْلَةُ الْعَامِرِيَّةُ ،
الْقَاهِرَةُ ١٩٦٩ .

» دَوْلُ الطَّوَّافِ مِنْذِ قِيَامِهَا حَتَّى الْفَتْحِ الْمُرَابِطِيِّ ، الْقَاهِرَةُ ،
١٩٦١ .

» عَصْرُ الْمُرَابِطِيْنَ وَالْمُوَحَّدِيْنَ فِي الْمَغْرِبِ وَالْاَنْدَلُسِ الْقِسْمُ الْاَوَّلُ عَصْرُ
الْمُرَابِطِيْنَ وَبَدَايَةُ الدَّوْلَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ ، الْقَاهِرَةُ ، ١٩٦٤ .

» عَصْرُ الْمُرَابِطِيْنَ وَالْمُوَحَّدِيْنَ فِي الْمَغْرِبِ وَالْاَنْدَلُسِ ، الْقِسْمُ الثَّانِي ،
عَصْرُ الْمُوَحَّدِيْنَ وَانْهِيَارُ الْاَنْدَلُسِ الْكَبْرِى ، الْقَاهِرَةُ ،
١٩٦٤ .

» : الْاَثَارُ الْاَنْدَلُسِيَّةُ الْبَاقِيَّةُ فِي اِسْبَانِيَا وَالْبَرْتَغَالِ ، دَرَاْسَةُ تَارِيخِيَّةٍ
اَثَرِيَّةٍ الْقَاهِرَةُ ، ١٩٦١ .

» مَوَاقِفُ حَاسِمَةٍ فِي تَارِيخِ الْاِسْلَامِ ، الْقَاهِرَةُ ، ١٩٦٢ .

- ٤٠٤ -

ليفى بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، سلسلة الف كتاب ، رقم ٨٥
ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين
حلمى ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

مؤنس (دكتور حسين) : معالم تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية
١٩٨٣ .

» . . . تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، مدريد ١٩٦٧ .

» فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

محمود (دكتور حسن احمد) : قيام دولة المرابطين : صفحة مشرفة
من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

مكي (دكتور محمود علي) ، مدريد العربية المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر ، القاهرة (بدون تاريخ) .

رابعاً : المراجع الاوربية الحديثة

Albarran (Manuel¹ Torron); el solar de los Aftasiés.

» La sierra de Tornado; Badajoz, 1953.

Alonso, (Sanchez) : Historia de la historiografía española, Madrid, 1947.

de las Cagigas, (Isidro) : Los Mozárabes, t I, Madrid, 1947.

» » : Andalucía musulmana, Madrid, 1950.

Castejón (Rafael), : Cordoba califal, Boletín de la Real Academia de Bellas Artes de Córdoba, Córdoba, 1929.

Castro (A.) : Acerca del nombre de Badajoz, Revista española, t. XII, 1926.

Codera (Francisco) : los Benimeruan en Mérida y Badajoz colección Estudios críticos de historia árabe Española, Madrid, 1917. (PP. 1 - 75).

» » Decadencia y desaparición de los Almorávides en España, Zaragoza, 1899.

Conde (Jose Antonio) : Historia de la dominación de los Arabes en España, 3 vols. Madrid, 1820 - 1821.

Delgado (Rodrigo dosma) : Discursos pátrios de la real ciudad de Badajoz, Badajoz, 1870.

Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi - Provençal, 3 vols, Leiden, 1932.

Fernández (Aviles) y otros : España musulmana, serie nueva, historia de España, Madrid, 1980.

- » » los reinos Cristianos en la alta edad media, 1980
- » » (Luis Suárez) ; Historia de España, Madrid, 1977 "
- » » Historia de España, edad media, Madrid, 1987.

Ferrandis (Jose) : Marfiles arabes de Occidente, 2 tomos, Madrid, 1932.

de Figueroa (Diego Suarez) : historia de la ciudad de Badajoz, Badajoz, 1976.

Florez (F. Hénriqué) : España sagrada, t. XIV, Madrid, dccc.

Garcia Gomez (Emilio) : A proposito de ibn Hayyan, al - Andalus, vol. XI, fasc. 2, 1946.

- » » Algunas precisiones sobre la ruina de la Córdoba omeya, al - Andalus, vol. XII, 1947.

Garcia Gómez : Un supuesto sepulcro de Motamid de Sevilla en Agmat, al - Andalus, vol. XVII, 1953.

Garcia y Bellido (Antonio) : la España del siglo primero de nuestra era, según p. mela y Plinio, Madrid, 1947.

Grimbero (carl) : Historia universal, t. IV, la. edad media, Madrid, 1973.

Gujarra (Claudio Galindo) : Historia de España, t. II, Barcelona, 1935.

Lacarra (Jose Maria) : Alfonso el Batallader, Zaragoza, 1972

Lévy - Provençal (E.) : Histoire de l'Espagne musulmane, 2 tomes, Paris, 1950 - 1951.

- » » Inscriptions arabes d'Espagne, 2 tomes, Paris, 1931.
- » » L'Espagne musulmane au x e siecle, Paris, 1932.
- » » La description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi, al - Andalus, vol XVIII, 1953.
- » » & Garcia Gomez, Oliver Asin : Novedades sobre la batalla llamada al - Zalaca, al - Andalus, vol XV, 1950.
- Levillo (Jose Guerrero) : al Qasr al - Mubarak, Boletin de la Real Academia de Bellas Artes de Sevilla, Sevilla, 1974.
- Madoz (Pascual) : Diccionario geografico - historico de España y sus posesiones de ultramar, t. III, Madrid, 1846.
- Marçais (Georges) : L'Architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954.
- Martin (Jose Luis) : La Peninsula en la Edad Media, Barcelona, 1980
 - » Historia de España, reinos cristianos y Musulmanes (siglos XI - XIII) Madrid, Diciembre 1980.
 - » & Carmen Cedoñer, Manuel Sanchez : La Alta edad media, visigodos y primeros reinos cristianos, Octubre, 1980.
- Martinez y Martinez (Matias Ramon) : Historia del reino de Badajoz, Badajoz, 1904.
- Melchor (Antuñá) : Aben Hayan de Córdoba y su obra historica, el - Escorial, 1924.
- Melida (José Ramón) : Catálogo Monumental de España; Provincia de Badajoz, texto Madrid, 1925.
- Menendez - Pidal (Ramon) : La España del Cid, t. I, Madrid, 1947

» » & García Gómez : El conde mozarabe Sisnando Davidez
y la política de Alfonso VI con los Taifas, al - Andalus,
vol. XXI, 1947.

Miguel Muñoz de san Pedro : Badajoz, ed. Everest.

Miranda, (Ambrosio Huici) : Historia musulmana de Valencia y su
region, 3 vol., Valencia, 1970.

» » La salida de los Almorávides del desierto, Hesperis,
3 - 4 Trimestres, 1959.

» » La invasión de los Almorávides y la batalla de Zalaca,
Hesperis t. xI, 1 - 2 trimestres, 1953.

Monés (Hussain) : Essai sur la chute du califat umayyade de Cordoue
en 1009, le Caire, 1948.

» : Consideraciones sobre la época de los Reyes de Taifas,
al - Andalus, vol. XXXI, 1966.

Nogales (S. Gómez) : La corte de los Aftasies de Badajoz, Principal-
mente en el campo de la filosofía, en Actas de IV coloquio
hispano-tunechino, Madrid, 1983.

Oliveira (Antonio Ramos) : Historia de España : la edad media,
Mexico, 1974.

Palacios (Miguel Asin) : contribucion a la toponimia arabe de España,
Madrid, 1944.

» » (Oliver Asin) : el lugar de la batalla de Zalaca - Sacral-
ias, al - Andalus, vol. XV, 1950.

Pérès (Henri) : La poésie andalouse en arabe classique au xie siècle,
Paris, 1937.

Pérez de Urbel (F. Justo) : Historia del Condado de Castilla, t. I, Madrid, 1948.

Pons Beigues (Francisco) : Ensayo bio bibliografico sobre los historiadores y geógrafos arábigo-españoles, Madrid, 1898.

Prieto y Vives (Antonio) : Los reyes de taifas, estudio histórico numismático de los musulmanes españoles, en el siglo V de la Hégira, Madrid, 1926.

Quiros (Po Carlos) : Los Almorávides, Archivo del Instituto Estudios Africanos, no 32, Madrid, 1955.

Remiro (Mariano Gaspar) : Historia de Murcia musulmana, Zaragoza, 1905.

Ricard (Robert) : Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du nord et en Espagne, Paris, 1924.

» Couraçá et Coracha, al - Andalus, vol. XIX, 1954

Rubiera (Maria Jesus) : Sur un possible auteu de la chronique intitulée al - Hulal al - Mowasiyya fi - dikr al - Ajbar al Murrakusiyya, en II coloquio hispano - tunecino de estudios arabes, Madrid. Barcelona, Mayo, 1972.

Salem (Elsayed Abdel Aziz) : obras almohades en la muralla almorávide de Sevilla, revista del Instituto Egipcio de estudios islámicas de Madrid, vol XX 1979.

» » Noticias, revista del institute egipcio de estudios islámicos de Madrid, vol XIX, Madrid, 1976 - 1978.

» » Historia de Murcia musulmana, i art. entregado a la

universidad del Cairo, en memoria del defunto profesor
dr. Abdel Aziz al - Ahwani.

Sanchez, Alborno (Claudio) : Los Reinos cristianos españoles,
colección Austral, Madrid.

» » Adiciones al estudio de la crónica del moro Rasis,
Madrid, 1978.

» » la Batalla de la Polvoraria, Anales de universidad
de Madrid, fasc. III, 1932.

» » El Islam de España y el Occidente, colección Austral,
Madrid, 1981.

Seybolds (H.) : Encyclopedia of Islam, art. Battalyaws

Serrano (Carlos Callojo) : Badajoz y su provincia, colección guías
artísticas de España, Barcelona, 1964.

Simonet (Francisco Javier) : Historia de los mozárabes de España,
Madrid, 1897, 1903.

El Shayyal (Gamal al - din), el Abbadi (M.) : Islamic and arabic
contribution to the european renaissance, Cairo, 1977.

Terrasse (Henri) : Les forteresses de l'Espagne musulmane, Madrid,
1954.

» Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du
Protectorat français, t. I, Casablanca, 1949

Torres Balbás (Leopoldo) la Alcazaba almohade de Badajoz, al -
Andalus, vol. VI, fasc. I, 1941.

» » La mezquita de la Alcazaba de Badajoz, al - Andalus,
vol. VIII, 1943.

Torres Balbas La via augusta y el arrecife musulman, al - Andalus,
vol. XXIV, fasc. 2, 1959.

» » Caceres y su cerca almohade, al - Andalus, vol. XIII,
1948.

» » Aznalfarache, al - Andalus, vol. XXV

» » Ciudades hispanomusulmanas de nueva fundación; en
Etudes d'orientalisme dédiées à la memoire de Lévi
Provençal, t. II. Paris, 1962.

de Valdeavellano (Luis) : Historia de España, t. 2, de los orígenes 3
la baja Edad Media, Madrid, 1980.

Valdeon (Julio) Aproximación histórica a Castilla a Leon, Valladolid,
1983.

Valladoz (Armando Cotarelo) : Alfonso III el Magno, Madrid, 1933

Villacrosa (José Maria Millas) : la traducción castellana del tratado
de agricultura de ibn Wafid, al - Andalus, vol. VII,
fasc. 2, 1943.

ملخص الرسالة باللغة الاسبانية

**HISTORIA POLITICA DE BADAJOZ DURANTE LA
DOMINACION MUSULMANA**

(1)

**BADAJOZ BAJO LA DINASTIA DE BANU ABDER-
RAHMAN «EL GALLEGO»**

Con la llegada de los Arabes a España, algunas ciudades man- tienen sus antiguos nombres que van tomando mayor o menor importancia según los hechos.

Así vemos como Badajoz, en los primeros años del Islám Español no tiene casi importancia, pues no fué que una pequeña aldea con muy pocos habitantes y oscurecida por la importancia de Mérida.

Allí por los años 214 y 222 de la Hégira (827, 835 de J.C.) los muladiés de Mérida no estaban contentos con los administradores del poder central de Córdoba por la preferencia de trato que daban a los árabes y bereberos ya que consideraban a aquellos como recién llegados al Islám y en quienes no se podía confiar; en consecuencia los Muladiés provocaron muchas revoluciones contra los Emires, uniéndose generalmente a los Cristianos.

El año 213 H. el bereber Mahmud Ibn Abdel Gabbar y el muladi Suliman ibn Martín se levantaron contra el gobernador de Mérida, Merwan el Gallego que había sido nombrado por el Emir. Merwan murió a manos de ellos y Abderrahman II tuvo ir a Mérida a someter dichas sublevaciones.

Entre los rehencos entregados, por los derrotados, estaba Ibn-

Merwan el Gallego, quien fue llevado a Córdoba y quien pronto alcanzó en ésta puestos de gran importancia por la confianza que la dió el Emir. Con anterioridad, Merwan el Gallego, antes de llegar al puesto de gobernador de Badajoz se habia incluso enfrentado al Emir, pero éste despues de haberlo perdonado lo nombró para ese puesto.

Abderrahman el Gallego despues de haber conseguido grandes honores en Córdoba, como guardaba en su corazon sentimientos nacionalistas huyó de la Corte y se dirigió a Mérida haciendo diversas revoluciones contra el poder central. Para el estudio de las mismas vamos a dividirlo en cinco partes lo que nos facilitará la comprensión del mismo.

En la primera, El Gallego ataca Mérida con algunos amigos suyos, pero el emir Mohamed ibn Abderrahman los contraatacó y los yencio llevándolos de rehenes a Córdoba.

El año 875, el Gallego huyó de Córdoba y vuelve a Mérida por sus desayenencias con el ministro Hashim ibn Abdel Aziz. El Gallego se dirigió al castillo de Hielo donde se reunió con otros jefes revolucionarios algunos de los cuales recibían ayuda del rey cristiano Alfonso III.

El Gallego se apoderó del castillo «Jurumenha» por considerarlo un lugar estratégico. Sadun el Soronbaki era uno de los revolucionarios que recibía mucha ayuda del rey cristiano. Todas éstas razones hicieron intervenir al emir de Córdoba quien mandó sus ejércitos contra el Oeste andalusi (el Algarve), para sofocar todas las sublevaciones. Entre las tácticas empleadas por soldados del Emir era envenenar las aguas de las ciudades sitiadas lo que obligaba a los

habitantes de las mismas a buscar nuevos pozos y conductos de agua para poder subsistir o salir a luchar a campo abierto, con lo que ello suponía de desventaja. Posteriormente el Emir Abdula, a petición del Gallego, hizo la paz con los revolucionarios de Badajoz pero a condición de que éstos no saliesen de sus límites.

Tras la paz el emir Mohamed dió a Ibn Gallego autorización o le nombró como jefe supremo de la región de Badajoz y a partir de entonces Badajoz comenzó a convertirse en la capital de la zona por su importancia cultural, militar e incluso económica.

Dado el progreso de Badajoz, a manos de Ibn Gallego, éste se permite hasta mandar espías a Córdoba para estar informado de los acontecimientos de la Corte. También mantiene contactos por otra parte con los Cristianos, concretamente con el rey de León, Alfonso III.

Varios acontecimientos importantes retrasaron no obstante momentáneamente el progreso cultural o la importancia de Badajoz. Guerras, traiciones, luchas, asesinatos como la muerte de Makhul en Badajoz a manos de Hashim ibn Abdel Aziz (Makhul quedó en vez de Ibn Gallego a quien se parecía físicamente cuando éste fué a la ciudad de Monte Shalut «Monsalud»).

Como consecuencia de estas luchas vemos al ministro Hachim prisionero del rey de León, Alfonso, quien mas tarde le dió su confianza.

Entre los acontecimientos de estos tiempos vemos como Ibn el Gallego une a Alfonso tercero de León para luchar contra los musulmanes en la batalla de «Barbaria» o de Polvorosa en la cual vencieron los Cristianos a las tropas musulmanas. Ibn el Gallego siguió aliado

a los Leoneses hasta que se dio cuenta de lo que verdaderamente hacía contra sus propios hermanos de religión sobre todo cuando derrotó y mató a muchos musulmanes en la batalla de Mérida. A partir de ese momento Ibn el Gallego se separó definitivamente de los Leoneses y volvió a Badajoz.

A pesar de esta separación de Ibn el Gallego del rey de León no por eso mejoraron las relaciones de aquel y los emires, correligionarios suyos ya que las luchas continuaron entre Ibn el Gallego y los príncipes musulmanes. También Hachim después de dejar al rey leonés por haber pagado su rescate se enfrentó a Ibn el Gallego en algunas batallas.

Tras un periodo de guerras y revoluciones, la paz volvió a la zona y las relaciones entre los Emires con Ibn el Gallego aumentaron hasta tal punto que el Emir Mohamed le nombró y dio poder como único jefe supremo de Badajoz. Tanto el Emir Mohamed como su hijo Abdallah ayudaron en la reconstrucción de Badajoz y así vemos como se construye una mezquita con una gran cúpula y alminar y, también se construyeron baños.

Posteriormente dentro de la Alcazaba, Ibn el Gallego, con medios propios construyó otra mezquita y otras varias más, en lugares diversos de la ciudad.

Esto fué una corta época de esplendor para Badajoz antes de la reanudación de los problemas revolucionarios. De nuevo Ibn el Gallego unido a los habitantes de Beja y Mértola se subleva contra el Emir y continuó las luchas hasta su muerte. Por último sus sucesores tuvieron problemas con el poder central y combates con los Emires hasta

que al final su nieto Abdalla se hizo fuerte en el poder de Badajoz al expulsar a los gobernadores impuestos por el Emirato.

La dinastía de Banu Merwan el Gallego continuó gobernando independientemente la región de Badajoz hasta la restauración del califato omeya, y entonces, el califa Abderrahman III pudo finalmente someter a Badajoz anejándolo bajo su autoridad en el año 318 de la Hégira.

(2)

BADAJOZ : Base y núcleo del ALGARBE durante el período de los TÁIFAS :

El Andalus empezó una nueva etapa cuando el «Hakam el Mustanser» subió al Califato mostrando su gusto por las artes y la civilización y dando toda clase de facilidades a sabios y escritores con lo que llegaron a Córdoba todos aquellos a quienes interesaba la civilización y la libertad que estaban desperdigados por toda España durante ese tiempo.

Entre ellos podemos destacar a Sabur, quien tendrá un papel importantísimo en la liberación intelectual del Occidente español.

Sabur fue uno de los hombres del Mansur ibn Abi Amer que inculcó el gobierno de Badajoz influenciado por los consejos de «Sobh» esposa de El Hakam al Mustanser y como premio aparente a su trabajo y honradez aunque en realidad lo que quiso el Mansur fue alejarlo del poder central. Posteriormente el Mansur se convirtió en el auténtico gobernante en tiempo de Hisham el Moayad. A pesar de eso, Sabur continuó en el gobierno de Badajoz porque estaba lejos de la metrópoli y en consecuencia Sabur no representaba un peligro para él en Córdoba.

Tras la muerte del Mansur su estado empezó a debilitarse sobre todo en los días de Shangu. En el tiempo de la Fitna que sucedió el asesinato de Sanchuelo hubo muchas revoluciones y se independizaron varios gobernantes que anteriormente dependían de él. Entre los gobernantes que consiguieron la independencia podemos citar a Sabur que mantuvo su poder en Badajoz durante trece años.

La mayoría de los historiadores contemporáneos creen que Sabur era de origen persa, pero en realidad no lo fué, pues no era más que un liberto ameri.

No sabía gobernar bien Badajoz por lo que quien en realidad gobernaba era su ministro Abu Mohamed Abdalla ibn Mohamed ibn Moslema que era de origen bereber. Sabur gobernaba Badajoz, Santarén, Lisboa y la Marca inferior.

Abu Mohamed Abdalla era conocido con el apodo de Ibn el Aftás y fué sucesor de Sabur a pesar de que éste tenía dos hijos: Abdel Malik y Abdel Aziz. Como hemos dicho Ibn el Aftás era de origen bereber y los bereberes vivían en esa época en la zona occidental del Andalus como los Pedroches, Trujillo, Sierra Morena, Sierra del Madén (Almadén) y los alrededores de Badajoz. Ibn el Aftás se sobrepodó «el Mansur». Lo más destacado de su tiempo fueron las guerras contra el reino de Sevilla gobernado por Abu Qasem ibn Abad. Esas guerras empezaron desde la llegada de los Aftasiés en el año 420 H. por motivo de la posesión de la ciudad de Beja que fué tomada por Ibn el Aftás para hacer de ella una base militar y un centro gubernamental desde donde extender su poderío a otras tierras del Occidente andaluz.

Como el rey Ibn Abad de Sevilla era muy ambicioso y ayudó a su amigo Mohamed ibn Abdalla ibn el Berzali, gobernador de Carmona, que era una ciudad fortificada situada la nor-este de Sevilla, esta intervención en los asuntos internos de Beja fué la causa de las guerras.

En una de esas batallas Ibn Abad cogió prisionero al hijo de Ibn el Aftás y lo tuvo encerrado durante un año en la prisión de Carmona. Continuó después un período de paz de tres años aproximadamente y posteriormente se reanudaron los combates cuando al pasar las tropas de Ibn Abad por tierras pacenses para atacar Galicia se vieron a su vez atacados por Ibn el Aftás deseoso de tomar la revancha de su anterior derrota.

Ismael ibn Abad fué derrotado y huyó hasta Lisboa. Este período de paz de tres años tras la salida de la cárcel de Ibn el Aftás históricamente no es muy cierto, pues las fuentes árabes que nos han llegado no hablan del mismo.

A la muerte de Ibn Abad de Sevilla, su hijo (Ismael ibn Abad) continuó las guerras contra el heredero del El Mansur ibn el Aftás que se llamaba Al Muzafar ibn el Aftás.

En la época del Mansur ibn el Aftás, los dos hijos de Sabur (Abdel Malik y Abdel Aziz) que fueron a Lisboa se sublevaron contra el que había destronado a su padre, pero el Mansur los venció ya que Lisboa le prefería a los herederos de Sabur; dichos hermanos murieron en sus batallas contra el hijo del Mansur. Estas luchas no fueron unas luchas personales entre reyes y gobernantes sino que más bien fué una lucha de pueblos, es decir, entre árabes y bereberes ya que Ibn Abad era árabe mientras que Ibn el Aftas era bereber. Es

muy probable que anteriormente hubiese habido luchas entre Ibn Abad de origen árabe como indicamos e Ibn Hamud de Córdoba que era bereber también porque Ibn Abad quería apoderarse de todas las tierras pertenecientes a los reyezuelos en la zona occidental de Andalucía

Le sucede su hijo Mohamed al Muzafar, que como fué muy buen gobernante fue amado por el pueblo, también fué un gran militar y conocía todas las armas que se utilizaban en su época, por la experiencia que le dio el contacto con otros ejércitos así como el tiempo que pasó prisionero.

La fama de Badajoz durante su mandato llegó a un muy alto grado, teniendo gran prestigio tanto en el aspecto cultural y científico como en el militar hasta el punto que llegó a ensombrear a Toledo y Sevilla.

En el aspecto político continuó la línea de su padre, respecto a Sevilla y su rey Ibn Abad a causa de los problemas existentes en Niebla.

Niebla fué capital cuyos habitantes tuvieron buenas relaciones con Ibn el Aftás en Badajoz. Al ser atacada Niebla por Ibn Abad, el Muzafar ibn el Aftás vino a ayudar a Abdalla Mohamed ibn yehia el Yahsubi de Niebla, y este hecho fue la causa principal de la reanudación de las hostilidades entre los reinos de Sevilla y Badajoz a pesar de los buenos deseos de Ibn Gahwar de Córdoba que se esforzó de nodadamente por establecer la paz y las buenas relaciones entre aquellos.

Estas batallas tuvieron un carácter especial y distinto a los combates normales entre enemigos ; cuando Niebla fué sitiada por

Ibn Abad los Bereberes pacenses en vez de atacar a los árabes sevillanos para obligarles a levantar el sitio de Niebla atacan directamente la metrópoli sevillana lo que obligaría a los atacantes de Niebla a volver a sus tierras para defenderlas. Estos a su vez en lugar de seguir la costumbre tradicional, se dirigen a Badajoz para atacarla y obligar a los Bereberes a correr en su defensa.

Estas guerras fueron provocadas no solo por motivos de sangre o razas sino tambien por la posesión de los reinos de Occidente andaluz : Silves, Huelva, Niebla y Santa María del Occidente. Los Bereberes no fueron muy fieles a su jefe pero a pesar de ello pudieron derrotar a las huestes de Ibn Abad en el año 1047 J.C.

Poco despues Ibn Yehia traicionó a Ibn el Aftás por lo que éste le atacó a pesar de estar comprometido en guerras con Ibn Abad lo que quiere decir que en esos momentos Ibn Yehia e Ibn Abad a pesar de sus diferencias de razas lucharon juntos contra Ibn el Aftás.

Resultado de todos estos combates fué la destrucción y el desvastamiento de Badajoz y sus alrededores por Ibn Abad aprovechando que Ibn el Aftás estaba ocupado en atacar Sevilla y Niebla. Por último volvió Ibn el Aftás y se enfrentó a Ibn Abad cerca de Evora derrotandole . Ibn Basam es el informador de todos los hechos ultimamente citados.

Ibn el Aftás fue un dictador en su mandato no aceptando consejos de nadie respecto a decisiones a tomar.

Despues de un período de tregua se reanudaron los combates; atacando Ibn Abad los reinos de Niebla y otros de la zona occidental.

En este tiempo las relaciones de Ibn el Aftás y el Mamun de Toledo no eran muy amistosas. Toledo era en aquel momento la «marca» central de el Andalus por su situación estratégica. Los gobernantes de Toledo por esa situación en el centro de la Península Ibérica pudieron atacar a sus enemigos tanto de oriente como del occidente andaluz bien fuera Zaragoza, Sevilla, o Badajoz.

Siendo gobernante, el Mamun, fué muy amado por sus subditos, Ibn el Khatib dice que estas batallas se sucedieron entre los años 443 447 H. En la mayoría de los combates el Mamun fué apoyado por Fernando I quien aumentó los ejércitos toledanos con sus propios soldados.

La derrota de Ibn el Aftás por los sevillanos fué debida a varias causas, pero la principal fué la falta de preparación de sus propios soldados, y esto a pesar de los consejos de bereberes quienes pensaban que el ejercito pacense no estaba en condiciones de enfrentarse al de Ibn Abad.

Despues de varios meses y tras la derrota Ibn el Aftás no quiso mostrar su propia debilidad por lo que contrató a bailarinas y artistas de Córdoba para festejar en su palacio como si fuese el verdadero vencedor de esas luchas.

Entre todos estos combates fratricidas también podemos destacar las luchas del Mamun con otros jefes arabes; en primer lugar citamos el deseo del Mamun de apoderarse de Cordoba ampliando asi sus territorios, pero Córdoba pertenecía entonces al sevillano Ibn Abad por lo que tuvo que enfrentarsele para poder ver cumplido su deseo. En cuanto a las luchas de El Mamun con Ibn el Aftás no hay

muchos datos aunque parece probable que hubiese enfrentamientos al Este de la ciudad de Trujillo, zona limítrofe entre las provincias de Badajoz y Sevilla,

A pesar de que en la época de El Muzafar ibn el Aftás también existían desavenencias y luchas intestinas entre los Cristianos sin embargo estos se aprovecharon del hecho de que la zona norte de Badajoz no estaba muy bien defendida para apoderarse de varios territorios y ciudades. Como ejemplo Fernando I de Castilla y León sin oposición por parte de Ibn el Aftás que consideraba inútil la defensa de las mismas por lo que no llegó ni a enfrentarse a los ejércitos cristianos.

Posteriormente Fernando I como consecuencia de estas victorias exigió un tributo a Ibn Aftás quien no quiso pagarlo por lo que Fernando mandó un ejército de diez mil hombres a Santaren, la ciudad más importante del dominio de Ibn el Aftas. El rey musulmán ante el cariz de los hechos se decidió a pactar con Fernando I y pagar el tributo que fue de cinco mil dinares.

Otro hecho importante es la entrega que hizo de Coimbra su gobernante Randah a Fernando I. Randah traicionó a su rey, Ibn el Aftas y facilitó a los cristianos la conquista de Coimbra. Ibn el Aftás enfadado por esta traición juzgó y ejecutó a Randah.

Después de la muerte de Fernando I sus herederos preocupados en asuntos internos abandonaron las luchas contra el reino de Badajoz. A la muerte de Muzafar el año cuatrocientos sesenta de la hégira le sucedieron sus hijos Omar y Yehya. Según los historiadores Yehya fue el rey de Badajoz pero con la oposición de su hermano a quien prefería el pueblo y que había recibido Evora como herencia paterna.

Consecuencia de esta división entre hermanos fue el que Omar ayudado por Ibn Abad de Sevilla ataca a Yehya a quien ayudaba el Mamun de Toledo con lo que se recrudecieron las luchas entre Toledanos y Sevillanos el territorio de Badajoz.

La pronta muerte de Yehia (muerte natural) suspendió los combates al aceptar todos a Omar como único heredero de Ibn el Aftás. Alfonso VI, sucesor de Fernando I pidió el aumento de los tributos a Yehya.

La época de Yehya fue una época triste y de poco grato recuerdo para Badajoz.

En tiempo del Motawakel ibn el Aftás los reinos de Taifas se dieron cuenta del peligro cristiano sobre todo despues de la caída de Toledo en manos de Alfonso VI e hicieron causa comun llamando en su ayuda a los Almorávides quienes sometieron a sus propios correligionarios a pesar de que llegaron en ayuda de sus hermanos. Vemos así como Ibn Abad de Sevilla es derrotado y llevado prisionero a Marruecos donde murió más tarde.

Por su parte Ibn el Aftás al ver el comportamiento de los Almorávides pidió ayuda a Alfonso VI, lo que enojo a los Norteaffricanos quienes consideraron esta unión como una traición por lo que atacaron a Ibn el Aftás y lo mataron. Todos estos hechos principales tuvieron su origen en acontecimientos internos ocurridos en Toledo. Vemos como Ibn el Aftás es llamado por los Toledanos para que los gobierne, mandato que duró solamente diez meses porque la ciudad cayó pronto en manos de Alfonso VI quien de tiempo anterior conocía esta zona a fondo y pudo atacar mas facilmente a Toledo y apoderarse de ella.

Así Ibn el Aftás se vió obligado a retirarse a sus dominios de Badajoz. la idea de Ibn el Aftás cuando aceptó la invitación de los Tóledanos para apoderarse de esta ciudad fue el temor que tenía al ver como Alfonso VI había tomado Coria fácilmente desde donde iría a Badajoz casi sin oposición, mientras que al tener que tomar Toledo que él mismo defendría le sería a Alfonso más difícil ya que tendría que vencerlo dos veces, primero en Toledo y luego en Badajoz.

Tras la toma de Coria, Alfonso amenazó por carta a Ibn el Aftás quien le contestó altivamente pidiendo al mismo tiempo ayuda a los Almorávides y mandando enviados a otros reinos de Taifas para que se uniesen contra Alfonso.

En ese mismo tiempo los Almorávides fueron solicitados no solamente por Ibn el Aftas sino también por Ibn Abad y otros como Ibn Ziri de Granada.

Como respuesta a todas estas llamadas los Almorávides pasan al Andalus y derrotan a Alfonso VI en Sagrajas. Estaba Sagrajas situada en la zona norte de Badajoz y allí se enfrentaron los ejércitos musulmanes y cristianos, y aunque estos eran mucho más numerosos que aquellos y llevaron ventaja al comienzo de la batalla, el final fué victorioso para los soldados de la Media Luna.

Tras la batalla, el jefe almorávide Ibn Tasfin regresó a Marruecos pero las divergencias de sus correligionarios del Andalus le hicieron pensar en la conveniencia de volver otra vez, sometiendoles a todos y enfrentándose a los Cristianos como jefe único del Islam Andalus.

Algunos historiadores creen que la idea de Ibn Tasfin no era solo el defender a sus hermanos de religión contra el cristianismo, sino que pensó también en el hecho de apoderarse del Andalus como uno de los territorios que era incluso más rico que su propio reino.

(3)

BADAJOS BAJO LOS ALMORAVIDES

Volviendo a Badajoz, y según dice Fernando Valdés, si Ibn el Attás no hubiese pedido la ayuda o se hubiese aliado a Alfonso VI los Almorávides no habrían tomado la ciudad tan fácilmente ya que los habitantes de Badajoz se enfadaron al ver la alianza de este con los Cristianos y facilitaron a los Almorávidessu entrada en la ciudad. Ibn el Aftas y su familia no pudieron escaparse a la muerte porque se encerraron en la Alcazaba de Badajoz, esperando la ayuda de Alfonso y como ésta no llegó los Almorávides la mataron.

Pero porqué mataron los Almorávides a Ibn el Aftas y no mataron a otros reyes de Taifas ? Según la opinión del historiador alemán Ashbaj las relaciones Ibn el Aftas - Almorávides no fueron nunca leales ya que a veces a pesar de aliarse para luchar contra los Cristianos en otras ocasiones Ibn el Aftás los traicionaba a sus espaldas firmando tratados de mutua ayuda con Alfonso VI, lo que no era del agrado de los Almorávides y luchando contra sus propios correligionarios los Almorávides, por eso se enfadaron mucho y decidieron finalmente matarle.

La muerte de Ibn el Aftás, se produjo utilizando los Almorávides el engaño ya que la vez que encerrado en la Alcazaba pacense fingie-

ron una amistad y le propusieron un viaje a Sevilla. Al emprender dicho viaje a las puertas mismas de Badajoz dos de los hijos de Ibn el Attás fueron decapitados en su presencia y mientras Ibn el Aftas rezaba ante ellos fue decapitado. De esta matanza se salvó solamente su hijo Mansur ibn el Aftas quien al no hallarse presente en Badajoz en ese momento se puso al servicio de Alfonso VI convirtiéndose mas tarde al Cristianismo.

Badajoz tras su caída en manos de los Almorávides se convirtió en una fortaleza de las mas importantes es decir una auténtica base militar fronteriza desde donde se podian lanzar ataques al enemigo cristiano viendo así como en el año 504 H. el capitan Sir Ibn Abi Bakr atacó el reino de Portugal.

Por estas razones estratégicas Ibn Tasfin se preocupó por dotarla y avituallarla militarmente.

Los Almorávides demostraron mucha actividad militar durante la jefatura de Tasfin ibn Ali quien pudo lograr una gran victoria en una segunda Sagrías cerca de Badajoz, ahora contra los Portugueses.

En esta época los habitantes del oeste andaluz sufrieron mucho con toda esta serie de luchas entre Musulmanes y Cristianos por lo que al cabo de algún tiempo hubo revoluciones que se extendieron a todo el Andalus. Destacamos a Ibn Kasi el Muladí que empezó su revolución en Silves, Mértola, Niebla y Badajoz, y su amigo Sidray ibn Wazir fue gobernador de Evora y pudo gobernar Badajoz por un poco de tiempo.

Estas revoluciones tuvieron un caracter nacionalista. Cansados los

Andaluzes del dominio almorávide, pidieron ayuda a los Almohades.

Los Almohades vinieron a Badajoz como libertadores pero en realidad se convirtieron en los nuevos señores de la capital por lo que Ibn El Hagam se levantó contra ellos pero pronto fue sometido y mandó regalos al Califa Abdel Mu'men. En la época del Badajoz almohade, los reinos cristianos se fortalecen y hacen una gran presión contra Badajoz siendo Portugal el mas fuerte de los reinos cristianos. Badajoz cae en mano de los almohades el año 545H.

(4)

BADAJÓZ BAJO LA DOMINACION ALMOHADE

El Califa almohade Abdel Mu'men quiso, en su segunda excursión a España, según el historiador árabe Ibn Saheb el Sala, aconsejado por sus altos jefes militares, dividir todos sus ejércitos en cuatro grandes cuerpos con cada uno de ellos atacar a reinos cristianos diferentes : Toledo, Barcelona, Ciudad Rodrigo y Coimbra. Nos vamos a referir principalmente a este último ya que es el que afecta mas directamente a nuestro trabajo.

El Califa lanza sus tropas contra el reino portugués, porque quería castigar a Alfonso Enriquez quien habia atacado en diversas ocasiones, a Lisboa, habiendola saqueado y entregado a los obispos, ayudado a veces incluso por Alemanes e Ingleses. En estos dias la mezquita lisboeta fue convertida en Catedral. También el rey Alfonso Enriquez habia ocupado Santaren y despues Alcacer do Sal en el año 1160 J.C.

Estos ataques se efectuaban a veces por mar y otras veces por

tierra. Posteriormente los Cristianos de Santaren atacaron y devastaron la tierra de Beja.

Todos los deseos del Califa almohade no pudieron verse cumplidos por su prematura muerte. Le sucedió su hijo Abu Yacoub Youssef quien tenia otras luchas con los Cristianos.

Estos días y en estos combates destaca la figura del mercenario portugués Giraldo Simpavor quien a sueldo de Alfonso Enriquez sometió muchas ciudades musulmanas : Trujillo, Evora, Caceres, Montanchez, Jurumenha y Serpa. Este guerrero valeroso mostraba a sus propios soldados como vencer al enemigo. Dicen los historiadores árabes que cuando se encontraba ante cualquier ciudad amurallada, lo primero que hacía era sorprender a los guardianes tras haber subido a la muralla por medio de escaleras y despues de matar a los propios guardianes abría las puertas de la ciudad para que sus tropas emboscadas en las cercanías entrasen con facilidad pudiendo así matar a los habitantes y saquear la ciudad. Todas estas ciudades tomadas una tras otra fueron el eslabon que conducia a Badajoz la cual tambien cayó en sus manos.

Los habitantes de Badajoz que esperaban la ayuda del norte de África no recibieron esta ayuda del Sur sino que la recibieron de la parte septentrional de la península iberica. Concretamente Fernando II queriendo atacar a Alfonso Enriquez pensó en liberar con la esperanza de quedarse con ella en el futuro la ciudad de Badajoz, con manos del caballero portugués Giraldo y efectivamente le venció. En este combate resultó herido Alfonso Enriquez quien posteriormente fue hecho prisionero por el rey leonés aunque solo fué por poco

tiempo. Tras la curación de Alfonso Enríquez fue liberado por el propio Fernando lo que permitió a aquel volver a sus territorios. Fernando dejó también Badajoz a sus primitivos dueños los musulmanes almohades ya que estos eran sus aliados en algunas luchas que el leonés sostuvo contra otros reyes cristianos.

Dentro de las construcciones y los trabajos realizados por Yehia, el gobernador de Badajoz nombrado por el Califa almohade destacan el pozo protegido por un «coracha» que mandó construir dentro de la Alcazaba con la finalidad de que si la ciudad fuese sitiada de nuevo sus habitantes no padeciesen el tormento de la sed.

Estos días continuaron las actividades militares del caballero Giraldo Simpavor quien en una ocasión derrotó a Yehya gobernador de Badajoz, haciéndole creer que se retiraban, y cogiéndolo después en una emboscada. También Giraldo apresó a una expedición de socorro y avituallamiento procedente del Marruecos almohade tras el hambre que padeció Badajoz al ocurrir un terremoto que devastó algunas ciudades del Andalus Occidental.

El año 1170 J.C. murió Yehya, gobernador de Badajoz, como consecuencia de las heridas sufridas en una batalla contra los Cristianos quienes esos días se mostraron muy activos en el aspecto militar.

Consecuencia de estos combates fue el hecho de la venida a España de otro contingente de tropas almohades al frente del hermano mismo del Califa, quien no pudo venir por estar enfermo. Abu Said con todos los jefes y grandes personajes de los taifas andaluzes decidió defender Badajoz del peligro que suponía la proximidad de Giraldo y se puso de acuerdo con Fernando II quien también quería proteger Badajoz contra el peligro portugués para apropiarse de ella.

Los últimos acontecimientos de estos días nos muestran como el mercenario Giraldo ofrece sus servicios al Califa almohade quien en principio le aceptó pero al ver y descubrir que Giraldo seguía en contacto con Alfonso Enriquez lo encarceló y mandó matarlo. Los almohades atacaron la ciudad de Santaren pero fueron derrotados por Alfonso Enriquez y en esa batalla murió el Califa almohade Abu Yacoub Yousof.

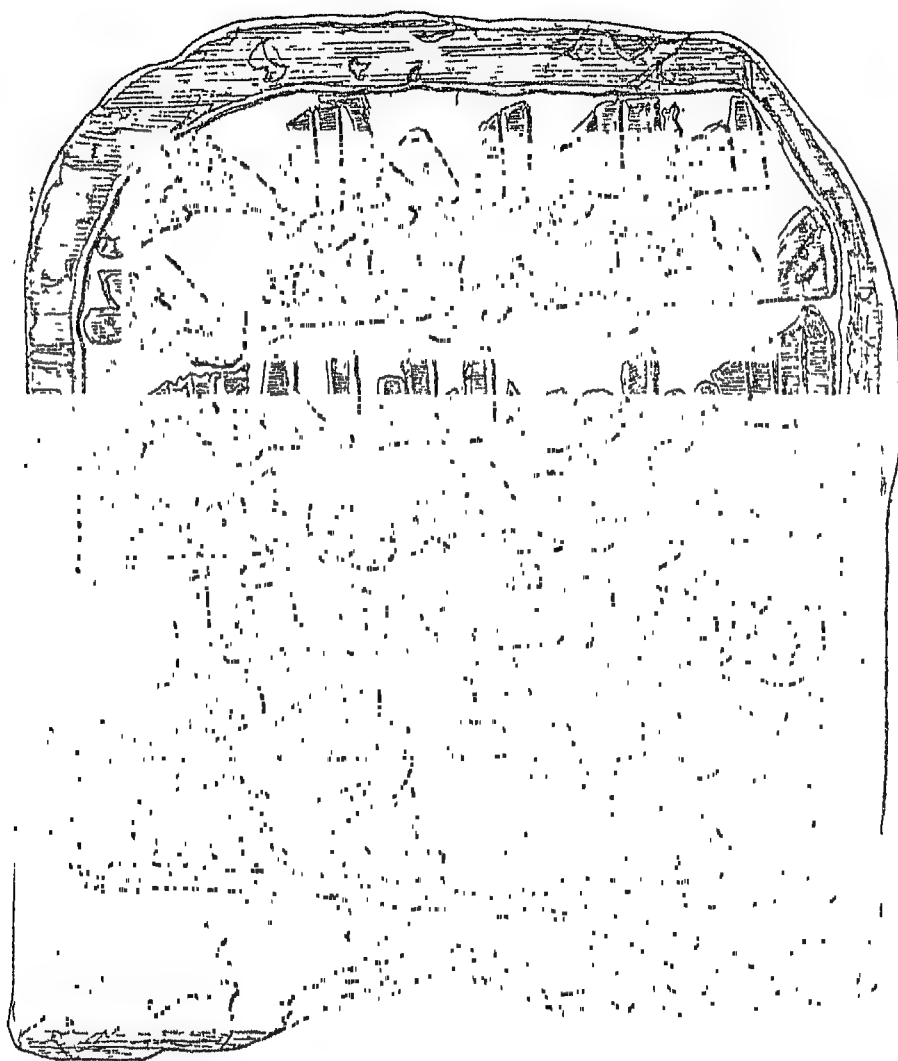
En el reinado de Almanzor las tropas almohades lograron una gran victoria en el año 591. H.

Se comprometió a liberar todas las ciudades del Algarbe ocupadas por los Portugueses pero después de su muerte y sobre todo de la fatal derrota de Las Navas de Tolosa y las divergencias entre los principes almohades en torno del trono, los Almohades del Algarbe se debilitaron hasta el punto de dejar a los Portugueses, Castellanos y Leoneses devastar los territorios musulmanes y así la Reconquista empezó a tener una etapa decisiva.

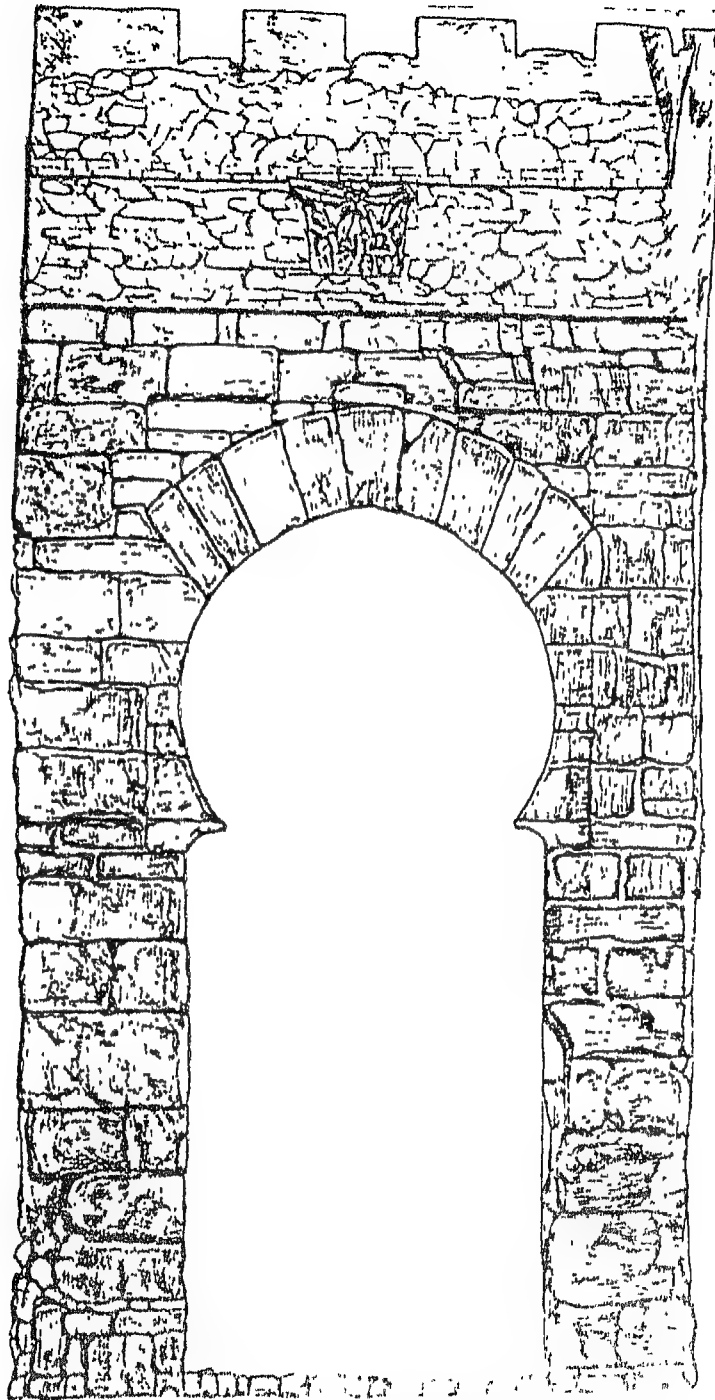
Badajoz cayó en manos del rey Alfonso IX rey de León el año 1230 J.C. (627 H.). Con su caída termina una página gloriosa en la historia del al - Andalus.

مدينة بطيخس القوية والمدريسة الحريسة

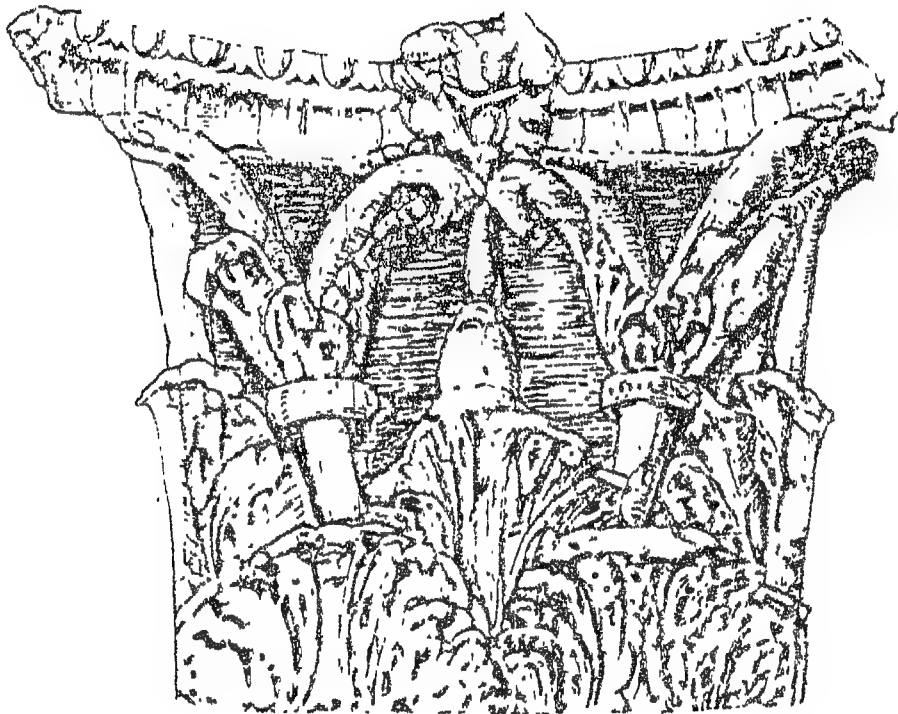




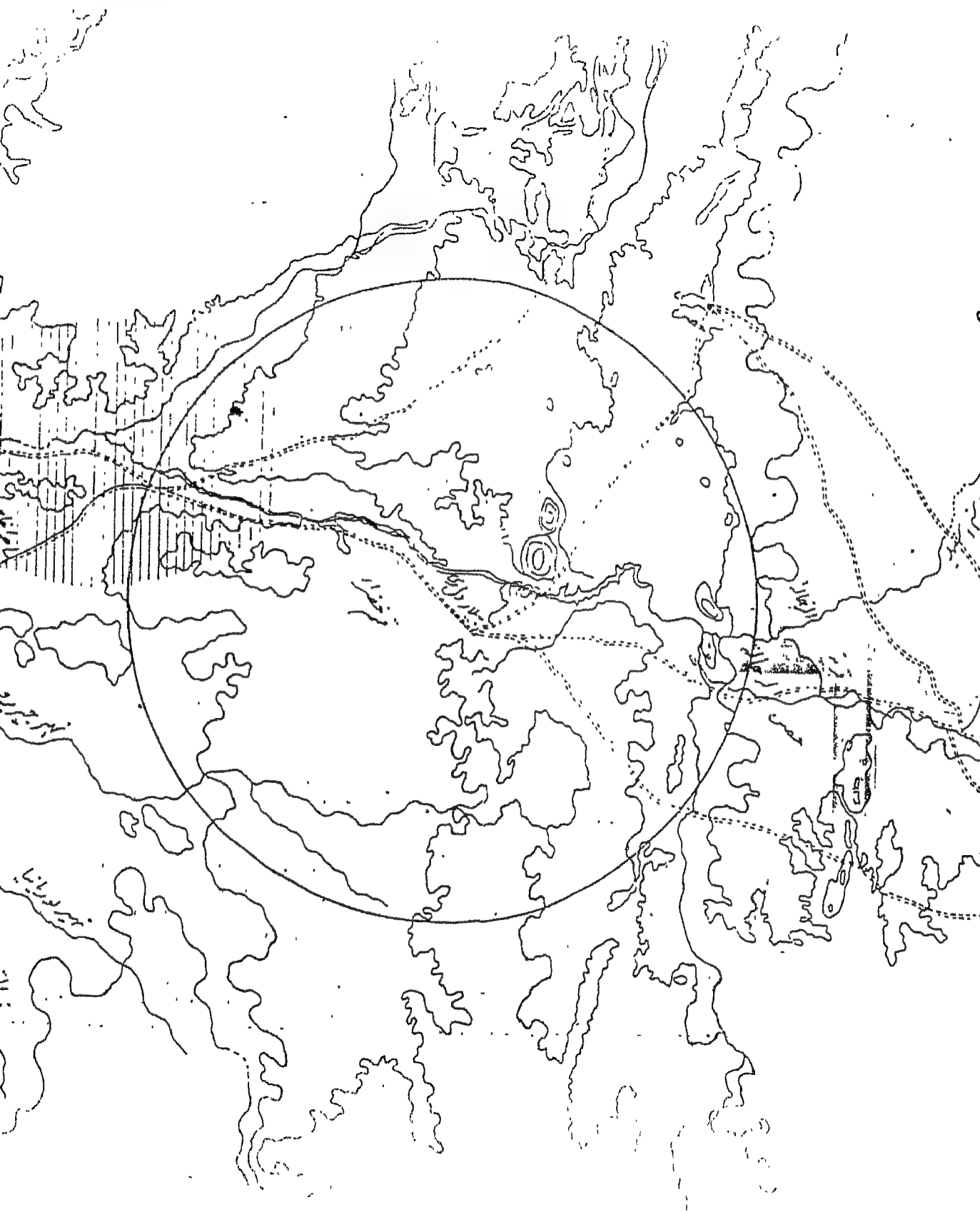
شاهد قبر مابور العامري الحاجب المتوفى ٤١٣ هـ



(Elevation)
 الارتفاع من الخارج

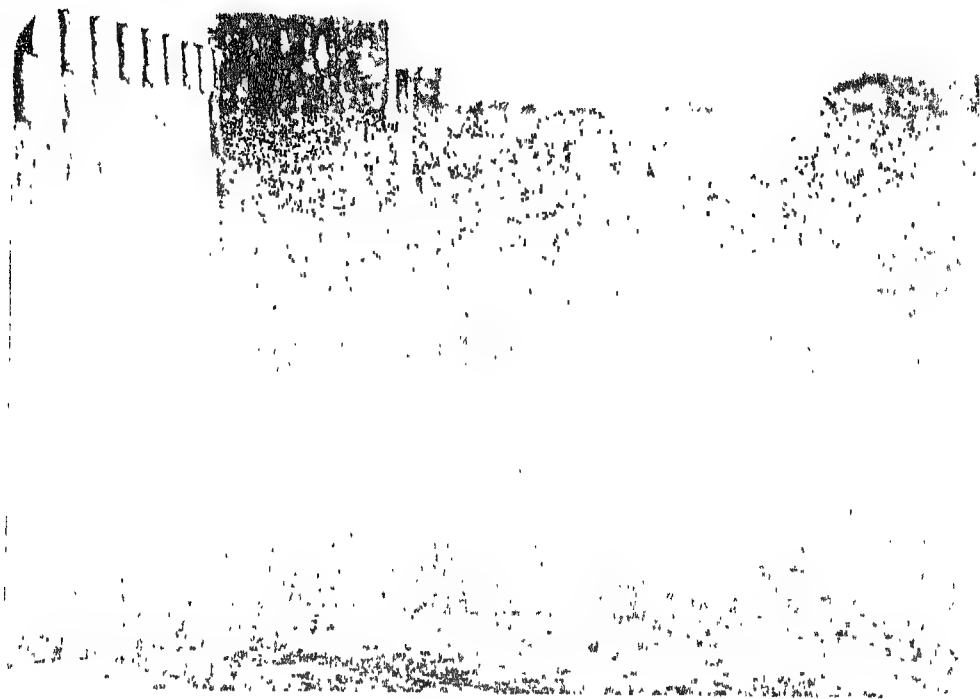


التاج المثبت بأعلى باب التاج





الطالبة مع الدكتور فرناندو بالوث رئيس البعثة الأثرية ببطلوس
أمام إحدى المجسات بالقصبة



جانب من سور القديسة وتشاهد قورجة متفرعة من السور
تنحدر نحو وادي يانعة



الموقع الذي دارت فيه موقعة الزلاقة ببطحاء بطليوس

محتويات الجزء الثانى

الفصل الرابع

الموضوع	رقم الصفحة
بطلبيوس فى عصر المتوكل على الله عمر بن الاقطس	
(١) مرحلة الانتقال من المظفر الى المتوكل ٩	
(٢) المرحلة الاولى من عصر المتوكل (٤٧٢ هـ - ٤٧٣ هـ) ١٧	
(٣) المرحلة الثانية من عصر المتوكل (٤٧٣ - ٤٧٩) ٣١	
(٤) اطماع الفونسو السادس فى مملكتى بطلبيوس واشبيلية ٣٧	
(٥) هزيمة الفونسو السادس فى الزلاقة من بطلبيوس ٥٤	
(٦) تحقيق موقع الزلاقة من اراضى بطلبيوس (ساجراخاس) ٩٧	
(٧) نهاية بنى الاقطس اصحاب بطلبيوس ١٠٩	

الباب الثالث

بطلبيوس منذ دخولها فى فلك دولة المرابطين فى عام ٤٨٨ هـ
(٩٥٠ م) حتى سقوطها فى ايدى الليونيين عام ٢٢٧ هـ (١٢٣٠ م)

الفصل الخامس

بطلبيوس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين

(١) بطلبيوس فى عهد على بن يوسف ١٤١	
(٢) الثورة فى غرب الاندلس وانهايار سلطان المرابطين ١٦٧	
(٣) بطلبيوس فى عهد عبد المؤمن بن على وابنه يوسف ١٨٩	
(٤) بطلبيوس فى عهد الخليفة ابنى يوسف يعقوب المنصور ٢٣٦	
(٥) بطلبيوس فى عهد خلفاء المنصور ٢٥٢	
(٦) سقوط بطلبيوس فى ايدى الليونيين سنة ٢٢٧ هـ (١٢٣٠ م) ٢٦٢	

الموضوع رقم الصفحة

الخاتمة ٢٧٩

ملاحق الرسالة

الملحق الاول - عرض تاريخي موجز للممالك المسيحية في شبه

جزيرة. أيبيريا التي لها اتصال مباشر بغرب

الاندلس ٢٩٣

الملحق الثاني - نص الرسالة الموجهة من المتوكل على الله عمر

بن الأفطس إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ٣٧٩

الملحق الثالث - نص الرسالة الموجهة من المتوكل على الله عمر

بن الأفطس إلى الفونسو السادس ملك قشتالة ٣٨١

الملحق الرابع - ثبت بأسماء الاعلام الجغرافية والمواضع الوارد

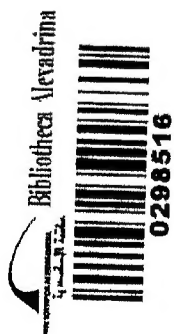
ذكرها في الرسالة ٣٨٣

قائمة المصادر والمراجع الحديثة ٣٨٩

موجز الرسالة باللغة الاسبانية ٤١٣

فهرس الصور، والخرائط، والرسوم التوضيحية ٤٣٣

تم بحمد الله



مطبعة **الانتصار**
ELENTASOR PRESS غلاف
١ شارع السوردي كوروا السكة ب ٤١١٥٩٧ اسكندرية